

زُبْدَةُ الْتَفَاسِيرِ

تأليف

المولانا فتح الدين محمد بن عبد الله الشيرازي الكاشغري

المتوفى سنة ٩٩٨ هـ

الجزء السادس

تحقيق ونشر

مركز البحوث والدراسات الإسلامية

زبدة التفاسير

تأليف

المولى فتح الله بن شكر الله الشريف الكاشاني رحمته الله

المتوفى سنة ٩٨٨ هـ . ق

الجزء السادس



تحقيق ونشر

مؤسسة المعارف الإسلامية

کاشانی، فتح الله بن شکر الله، ۹۸۸ ق.

زبدة التفاسیر / تألیف فتح الله بن شکر الله الکاشانی الشریف : تحقیق مؤسسه المعارف الاسلامیة - [ویرایش ۲۲] - قم : مؤسسه المعارف الاسلامیة، ۱۴۲۳ ق - ۱۳۸۱.

ج ۷ . ISBN : 964 - 7777 - 02 - 5 (دوره)

ISBN : 964 - 7777 - 03 - 7 (ج ۱)

ISBN : 964 - 7777 - 04 - 3 (ج ۲)

ISBN : 964 - 7777 - 05 - 1 (ج ۳)

ISBN : 964 - 7777 - 06 - x (ج ۴)

ISBN : 964 - 7777 - 07 - 8 (ج ۵)

ISBN : 964 - 7777 - 08 - 6 (ج ۶)

ISBN : 964 - 7777 - 09 - 4 (ج ۷)

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیما . عربی - کتابنامه .

۱ . تفاسیر شیعه - قرن ۱۰ ق . الف . بنیاد معارف اسلامی . ب . عنوان .

۱۳۸۱

۲۹۷ / ۱۷۲۶

BP ۹۶ ۲۷

م ۸۱ - ۲۶۵۴۳

کتابخانه ملی ایران



۱۴۲

هویة الكتاب :

- إسم الكتاب : زبدة التفاسیر / ج ۶ .
تألیف : المآ فتح الله الکاشانی .
تحقیق و نشر : مؤسسه المعارف الاسلامیة .
الطبعة : الأولى ۱۴۲۳ هـ . ق .
الطبعة : عترت .
العدد : ۲۰۰۰ نسخة .

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لمؤسسة المعارف الإسلامية

ایران - قم المقدسة

ص . ب ۷۶۸ / ۳۷۱۸۵ تلفون ۷۷۳۲۰۰۹ - فاکس ۷۷۴۳۷۰۱

E - mail : m_islamic@aYna.com



مَكِّيَّة. وهي ثمان وثمانون آية. عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة ص أعطي من الأجر بوزن كل جبل سخره الله لداود حسناً، وعصمه الله أن يصرَّ على ذنب، صغيراً أو كبيراً».

وروى العياشي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ سورة ص في ليلة الجمعة، أعطي من خير الدنيا والآخرة، ما لم يعط أحد من الناس، إلا نبي مرسل أو ملك مقرب، وأدخله الله الجنة، وكل من أحب من أهل بيته، حتى خادمه الذي يخدمه، وإن كان ليس في حد عياله، ولا في حد من يشفع له».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾
كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجَبُوا أَنْ
جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ
إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴿٥﴾

واعلم أن الله سبحانه لما ختم سورة الصافات بذكر القرآن والرسول ﷺ، وإنكار الكفار لما دعاهم إليه، افتتح هذه السورة بالقرآن ذي الذكر، والرد عليهم أيضاً، فقال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ص﴾ قد ذكر في أول سورة البقرة أن إيراد حروف التهجي في أوائل السور على سبيل التحدي والتنبية على الإعجاز. ثم أتبعه القسم محذوف الجواب، لدلالة التحدي عليه. كأنه قال: ﴿وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ﴾ إنه للكلام معجز. ويجوز أن تكون «ص» خبر مبتدأ محذوف، على أنها اسم للسورة، كأنه قال: هذه ص. يعني: هذه السورة التي أعجزت العرب، والقرآن ذي الذكر. كما تقول: هذا حاتم والله، تريد: هذا هو المشهور بالسخاء والله. وكذلك إذا أقسم بها، كأنه قال: أقسمت بصاد والقرآن ذي الذكر إنه لمعجز. وإذا جعلتها مقسماً بها، وعظفت عليها: «والقرآن ذي الذكر» جاز لك أن تريد بالقرآن التنزيل كله، وأن تريد السورة بعينها، ومعناه: أقسم بالسورة الشريفة، والقرآن ذي الذكر. كما تقول: مررت بالرجل الكريم، وبالنسمة المباركة، ولا تريد بالنسمة غير الرجل.

وقيل: «صاد» رمز لصدق محمد. و«الذكر» الشرف والشهرة، كقولك: فلان مذكور. أو الذكري والموعظة. أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع وغيرها، كأقاصيص الأنبياء، والوعد والوعيد.

وما كفر به من كفر ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: كفروا به ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أي: استكبار عن قبول الحق ﴿وَشِقَاقٍ﴾ خلاف لله ورسوله، ولذلك كفروا به. والتنكير فيها للدلالة على شدتهما.

ثم أوعدهم على كفرهم بالقرآن استكباراً وشقاقاً ﴿كَمْ أَمْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا﴾ استغاثة، أو توبة، أو استغفاراً ﴿وَلَاتَ جِثْنَ مَنَاصٍ﴾ أي: وليس الحين حين مناص. و«لا» هي المشبهة بـ«ليس» زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد، كما

زيدت على «رب» و«ثم». وتغيرت بزيادة التاء حكم «لا»، حيث لم تدخل إلا على الأحيان. ولم يبرز إلا اسمها أو خبرها، وامتنع بروزهما جميعاً.

وقيل: هي النافية للجنس، أي: ولا حين مناص لهم. وقيل: للفعل، والنصب بإضماره، أي: ولا أرى حين مناص. وتقف الكوفية على التاء بالهاء كالأسماء، والبصرية بالتاء كالأفعال.

وقيل: إن التاء مزيدة على «حين» لاتصالها به في الإمام. والمناص: الملجأ. من: ناصه ينوصه إذا فاته.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ بشر مثلهم، أو أتى من عدادهم ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير إظهاراً للغضب عليهم وذماً لهم، وإشعاراً بأن توغّلهم في الكفر وانهماكهم في الغي جرّهم على هذا القول ﴿هَذَا سَاجِرٌ﴾ فيما يظهره معجزة ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما تقوله على الله. وهل ترى كفراً أعظم وجهلاً أبلغ من أن يستموا من صدّقه الله بوحيه كاذباً، ويتعجبوا من التوحيد، وهو الحق الذي لا يصحّ غيره، ولا يتعجبوا من الشرك، وهو الباطل الذي لا وجه لصحّته أصلاً؟!

ثم يبنوا تقوله بقولهم: ﴿اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ بأن جعل الألوهية التي كانت لآلهتنا لواحد. وذلك أنه ﷺ أبطل عبادة ما كانوا يعبدونه من الآلهة مع الله، ودعاهم إلى عبادة الله وحده. فتعجبوا من ذلك، وقالوا: كيف جعل لنا إلهاً واحداً بعدما كنّا نعبد آلهة؟

روي: أن عمر بن الخطاب لما أظهر الإسلام شقّ على قريش وبلغ منهم، فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم، منهم: الوليد بن المغيرة، وهو أكبرهم، وأبو جهل، وأبيّ وأمّية ابنا خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والنضر بن الحارث، وأتوا عند أبي طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء، يريدون: الذين دخلوا في الإسلام، وجئناك لتقضي بيننا

وبين ابن أخيك .

فاستحضر أبو طالب رسول الله وقال : يا بن أخي هؤلاء قومك يسألونك
السواء ، فلا تمل كل الميل على قومك .

فقال ﷺ : ماذا يسألونني ؟

قالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا ندعك وإلهك .

فقال ﷺ : رأيتم إن أعطيتكم ما سألتهم ، أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون
بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟

قالوا : نعم وعشراً ، أي : نعطيكها وعشر كلمات معها .

فقال : قولوا لا إله إلا الله .

فقاموا وقالوا : «أجعل الآلهة إلهاً واحداً» ﴿إِنَّ هَذَا﴾ هذا الذي يقوله محمد
من أن الإله واحد ﴿لَشَيْءٍ عَجَابٍ﴾ بليغ في العجب ، فإنه خلاف ما أطبق عليه
آباؤنا وما نشاهده ، من أن الواحد لا يفي علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة .

روي : أن رسول الله ﷺ استعبر ثم قال : «يا عمّ والله لو وضعت الشمس في
يميني ، والقمر في شمالي ، ما تركت هذا القول حتى أنفذه ، أو أقتل دونه» . فقال له
أبو طالب : امض لأمرك ، فوالله لا أخذك أبداً .

وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَنْزَلَ
عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾

﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أشرف قريش من مجلس أبي طالب بعد ما بكّتهم

رسول الله ﷺ، وسمعوا ما قال أبو طالب، قائلين بعضهم لبعض: ﴿أَنِ امْشُوا﴾ اخرجوا من هذا المجلس ﴿وَاصْبِرُوا﴾ واثبتوا ﴿عَلَى إِلَهَتِكُمْ﴾ على عبادتها، وتحملوا المشاق لأجلها، فإنه لا حيلة لكم في دفع أمر محمد. و«أن» هي المفسرة، لأن الانطلاق عن مجلس التناول يشعر بالقول.

وقيل: المراد بالانطلاق الاندفاع في القول. «وامشوا» من: مشت المرأة إذا كثرت أولادها. ومنه: الماشية، أي: اكثروا واجتمعوا للتقوى.

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ﴾ هذا الأمر الذي نراه - من زيادة أصحاب محمد - من نوائب الزمان يراد بنا، فلا مرد له، ولا انفكاك لنا منه. أو إن هذا الذي يدعيه من التوحيد، أو يقصده من الرئاسة والترفع على العرب والعجم، لشيء يتمنى، أو يريده كل أحد. أو إن دينكم يطلب ليؤخذ منكم.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ الذي يدعوننا إليه محمد من التوحيد وخلع الأنداد من الله ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ في الملة التي أدركنا عليها آبائنا، أو في ملة عيسى التي هي آخر الملل، فإن النصارى يثلثون ولا يوحّدون. ويجوز أن يكون حالاً من «هذا»، ولا يتعلق بـ«ما سمعنا». والمعنى: أنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهّان أنه يحدث التوحيد في الملة الآخرة. ﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما هذا الذي يقوله محمد ﴿إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾ كذب اختلقه.

ثم أنكروا أن يختص ﷺ بشرف النبوة والوحي من بين رؤسائهم، وينزل عليه الكتاب دونهم، وهو مثلهم أو أدون منهم في الشرف والرئاسة، فقالوا:

﴿أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِن بَيْنِنَا﴾ أي: كيف أنزل على محمد القرآن من بيننا، وليس بأكبر سناً منا، ولا بأعظم شرفاً؟ وهذا دليل على أن مبدأ تكذيبهم لم يكن إلا الحسد، وقصور النظر على الحطام الدنيوي. وقرأ قالون بمد الأولى وتلين الثانية شبه واو. وكذلك ابن كثير وأبو عمرو، إلا أنهم يقصرونها.

ثم ردّ الله عليهم قولهم بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ من القرآن أو الوحي، لميلهم إلى التقليد، وإعراضهم عن الدليل. وليس في عقيدتهم ما يبتون به من قولهم: «هذا ساحر كذاب» «إن هذا إلّا اختلاق».

ثم هدّدهم بقوله: ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ عذابي بعد، فإذا ذاقوه زال شكهم. والمراد: أنهم لا يصدّقون بالقرآن حتّى يمسه العذاب فيلجئهم إلى تصديقه.

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مَلَائِكٌ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مِمَّا هُنَا
مَهُزُّومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ
﴿١٢﴾ وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلُّ
إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا
لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾

ثم أجابهم عن إنكارهم نبوته ﷺ بقوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ بل أعندهم خزائن رحمته وفي تصرفهم حتّى يصيبوا بها من شاءوا، ويصرفوها عن شاءوا، فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم، ويرفعوا بها عن محمد ﷺ؟ وليس الأمر كذلك، فإن النبوة عطية من الله يتفضّل بها على من يشاء من عباده، لا مانع له. ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يغلب ﴿الْوَهَّابِ﴾ الذي له أن يهب كلّ ما شاء على حسب المصالح، فيختار للنبوة من يشاء من عباده. ونظيره قوله: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ

عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَيَّ الْعَالَمِينَ^(١).

ولما أنكر عليهم التصرف في نبوته، بأن ليس عندهم خزائن رحمته التي لا نهاية لها، أردف ترشيحاً لهذا المعنى ﴿أَمْ لَهُمْ ثَلَاثُ مُلْكٍ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ليس لهم مدخل في أمر هذا العالم الجسماني الذي هو جزء يسير من خزائنه، فمن أين لهم أن يتصرفوا فيها؟

ثم تهكم بهم غاية التهكم، فقال: إن كان لهم ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستوا عليه، ويدبروا أمر العالم، فينزلوا الوحي إلى من يستصوبون. والسبب في الأصل هو الوصلة. وقيل: المراد بالأسباب السماوات، لأنها أسباب الحوادث السفلية.

ثم استصغروهم واستحقروهم عن هذا الأمر الجليل والخطب العظيم، فقال: ﴿جُنْدًا مَا﴾ «ما» مزيدة للتقليل، كقولك: أكلت شيئاً ما، أي: هم جند قليل حقير جداً ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول. أو إشارة إلى مصارعهم ببدر. ﴿مَهْزُومٌ﴾ مكسور عما قريب ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ من الكفار المتحزبين على الرسل، وأنت منصور عليهم مظفر غالب، فمن أين لهم التدابير الإلهية والتصرف في الأمور الربانية؟ فلا تبال بما يقولون.

ثم هددهم باستئصال الأحزاب المكذبين المعاندين في سالف زمانهم، فقال: ﴿كَذَّبْتَ قَبْلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء الكفار ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَارِ﴾ ذو الملك الثابت بالأوتاد، كقوله:

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظلّ ملك ثابت الأوتاد

مأخوذ من ثبات البيت المطّيب بأوتاده. أو ذو الجموع الكثيرة. سموا بذلك لأنهم يشدون ملكه، ويقرون أمره. أو لأن بعضهم يشد بعضاً، كالوئد يشد البناء. أو

لكثرة أوتاد خيامهم.

وقيل: نصب أربع سوار، وكان يمدّ يدي المعذب ورجليه إليها، ويضرب عليها أوتاداً، ويتركه حتى يموت.
وقيل: كان يمدّه بين أربعة أوتاد في الأرض، ويرسل عليه الحيات والعقارب.

وعن ابن عباس وقتادة وعطاء: أنه كانت له ملاعب من أوتاد يلعب له عليها. **﴿وَتُمَوَّدُ﴾** وهم قوم صالح **﴿وَقَوْمٌ لُوطٌ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾** وأصحاب الغيضة^(١). وهم قوم شعيب. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: ليكة.
ولما ذكر هؤلاء المكذّبين، أعلمنا أن مشركي قريش حزب من هؤلاء الأحزاب، فقال: **﴿أُولَئِكَ﴾** أي: أولئك المكذّبون المعاندون **﴿الْأَحْزَابِ﴾** هم المتحزّبون على الرسل الذين جعل الجند المهزوم منهم.

ثم صرّح بما أسند إليهم من التكذيب على الإبهام، فقال على أبلغ تأكيد: **﴿إِنْ كُلٌّ﴾** ما كل واحد من الأحزاب **﴿إِلَّا كَذَّبَ الرَّسْلَ﴾** كذب جميع الرسل، لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوهم جميعاً. ويجوز أن يكون ذلك مقابلة الجمع بالجمع تسجيلاً. وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه، والتنويع في تكريره بالجملة خبريّة أولاً، وبالاستثنائية ثانياً، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص، أنواع من المبالغة المسجلة عليهم، باستحقاق أشدّ العقاب وأبلغه. ولذلك رتب عليه **﴿فَحَقَّ عِقَابٌ﴾** أي: فوجب أن أعاقبهم حقّ عقابهم.

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ﴾ أي: وما ينتظر قومك أو الأحزاب، فإنهم كالحاضرين، لاستحضارهم بالذكر، أو حضورهم في علم الله **﴿إِلَّا صَنِيعَةٌ وَاحِدَةٌ﴾** هي النفخة الأولى **﴿مَا لَهَا مِنْ قَوَاقٍ﴾** من توقّف مقدار فواق. وهو ما بين جلستي الحالب

(١) الغيضة: الأجمة، ومجتمع الشجر في مغيض الماء.

ورضعني الراضع. يعني: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١).

وعن ابن عباس: ما لها من رجوع وترداد. من: أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة. وفواق الناقة ساعة يرجع اللبن إلى الضرع. يريد: أنها نفخة واحدة فحسب، لا تثني ولا تردّد. وقرأ حمزة والكسائي بالضمّ. وهما لغتان.

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْلًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

روي: أنه لما نزل ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ... وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾^(٢)، قالت قريش: زعمت يا محمد أننا نوتى كتابنا بشمالنا، فعجل لنا كتبنا التي نقرؤها في الآخرة، استهزاء منهم بهذا الوعيد وتكديماً به. فنزلت:

﴿وَقَالُوا﴾ وقال هؤلاء الكفار: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْلًا﴾ قسطنا من العذاب الذي توعدنا به. أو الجنة التي تعدها للمؤمنين. وهو من: قطه إذا قطعه. فسّتي القسط القطّ، لأنّه قطعة من الشيء. ومنه قطّ الصحيفة الجائزة، لأنّه قطعة من القرطاس. وقد فسّر بهما، أي: عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها. ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

(١) الأعراف: ٣٤.

(٢) الحاقة: ١٩ و ٢٥.

ولمّا كانوا استعجلوا ذلك استهزاءً قال: ﴿اضْمِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبك، فإنّ وبال ذلك يعود عليهم ﴿وَأَنْتُمْ عِبْدُنَا دَاوُدَ﴾ واذكر لهم قصّة داود، تعظيماً للمعصية في أعينهم، فإنّه مع علوّ شأنه واختصاصه بعهائمه النعم والمكرّمات، وكمال زلفته عند الله سبحانه، لمّا زلّ زلّة من ترك الأولى، وبخه الملائكة بالتمثيل والتعريض حتّى تظنّ فاستغفر ربّه وأناب، ووجد منه ما يحكي عن بكائه الدائم وغمّه الواصب^(١)، ولا يزال مجدّداً للندم عليها، فما الظنّ بكم مع كفركم وفرط معاصيكم؟! أو تذكر قصّته، وصن نفسك أن تزلّ فيما كلّفت من مصابريهم وتحمل أذاهم، فيلقاك ما لقيه من المعاتبة على إهماله.

﴿ذَا الْأَيْدِي﴾ ذا القوّة في الدين والعبادة. يقال: رجل أيد وذو أيد وأياد، بمعنى ما يتقوّى به. وروى: أنّه يقوم نصف الليل، ويصوم نصف الدهر، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وذلك أشدّ الصوم.

وقيل: ذا القوّة على الأعداء وقهرهم. وذلك لأنّه رمى بحجر من مقلاعه صدر رجل، فأنفذه من ظهره فأصاب آخر فقتله.

وقيل: معناه: ذا التمكين العظيم، والنعم الجليّة. وذلك أنّه كان يبيت كلّ ليلة حول محرابه ألوف كثيرة من الرجال.

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تواب، رجّاع عن كلّ ما يكره الله إلى ما يحبّ. من: آب يؤوب إذا رجع. وهذا تعليل للأيد، ودليل على أنّ المراد به القوّة في الدين.

﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ قد سبق^(٢) تفسير تسخير الجبال مع داود. و«يسبّحن» حال وضع موضع: مسبّحات، لاستحضار الحال الماضية، والدلالة على تجدد التسبيح من الجبال حالاً بعد حال.

(١) أي: الدائم.

(٢) راجع ج ٤ ص ٣٤٣، ذيل الآية ٧٩ من سورة الأنبياء.

﴿بِالنَّعْتِيبِ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وقت دخول الشروق. يقال: أشرقت الشمس ولما تشرق. من: أشرق القوم إذا دخلوا في الشروق. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُتْفَرِّقِينَ﴾^(١). وقول الجاهليّة: أشرق ثبير^(٢) كيما نغير، أي: وادخل في الضوء لنغير. ويراد وقت صلاة الفجر، لانتهائه بالشروق.

والمعنى: يسبّح الله إذا سبّح وقت الرواح والصبح. وذلك إمّا بأن خلق الله فيهنّ التسبيح، أو بنى فيها بنية يتأتّى منها التسبيح معجزة له ﷺ.

وكذلك قوله: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ مجموعة إليه من كلّ جانب. وإنّما لم يقل: يحشرون، مع أنّ فيه المطابقة بين الحالين، لأنّ الحشر جملة أدلّ على القدرة منه مدرّجاً.

وعن ابن عباس: كان داود إذا سبّح جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبّحته، فذلك حشر الطير.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: كلّ واحد من الجبال والطير لأجل داود - أي: لأجل تسبيحه - ﴿أَوْابٌ﴾ رجّاع إلى التسبيح. ووضع الأواب موضع المسبّح، إمّا لأنّها كانت ترجّع التسبيح، والمرجّع رجّاع، لأنّه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع. وإمّا لأنّ الأواب - وهو التواب الكثير الرجوع إلى الله تعالى وطلب مرضاته - من عادته أن يكثر ذكر الله، ويديم تسبيحه وتقديسه.

وقيل: الضمير لله، أي: كلّ منهما ومن داود مرجّع لله التسبيح. والفرق بينه وبين «يسبّح» أنّه يدلّ على الموافقة في التسبيح، وهذا يدلّ على المداومة عليها. ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ وقوّيناه بالحرس والجنود وكثرة العدد والعدّة والهيبة. بأنّ قذفنا في قلوب قومه هيبتهم.

(١) الحجر: ٧٣.

(٢) ثَبِير: اسم جبل بمكة.

روي: أَنَّ رجلاً ادَّعى عنده بقرة على آخر، وعجز عن إقامة البينة، فأوحي إليه في المنام: أن اقتل المدَّعى عليه. فقال: هذا منام. فأعيد الوحي في اليقظة، فأعلم الرجل. فقال: صدقت، إِنَّ الله لم يأخذني بهذا الذنب، ولكن بأني قتلت أبا هذا غيلة، وأخذت البقرة. فقتله، فعظمت بذلك هيئته.

وقيل: كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلثم^(١) يحرسونه.

﴿وَأَنبَأَهُ الْحِكْمَةَ﴾ النبوة. أو كمال العلم وإتقان العمل. وقيل: كلَّ كلام وافق الحق فهو حكمة. ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾ وفصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل. وهو بمعنى المفعول، أي: كلام مفصول بعضه من بعض. فمعنى فصل الخطاب: الكلام المخلص الَّذي ينبئه من يخاطب به على المقصود من غير التباس عليه. ومن فصل الخطاب أن لا يخطيء صاحبه مظانَّ الفصل والوصل، والعطف والاستئناف، والإضمار والإظهار، والحذف والتكرار، ونحوها.

ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل، كالصوم^(٢) والزور. والمعنى: الكلام الفاصل بين الخطاب الَّذي يفصل بين الصحيح والفاقد، والحق والباطل، والصواب والخطأ. وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك. وسمي به «أما بعد» لأنَّه يفصل المقصود عما سبق مقدِّمة له، من الحمد والصلاة.

وقيل: هو الخطاب المتوسط الَّذي ليس فيه اختصار مخل، ولا إشباع ممل. كما جاء في وصف كلام الرسول ﷺ: فصل، لا نزر، ولا هذر^(٣).

وعن عليّ عليه السلام: «هو قوله: البينة على المدَّعي، واليمين على المدَّعى عليه». روي: أنَّه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته، فيتزوّجها إذا أعجبت. وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها. وقد روي

(١) أي: لايس اللأمة، وهي الدرع.

(٢) يقال: هو صوم، أي: صائم. ورجل زور، أي: زائر.

(٣) النزر: القليل. والهذر: الكلام الرديء الَّذي لا يعبأ به.

أَنَّ الْأَنْصَارَ أَيْضاً كَانُوا يُوَاسُونَ الْمُهَاجِرِينَ مِثْلَ ذَلِكَ. فَاتَّفَقَ ^(١) أَنَّ عَيْنَ دَاوُدَ وَقَعَتْ عَلَى امْرَأَةٍ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: أُوْرِيَا. وَقِيلَ: هُوَ أَخُوهُ، فَأَحْبَبَهَا، فَسَأَلَهُ النُّزُولَ لَهَا عَنْهَا، فَاسْتَحْيَى أَنْ يَرُدَّهَ فَفَعَلَ، فَتَزَوَّجَهَا، وَهِيَ أُمُّ سُلَيْمَانَ. فَعُوتِبَ بِأَنَّكَ مَعَ عَظَمِ مَنْزِلَتِكَ، وَارْتِفَاعِ مَرْتَبَتِكَ، وَكِبَرِ شَأْنِكَ، وَكَثْرَةِ نِسَائِكَ، لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَسْأَلَ رَجُلًا لَيْسَ لَهُ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ النُّزُولَ، بَلْ كَانَ مَلَأْتُمْ شَأْنَكَ الرِّفْعَ مَغَالِبَةَ هَوَاكَ، وَقَهْرَ نَفْسِكَ، وَالصَّبْرَ عَلَى مَا امْتَحَنْتَ بِهِ. فَعُوتِبَ عَلَى ذَلِكَ بِنُزُولِ مُلْكَيْنِ عَلَيْهِ، كَمَا حَكَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَ أَنَّهُ أُعْطِيَ الْحِكْمَةَ وَفُصِّلَ الْخِطَابُ.

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَآهَدْنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْعَةً وَلِي نَجْعَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ

(١) هذه الرواية رواها البيضاوي في (أنوار التنزيل ٥: ١٧) وغيره من المفسرين. وليت المفسر ﷺ لم يذكرها أصلاً، لأنها تتنافى وقداسة الأنبياء ﷺ وعصمتهم، وتتضمن أفحش الافتراء والظلم على داود ﷺ، ونسبة الخلاعة والمجون ومعاشقة حلائل الناس إليه، مما يتعاطاه الفسقة والمستهترين بحرمات الله تعالى. وفي لفظ البيضاوي: فعشقتها. مع أنه روى ذيل هذه الرواية عن عليّ ﷺ: «أَنَّ مِنْ حَدِّثٍ بِحَدِيثِ دَاوُدَ عَلَى مَا يَرُوهُ الْقَصَاصُ جَلَدَتْهُ مِائَةً وَسِتِّينَ». وناهيك بهذا حكماً قاطعاً، وعقاباً صارماً، وهو إمام المتقين، وأقضى الأئمة، على ما نطق به الرسول الأعظم ﷺ. ولعلَّ جلد مائة وستين حدَّ الفرية على الأنبياء. فالرواية أشبه ما تكون من خرافات الجهال والدجالين، وأساطير القصص والمشعوذين. ورحم الله المفسر، فما كان الأجدر والأليق به أن يطوي عن ذكرها كشحاً، ويتركها في قفص المهملات والموضوعات.

﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوُ الْخُصْمِ﴾ معنى الاستفهام التعجيب، والتشويق إلى استماعه، والتنبيه على موضع إخلاله ببعض ما كان ينبغي أن يفعله. والخصم في الأصل مصدر يقع على الواحد والجمع، كالضيف في قول الله تعالى: ﴿حَدِيثٌ ضَيْفٌ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾^(١).

والمعنى: هل بلغك خبر الخصماء ﴿إِذْ تَسُوْرُوا الْفُجْرَابَ﴾ إذ تصعدوا سور الفرفة، وهي مصلّاه. والسور الحائط المرتفع. ونظيره: تسنّمه إذا علا سنامه، وتفرّعه إذا علا فرعه^(٢).

و«إذ» متعلّق بمحذوف، أي: نبأ تحاكم الخصماء إذ تسوّرُوا. أو بالنبا، على

(١) الذاريات: ٢٤.

(٢) الفرع من كلّ شيء: أعلاه المتفرّع من أصله.

أَنَّ المراد به الواقع في عهد داود، وَأَنَّ إِسْنَادَ «أَتَى» إِلَيْهِ عَلَى حَذْفِ مِضَافٍ، أَيْ: قِصَّةُ نَبَأِ الْخِصْمِ. أَوْ بِالْخِصْمِ، لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ. لَا ب: أَتَى، لِأَنَّ إِيْتِيَانَهُ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَكُنْ حِينْتِذُ.

و«إِذْ» فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ تَخْلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ بَدَلَ مِنَ الْأَوَّلَى، أَوْ ظَرْفٌ لـ «تَسُورُوا» ﴿فَقَرَعَ مِنْهُمْ﴾ لِأَنَّهُمْ نَزَلُوا عَلَيْهِ مِنْ فَوْقَ، فِي يَوْمِ الْإِحْتِجَابِ، وَالْحَرَسِ عَلَى الْبَابِ، لَا يَتْرُكُونَ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ. فَإِنَّهُ كَانَ جَزْأً زَمَانَهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ: يَوْمًا لِلْعِبَادَةِ، وَيَوْمًا لِلْقَضَاءِ، وَيَوْمًا لِلْوَعظِ، وَيَوْمًا لِلإِسْتِغَالِ بِخَاصَّتِهِ. فَتَسُورُ عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ عَلَى صُورَةِ الْإِنْسَانِ فِي يَوْمِ الْخُلُوةِ.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ نَحْنُ فُوجَانِ مُتَخَاصِمَانِ، عَلَى تَسْمِيَةِ مُصَاحِبِ الْخِصْمِ خَصْمًا ﴿بَغَى بَغْضًا عَلَى بَعْضٍ﴾ وَهُوَ عَلَى الْفَرَضِ وَقَصْدِ التَّعْرِيزِ إِنْ كَانُوا مَلَائِكَةً، وَهُوَ الْمَشْهُورُ ﴿فَأَخَذَكُمْ بَيْنَتَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَنْشِطُ﴾ وَلَا تَجْرُ فِي الْحُكُومَةِ بِالْمِيلِ لِأَحَدِنَا عَلَى صَاحِبِهِ. مِنَ الشَّطْطِ، وَهُوَ مَجَاوِزَةُ الْحَدِّ. ﴿وَاهْدِنَا﴾ وَارْشَدِنَا ﴿إِلَى سَوَاءِ الصُّرَاطِ﴾ إِلَى وَسْطِ الطَّرِيقِ الَّذِي هُوَ طَرِيقُ الْعَدْلِ.

فَقَالَ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ لَهُ: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ فِي الدِّينِ أَوْ الصَّحْبَةِ ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْةً﴾ هِيَ الْأَتْنَى مِنَ الضَّانِّ. وَقَدْ يَكْنَى بِهَا عَنِ الْمَرْأَةِ، وَالْكُنْيَاةِ وَالتَّمْثِيلِ فِيمَا يَسَاقُ لِلتَّعْرِيزِ أُبْلَغَ فِي الْمَقْصُودِ. ﴿وَلِيَّ﴾ قَرَأَ حَفْصٌ بِفَتْحِ الْيَاءِ ﴿نَجْةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَخْلَيْنِيهَا﴾ مَلَكْنِيهَا. وَحَقِيقَتُهُ: اجْعَلْنِي أَكْفَلَهَا كَمَا أَكْفَلُ مَا تَحْتَ يَدِي. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: اجْعَلْهَا كَفْلِي، أَيْ: نَصِيبِي. ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ وَغَلْبَنِي فِي مَخَاطَبَتِهِ إِيَّايَ مُحَاجَّةً، بِأَنْ جَاءَ بِحِجَاجٍ وَجَدَالٍ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى رَدِّهِ. أَوْ فِي مِغَالَبَتِهِ إِيَّايَ فِي الْخُطْبَةِ. يَقَالُ: خَطَبْتُ الْمَرْأَةَ وَخَطَبْتُهَا هُوَ فَخَاطَبَنِي خُطَابًا، أَيْ: غَالَبَنِي فِي الْخُطْبَةِ فغَلْبَنِي، حَيْثُ تَرَوَّجَهَا دُونِي.

قِيلَ: إِنَّ الْخَصْمَيْنِ كَانَا مِنَ الْإِنْسِ، وَكَانَتِ الْخُصُومَةُ عَلَى الْحَقِيقَةِ بَيْنَهُمَا، إِمَّا

كانا خليطين في الغنم، وإما كان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من المهائر والسراري، والثاني معسراً ما له إلا امرأة واحدة، فاستنزله عنها.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ جواب قسم محذوف، قصد به المبالغة في إنكار فعل خليطه وتهجين طمعه. ولعله قال ذلك بعد اعتراف المدعى عليه، أو على تقدير صدق المدعى. والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله. وتعديته إلى مفعول آخر بـ«إلى» لتضمنه معنى الإضافة. كأنه قال: بإضافة نعجتك إلى نعاجه على وجه السؤال والطلب.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ الشركاء الَّذِينَ خَلَطُوا أَمْوَالَهُمْ. جمع خليط. ﴿لَيَبْغِي﴾ لَيَتَعَدَّى ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَظْلِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وهم قليل جداً. و«ما» مزيدة للإيهام والتعجب من قلتهم. والمقصود من ذلك القول: الموعظة الحسنة، والترغيب في إثبات عادة الخلطاء الصالحاء الَّذِينَ حَكَمَ لَهُمْ بِالْقَلَّةِ، وتكريره الظلم - الَّذِي أَكْثَرَهُمْ عَلَيْهِ - إِلَيْهِمْ، مع التأسف على حالهم، وتسلية المظلوم عما جرى عليه من خليطه.

﴿وَفَلَنَ دَاوُدُ أَنْتَمَا فَتَنَاهُ﴾ ابتليناه بترك الأولى، أو امتحنَاهُ بتلك الحكومة هل يَتَنَبَّهُ بِهَا؟ وَلَمَّا كَانَ غَلْبَةُ الظَّنِّ كَالْعِلْمِ اسْتَعِيرَ لَهُ. والمعنى: وعلم داود وأيقن أنهما اختبرناه وابتليناه لا محالة. ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ ترك الأولى ﴿وَحَزَرَ إِيَّاهُ﴾ ساجداً، على تسمية السجود ركوعاً، لآثمه مبدؤه. أو خَرَّ لِلسَّجُودِ رَاكِعاً، أي: مصلياً، كأنه أحرم بركعتي الاستغفار. ﴿وَأَنَابَ﴾ إِلَيْهِ. وقيل: سقط ساجداً لله تعالى ورجع إليه. وقد يعبر عن السجود بالركوع.

وعن ابن مجاهد: مكث ساجداً أربعين يوماً وليلة، لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة، أو لحاجة لا بد منها. ولا يرقأ^(١) دمه حتى نبت العشب من دمعه. ولم

(١) أي: لا يجف ولا ينقطع.

يشرب ماءً إلا وثلاثاء دمع. وجهد نفسه راغباً إلى الله في العفو عنه، حتى كاد يهلك. واشتغل بذلك عن الملك، حتى وثب ابن له يقال له: إيشا على ملكه، ودعا إلى نفسه، واجتمع إليه أهل الزيف من بني إسرائيل.

﴿فَقَفَّزْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي: ما استغفر عنه ﴿وَأَنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ لقربة ﴿وَحُسْنُ مَأْبٍ﴾ مرجع في الجنة. ولما غفر له حارب ابنه فهزمه. وقيل: إنه نقش هذه الزلة في كفه حتى لا ينسأه.

واختلف في أن استغفار داود من أي شيء كان؟ قليل: إنه حصل منه على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى، والخضوع له، والتذلل بالعبادة والسجود. كما حكى سبحانه عن إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾^(١). وأما قوله: ﴿غَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ فمعناه: أننا قبلناه منه وأثبناه. ولما كان المقصود من الاستغفار والتوبة القبول، قيل في جوابه: غفرنا. وهذا قول من ينزه الأنبياء عن جميع الذنوب، من الامامية وغيرهم.

ومن جَوَزَ على الأنبياء الصفات قال: إن استغفاره كان لذنوب صغير وقع منه. وهو أن أوريا بن حيان خطب امرأة، وكان أهلها أرادوا أن يزوجهها منه، فبلغ داود جمالها، فخطبها أيضاً فزوجوها منه، وقدموه على أوريا. فعوتب داود على حرصه على الدنيا، وعلى أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه.

وقيل: إنه خرج أوريا إلى بعض ثغوره فقتل، فلم يجزع عليه جزعه على أمثاله من جنده، إذ مالت نفسه إلى نكاح امرأته، فعوتب على ذلك بنزول الملكين. وقيل: إنه كان في شريعته أن الرجل إذا مات وخلف امرأة فأولياؤه أحق بها، إلا أن يرغبوا عن التزوج بها، فحينئذ يجوز لغيرهم أن يتزوج بها. فلما قتل أوريا خطب داود امرأته، ومنعت هبة داود وجلالته أولياؤه أن يخطبوها.

فعوتب على ذلك .

وقيل : إنّ داود كان متشاعلاً بالعبادة ، فأتاه رجل وامرأة متحاكمين إليه ، فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها ، وذلك نظر مباح ، فمالت نفسه إليها ميل الطباع ، فعاد إلى عبادة ربه . فشغله الفكر في أمرها عن بعض نوافله ، فعوتب .

وقيل : إنّ عوتب على عجلته في الحكم قبل التثبت ، وكان يجب عليه حين سمع الدعوى من أحد الخصمين أن يسأل الآخر عما عنده فيها ، ولا يحكم عليه قبل ذلك . وإنّما أنساه التثبت في الحكم ، فزعه من دخولهما عليه في غير وقت العادة .

وأما ما ذكر في القصة : أنّ داود كان كثير الصلاة ، فقال : يا ربّ فضّلت عليّ إبراهيم فاتخذته خليلاً ، وفضّلت عليّ موسى فكلمته تكليماً . فقال : يا داود إنّنا ابتليناهم بما لم نبتلك بمثله ، فإن شئت ابتليتك . فقال : نعم ، يا ربّ فابتلني . فبينما هو في محرابه ذات يوم ، إذ وقعت حمامة ، فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب ، فذهب ليأخذها ، فاطّلع من الكوة فإذا امرأة أوريا بن حيان تغتسل ، فهواها وهمّ بتزوّجها ، فبعث بأوريا إلى بعض سراياه ، وأمر بتقديمه أمام التابوت الذي فيه السكينة ، ففعل ذلك وقتل ، فلما انقضت عدّتها تزوّجها وبني بها ، فولد له منها سليمان . فبينما هو ذات يوم في محرابه يقرأ الزبور ، إذ دخل عليه رجلان ، ففرع منهما . فقالا : « لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض » إلى قوله : « وقليل ما هم » . فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثمّ ضحك . فتنبّه داود على أنّهما ملكان ، بعثهما الله إليه في صورة خصمين ، ليبتكّاه على خطيئته .

فمما^(١) لا شبهة في فساد ذلك ، فإنّه ممّا يقدر في العدالة . وكيف يجوز أن

(١) خبر لقوله : وأما ما ذكر ، في بداية الفقرة السابقة .

يكون أنبياء الله تعالى الذين هم أماناؤه على وحيه، وسفراؤه بينه وبين خلقه، بصفة من لا يجوز قبول شهادته، وعلى حالة تتفر عن الاستماع إليه والقبول منه؟! جل أنبياء الله عن ذلك.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا أوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة أوريا، إلا جلدته حدّين: حدّاً للنبوة، وحدّاً للإسلام». وبرواية عنه عليه السلام: «من حدّث بحديث داود على ما يرويه القصاص، جلدته مائة وستين». وهي حدّ القرية على الأنبياء.

ثم ذكر سبحانه إتمام نعمته على داود، فقال: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ استخلفناك على الملك فيها لتدبير أمور العباد من قبلنا بأمرنا، كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد، ويملكه عليها. ومنه قولهم: خلفاء الله في أرضه. أو جعلناك خليفة ممّن كان قبلك من الأنبياء القاسمين بالحق. وفيه دليل على أنّ حاله بعد الإنابة والتوبة عن ترك الأولى بقيت على ما كانت عليه لم تتغيّر.

﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: بحكم الله، إذ كنت خليفة ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ ما تهوى الأنفس من مخالفة الحق. وهو يؤيد ما قيل: إنّ زلّته المبادرة إلى تصديق المدّعي، وتظلم الآخر قبل مسأله. ﴿فَيُضِلُّكَ﴾ أي: إنّ اتّبعته الهوى فيعدل الهوى بك ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن دلائله التي نصبها في العقول - أو في شرائعه بالوحي - على الحق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعدلون عمّا أمرهم الله به ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا﴾ بسبب نسيانهم، أي: تركهم طاعات الله في الدنيا. وعلى هذا يكون قوله: ﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ متعلّق بـ«عذاب شديد». أولهم عذاب شديد بإعراضهم عن ذكر يوم القيامة. فيكون متعلّقاً بـ«نسا».

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْكَ
مُبَارَكٌ لِّدَّبْرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾

ثم نبه العباد على وجوب ملازمة الحق ومخالفة الهوى، بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ خلقاً باطلاً، أي: عبثاً لا لغرض صحيح وحكمة
بالغة، كما هو مقتضى الهوى. أو ذوي باطل، بمعنى: مبطلين عابثين، كقوله: ﴿وَمَا
خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾^(١)، أو عبثاً، فوضع «باطلاً» موضعه، كما
وضعوا «هنيئاً لك» موضع المصدر. بل خلقناهما بالحق الذي هو مقتضى الدليل،
من التوحيد والتدرج بالشرع.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى خلقهما باطلاً ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: مظنونهم ﴿فَوَيْلٌ
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ بسبب هذا الظن الباطل.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ «أم»
منقطعة، ومعنى الاستفهام فيها إنكار التسوية بين المؤمنين الصالحين والكافرين
المفسدين، التي دل على نفيها خلق السماوات والأرض بالحق. وكذلك «أم» التي
في قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾. كأنه أنكر التسوية أولاً بين المؤمنين
والكافرين، ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم.

ويجوز أن يكون تكريراً للإنكار الأول باعتبار وصفين آخرين يمنعان

التسوية من الحكيم.

والمعنى: أنه لو بطل الجزاء كما قال المشركون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد، واتقى وفجر، ومن سوى بينهما كان سفياً ولم يكن حكيماً.
والآية تدلّ على صحّة القول بالحشر، فإنّ التفاضل بينهما إما أن يكون في الدنيا، والغالب فيها عكس ما تقتضي الحكمة فيه، أو في غيرها، وذلك يستدعي أن تكون دار أخرى يجازون فيها.

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ بقوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ نَفَاح ﴿يُنذِرُوا آيَاتِهِ وَيُنذِرَ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ ليتفكروا فيها، فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة، فإنّ من اقتنع بظاهر المتلو، كان مثله كمثل من له لقحة^(١) درور لا يحلبها، ومهرة نثور لا يستولدها.

وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيّعوا حدوده، حتّى إنّ أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً. وقد والله أسقطه كلّ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل. والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده. والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة^(٢)، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء. اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين، وأعدنا من القراء المتكبرين.

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ

(١) اللَّقْحَةُ: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن. والدّرور أيضاً: الناقة الكثيرة الدرّ. والمُهْرَةُ والمُهْر: ولد الفرس. والنثور: الكثيرة الولد.

(٢) الْوَزْعَةُ جمع الوزاع، وهو الذي يكفّ عن الضرر، أو يزرع نفسه عن معاصي الله تعالى.

رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رَدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَقِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ
وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ قَتْنَا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ
﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ
الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾
وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخِرِينَ مُعَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾
هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى
وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٤٠﴾

ثم عطف سبحانه على قصة داود حديث سليمان عليه السلام، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ
سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي: نعم العبد سليمان، إذ مابعده تعليل للمدح. وهو بيان حال
سليمان. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجاء إلى الله بالتوبة من ترك الأولى. أو مؤوَّب للتسبيح
مرجع له.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ ظرف لـ «أَوَّاب» أو لـ «نعم» ﴿بِالْفَتْحِ﴾ بعد الظهر
﴿الضَّافِفَاتُ﴾ الصافن من الخيل: الذي يقوم على ثلاث قوائم. ويضع طرف
السنبك^(١) الرابع على الأرض. وهو من الصفات المحمودة في الخيل، لا يكاد يكون
إلا في العراب^(٢) الخالص. ﴿الْجِيَادُ﴾ جمع جواد أو جود. وهو الذي يسرع في

(١) السُّبُك: طرف الحافر. والحافر: هو للدابة بمنزلة القدم للانسان.

(٢) العَرَابُ من الخيل: ما كانت كرائمه سالمة من الهجنة.

جريه واسع الخطو. وقيل: الذي يجود في الركض. وقيل: جمع جيد. وصف الخيل بالصفون والجودة، ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية. يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقعها، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها. روي: أن سليمان عليه السلام غزا دمشق ونصيبين، فأصاب ألف فرس. وقيل: أصابها أبوه من العمالة، فورثها منه فاستعرضها، فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن ورد من الذكر كان له وقت العشي.

وفي روايات أصحابنا أنه فاته العصر أول الوقت. ورووا عن قتادة والسدي: أن هذه الخيل شغلته عن صلاة العصر حتى فات وقتها.

وعن الجبائي: لم يفته الفرض، وإنما فاته نفل كان يفعله آخر النهار، لاشتغاله بالخيل، فاغتم لما فاته، فاستردّها فعقرها تقريباً لله، وبقي مائة، فما بقي في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها. وقيل: لما عقرها أبدله الله خيراً منها.

وقال الحسن: كانت خيلاً خرجت من البحر لها أجنحة، وكان سليمان قد صلى الصلاة الأولى، وقعد على كرسيه، والخيل تعرض عليه حتى غابت الشمس. ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ «أحببت» في الأصل متعدّ به «على»، لأنه بمعنى: آثرت، لكن لما أنيب مناب فعل يتعدّى به «عن»، مثل: أنبت، عدّي تعديته. كأنه قال: جعلت حبّ الخير نائباً أو مغنياً عن الطاعة. وقيل: هو بمعنى: تقاعدت. ونصبه على العلية. والمفعول به محذوف، مثل: الخيل.

والخير: المال الكثير. كقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾^(١). وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَحُبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾^(٢). والمراد به هاهنا الخيل التي شغلته. ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها، كما قال عليه السلام: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة».

(١) البقرة: ١٨٠.

(٢) العاديات: ٨.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الياء.

﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي: غربت الشمس. شبه غروبها بتواري الملك أو المخدرة بحجابهما. وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشي عليها. وقيل: الضمير للمصافنات، أي: حتى توارت بحجاب الليل، يعني: الظلام.

﴿رَدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ الضمير للمصافنات. وعن علي عليه السلام: «الخطاب للملائكة، والضمير للشمس» أي: قيل للملائكة: ردّوا الشمس لأصلي العصر، فردّت الشمس ﴿فَطَفِقَ﴾ فأخذ يمسح السيف ﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ﴾ جمع ساق، كالأسد جمع أسد ﴿وَالْأَعْنَاقِ﴾ جمع العنق، أي بسوقها وأعناقها، أي: يقطعها. من قولهم: مسح علاوته، أي: ضرب عنقه. ومسح المجلّد الكتاب، إذا قطع أطرافه بسيفه. وقيل: جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حبّاً لها، ثم جعلها مسبّلة في سبيل الله.

وعن ابن كثير: بالسُّوقِ على همز الواو، لضمة ما قبلها، كمؤسى. وعن أبي عمرو: بالسُّوقِ، كعُؤور، مصدر: غارت الشمس.

عن ابن عباس: سألت علياً عليه السلام عن هذه الآية. فقال: ما بلغك فيها يا ابن عباس؟ قلت: سمعت كعباً يقول: اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتى فاتته الصلاة، فقال: ردّوها عليّ - يعني: الأفراس - وكان أربعة عشر، فأمر بضرب سوقها وأعناقها بالسيف فقتلها، فسلبه الله ملكه أربعة عشر يوماً، لأنّه ظلم بقتلها. فقال علي عليه السلام: كذب كعب، لكن اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم، لأنّه أراد جهاد العدو، حتى توارت الشمس بالحجاب، فقال بأمر الله للملائكة: ردّوا الشمس عليّ، فردّت، فصلى العصر في وقتها. وإنّ أنبياء الله لا يظلمون، ولا يأمرن بالظلم، لأنّهم معصومون مطهرون.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن سليمان عليه السلام قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تأتي كلّ واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله. فطاف

عليهنّ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشقّ رجل. فولّذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا فرساناً أجمعين».

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام: «أنّه ولد له ابن، فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك من السخرة، فسيبلنا أن نقتله أو نخبّله. فعلم ذلك، فأشفق منهم عليه، فاسترضعه في المزن، وهو السحاب، فما أشعر به إلا أن ألقي على كرسيه ميتاً». فتنبّه على ترك الأولى، بأن لم يتوكّل على الله، فاستغفر ربّه وتاب إليه. فأخبر الله سبحانه نبيّه ﷺ بذلك ليتوكّل عليه، ولا يترك كلمة المشيئة في أمر من الأمور الذي أراد فعله، فقال:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ اختبرناه وابتليناه، وشدّدنا المحنة عليه ﴿وَالْقَيْنَا﴾ وطرحنا ﴿عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ لا روح فيه ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى الله، وفزع إلى الصلاة والدعاء على وجه الانقطاع إليه سبحانه. وهذا لا يقتضي أنّه وقع منه معصية صغيرة أو كبيرة، لأنّه ﷺ وإن لم يستثن ذلك لفظاً، فلا بدّ من أن يكون قد استثناء ضميراً واعتقاداً، إلا أنّه لما لم يذكر لفظة الاستثناء عوتب على ذلك، من حيث ترك ما هو مندوب إليه.

وقيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة. وما قيل: من أنّ سليمان بلغه خبر صيدون، وهي مدينة في بعض الجزائر، وأنّ بها ملكاً عظيم الشأن لا يقوى عليه، لتحصّنه بالبحر. فخرج إليه تحمله الريح حتّى أناخ بها بجنوده، فقتل ملكها، وأصاب بنتاً له اسمها جرادة، من أحسن الناس وجهاً، فاصطفّاها لنفسه، وأسلمت وأحبّها. وكان لا يرقأ دمعها جزعاً على أبيها. فأمر الشياطين فمتمّلوا لها صورة أبيها، فكستها مثل كسوته، وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائها - أي: جوارها - يسجدن له، كعادتھنّ في ملكه. فأخبره آصف سليمان بذلك، فكسر الصورة وضرب المرأة، وخرج وحده إلى الفلاة باكياً، وفرش

له الرماد، فجلس عليه تائباً إلى الله متضرعاً.

وكانت له أمٌ ولد اسمها أمينة، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها، وكان ملكه فيه. فوضعه عندها يوماً، فتمثل لها بصورته شيطان هو صاحب البحر، اسمه صخر، فقال: يا أمينة أعطني خاتمي. فأخذ الخاتم فتختم به، وجلس على كرسي سليمان، فاجتمع عليه الجن والإنس والطير، ونفذ حكمه في كل شيء. وغير سليمان عن هيئته، فأتاها لطلب الخاتم فطردته، فعرف أن الخطيئة قد أدركته. فكان يدور على البيوت يتكفف^(١)، فإذا قال: أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه. ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السموك، فيعطونه كل يوم سمكتين. فمكث على ذلك أربعين يوماً، عدد ما عبدت الصورة في بيته.

فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان. وسأل آصف نساء سليمان، فقلن: ما يدع امرأة منا في دمه، ولا يغتسل من جنابة. وقيل: بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن.

ثم طار الشيطان، وقذف الخاتم في البحر، فابتلعه سمكة. وكان سليمان يستطعم فلا يطعم، حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً، فشق بطنه فوجد خاتمه فيه، فتختم وخرّ ساجداً، ورجع إليه الملك. وجاب^(٢) صخرة لصخر فجعله فيها، وسد عليه بأخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص، وقذفه في البحر.

لقد أبى^(٣) عقول العلماء الراسخين في العلم قبوله، وقالوا: هذا من أباطيل اليهود، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل. كيف وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام، وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن.

(١) أي: يستعطي الناس بكفّه.

(٢) جاب الصخرة: خرّقها.

(٣) خبر لقوله: وما قيل ...، في بداية القصة.

وتمكينهم من التمثيل بصورة النبي، ومن القعود على سرير، قبيح. وأيضاً لا يجوز عقلاً أن تكون النبوة في الخاتم، ويسلبها عن النبي عند الخلع.

وأما اتخاذ التماثيل، فيجوز أن تختلف فيه الشرائع. ألا ترى إلى قوله: ﴿مِنْ مَخَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ﴾^(١). وأما السجود للصورة، فلا يظنّ بنبي الله أن يأذن فيه. وإذا كان بغير علمه فلا عليه. وقوله: «وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً» ناپ وآب عن إفادة معنى إنابة الشيطان منابه نبوّاً وإباءً ظاهراً.

﴿قَالَ﴾ على وجه الانقطاع إلى الله ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِي﴾ لا يتسهّل له ولا يكون، لعظمته ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ أي: من دوني. ولا يستلزم منه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة، حيث استعطى الله ما لا يعطيه غيره، لأنّه ﷺ كان ناشئاً في بيت الملك والنبوة، وارثاً لهما. فأراد أن يطلب معجزة، فطلب على حسب ألفه^(٢) ملكاً زائداً على الممالك، زيادة خارقة للعادة باللغة حدّ الإعجاز، ليكون ذلك دليلاً على نبوّته قاهراً للمبعوث إليهم، وأن يكون معجزة تخرق العادات. فذلك معنى قوله: «لا ينبغي لأحد من بعدي».

وقيل: كان ملكاً عظيماً، فخاف أن يعطى أحد مثله، فلا يحافظ على حدود الله فيه.

وقيل: ملكاً لا أسلبه ولا يقوم غيري فيه مقامي، كما سلّبه مرة وأقيم مقامي غيري.

ويجوز أن يقال: علم الله فيما اختصّه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين، وعلم أنّه لا يضطلع بأعبائه غيره، وأوجبت الحكمة استيهابه، فأمره أن يستوّهه إياه، فاستوّهه بأمر من الله على الصفة التي علم الله أنّه لا يضبطه عليها إلا

(١) سبأ: ١٣.

(٢) مصدر: أَلَفَ يَأْلَفُ أَلْفًا.

هو وحده دون سائر عبادہ.

أو أراد أن يقول: ملكاً عظيماً، فقال: «لا ينبغي لأحد من بعدي». ولا يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته، كما تقول: لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال، وربما كان للناس أمثال ذلك، ولكنك تريد تعظيم ما عنده.

وكيف يكون نبي الله موصوفاً بالصفات السيئة الرديئة، من الحسد والضنة^(١) والمنافسة، والحال أن الغرض من بعثة الأنبياء تزكيتهم عن الأخلاق السيئة المذمومة، وتعليمهم الأخلاق الحسنة المرضية؟! فكيف أمروا بما لم يتصفوا به؟ وما ذلك إلا اعتقاد الزنادقة، ومنهم الحجاج لعنه الله حين قيل له: إنك حسود، فقال: أحسد مني من قال: «هب لي ملكاً». ومن جرأته على الله وشيئنته أنه قال: طاعتنا على العباد أوجب من طاعة الله عليهم، لأنه شرط في طاعته فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(٢)، وأطلق طاعتنا فقال: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٣).

وتقديم الاستغفار على الاستيهاب جرياً على عادة الأنبياء والصالحين في مزيد اهتمامهم بأمر دينهم، وتقديمه على أمور دنياهم، ووجوب تقديم ما يجعل الدعاء بصدد الإجابة. وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء.

ثم بين سبحانه أنه أجاب دعاء بقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ فذلّلناها لطاعته إجابة لدعوته ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُجَاءً﴾ من الرخاوة، أي: ليّنة لا تززع. أو مطيعة لا تخالف إرادته، كالمأمور المنقاد. ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ حيث قصد وأراد. من قولهم: أصاب الصواب فأخطأ الجواب. عن رؤية: أن رجلين من أهل اللغة قصدها ليسألاه

(١) الضنة: البخل.

(٢) التغابن: ١٦.

(٣) النساء: ٥٩.

عن هذه الكلمة، فخرج إليهما فقال: أين تصيبان؟ فقالا: هذه طلبتنا ورجعا.
وعن الحسن: كان سليمان عليه السلام يغدو من إيليا، ويقل بقزوين، ويبيت بكابل.
واعلم أن الآية لا تنافي قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾^(١)، لأنَّ
المراد أن الله تعالى جعلها عاصفة تارة ورياءً أخرى بحسب ما أراد سليمان. أو
الرياء كانت تحمل سريره لئلا تضطرب، والعاصفة كانت تجريه على الهواء سريعاً.
﴿وَالشَّيَاطِينِ﴾ عطف على الريح، أي: وسخرنا له الشياطين أيضاً ﴿كُلَّ بَنَاءٍ
وَعَوَاصٍ﴾ بدل الكل من الكل. روي: أنهم كانوا يبنون لسليمان ما شاء من الأبنية
الرفيعة، وبعضهم يغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ. وهو أول من استخرج الدر من
البحر.

﴿وَأَخْرَيْنَ مُفْرَيْنَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ عطف على «كل» داخل في حكم البدل.
كأنه فصل الشياطين إلى عملة استعملهم في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص،
ومردة قرن بعضهم مع بعض في السلاسل ليكفوا عن الشر. وعن السدي: كان يجمع
أيديهم إلى أعناقهم مغلولين في الأغلال. والصفد: هو القيد. وسمي به العطاء، لأنه
يرتبط به المنعم عليه. وفروقا بين فعليهما، فقالوا: صفده قيده، وأصفده أعطاه،
كوعده وأوعده، فإنَّ الهمة تكون للسلب.

﴿هَذَا﴾ هذا الذي أعطيناك ﴿عَطَاؤُنَا﴾ من الملك الذي لا ينبغي لأحد من
بعدك، والبسطة في المال والرجال وسائر المنال، والتسلط على ما لم يسلط به
غيرك ﴿فَافْتَنُ﴾ فأعط من شئت. من المنّة، وهي العطاء. ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ امنع من
شئت ﴿بِفَنِّ جِسَابٍ﴾ حال من المستكن في الأمر، أي: غير محاسب على منته
وإمساكه، لتفويض التصرف فيه إليك. أو حال من العطاء. أو صلة له، وما بينهما
اعتراض. والمعنى: أنه عطاء كثير لا يكاد يمكن حصره.

وقيل: الإشارة إلى تسخير الشياطين. والمعنى: هذا التسخير عطاؤنا، فامن على من شئت من الشياطين بالإطلاق، وأمسك من شئت منهم في الوثاق بغير حساب، أي: لا حساب عليك في ذلك.

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ أي: منزلته القريبى. وهي النعمة الدائمة الباقية في الآخرة، مع ما له من الملك العظيم في الدنيا ﴿وَحُسْن مَّآبٍ﴾ وهو الجنة.

وَأَذْكُرُ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذُ بِيَدِكَ صِغَةً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

ثم ذكر سبحانه قصة أيوب عليه السلام، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ عَبْدًا أَيُّوبَ﴾ وهو ابن عيسى بن رعوبك بن عنصو بن إسحاق صلوات الله عليهم. شرفه سبحانه بإضافته إلى نفسه. وكان في زمن يعقوب بن إسحاق، وتزوج ليا بنت يعقوب عليه السلام. والمعنى: اذكر يا محمد حال أيوب في الصبر على الشدائد واقتد به.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ بدل اشتمال من «عبدنا»، و«أيوب» عطف بيان له، أي: اذكر حين دعا أيوب ربّه رافعاً صوته يقول: يا ربّ، لأنّ النداء هو الدعاء بطريقة: يا فلان ﴿أَنْتَ مَسَّنِي﴾ بأنّي مسّني. وقرأ حمزة بإسكان الياء وإسقاطها في الوصل. ﴿الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ﴾ بتعب ومشقة. وقرأ يعقوب: يَنْصَبُ بفتحين. والباقون بضمّ النون وسكون الصاد، كالرشد والرشد. وهما مترادفان. ﴿وَعَذَابٍ﴾ وألم. وهذا حكاية لكلامه الذي ناداه به، ولولا هي لقال: إنّ مسّه.

والمراد من تعبهِ وألمهِ مرضه، وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب^(١).
وقيل: النصب الضّرّ في البدن، والعذاب في ذهاب الأهل والمال.

وإنّما نسبهُ إلى الشيطان، لما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الجزع، فالتجأ إلى الله سبحانه في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه وردّه بالصبر الجميل.

وعن مقاتل: يوسوسه بأن طال مرضك، ولا يرحمك ربّك.
وقيل: بأن يذكره ما كان فيه من نعم الله، من الأهل والولد والمال، ليزلّه بذلك.

وقيل: اشتدّ مرضه حتّى تجنّبهُ الناس، فوسوس الشيطان إلى الناس أن يستقذروه، ويخرجوه من بين أيديهم، ويمنعوا امرأته التي تخدمه أن تدخل عليه.
فكان أيّوب يتأذى بذلك ويتألم منه، ولم يشك الألم الذي كان من أمر الله تعالى.
روي عن أبي عبد الله عليه السلام: أنّه دام ذلك سبع سنين.

وقالت الامامية: إنّهُ لا يجوز أن يكون بصفة يستقذره الناس عليها، لأنّ في ذلك تنفيراً، وأمّا المرض والفقر وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنهُ الله بذلك.

فأجاب الله تعالى دعاءه وقال: ﴿اِزْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ اضرب برجلك الأرض.
فضربها، فنبعت عين. فقيل له: ﴿هَذَا﴾ هذا الموضع ﴿مُقَفَّسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فتفتسل به وتشرب منه، فيبرأ باطنك وظاهره.

وقيل: نبعت له عيتان: حارّة وباردة، فاغتسل من الحارّة وشرب من الباردة، فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله تعالى.

وقيل: ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارّة فاغتسل منها، ثمّ باليسرى فنبعت باردة فشرب منها.

(١) الوَصْب: المرض، والوجع الدائم، ونحول الجسم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ بَأَن أَحْيَيْنَاهُمْ بعد موتهم ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ حَتَّى كَانَ لَهُ ضَعْفٌ مَا كَانَ.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْيَا لَهُ أَهْلَهُ الَّذِينَ كَانُوا مَاتُوا قَبْلَ الْبَلِيَّةِ، وَأَحْيَا لَهُ أَهْلَهُ الَّذِينَ مَاتُوا وَهُوَ فِي الْبَلِيَّةِ».

﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ لِرَحْمَتِنَا عَلَيْهِ ﴿وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وَلِتَذَكِّرَ ذَوِي الْعُقُولِ الْخَالِصَةِ، لِيَنْتَظِرُوا الْفَرَجَ بِالصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ وَاللَّجَأَ إِلَى اللَّهِ فِيمَا يَحِقُّ بِهِمْ.

﴿وَأَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا﴾ عَطَفَ عَلَى «ارْكُض» أَي: وَقَلْنَا لَهُ ذَلِكَ. وَالضَّفْتُ: الْحَزْمَةُ الصَّغِيرَةُ مِنَ الشَّامِرِخِ^(١) وَالْحَشِيشِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. ﴿فَأَضْرَبَ بِهِ﴾ دَفْعَةً وَاحِدَةً ﴿وَلَا تَحْنُتْ﴾ فِي يَمِينِكَ. وَذَلِكَ أَنَّ زَوْجَتَهُ لِيَا بِنْتَ يَعْقُوبَ - وَقِيلَ: رَحْمَةُ بِنْتِ إِفْرَائِيمَ بْنِ يُوسُفَ - ذَهَبَتْ لِحَاجَةٍ فِي مَرَضِهِ، فَأَبْطَأَتْ فِي الرَّجُوعِ، فَضَاقَ صَدْرُ الْمَرِيضِ، فَحَلَفَ إِنْ بَرَىءَ ضَرْبَهَا مِائَةَ ضَرْبَةٍ، فَحَلَّلَ اللَّهُ يَمِينَهُ بِأَهْوَنِ شَيْءٍ عَلَيْهِ وَعَلَيْهَا، لِحَسَنِ خِدْمَتِهَا إِيَّاهُ وَرِضَاهُ عَنْهَا.

وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: سَبَبُ صُدُورِ هَذَا الْحَلْفِ مِنْ أَيُّوبَ أَنَّ إِبْلِيسَ لَقِيَهَا فِي صُورَةٍ طَيِّبٍ، فَدَعَتْهُ لِمَدَاوَةِ أَيُّوبَ. فَقَالَ: أَدَاوِيهِ بِشَرِّطٍ أَنَّهُ إِذَا بَرَىءَ قَالَ: أَنْتَ شَفِيتَنِي، لَا أُرِيدُ جَزَاءً سِوَاهُ. قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَشَارَتْ إِلَى أَيُّوبَ بِذَلِكَ، فَحَلَفَ لِيَضْرِبَنَّهَا. وَهَذِهِ رَخِصَةٌ بَاقِيَةٌ فِي الْحُدُودِ إِلَى الْآنِ.

وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ قَدْ أَتَى بِمَخْدَجٍ - أَي: نَاقِصِ الْبَدَنِ - قَدْ خَبَثَ بِأَمْسَةٍ، فَقَالَ ﷺ: «خَذُوا عَشْكَالًا^(٢) فِيهِ مِائَةُ شَمْرَاخٍ، فَاضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةً».

وَرَوَى الْعِيَّاشِيُّ بِإِسْنَادِهِ أَنَّ عَبَادَ الْمَكِّيَّ قَالَ: قَالَ لِي سَفِيَّانُ الثَّوْرِيُّ: إِنِّي أَرَى لَكَ مِنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مَنَزَلَةً، فَاسْأَلْهُ عَنْ رَجُلٍ زَنَى وَهُوَ مَرِيضٌ، فَإِنْ أَقِيمَ الْحَدَّ عَلَيْهِ خَافُوا أَنْ يَمُوتَ، مَا تَقُولُ فِيهِ؟ قَالَ: فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ لِي: «هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ تَلَقُّاءِ

(١) الشَّامِرِخُ جَمْعُ الشِّمْرَاخِ، وَهُوَ الْفَصَنُ عَلَيْهِ تَمَرٌ أَوْ عَنَبٌ.

(٢) الْعِشْكَالُ: هُوَ فِي النَّخْلِ بِمَنْزِلَةِ الْعَنْقُودِ فِي الْكَرَمِ.

نفسك، أو أمرك به إنسان؟ فقلت: إن سفيان الثوري أمرني أن أسألك عنها. فقال: إن رسول الله ﷺ أتني برجل قد استسقى بطنه، وبدت عروق فخذه، وقد زنى بامرأة مريضة، فأمر رسول الله ﷺ فأتني بعرجون فيه مائة شمراخ، وضربه به ضربة وضربها به ضربة، وخلى سبيلهما. وذلك قوله تعالى: «وخذ بيدك ضعفاً فاضرب به ولا تحنث».

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ ضَالِّاً﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال. ولا يخل به شكواه إلى الله من الشيطان، فإنه لا يسمي جزعاً، كتمني العافية وطلب الشفاء. مع أنه قال ذلك خيفة على قومه، حيث كان الشيطان يوسوس إليهم، كما كان يوسوس إليه أنه لو كان نبياً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به. وأيضاً أراد بذلك القول القوّة على الطاعة، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق عضو غير مؤف إلا القلب واللسان.

وروي: أنه قال في مناجاته: إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يهتني^(١) ما ملكت يميني، ولم آكل إلا ومعني يتيم، ولم أبت شعبان ولا كاسياً ومعني جائع أو عريان. فكشف الله عنه.

﴿يَغْمُ الْعَبْدُ﴾ أيوب ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجّاع إلى الله، منقطع إليه، مقبل بشارشه عليه.

وَأَذْكُرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾
 إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ
 الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

(١) أي: لم يهتجني ولم ينشطني. من: هبّ الرجل: نشط وأسرع. وهبّت الريح: هاجت.

ثم عطف سبحانه على ما تقدّم حديث الأنبياء الصابرين على البلوى، فقال:
﴿وَأَذْكُرْ﴾ يا محمد لأمتك **﴿عِبَادَنَا إِبرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾** ليقصدوا بهم
 في حميد أفعالهم وكرم خلاصهم، فيستحقّوا بذلك حسن الثناء في الدنيا وجزيل
 الثواب في العقبى، كما استحقّ هؤلاء الأنبياء.

وقرأ ابن كثير: عبدنا، فوضع الجنس موضع الجمع، على أنّ إبراهيم وحده -
 لمزيد شرفه - عطف بيان له، ثم عطف ذرّيته على: عبدنا.

﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ أولي القوّة في الطاعة **﴿وَالْأَنْصَارِ﴾** وأولي البصيرة في
 الدين. أو المعنى: أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة. ولما كانت أكثر الأعمال
 تباشر بالأيدي غلبت، ف قيل في كلّ عمل: هذا ممّا عملت أيديهم، وإن كان عملاً لا
 يتأتّى فيه المباشرة بالأيدي، أو كان العمل جذماً^(١) لا أيدي لهم.

وفيه تعريض بأنّ الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا
 يفكّرون أفكار ذوي الديانات، ولا يستبصرون، في حكم الزمنى^(٢) الذين لا
 يقدرون على أعمال جوارحهم، والمسلوبى العقول الذين لا استبصار لهم.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ أي: جعلناهم خالصين لنا **﴿بِخَالِصَةٍ﴾** بخصلة خالصة لا
 شوب فيها. يعني: بسبب هذه الخصلة أخلصناهم. أو أخلصناهم بتوفيقهم لها،
 واللفظ بهم في اختيارها.

ثم فسّر هذه الخصلة الخالصة بقوله: **﴿يُذَكِّرُنَا الدَّارِ﴾** تذكيرهم الآخرة،
 وترغيبهم فيها، وترهيدهم في الدنيا، كما هو شأن الأنبياء وديّنتهم. وإنّما قال:
 خلوصهم في الطاعة بسبب التذكير، لأنّ مطمح نظرهم فيما يأتون ويذرون جوار
 الله والفوز بملقائه، وذلك في الآخرة.

(١) أي: مقطوعي الأيدي.

(٢) أي: المبتلين بالزمانة وتعطيل القوى.

وقيل: ذكرى الدار: الثناء الجميل في الدنيا. ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم.

وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار الحقيقية، فإن الدنيا معبر وممر لا مقر، فإطلاق الدار عليها مجاز. يعني: إنما همهم ذكر الدار، لا غيرها من ذكر الدنيا. وأضاف نافع وهشام «بخالصة» إلى «ذكرى» للبيان، أو لأنه مصدر بمعنى الخلو، فأضيف إلى فاعله.

﴿وَأَنَّهُمْ عِندَنَا﴾ بحسب ما سبق في علمنا ﴿لَعَنَ الْمُضْطَفِّينَ﴾ لمن المختارين من بين أمثالهم ﴿الْأَخْيَارِ﴾ العاملون فعل الخيرات. جمع خير، كشر وأشرار. وقيل: جمع خير أو خير على تخفيفه، كأموال في جمع مئ أو ميت. ﴿وَأَذْكُرْ﴾ أيضاً لأمتك ﴿إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ وهو ابن أخطوب. استخلفه إلياس على بني إسرائيل، ثم استنبى. والظاهر أنه اسم عجمي، فدخل عليه اللام، كما في قوله: رأيت الوليد بن يزيد مباركاً. وقرأ حمزة والكسائي: وَالْيَسَعَ، بإدخال حرف التعريف على يسع، تشبيهاً بالمنقول، من: ليسع، فيعل من اللسع.

﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ ابن عم يسع، أو بشر بن أيوب. وفي نبوته ولقبه اختلاف. فقيل: فر إليه مائة نبي من بني إسرائيل من القتل، فأواهم وكفلهم. وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة الجنة. ﴿وَكُلُّ﴾ التنوين عوض من المضاف إليه. والمعنى: وكلهم ﴿مِنَ الْأَخْيَارِ﴾.

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْهُنَّ لَهُمُ
الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾

وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ
 ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرْزُقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ
 ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ
 ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ
 إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مُمِئْتُمْ لَنَا فَبِئْسَ
 الْفِرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾
 وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًا
 أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم من أمورهم ﴿ذِخْرٌ﴾ ذكر جميل وشرف لهم. أو

نوع من الذكر، وهو القرآن.

وفي الكشف: «لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه، وهو باب من أبواب التنزيل،

ونوع من أنواعه، وأراد أن يذكر على عقبه باباً آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، وما
 أعد لهم فيها، قال: هذا ذكر»^(١).

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ مرجع حسن ﴿جَنَّاتٍ عَذْنٍ﴾ عطف بيان

«حسن مآب». وهو من الأعلام الغالبة، لقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَذْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾^(١). والعدن: بمعنى الإقامة والخلود. وانتصب عنها ﴿مُفْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ﴾ على الحال. والعامل فيها ما في معنى المتقين من معنى الفعل. كأنه قيل: جَنَّاتٍ عدن استقرت للمتقين، حال كونها مفتحة لهم الأبواب، فيجدون أبوابها مفتوحة حين يرونها، ولا يحتاجون إلى الوقوف عند أبوابها حتى يفتح. وفي «مفتحة» ضمير الجئات. و«الأبواب» بدل من الضمير، تقديره: مفتحة هي الأبواب، كقولك: ضرب زيد اليد والرجل. وهو من بدل الاشتمال.

﴿مُتَكِنِينَ فِيهَا﴾ مستندين فيها إلى المساند، جالسين جلسة الملوك ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أي: يتحكمون في ثمارها وشربها، فإذا قالوا لشيء منها: أقبل، حصل عندهم.

واعلم أن «متكين» و«يدعون» حالان متعاقبان أو متداخلان من الضمير في «لهم»، لا من «المتقين» للفصل. والأظهر أن «يدعون» استئناف لبيان حالهم فيها، و«متكين» حال من ضمير «يدعون». والاقتصار على الفاكهة للإشعار بأن مطاعهم لمحض التلذذ، فإن التغذي للتحلل، ولا تحلل ثمة.

﴿وَعِنْدَهُمْ﴾ في هذه الجنان زوجات ﴿قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ﴾ قصرن طرفهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غير أزواجهن، راضيات بهم، ما لهن في غيرهم رغبة. والقاصر: نقيض الماد. يقال: فلان قاصر طرفه عن فلان، وماذ عينه إلى فلان. ﴿أَنْزَابٍ﴾ لدات^(٢) لأزواجهن، أي: يكون أسنانهم كأسنانهم، لأن التحاب بين الأقران أثبت. واشتقاقه من التراب، فإنه يمسهم في وقت واحد. وعن مجاهد: أي: متساويات في مقدار الشباب والحسن، لا يكون لواحدة

(١) مريم: ٦١.

(٢) اللدات جمع اللدة: الترتب، وهو الذي ولد معك أو تربى معك. يقال: هو لدتي، أي: تربى.

على صاحبها فضل في ذلك، ولا تكون فيهنّ عجوز ولا صبيّة.

﴿هَذَا﴾ هذا الذي ذكرنا ﴿مَا تَوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ لأجل هذا اليوم، فإنّ الحساب علّة الوصول إلى الجزاء. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء^(١) ليوافق ما قبله. ﴿إِنْ هَذَا﴾ هذا الذي ذكرنا ﴿لَرِزْقَنَا﴾ عطاؤنا ﴿مَالَهُ مِنْ نَفَائِدِ﴾ انقطاع.

ولمّا بيّن سبحانه أحوال أهل الجنة وما أعدّ لهم من جزيل الثواب، عقّبه ببيان أحوال أهل النار، وما لهم من أليم العقاب وعظيم العذاب، فقال:

﴿هَذَا﴾ أي: هذا ما ذكرناه للمتّقين. أو الأمر هذا، أو هذا كما ذكر، أو خذ هذا. ثمّ ابتدأ فقال: ﴿وَإِنْ لِّلطَّاغِيَةِ﴾ للذين طغوا على الله وكذبوا رسله عناداً ﴿نَشْرُ مَا بِ﴾ وهو ضدّ مآب المتّقين ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها فيصرون صلاء لها. والجملة الفعلية حال من «جهنّم»، والعامل فيها ما في «الطّاغين» من معنى الاستقرار. ﴿فَيَفْسُدُ الْمِهَادُ﴾ المهد والمفرش. فشبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفرشه النائم. والمخصوص بالذمّ محذوف، وهو «جهنّم»، لقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوَاقِبِهِمْ غَوَاقِبُ﴾^(٢).

﴿هَذَا﴾ أي: العذاب هذا ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ ويجوز أن يكون «هذا» بمنزلة: ﴿وَأَيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾^(٣) أي: فليذوقوا هذا. ثمّ ابتدأ فقال: ﴿حَمِيمٌ﴾ أي: هو ماء في غاية الحرارة ﴿وَعَسَاقٌ﴾ ما يفسق من صديد أهل النار. من: غسقت العين إذا سال دمعها.

وعن كعب: عين في جهنّم يسيل إليها سمّ كلّ ذات حمة. وعن ابن عبّاس وابن مسعود: العساق: الزمهرير.

(١) أي: يُوعَدُونَ.

(٢) الأعراف: ٤١.

(٣) البقرة: ٤١.

وقيل: الحميم يحرق لشدة حرّه، والغساق يحرق لغاية برده.

وقيل: لو قطرت قطرة في المشرق لتنت أهل المغرب، ولو قطرت منه قطرة في المغرب لتنت أهل المشرق.

وعن الحسن: الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله، إن الناس أخفوا الله طاعة، فأخفى لهم ثواباً في قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(١). وأخفوا معصية، فأخفى لهم عقوبة.

وقرأ حفص وحزمة والكسائي: وغساق بتشديد السين. وفيه مبالغة.

﴿وَأَخْرُ﴾ أي: مذوق، أو عذاب آخر. وقرأ البصريان: وأخرى، أي: ومذوقات، أو أنواع عذاب آخر ﴿مِنْ شَخْلِهِ﴾ من مثل هذا المذوق، أو العذاب في الشدة. وتوحيد الضمير على تأويل: لما ذكر. أو لأنه راجع إلى الشراب الشامل للحميم والغساق، أو إلى الغساق. ﴿أَزْوَاجٍ﴾ أجناس متشابهة في الشدة والفظاظة. وهذا خبر لـ«آخر». أو صفة له، أو للثلاثة. وجمعه على قراءة «آخر» ظاهر. وعلى قراءة «آخر» لأن المراد منه ضروب وأنواع. أو مرتفع بالجار، والخبر محذوف، مثل: لهم أزواج.

ولما دخل رؤساء الطاغين وقادة الضالين النار، ثم يدخلها أتباعهم، فيقول بعضهم مع بعض، أو يقول الخزنة لهم: ﴿هَذَا فَوْجٌ﴾ المراد أتباع ﴿مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ قد اقتحموا النار معكم، أي: دخلوا النار في صحبتكم وقرانكم. والافتحام: ركوب الشدة والدخول فيها. والقحمة: الشدة. يعني: أنهم لما اقتحموا معهم الضلالة، اقتحموا معهم العذاب.

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ دعاء من المتبوعين على أتباعهم. أو صفة لـ«فوج». أو حال، أي: مقولاً فيهم لا مرحباً، أي: لا نالوا سعة وكرامة. ﴿إِنَّهُمْ ضَالُّوا النَّارِ﴾

داخلون النار لازموها بأعمالهم مثلنا.

﴿قَالُوا﴾ يقول الأتباع لهم ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ لا نلتئم رحباً وسعة ﴿أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ﴾ قدتم العذاب أو الصلى ﴿لَنَا﴾ أي: يا غوائلكم إيانا على ما قدم العذاب لنا، من العقائد الزائفة والأعمال القبيحة التي أوجبت لنا هذا العذاب ﴿فَبَشِّرْ الْقَرَارُ﴾ فبشّر المقرّ جهنّم. وعلى تقدير أن يكون «لا مرحباً بهم» من كلام الخزنة معناه: يقول الأتباع: هذا الذي دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحقّ به منا، لإغوائكم إيانا، وتسبيكم فيما نحن فيه من العذاب.

﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباع أيضاً ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ من سبّب لنا هذا العذاب بالإضلال والإغواء ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ مضاعفاً، أي: ذا ضعف ﴿فِي النَّارِ﴾ وذلك أن يزيد على عذابه ضعفاً مثله، فيصير ضعفين، أحدهما: لكفرهم بالله، والآخر: لدعائهم إيانا إلى الكفر. ونحوه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(١). ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾^(٢). وقيل: عذاباً ضعفاً: حيات وأفاعي.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: الطاغون ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى، لأنهم كانوا على خلاف ديننا ﴿أَتَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًا﴾ صفة أخرى لـ«رجالاً». يعنون فقراء المسلمين الذين يستردلونهم في الدنيا، ويسخرون بهم.

وقرأ الحجازيان وابن عامر بهمة الاستفهام. على أنه إنكار على أنفسهم، وتقرّيع لها في الاستسغار منهم. وقرأ نافع وحزمة والكسائي: سُخْرِيًا بالضمّ. وقد

(١) الأحزاب: ٦٨.

(٢) الأعراف: ٣٨.

سبق مثله في المؤمنين^(١).

﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت ﴿عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ فلا نراهم. و«أَمْ» متصلة معادلة لـ«ما لنا لا نرى» على أن المراد نفي رؤيتهم لغيبتهم. كأنهم قالوا: أليسوا هاهنا، أم زاغت عنهم أبصارنا. أو لـ«اتَّخَذْنَاهُمْ»^(٢) على القراءة الثانية، بمعنى: أي الأمرين فعلنا بهم؟ الاستسغار منهم أم تحقيرهم؟ فَإِنَّ زَيْغَ الْأَبْصَارِ كناية عنه، على معنى إنكارهما على أنفسهم.

وعن الحسن: كل ذلك قد فعلوا، اتَّخَذُوهُمْ سَخِرِيًّا، وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم.

أو منقطعة^(٣). والمراد الدلالة على أن استرذالهم والاستسغار منهم كان لزيغ أبصارهم وقصور أنظارهم على رثالة حالهم.

عن مجاهد: نزلت في أبي جهل والوليد بن المغيرة ونظرائهما، يقولون: ما نرى عماراً وخباباً وصهيباً وبلالاً، الَّذِينَ كُنَّا نَعُدُّهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ جُمْلَةِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ الشَّرَّ وَالْقَبِيحَ، ولا يفعلون الخير.

وروى العياشي بالإسناد عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَقُولُونَ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ يَحْنُونَكُمْ لَا يَرُونَكُمْ فِي النَّارِ، لَا يَرُونَ وَاللَّهِ أَحَدًا مِنْكُمْ فِي النَّارِ».

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الَّذِي حَكِيْنَاهُ عَنْهُمْ ﴿لَحَقُّ﴾ لا بد أن يتكلموا به. ثم بَيَّنَّ ما هو، فقال: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ وهو بدل من «الحق». أو خبر محذوف، أي: هو تخاصمهم. شبه تقاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين

(١) المؤمنون: ١١٠.

(٢) عطف على قوله: معادلة لـ«ما لنا لا نرى» قبل سطرين، أي: معادلة لـ«اتَّخَذْنَاهُمْ».

(٣) عطف على قوله: متصلة معادلة، قبل سبعة أسطر.

المتخاصمين من نحو ذلك. ولأنَّ قول الرؤساء: «لا مرحباً بهم» وقول أتباعهم: «بل أنتم لا مرحباً بكم» من باب الخصومة. فسَمِيَ التَّقاوُلُ كُلُّهُ تخاصماً لأجل اشتماله على ذلك.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾
أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ
﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ
إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا
لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ
أَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا
خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي
مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ
عَذَابَكَ لَغَنِيٌّ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ

لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ
وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

ثم خاطب نبيّه ﷺ، فقال تقريراً لألوهيته ووحدانيته: ﴿قُلْ﴾ يا محمد
للمشركين ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ أنذركم عذاب الله ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ﴾ يحقُّ العبادة ﴿إِلَّا اللَّهُ
الْوَّاحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشركة والكثرة في ذاته ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء.
﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ منه خلقها، وإليه أمرها ﴿الْعَزِيزُ﴾
الذي لا يغلب إذا عاقب. وهو مع ذلك ﴿الْغَفَّارُ﴾ الذي يغفر ما يشاء من الذنوب
لمن التجأ إليه. يعني: أنذركم عقوبة من هذه صفته، فإن مثله حقيق بأن يخاف
عقابه، كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه. وفي الآية تقرير للتوحيد، ووعد ووعد
للموحدّين والمشرّكين.

﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: ما أنبأتكم به من أنني أنذر من عقوبة من كان موصوفاً بهذه
الصفات، وأنه واحد في ألوهيته. وقيل: ما بعده من نبي آدم. ﴿نَبِيًّا عَظِيمًا﴾ لا يعرض
عن مثله إلا غافل شديد الغفلة. ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لتماذي غفلتكم، فإن العاقل
لا يعرض عن مثله، كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة. أما على التوحيد فما
مرّ. وأما على النبوة فقول: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْعَلَاءِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فإن
الإخبار عن تقاؤل الملائكة وما جرى بينهم، على ما ورد في الكتب المتقدمة، من
غير سماع ومطالعة كتب، لا يتصوّر إلا بالوحي.

و«إذ» متعلّق بـ«علم». أو بمحذوف، إذ التقدير: ما كان لي من علم بكلام الملائكة
الأعلى وقت اختصاصهم.

﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا لِنَذَارٍ﴾ أي: لأنما أنا نذير. يعني: ما يوحى إليّ إلا للإنذار، فحذف اللام وانتصب بإفشاء الفعل إليه. كأنه لما نبه على أن الوحي يأتيه، بين بذلك ما هو المقصود به تحقيقاً لقوله: إنما أنا منذر. ويجوز أن يرتفع «أنما» بإسناد «يوحي» إليه، أي: ما يوحى إليّ إلا أن أنذر وأبلغ، ولا أفرط في ذلك، أي: ما أومر إلا بهذا الأمر وحده، وليس إليّ غير ذلك.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ بدل من «إذ يختصمون» مبين له، فإن القصة التي دخلت عليها «إذ» مشتملة على تقاؤل الملائكة وإبليس في خلق آدم، واستحقاقه للخلافة والسجود، على ما مرّ في سورة البقرة^(١). غير أنها اختصرت اكتفاءً بذلك، واقتصاراً على ما هو المقصود منها، وهو إنذار المشركين على استكبارهم على النبي ﷺ، بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم. ومن الجائز أن يكون مقاوله الله إيتاهم بواسطة ملك، فكأنّ المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط، فصحّ أن التقاؤل كان بين الملائكة وآدم وإبليس، وهم الملائكة الأعلى. والمراد بالاختصام التقاؤل، على ما سبق. وأن يفسّر الملائكة الأعلى بما يعيهم الله والملائكة.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ عدلت خلقت، بأن تملت أعضائه، وصوّرت على وجه الكمال ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وأحييته بنفخ الروح فيه. وإضافته إلى نفسه لشرفه وطهارته. ﴿فَقَعُوا لَهُ﴾ فخرّوا له ﴿سَاجِدِينَ﴾ تكرمة وتبجيلاً له. وقد مرّ الكلام فيه في البقرة^(٢).

(١) راجع ج ١ ص ١٢٠ - ١٣٠.

(٢) راجع ج ١ ص ١٢٠ - ١٤٢، ذيل الآيات ٣٠ - ٣٨ من سورة البقرة.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ذكر «كلّ» للإحاطة. و«أجمعون» للاجتماع. فأفاداً معاً أنهم سجدوا عن آخرهم، ما بقي منهم ملك إلا سجد، وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير متفرقين في أوقات.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ تعظّم ﴿وَكَانَ﴾ وصار ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ باستكباره أمر الله، واستكباره عن المطاوعة. أو كان منهم في علم الله. وإبليس وإن لم يكن من الملائكة بل من الجنّ، إلا أنه قد أمر بالسجود معهم، فغلّبوا عليه في قوله: «فسجد الملائكة». ثم استثنى كما استثنى الواحد منهم استثناءً متصلاً. وتفصيل ذلك أيضاً قد مرّ في البقرة.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ تولّيت خلقه بنفسي من غير توسط، كأب وأمّ. والتثنية لما في خلقه من مزيد القدرة. وقد سبق أنّ ذا اليمين يباشر أكثر أعماله بيديه، فغلّب العمل باليمين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما، حتّى قيل في عمل القلب: هو ممّا عملت يداك، وحتّى قيل لمن لا يدين له: فعلت يداك كذا وكذا، وحتّى لم يبق فرق بين قولك: هذا ممّا عملته يداك، وهذا ممّا عملته. وإطلاق لفظ اليد على القدرة والقوة في كلام العرب شائع.

وترتيب الإنكار على قوله: «لما خلقت بيدي» للإشعار بأنّه المستدعي للتعظيم، أو بأنّه الذي تشبّث به في تركه، وهو لا يصلح مانعاً، إذ للسيد أن يستخدم بعض عبيده لبعض، سيّما وله مزيد اختصاص.

﴿اسْتَكْبَرَتْ﴾ تكبّرت من غير استحقاق ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ممّن علا واستحقّ التفوّق. وقيل: استكبرت الآن، أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين؟ ﴿قَالَ﴾ أي: أجاب إبليس بإظهار المانع ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ ثمّ استدلّ على المانع بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ أي: لو كان مخلوقاً من نار

لما سجدت له، لأنّه مثلي، فكيف أسجد لمن هو أدنى؟ لأنّه من طين، والنار تغلب الطين وتأكله. وأيضاً النار جسم لطيف نوراني، والطين جسم كثيف ظلماني. وهذه الجملة جرت مجرى عطف البيان من الجملة الأولى.

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ من الجنة، أو من السماء. وقيل: من الخلقة التي أنت فيها، لأنّه كان يفتخر بخلقته، فغيّر الله خلقة فاسودّ بعد ما كان أبيض، وقبح بعد أن كان حسناً، وأظلم بعد ما كان نورانياً. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مرجوم مطرود من الرحمة ومحلّ الكرامة. وأصل الرجم: الرمي بالحجارة.

﴿وَأَنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ليس معناه: أنّ لعنة إبليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع. وكيف تنقطع، وقد قال الله سبحانه: ﴿فَإِذَنْ مُّوَدَّنَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(١). بل المعنى: أنّ عليه اللعنة في الدنيا، فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعنة ما ينسى عنده اللعنة الدنيويّة، فكانها انقطعت.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فأخّرني إلى يوم يحشرون للحساب. وهو يوم القيامة. ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ المؤخّرين ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى. ويومه: اليوم الذي وقتها جزء من أجزائه. فالإضافة هي إضافة الكلّ إلى جزئه. ومعنى «المعلوم» أنّه معلوم عند الله معيّن لا يستقدم ولا يستأخر.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ فبسلطانك وقهرك على جميع خلقك ﴿لَأُعْزِزَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: بني آدم كلّهم ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ الذين أخلصوا قلوبهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بفتح اللام، أي: الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته، وعصمهم من الضلالة.

﴿وَقَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ أي: فأحق الحق وأقوله. وقيل: الحق الأول اسم الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾^(١). أو الحق الذي هو نقيض الباطل. ونصبه بحذف حرف القسم. وعلى هذا قوله: «والحق أقول» معترض بين القسم وجوابه، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ﴾ أي: من جنسك، ليتناول الشياطين ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من الناس، إذ الكلام فيهم. أو من الثقلين. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لضمير «منهم»، أو الكاف في «منك»، أولهما معاً. ومعناه: لأملأن جهنم من الشياطين المتبوعين أجمعين. أو التابعين من الناس أو الثقلين جميعاً. أو من جميع المتبوعين وجميع التابعين. والجملة تفسير للحق المقول.

وقرأ عاصم وحزمة برفع الأول على الابتداء، أي: الحق يعني أو قسمي، أو الخبر، أي: أنا الحق.

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

ثم خاطب النبي ﷺ فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن أو تبليغ الوحي ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من مال تعطونه ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتصفين بما ليسوا من أهله. وما عرفتموني قط متصنعاً، ولا مدعياً ما ليس عندي، حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن.

وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات: ينزع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم».

وروى البخاري في الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنّ من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، فإنّ الله تعالى قال لنبّه ﷺ: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ»^(١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة ونصيحة من الله ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للثقلين، أوحى إليّ فأنا أبلغه. وقيل: ما القرآن إلا شرف لمن آمن به. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: صدق خبر ما فيه من الوعد والوعيد بإتيان ذلك ﴿بَعْدَ جِيئٍ﴾ بعد الموت، أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام. وفيه تهديد.

سورة الزمر

وتسمى أيضاً سورة الغرف. وهي مكية كلها. وقيل: سوى ثلاث آيات نزلن بالمدينة في وحشي قاتل حمزة: «قل يا عبادي...» إلى آخرهن، كما سيجيء. وقيل: غير آية «قل يا عبادي». وآياها خمس وسبعون آية. أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه، وأعطاه ثواب الخائفين الذين خافوا الله تعالى». وروى هارون بن خارجة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ سورة الزمر أعطاه الله شرف الدنيا والآخرة، وأعزّه بلا مال ولا عشيرة، حتى يهايه من يراه، وحرّم جسده على النار. ويبنى له في الجنة ألف مدينة، في كلّ مدينة ألف قصر، في كلّ قصر مائة حوراء، وله مع ذلك عينان تجريان، وعينان نضّاختان، وجنتان مدهامتان، وهور مقصورات في الخيام».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ

أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفِيَ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ
الْغَفَّارُ ﴿٥﴾

واعلم أنه سبحانه لما ختم سورة «ص» بذكر القرآن، افتتح هذه السورة أيضاً
بذكره، فقال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ خبر محذوف. أو مبتدأ، خبره
﴿مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وهو على الأول صلة التنزيل، كما تقول: نزل من عند الله.
أو خبر ثانٍ، تقديره: هذا تنزيل الكتاب، هذا من الله. أو حال من التنزيل عمل فيها
معنى الإشارة. والظاهر أن الكتاب على الأول السورة. والمعنى: هذا إنزال السورة
على محمد شيئاً فشيئاً. وعلى الثاني القرآن، أي: إنزال القرآن على التدرّج من الله
المتعالي عن المثل والشبه، الحكيم في أفعاله وأقواله. وصف نفسه هنا بالعزة
تحذيراً من مخالفة كتابه، وبالحكمة إعلماً بأنه يحفظه حتى يصل إلى المكلفين من
غير تغيير لشيء منه.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بالأمر الحق، أي: بالدين الصحيح.
أو بسبب إثبات الحق وإظهاره وتفصيله.

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا﴾ محضاً ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك، بالتوحيد وتصفية
السّر. وتقديم الجار لتأكيد الاختصاص المستفاد من اللام، كما في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ
الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: ألا هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة، فإنه
المتفرد بصفات الألوهية، والإطلاع على الأسرار والضمائر.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يحتمل المتّخذين، وهم الكفرة. والضمير
راجع إلى الموصول. والمتّخذين، وهم الملائكة وعيسى والأصنام. والضمير راجع

إلى المشركين. ولم يجر ذكرهم لدلالة الميثاق عليهم. والراجع إلى «الذين» محذوف. والمعنى: والذين اتخذهم المشركون أولياء.

وعلى الأول الموصول مبتدأ، خبره ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ بإضمار القول، أو ﴿إِنَّ اللَّهَ يَخْتَصِمُ بَيْنَهُمْ﴾ وهو متعين على الثاني. وعلى هذا يكون القول المضمر بما في حيزه حالاً، أي: قائلين ذلك. أو بدلاً من الصلة، فلا يكون له محل من الإعراب، كما أن المبدل منه كذلك.

﴿فِي مَا هُمْ يَخْتَفُونَ﴾ من الدين، بإدخال المحققين الجنة، والمبطلين النار، مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من دون الله، فيعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حسب جهنم. والضمير للكفرة ومقابلهم، أعني: المسلمين. وقيل: لهم ولعبودهم، فإنهم يرجون شفاعتهم وهم يلعنونهم.

وقيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السماوات والأرض؟ أقرؤا وقالوا: الله. فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. فالضمير في «بينهم» عائد إليهم وإلى المسلمين. والمعنى: أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ على الله وعلى رسوله ﴿خَفَازٌ﴾ جاحد للوحدانية عناداً ولجأً. والمراد بمنع الهداية: منع اللطف، تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنهم في علم الله من الهالكين. أو المراد عدم هدايتهم إلى طريق الجنة، أو عدم الحكم بهدايته إلى الحق.

ومن جملة كذبهم على الله قولهم: الملائكة بنات الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، وقول اليهود: عزيز ابن الله. ولذلك عقبه محتجاً عليهم بقوله: ﴿لَوْ أَزَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْجِذَ وَلَدًا﴾ كما زعموا ﴿لَأَضْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوقه، لقيام الدلالة على امتناع وجود واجبين، ووجوب استناد ما عدا الواجب إليه. ومن البين أن المخلوق لا يماثل الخالق، فيقوم مقام الولد له.

ثم قرر ذلك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فإن الألوهية الحقيقية تتبع الوجوب المستلزم للوحدة الذاتية، وهي تنافي المماثلة فضلاً عن التوالد الذي يتوقف على التجانس، لأن كل واحد من المثليين مركب من الحقيقة المشتركة

والتعيين المخصوص، والقهارية المطلقة تنافي قبول الزوال المحوج إلى الولد.
ثم استدلّ على ذلك بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَنْحَقٍ﴾ أي: لم
يخلقهما باطلاً لغیر غرض صحيح، بل خلقهما للغرض الحكيم.

﴿يَكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي: يغشي كلّ واحد منهما
الآخر، بأن يجعلهما خلفه يذهب هذا ويغشي مكانه هذا، وإذا غشى مكانه كأنه يلقفه
عليه لفّ اللباس على اللابس. يقال: كار العمامة على رأسه إذا لفته ولواه. أو يغيبه
به، كما يغيب الملفوف باللفافة عن مطامح الأبصار. أو يجعله كازراً عليه كروراً
متتابعاً، تتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بأن أجراهما على وتيرة
واحدة وفق المشيئة، لوقت معلوم في الشتاء والصيف. وهو منتهى دورهما، أو
منقطع حركته.

﴿إِلَهُ الْغَزِيَّزِ﴾ القادر على كلّ ممكن، الغالب على كلّ شيء. ﴿الْمُقَفَّازِ﴾
حيث لم يعاجل بالعقوبة، ولم يسلب ما في هذه الصنائع من الرحمة وعموم المنفعة.
فسمّى الحلم مغفرة. ومن قدر على خلق السماوات والأرض، وتسخير الشمس
والقمر، وإدخال الليل في النهار، فهو منزّه عن اتّخاذ الولد والشريك، فإنّ ذلك من
صفة المحتاجين.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ
ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ
ثَلَاثِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِي تُصْرَفُونَ ﴿٦٦﴾

ثم استدلّ استدلالاً آخر بما أوجده في العالم السفلي مبدوءاً به من خلق
الإنسان، لأنّه أقرب وأكثر دلالة وأعجب، فقال:

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم ﷺ ﴿ثُمَّ جَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: حواء، من ضلع من أضلاعه. وقيل: من فضل طيبته. وفي خلق الإنسان ثلاث دلالات: خلق آدم أولاً من غير أب وأم. ثم خلق حواء من ضلعه الأسفل الذي هو أقصر الأضلاع. ثم تشعيب الخلق الفاتت للحصر منهما.

و«ثم» للعطف على محذوف هو صفة «نفس»، مثل: خلقها. أو على معنى «واحدة» أي: من نفس وحدت، ثم جعل منها زوجها، فشققها بها. أو على «خلقكم» لتفاوت ما بين الآيتين، فإن الأولى عادة مستمرة دون الثانية. فهو من التراخي في الحال والمنزلة، لا من التراخي في الوجود.

وقيل: أخرج من ظهره ذريته كالذر، ثم خلق حواء منه. وهذا ضعيف.

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ وقضى لكم أو قسم، فإن قضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء، حيث كتب في اللوح كل كائن يكون. أو أحدث لكم بأسباب نازلة، كأشعة الشمس والأمطار، فإنها لا تعيش إلا بالنبات، والنبات لا يقوم إلا بالماء، وهو نازل من السماء، فكأنه أنزل الأنعام منها. وهذا كقوله: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾^(١) ولم ينزل اللباس، ولكن أنزل الماء الذي هو سبب القطن والصوف، واللباس يكون منهما. فكذا الأنعام تكون بالنبات، والنبات يكون بالماء.

﴿فَتَأْتِيهِ أَزْوَاجٌ﴾ ذكر أو أنثى، من الإبل والبقر والضأن والمعز. والزواج: اسم لواحد يكون معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد ووتر. ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بيان لكيفية خلق ما ذكر من الأناسي والأنعام، إظهاراً لما فيها من عجائب القدرة، غير أنه غلب أولي العقل، أو خصهم بالخطاب، لأنهم المقصودون ﴿خُلِقُوا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ﴾ حيواناً سويّاً، من بعد عظام مكسوة لحماً، من بعد عظام عارية، من بعد مضغ، من

بعد علق، من بعد نطف ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن، والرحم، والمشيمة. وقيل: الصلب، والرحم، والبطن.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الذي هذه أفعاله ﴿إِنَّهُ رَبُّكُمْ﴾ هو المستحق لعبادتكم، الذي يملك التصرف فيكم ﴿لَهُ الْفُلُوكُ﴾ على جميع المخلوقات ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يشاركه في الخلق غيره ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ يعدل بكم عن عبادته إلى الإشراك.

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ عن إيمانكم، فإنكم المحتاجون إليه، لاستمراركم بالكفر، واستغفاركم بالإيمان ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ فكيف يخلق الكفر، كما زعمت الأشاعرة ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرض الشكر لكم، لأنه سبب فلاحكم. فإذا ما كره كفركم ولا رضي شكركم إلا لكم ولصالحكم، لا لأن منفعة ترجع إليه، فإنه الغني الذي لا يجوز عليه الحاجة. وقرأ ابن كثير ونافع في رواية وأبو عمرو والكسائي بإشباع ضمة الهاء، لأنها صارت بحذف الألف موصولة بمتحرك، فصارت مثل: له. وعن أبي عمرو ويعقوب إسكانها. وهو لغة فيها.

واعلم أن متطوق هذا أوضح دلالة على أنه سبحانه لا يريد الكفر الواقع من العباد، لأنه لو أراده لوجب متى وقع أن يكون راضياً به لعبده، لأن الرضا بالفعل ليس إلا ما ذكرناه. ألا ترى أنه يستحيل أن نريد من غيرنا شيئاً. ويقع منه على ما نريده، فلا نكون راضين به! أو أن نرضى شيئاً، ولم نرده البتة. ولقد تمحل بعض

الغواة ليثبت الله مانفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر. فقال: هذا من العام الذي أريد به الخاص. وما أراد إلا عباده الذين عناهم في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَنِيسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(١).

وتفصيل المبحث ذكره النيشابوري في تفسيره بهذه العبارة: «قال المعتزلة في قوله: «ولا يرضى لعباده الكفر» دليل على أَنَّ الكفر ليس بقضائه، وإلا لكان راضياً به. وأجاب الأشاعرة: بأنه قد علم من اصطلاح القرآن أَنَّ العباد المضاف إلى الله أو إلى ضميره هم المؤمنون. قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ﴾^(٢). ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾^(٣). فمعنى الآية: ولا يرضى لعباده المخلصين الكفر، وهذا ممّا لا نزاع فيه. أو نقول: سلّمنا أَنَّ كفر الكافر ليس برضا الله تعالى، بمعنى أَنّه لا يمدحه عليه، ولا يترك اللوم والاعتراض، إلا أَنّا ندّعي أَنّه بإرادته، وليس في الآية دليل على إبطاله»^(٤). انتهى كلامه.

وأقول: ضعف الجوابين ظاهر:

أما أولاً: فلأنّ النيشابوري قال بعد هذا القول بورقة في آية ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾^(٥): «إِنَّه قد مرَّ أَنَّ العباد في القرآن إذا كان مضافاً إلى ضمير الله اختصَّ بأهل الإيمان عند أهل السنة. وعندي لا مانع من التعميم هاهنا»^(٦). فظهر من كلامه القبح في الاصطلاح، والتعميم في العباد.

وذكر بعد هذا الكلام بورقتين في تفسير الآية الكريمة: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾^(٧) ما يعضده، حيث جوّز التعميم، وقدم

(١) الحجر: ٤٢.

(٢) الفرقان: ٦٣.

(٣) الانسان: ٦.

(٤ و ٦) غرائب القرآن ٥: ٦١٦.

(٥ و ٧) الزمر: ١٦ و ٥٣.

ما حَقَّه التقديم، قائلاً: «ثُمَّ إِنْ قَلْنَا: الْعِبَادَ عَامًّا، فَالْإِسْرَافُ عَلَى النَّفْسِ يَعْمُ الشَّرْكَ. وَلَا نَزَاعَ أَنَّ عَدَمَ الْيَأْسِ مِنَ الرَّحْمَةِ يَكُونُ مَشْرُوطًا بِالتَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ. وَإِنْ قَلْنَا: الْعِبَادَ الْمُضَافَ فِي عَرَفِ الْقُرْآنِ مُخْتَصًّا بِالْمُؤْمِنِينَ، فَالْإِسْرَافُ إِمَّا بِالصِّغَاثِرِ، وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّهَا مَكْفُورَةٌ مَا اجْتَنَبَ الْكِبَائِرَ. وَإِمَّا بِالْكِبَائِرِ، وَحِينَئِذٍ يَبْقَى النِّزَاعُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، فَالْمَعْتَزِلَةُ شَرْطُهَا التَّوْبَةُ، وَالْأَشَاعِرَةُ الْعَفْوُ»^(١).

وَأَمَّا ثَانِيًا: فَلَأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِإِرَادَةِ اللَّهِ شَيْئًا لَا يَرْضَى بِهِ كَمَا مَضَى، فَشَبَّتَ أَنَّ الْكُفْرَ لَيْسَ بِقَضَائِهِ، وَأَنَّهُ أَرَادَ الْإِيمَانَ مِنْ كُلِّ عِبَادِهِ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى حَسَنِ التَّوْفِيقِ وَهَدَايَةِ الطَّرِيقِ.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وَلَا تَحْمِلُ حَامِلَةٌ ثِقْلَ أُخْرَى، أَي: لَا يُوَاخِذُ بِالذَّنْبِ إِلَّا مَنْ يَرْتَكِبُهُ وَيَفْعَلُهُ ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ مَصِيرُكُمْ ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ فَيُخَبِّرُكُمْ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مَا عَمِلْتُمُوهُ بِالْمَحَاسِبَةِ وَالْمَجَازَاةِ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَائِلُ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ لآتِه حين الاضطراب زال ما ينزع العقل في الدلالة على أن مبدأ الكلّ منه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أعطاه. من الخَوْل، وهو التمهّد، من قولهم: هو خائل مال وخال مال، إذا كان متعهّداً له حسن القيام به. ومنه: ما روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يستخول أصحابه بالموعظة. أو من الخَوْل، وهو الافتخار. يقال: خال يخول إذا اختال وافترخ.

﴿نِعْمَةً مِنْهُ﴾ من الله، كالصحة والثروة والأمن ﴿نَسِي مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ﴾ أي: الضرّ الذي كان يدعو الله إلى كشفه. أو ربّه الذي كان يتضرّع إليه. «ما» بمعنى «من» كما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾^(١). ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل النعمة ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ أي: سمّى له أمثالاً في توجيه عبادته إليها من الأصنام والأوثان ﴿يُضِلُّ﴾ ليضلّ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ عن دينه.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء، أي: يضلّ هو عن الدين. يعني: أن نتيجة عمله لله أنداداً ضلاله عن سبيل الله أو إضلاله.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمر تهديد. وفيه إشعار بأن الكفر نوع تشي لا سند له. وإقناط للكافر من التمتع في الآخرة. ولذلك علّله بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ على سبيل الاستئناف للمبالغة. وهذا من باب الخذلان والتخلية. كأنه قيل له: إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة، فمن حقك أن لا تؤمر به بعد ذلك، وتؤمر بتركه، مبالغة في خذلانه وتخليته وشأنه، لآتِه لا مبالغة في الخذلان أشدّ من أن يبعث على عكس ما أمر به. ونظيره في المعنى قوله: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾^(٢).

﴿أَمْنَ هُوَ قَانِتٌ﴾ «أم» متّصلة بمحذوف، تقديره: أهذا الكافر الذي

(١) الليل: ٣.

(٢) آل عمران: ١٩٧.

ذكر وصفه خير «أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ» أي: قائم بوظائف الطاعات، دائم على رسوم العبادات «آتَاءَ اللَّيْلِ» ساعاته. وقرأ الحجازيان وحمزة بتخفيف الميم، أي: أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ لله كمن جعل له أنداداً؟! «سَاجِدًا» تارةً في الصلاة «وَقَائِمًا» أخرى فيها. وهما حالان من ضمير «قانت». يعني: من صلى صلاة الليل ويقت في الوتر. وهو دعاء المصلي قائماً. وفي الحديث: «أفضل الصلاة طول القنوت».

«يَخْذَرُ الْآخِرَةَ» عذابها «وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ» أي: يتردد بين الخوف والرجاء. وهما في موضع الحال، أو استئناف للتعليل.

ثم نفى استواء الفريقين باعتبار القوة العلمية، بعد نفي استوائهما باعتبار القوة العملية، على وجه أبلغ، لمزيد فضل العلم، فقال:

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» وأراد بالذين يعلمون العالمين من علماء الديانة، فكأنه جعل من لا يعمل غير عالم. وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقتنون ويفتنون، ثم يفتنون بالدين، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العالمين المتقين.

وقيل: هذا تقرير للأول على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوي العالمون وانجاهلون، لا يستوي القانتون والعاصون.

«إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ» بأمثال هذه البيانات. روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «نحن الذين يعلمون، وعدونا الذين لا يعلمون، وشيعتنا أولوا الأبواب».

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
 الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾
 قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ
 الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ
 الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مَنْ فَوْقَهُمْ ظُلُلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلُلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ
 بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُوا ﴿١٦﴾

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ عقاب ربكم بلزوم طاعته واجتناب
 معاصيه. وفيه دلالة على أَنَّ الإيمان يبقى مع المعصية.

ثم قال في مكافأة اتقائهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مشوبة
 جميلة غير مكتنهة بالوصف في الآخرة. وهي الخلود في الجنة. وقد علق السدي
 الظرف بـ«حسنة». ومعناه: لهم في هذه الدنيا ثناء حسن، وذكر جميل، وصحة
 وسلامة وعافية.

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فمن تعمّر عليه التوفّر على الإحسان في وطنه،
 فليهاجر إلى حيث يتمكن منه. يعني: لا عذر للمفّطين في الإحسان ألبتة، حتى إن
 اعتلوا بأوطانهم وبلادهم، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفّر على الإحسان وصرف
 الهمم إليه، فعليهم التحوّل إلى بلاد آخر، والاقتراء بالأنبياء الصالحين في مهاجرتهم

إلى غير بلادهم، ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم.
وقيل: نزلت في الذين كانوا في بلاد المشركين، فأمروا بالمهاجرة عنه،
كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾^(١).
وقيل: هي أرض الجنة. يعني: أرض الجنة واسعة، فاطلبوها بالأعمال
الصالحة.

﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ﴾ على مشاق الطاعة، من احتمال البلاء، ومهاجرة
الأوطان والعشائر والأصدقاء ﴿أَجْرُهُمْ يَبْغِيهِ حِسَابٌ﴾ أجراً لا يهتدي إليه حساب
الحساب. وقيل: بغير مكيال ولا ميزان.

وعن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْصُبُ الْمَوَازِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُؤْتِي بِأَهْلِ الصَّلَاةِ
فِيَوْقُونَ أَجُورَهُم بِالْمَوَازِينِ، وَيُؤْتِي بِأَهْلِ الصَّدَقَةِ فَيَوْقُونَ أَجُورَهُم بِالْمَوَازِينِ،
وَيُؤْتِي بِأَهْلِ الْحَجِّ فَيَوْقُونَ أَجُورَهُم بِالْمَوَازِينِ، وَيُؤْتِي بِأَهْلِ الْبَلَاءِ، فَلَا يَنْصَبُ لَهُمْ
مِيزَانَ وَلَا يَنْشُرُ لَهُمْ دِيُونَ، وَيَصُبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرَ صَبًّا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي
الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حَتَّى يَتِمَّتْ أَهْلُ الْعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا أَنَّ أَجْسَادَهُمْ
تَقْرَضُ بِالْمَقَارِظِ مِمَّا يَذْهَبُ بِهِ أَهْلُ الْبَلَاءِ مِنَ الْفَضْلِ».

وروى العياشي أيضاً بالإسناد عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:
«قال رسول الله ﷺ: إِذَا نَشَرْتُ الدَّوَاوِينَ، وَنَصَبْتَ الْمَوَازِينَ، لَمْ يَنْصَبْ لِأَهْلِ
الْبَلَاءِ مِيزَانَ، وَلَمْ يَنْشُرْ لَهُمْ دِيُونَ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ».

﴿قُلْ إِنِّي أَمِزْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ موخداً له ﴿وَأَمِزْتُ﴾ بذلك
﴿إِنَّ أَوَّلَ الْفُتُلِيمِينَ﴾ لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة، لأن قصب
السبق في الدين بالإخلاص، أو لأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره،
لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعاً، ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين

يأمرون بما لا يفعلون. أو أكون أول من خالف قريشاً في خلع الأصنام وحطمها. أو أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً.

والأمران المذكوران ليسا بواحد، لاختلاف جهتهما. وبيان ذلك: أن الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء، والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق في الدين شيء. وإذا اختلف وجه الشيء وصفاته، نزل بذلك منزلة شيئين مختلفين، فعطف الأمر الثاني على الأول، لمغايرته إياه بتقييده بالعلّة. وفيه إشعار بأنّ العبادة المقرونة بالإخلاص وإن اقتضت لذاتها أن يؤمر بها، فهي أيضاً تقتضيه، لما يلزمها من السبق في الدين.

ويجوز أن تجعل اللام مزيدة، كما في: أردت لأن أفعل، كأنّها زيدت عوضاً من ترك الأصل - الذي هو المصدر - إلى ما يقوم مقامه، كما عوض السين في: إسطاق، عوضاً من ترك الأصل الذي هو: أطوع. والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله: ﴿وَأَمِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١) ﴿وَأَمِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) ﴿أَمِزْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾^(٣). فيكون أمراً بالتقدّم في الإخلاص، والبدء بنفسه في الدعاء إليه بعد الأمر به.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك والرياء ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لعظمة ما فيه.

﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ أمر بالإخبار عن إخلاصه، وأن يكون مخلصاً له دينه، بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأموراً بالعبادة والإخلاص، خائفاً عن المخالفة من العقاب، قطعاً لأطماعهم. ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ تهديداً وخذلاناً لهم. فمنطوق هذه الآية غير منطوق قوله: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ

أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴿ فلا يلزم التكرير .

﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ الكاملين في الخسران، الجامعين لوجوهه وأسبابه
﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها بسبب الضلال
﴿ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ وخسروهم بالإضلال كما خسروا أنفسهم بالضلال ﴿ يَوْمَ النِّقَاطَةِ ﴾
حين يدخلون النار بدل الجنة .

وقيل : وخسروا أهلهم، لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما
خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده
إليهم، فلا ينتفعون بأنفسهم، ولا يجدون في النار أهلاً كما كان لهم في الدنيا أهل،
فقد فاتتهم المنفعة بأنفسهم وأهلهم .

وعن ابن عباس : إن الله تعالى جعل لكل إنسان في الجنة منزلاً وأهلاً، فمن
عمل بطاعته كان له ذلك، ومن عصاه دفع منزله إلى من أطاع . فذلك قوله . ﴿ أُولَئِكَ
هُمْ الْمُوَارِثُونَ ﴾ ^(١) الآية .

﴿ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ مبالغة في خسرانهم، حيث استأنف الجملة،
وصدّرها بحرف التنبيه، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرف الخسران،
ووصفه بالمبين .

ثم شرح كمال خسرانهم بقوله : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ أي : أطباق
وسرادات ^(٢) ﴿ مِنَ النَّارِ ﴾ ودخانها ﴿ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ من النار، هي ظلل
للآخرين، فإن النار أدراك ﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ ذلك العذاب هو الذي
يخوفهم به، ليجتنبوا ما يوقعهم فيه ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب
سخطي . وهذه نصيحة بالغة، وعظة بليغة من الله سبحانه .

(١) المؤمنون : ١٠ .

(٢) سرادات جمع سَرَادِق : الفسطاط الذي يمدّ فوق صحن البيت، أو الخيمة .

وَالَّذِينَ أَجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى
فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ
هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ
أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا
غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

وبعد ذكر التوعّد شرع في الوعد لمن اجتنب عن الشرك وسائر المعاصي، فقال: ﴿وَالَّذِينَ أَجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ البالغ غاية الطغيان. فعلوت منه، كالرحموت والملكوت بمعنى الرحمة الواسعة والملك المبسوط، إِلَّا أَنْ فِيهَا قَلْبًا بِتَقْدِيمِ اللّام على العين، فَإِنَّ أَصْلَهُ الطَّغْيُوتُ أو الطَّفُوتُ. وهي لمبالغة المصدر. وفيها مبالغات: التسمية بالمصدر، كأنَّ عين الشيطان طغيان، والبناء بناء المبالغة، والقلب. وهو للاختصاص، ولذلك اختصَّ بالشيطان. والمراد بها هنا الجمع. والمعنى: كلٌّ من دعا إلى عبادة غير الله من شياطين الجنِّ والإنس.

﴿أَنْ يَّعْبُدُوهَا﴾ بدل اشتغال من الطاغوت، أي: اجتنبوا عبادتها ﴿وَأَنَابُوا﴾ إلى الله ﴿وَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ بَشَرًا شَرَهُمْ عَمَّا سِوَاهُ﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴿بِالثَّوَابِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، أَوِ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَ حُضُورِ الْمَوْتِ وَحِينَ يَحْشُرُونَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾^(١).

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام: «أنتم هم، ومن أطاع جباراً فقد عبده».

﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ وضع فيه الظاهر موضع ضمير «الذين اجتنبوا» للدلالة على مبدأ اجتنباهم، وأنهم نقاد في الدين، يميزون بين الحق والباطل، والحسن والأحسن، والفاضل والأفضل. فإذا اعترضهم أمران: واجب وندب، اختاروا الواجب. وكذلك اختاروا الندب على المباح، والعفو على القصاص، والإغضاء على الانتصار، والإخفاء على الإبداء، جراحاً على ما هو أقرب عند الله وأكثر ثواباً، لقوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلسُّقُوتِ﴾^(١) ﴿وَأَنْ تُخْفُوا وَتُؤْتُواهُمُ الْفَقْرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^(٢). ويدخل تحته المذاهب، واختيار أثبتها وأقواها. وقيل: معناه: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن.

روي عن أبي الدرداء قال: لولا ثلاث ما أحببت أن أعيش يوماً واحداً: الظمأ بالهواجر، والسجود في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون من خير الكلام كما ينتقى طيب التمر.

وعن ابن عباس: هو الرجل يجلس مع القوم، فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ، فيحدث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه.

قيل: هاتان الآيتان في ثلاث نفر كانوا يقولون في الجاهلية: لا إله إلا الله: عمرو بن نفيل، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لدينه ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ من العقول السليمة عن منازعة الوهم والعادة. وفي ذلك دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله وقبول النفس لها.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ جملة شرطية معطوفة على محذوف دل عليه سوق الكلام. تقديره: أنت مالك أمرهم؟ فمن حق عليه

العذاب فأنت تنقذه؟ فكثرت الهمة لتأكيد الإنكار والاستبعاد. ووضع «من في النار» موضع الضمير لذلك، وللدلالة على أن من حكم عليه بالعذاب كالواقع فيه، لامتناع الخلف فيه، وأن اجتهد الرسول في دعائهم إلى الإيمان سعي في إنقاذهم من النار.

ويجوز أن يكون «أفأنت تنقذ» جملة مستأنفة للدلالة على ذلك، وللإشعار بالجزاء المحذوف. تقديره: أفمن حقّ عليه كلمة العذاب فأنت تخلّصه؟ أو كمن وجبت له الجنة. والمراد بكلمة العذاب قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾^(١) الآية. وإنما قال ذلك للنبي ﷺ لحرصه على إسلام المشركين. والمعنى: إنك لا تقدر على إدخال الاسلام في قلوبهم قسراً، فلا عليك إذا لم يؤمنوا. وهذا كقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاجِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾^(٢) الآية.

ثم بين سبحانه ما أعدّ للمؤمنين، كما بين ما أعدّه للكفار، فقال:

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ علالي^(٣) بعضها فوق بعض ﴿مُتَبَيِّنَاتٌ﴾ بنيت بناء المنازل على الأرض. وهذا في مقابلة قوله: «لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل». ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت الغرف، فإنّ النظر من الغرف إلى الخضر والمياه أشهى وألذّ ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكّد، لأنّ قوله: «لهم غرف» في معنى الوعد، كأنه قال: وعد الله وعداً ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَاتِ﴾ لأنّ الخلف نقص، وهو على الله محال.

روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الدَّرِّيَّ فِي الْأَفْقِ، مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ

(١) السجدة: ١٣.

(٢) الكهف: ٦.

(٣) علالي جمع عليّة، وهي: بيت منفصل عن الأرض ببيت ونحوه.

المغرب، لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: والذي نفسي بيده لرجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

ولما قدّم سبحانه ذكر الدعاء إلى التوحيد، عقبه بذكر دلائل التوحيد، فقال مخاطباً لنبيه ﷺ، وإن كان المراد جميع المكلفين:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو المطر ﴿فَسَلَكَهُ﴾ فأدخله وأجراه ﴿يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ عيوناً ومجاري ومسالك كائنه فيها كالعروق في الأجساد. وهو جمع ينبوع، أو مياه نابعات فيها، إذ ينبوع جاء للنابع. فنصبها على الحال. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ صنوفه من البرّ والشعير والأرز وغيرها. يقال: هذا لون من الطعام، أو كيفياته من حمرة وخضرة وصفرة وغيرها. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يتمّ جفافه، لأنّه إذا تمّ جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ من ييسه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ فتاتاً.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ لتذكيراً بأنّه لا بدّ من صانع حكيم دبره وسوّاه. أو بأنّه مثل الحياة الدنيا، فلا تغترّ بها ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لأولي العقول السليمة في معرفة الصانع المحدث للعالم، إذ لا يتذكّر به غيرهم.

ولما ذكر أدلّة التوحيد التي إذا تفكّر فيها متفكّر، انشرح صدره، واطمأنت

نفسه إلى التوحيد بلج^(١) اليقين، قال عقيب ذلك :

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ أفمن عرف الله أنه من أهل اللطف به، بنصب الأدلة وإزاحة العلة، حتى انشرح صدره ووسع قلبه لقبول الاسلام بيسر، فثبت عليه وتمكن فيه ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يعني: المعرفة والاهتداء إلى الحق، كمن لا لطف له، فهو حرج الصدر قاسي القلب. ونور الله هو لطفه، لأن به يعرف الحق، كما بالنور تعرف أمور الدنيا.

وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية، فقل: يا رسول الله كيف انشرح الصدر؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح. فقل: يا رسول الله فما علامة ذلك؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزوله».

ودل على حذف خبر «من»: ﴿ قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ من أجل ذكره وبسببه. يعني: إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمازت قلوبهم وازدادت قساوة، كقوله: ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾^(٢). وهذا المعنى أبلغ من أن يكون «عن» مكان «من»، لأن القاسي من أجل الشيء أشد تأيياً عن قبوله من القاسي عنه لسبب آخر، ولهذا أثر «من» على «عن». وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالامتناع، ذكر شرح الصدر، وأسنده إلى الله، وقابله بقساوة القلب، وأسنده إليهم.

﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ يظهر ضلالهم للناظر بأدنى نظر. والآية نزلت في حمزة وعلي وأبي لهب وولده.

(١) بلج الحق بَلَجًا: وضع وظهر.

(٢) التوبة: ١٢٥.

اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَاجِهٍ سَوْءَ
الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾

روي: أن أصحاب رسول الله ﷺ ملؤا ملة فقالوا: حدثنا. فنزلت: ﴿اللَّهُ نَزَلَ
أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن. وفي الابتداء باسم الله، وبناء «نزل» عليه، تأكيد
للإسناد إليه تعالى، وأنه من عنده، وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه، وتفخيم
للمنزل، واستشهاد على مزية حسنه، وتنبيه على أنه وحي معجز مباين لسائر
الأحاديث.

﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ بدل من «أحسن» أو حال منه. وتشابهه: تشابه أبعاضه
في الإعجاز، وتجاوب النظم، وصحة المعنى وإحكامه، وبناءؤه على الحق والصدق،
والدلالة على المنافع العامة، لاشتماله على جميع ما يحتاج إليه المكلف، من التنبيه
على أدلة التوحيد والعدل، وبيان أحكام الشرع، وغير ذلك من المواعظ وقصص
الأنبياء، والترغيب والترهيب.

﴿مَثَانِي﴾ جمع مثنى، بمعنى المردد والمكرر. أو مثنى. وصف به «كتاباً» مع
أنه جمع باعتبار تفاصيله، من الأقاصيص والأحكام والمواعظ المكررة. وهذا
كقولك: القرآن سور وآيات وأسباع وأخماس، والإنسان: عظام وعروق وأعصاب.
أو جعل تمييزاً من «متشابهاً» كقولك: رجلاً حسناً شمائل. فالمعنى: كتاباً متشابهة
مثانيه.

وفائدة التكرير في أقاصيصه وأحكامه ومواعظه ركزها في القلوب وغرسها في الصدور، فَإِنَّ النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرّر عليها عوداً عن بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله. ومن ثمّ كانت عادة رسول الله ﷺ أن يكرّر عليهم ما كان يعظ به، وينصح ثلاث مرّات وسبعاً، ليركّزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم.

﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تَقْبَضُ تَقْبِضاً شديداً ﴿مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وقف شعرهم خوفاً ممّا فيه من الوعيد. وهو مثل في شدّة الخوف. وتركيبه من حروف القسح، وهو الأديم اليابس، بزيادة الراء ليصير رباعياً، ويدلّ على معنى زائد، كتركيب القمطر من القمط، وهو الشّد. ويجوز أن يريد الله سبحانه به التمثيل، تصويراً لإفراط خشيتهم، وأن يريد التحقيق.

والمعنى: أنهم إذا سمعوا بالقرآن وآيات وعيده، أصابتهم خشية شديدة تقشعرّ منها جلودهم.

﴿ثُمَّ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ بالرحمة وعموم المغفرة. والاقتصار على ذكر الله من غير ذكر الرحمة، للإشعار بأنّ أصل أمره الرحمة والرأفة، وإن سبقت رحمته غضبه، فلأصاله رحمته إذا ذكر لم يخطر بالبال قبل كلّ شيء من صفاته إلّا كونه رؤوفاً رحيماً.

وتعدية «تلين» به «إلى» لتضمّنه معنى السكون والاطمئنان. فكأنّه قيل: سكنت واطمأنت إلى ذكر الله، أي: بعد اقشعرار جلودهم منه، إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة، لانت جلودهم وقلوبهم، وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة.

وذكر الجلد وحدها أولاً، ثمّ قران القلوب بها ثانياً، لدلالة الخشية التي محلّها القلوب عليها، فهي في حكم الذكر. فكأنّه قيل: تقشعرّ جلودهم من آيات

الوعيد، وتخشى قلوبهم في أول وهلة، فإذا ذكروا الله ومبنى أمره على الرأفة والرحمة، استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم، وبالقشعريرة ليناً في جلودهم.

روي عن العباس بن عبد المطلب أن النبي ﷺ قال: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله، تحانت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها».

وعن قتادة: هذا نعت لأولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله. ولم ينعتهم بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم، إنما ذلك في أهل البدع، وهو من الشيطان.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الكتاب ﴿هُدًى لِلَّذِينَ يَهْدِي بِهِ﴾ يوفق به بنصب الأدلة وإزاحة العلة ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته من عباده المتقين الطالبين طريق الفوز والنجاة، كما قال: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١) ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ من يخذله من أهل العناد والفجور، بسبب عناده وفرط فجوره ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يخرجهم من الضلال.

أو ذلك الكائن من الخشية والرجاء هدى الله، أي: أثر هدايته، وهو لطفه. فسماه هدى، لأنه حاصل بالهدى. يهدي بهذا الأثر من يشاء من عباده. يعني: من صحب أولئك ورآهم خاشعين راجين، فكان ذلك مرغباً لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم. «ومن يضل الله» ومن لم يؤثر فيه لطفه، لقسوة قلبه وإصراره على فجوره «فما له من هاد» من مؤثر فيه بشيء قط.

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ﴾ يجعله درقة^(٢) يقي به نفسه، لأنه يكون يداه مغلولة إلى عنقه، فلا يقدر أن يتقي إلا بوجهه ﴿سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كمن هو آمن منه. فحذف الخبر كما حذف في نظائره المذكورة غير مرة.

وتفقيح المعنى: أن الإنسان إذا لقي خوفاً من المخاوف استقبله بيده، وطلب

(١) البقرة: ٢.

(٢) في هامش النسخة الخطية: «الدَّرَقَةُ: الترس الذي يتخذ من الجلود. منه».

أن يقي بها وجهه، لأنه أَعَزَّ أَعْضَائِهِ عَلَيْهِ. والذي يلقي في النار يلقي مغلوله يده إلى عنقه، فلا يتهماً له أن يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره، وقاية له ومحاماة عليه. وقيل: المراد بالوجه الجملة، تسمية للشيء بأشرف أجزائه.

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: لهم. فوضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالظلم، وإشعاراً بالموجب لما يقال لهم، وهو ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: قال لهم خزنة النار، ذوقوا وبال ما كنتم تعملون. والواو للحال، و«قد» مقدرة.

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّا هُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾
فَإِذَا قَهُمُ اللَّهُ الْحَزَنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

ثم وعد كفار قريش بذكر الأمم المكذبة الماضية، واستئصالهم بالعذاب العاجل، وصليهم بالعذاب الآجل، فقال:

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بآيات الله وجحدوا رسله ﴿فَأَنَّا هُمْ الْعَذَابُ﴾ عاجلاً ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يخطر ببالهم أَنَّ الشَّرَّ يَأْتِيهِمْ مِنْهَا. يعني: بينا هم آمنون رافهون إذ فوجؤا بالعذاب من مآتهم.

﴿فَإِذَا قَهُمُ اللَّهُ الْحَزَنَ﴾ الذَّلَّ والصغار ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كالمنسوخ والخسف والقتل والسبي والإجلاء، وما أشبه ذلك من تكال الله ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعد لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدة ودوامه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لو كانوا من أهل العلم والنظر لعلموا ذلك واعتبروا به.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ أي: يَتَنَا بياناً بليغ الوضوح ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمر دينه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتدبرون فيتعظوا به.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكدة من «هذا». والاعتماد فيها على الصفة، كقولك: جاءني زيد رجلاً صالحاً وإنساناً عاقلاً. ويجوز أن ينتصب على المدح. ﴿غَنَزِ ذِي عَوْجٍ﴾ أي: لا اختلال فيه بوجه ما، بريئاً من التناقض والاختلاف قطعاً ورأساً.

وفي إيثار «غير ذي عوج» على: غير معوجّ وعلى: «مستقيماً» فائدتان: إحداهما: نفي أن يكون فيه عوج قط، كما قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَوْجًا﴾^(١). والثانية: ليدلّ على أن استقامته من حيث المعنى، فإنّ لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان.

وقيل: العوج: الشكّ واللبس، استشهاداً بقوله:

وقد أتاك يمين غير ذي عوج من الإله وقول غير مكذوب
﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكي يتقوا معاصي الله. وهذا علّة أخرى مرتّبة على الأولى.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

ثمّ مثل حال من يشبّه آلهة شتى، وما يلزمه من سوء العواقب، ومن يتخذ الله وحده إلهاً، وما يتبعه من حسن الخواتيم، فقال:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا﴾ بدل من «مثلاً» ﴿فِيهِ﴾ صلة قوله: ﴿شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ من التشاكس بمعنى الاختلاف. وهذا مثل المشرك. ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ أي: خالصاً ﴿لِرَجُلٍ﴾ وهذا مثل الموحد. وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون: سَلَمًا

بفتحتين، مصدر: سَلَّمَ، نعت به. أو على حذف المضاف، أي: ذا سلامة وخلوص لرجل من غير شركة. وتخصيص الرجل لأنه أفطن للضرر والنفع.

وتوضيح المعنى: أن اضرب يا محمد لقومك مثلاً، فقل لهم: ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع، كل واحد منهم يدّعي أنه عبده، فهم يتجاذبون ويتعاورونه^(١) في مهن شتى ومشاغل كثيرة، وإذا عنت له حاجة تدافوه، فهو متحير في أمره، وقد تشعبت الهموم قلبه، وتوزعت أفكاره، ولا يدري أيهم يرضى بخدمته، وعلى أيهم يعتمد في حاجاته. وفي رجل قد سلم لمالك واحد، وخلص له، فهو معتمد على المالك فيما يصلحه من صنوف الخدمة، فهمه واحد، وقلبه مجتمع، أي هذين العبدین أحسن حالاً وأحمد شأنًا؟ روى الحاكم أبو الحسن الحسكاني بالإسناد عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنَّهُ قال: «أنا ذلك الرجل السالم لرسول الله ﷺ»^(٢).

وروى العياشي بإسناده عن أبي خالد، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الرجل السلم لرجل عليٍّ حقاً وشيعته».

﴿هَٰذَا يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ صفة أو حالاً. ونصبه على التمييز. ووحد لأنه جنس. والمعنى: هل يستوي هذان الرجلان صفة وشبهاً في حسن العاقبة وحصول المنفعة، أي: لا يستويان، فإنَّ الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وحياطته ما لا يستحقه صاحب الشركاء المختلفين في أمره.

﴿الْحَفْذُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد لله الواحد الذي لا يشاركه فيه على الحقيقة سواء، لأنه المنعم بالذات، والمالك على الإطلاق، أي: يجب أن يكون الحمد والعبادة متوجّهاً إليه وحده، فقد ثبت أنه لا إله إلا هو.

(١) تعاور القوم الشيء: تعاوطه وتداولوه.

(٢) شواهد التنزيل ٢: ١٧٦ ح ٨٠٧.

وقيل: معناه: احمداوا الله المستحق للشكر والثناء على هذا المثل الذي علمكموه، فأزال به للمؤمنين الشبهة، وأوضح لهم الدلالة الهادية. أو احمداوا الله حيث لطف بكم حتى عبدتموه وحده، وأخلصتم له الإيمان والتوحيد، فهي النعمة السابغة.

﴿بَلْ أَخْتَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غيره من فرط جهلهم.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيَكْفِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

روي: أَنَّ المشركين كانوا يترصدون برسول الله ﷺ موته، فأخبر سبحانه أن الموت يعتهم، فلا معنى للترصد وشماتة الباقي بالفاني، فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ أي: إِنَّكَ وَإِيَّاهُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ أَحْيَاءَ، فَإِنَّكُمْ بِصَدِّ الموت وفي عداد الموتى، لأنَّ ما هو كائن فكأن قد كان. والفرق بين المَيِّت والمات: أَنَّ المَيِّت صفة لازمة كالسيد، وأمَّا المات فصفة حادثة. تقول: زيد مات غداً، كما تقول: سائد غداً، أي: سيموت وسيسود.

وإذا قلت: زيد ميت، فكما تقول: حي، في تقيضه، فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ على تغليب المخاطب على الغيب ﴿يَوْمَ النِّقَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم بأنك كنت على الحق في التوحيد، وكانوا على الباطل في التشريك، واجتهدت في الارشاد والتبليغ، ولجؤا في التكذيب والعناد، ويعتذرون بالأباطيل التي لا طائل تحته، بأن يقول الأتباع: أطعنا ساداتنا وكبراءنا، ويقول السادات: أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون.

وقيل: المراد به اختصاص الجميع، فإن الكفار يخاصم بعضهم بعضاً، حتى يقال لهم: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدُنِّي﴾^(١). والمؤمنون الكافرين، ييكتونهم بالحجج. وأهل القبلة يكون بينهم الخصام.

وقال أبو سعيد الخدري: كنّا نقول: ربنا واحد، ونبيّنا واحد، وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلمّا كان يوم صفين، وشدّ - يعني: حمل - بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا.

وعن ابن عمر: كنّا نرى أنّ هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتابين، وقلنا: كيف نختصم نحن ونبيّنا واحد وكتابنا واحد، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعملت أنّها فينا نزلت.

ثم بين سبحانه حال الفريقين، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بإضافة الولد والشريك إليه ﴿وَكَذَبَ بِالْصُّدُقِ﴾ بالأمر الذي هو الصدق بعينه. وهو ما جاء به محمد ﷺ. ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ من غير توقّف وتفكّر في أمره، واهتمام بتمييز بين حق وباطل، كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون.

ثم هدّد سبحانه من هذه صفته بأن قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ الهمة للتقرير، أي: يكفيهم ذلك مجازاة لأعمالهم. واللام للعهد، أي: لهؤلاء الذين

كذبوا على الله وكذبوا بالصدق. أو لجنس الكفرة. واستدلّ به على تكفير المبتدعة، فإنهم يكذبون بما علم صدقه. وهو ضعيف، لأنّه مخصوص بمن فاجأ ما علم مجيء الرسول به بالكذب بلا تفكّر فيه وتمييز.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هو رسول الله ﷺ، جاء بالحقّ وآمن به. والمراد هو ومن تبعه، لقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ كما في قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(١). أو المراد جنس الرسل والمؤمنين.

وقيل: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، وصدق به عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وهذا منقول عن مجاهد. ورواه الضحاك عن ابن عباس. وهو المروي عن أئمة الهدى من آل محمد ﷺ.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ من الثواب وأنواع النعيم في الجنة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ينالونه من جهته ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْفُحْشِينَ﴾ على إحسانهم.

﴿يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ خصّ الأسوأ للمبالغة، فإنّه إذا كفر كان غيره أولى بذلك. أو للإشعار بأنهم لاستعظامهم الذنوب يحسبون أنهم مقصرون مذنبون، وأنّ ما يفرط منهم من الصفات أسوأ ذنوبهم. ويجوز أن يكون من قبيل إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل. فيكون الأسوأ بمعنى السيّء، كقولهم: الناقص والأشجّ أعدا بني مروان، يعني: عمر بن عبدالعزيز ومحمد بن الخليفة عدلان من بينهم.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ ويعطيهم ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فتعدّ لهم محاسن أعمالهم بأحسنها، في زيادة الأجر وعظمه، لفرط إخلاصهم فيها. والمعنى: يجزيهم ثوابهم بالفرائض والنوافل. فهي أحسن أعمالهم، لأنّ المباح وإن كان حسناً فلا يستحقّ به ثواب ولا مدح.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

روي: أَنَّ قريشاً قالوا لرسول الله ﷺ: إِنَّا نخاف أن تَحْبِلَكِ آلِهتنا، لعيبك إِيَّاهَا. فنزلت: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ استفهام إنكار للنفي مبالغة في الإثبات. والعبد رسول الله. ويؤيده قراءة حمزة والكسائي بالجمع. وفسر بالأنبياء. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ يعني: قريشاً ﴿بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: الأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه.

وقيل: إِنَّهُ بعث خالداً ليكسر العزى بالفأس، فقال له سادنها: أحذرَكها، فَإِنَّ لها شدة، أي: حملة لا يقوم لها شيء. فعمد إليها خالد فهشم أنفها. فقال الله ﷻ: أليس الله بكافٍ نبيه أن يعصمه من كل سوء، ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف؟ فنزل تخويف خالد منزلة تخويفه، لَأَنَّهُ الأمر له بما خَوْف عليه. وفيه تهكم بهم، لَأَنَّهُمْ خَوْفوه بما لا يقدر على نفع ولا ضرر. أو أليس الله بكافٍ أنبياءه؟ ولقد قالت أمهم نحو ذلك، فكفاهم الله. وذلك قول هود: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا غَرَبًا كَبُغْضِ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾^(١).

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ بالتخلية والخذلان حتَّى غفل عن كفاية الله له ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الرشاد. أو من يضلل الله عن طريق الجنة بكفره وفرط عناده ومعاصيه فليس له هادٍ يهديه إليه. أو من وصف وحكم بأنه ضالّ فليس له من يسمّيه هادياً.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ أي: من يهده الله فاهتدى فلا يقدر أحد على صرفه عنه. أو من يهده إلى طريق الجنة فلا أحد يضله عنها، إذ لا راد لفعله، كما قال: ﴿الْإِنْسِ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب قاهر منيع لا يقدر أحد على مغالته ﴿ذِي انتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه. وفيه وعيد لقريش، ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم وينصرهم عليهم.

وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

لوضح البرهان على تفرده بالخالقية ﴿قُلْ أَقْرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بعد ما تحققت أن خالق العالم هو الله تعالى ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ فيكشفه ﴿أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ فيمسكها عليّ.

وقرأ أبو عمرو: كاشفاتٌ ضرّه.... ممسكاتٌ رحمته، بالتنوين ونصب «ضرّه ورحمته» على الأصل.

وإنما فرض المسألة في نفسه دونهم، لأنهم خوفوه معرّة^(١) الأوثان، فأمر بأن يقرّره أولاً بأن خالق العالم هو الله تعالى وحده، ثم يقول لهم بعد التقرير: فإن أرادني خالق العالم الذي أقرتم به بضرٍّ من مرض أو فقر، أو غير ذلك من النوازل، أو رحمة من صحّة أو غنى أو نحوهما، هل هؤلاء اللاتي خوفتموني إياهن كاشفات على ضرّه، أو ممسكات رحمته؟ حتّى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم فلا يجيبوا بكلمة. وإنما قال: «كاشفات.... وممسكات» على التأنيث، بعد قوله: «ويخوفونك بالذين من دونه»، ليضعفها ويمجّزها زيادة تضعيف وتعجيز عن كشف الضرّ وإمساك الرحمة، لأنّ الأنوثة من باب اللين والرخاوة، كما أنّ الذكورة من باب الشدّة والصلاية. كأنه قال: الإناث اللاتي هنّ اللات والعزى ومناة أضعف ممّا تدعون لهنّ وأعجز. وفيه تهكم أيضاً.

روي: أن النبي ﷺ سألهم فسكتوا، فنزل: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ كافياً في إصابة الخير ودفع الضرّ، إذ تقرّر بهذا التقرير أنّه القادر الذي لا مانع لما يريد من خير أو شرّ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لعلمهم بأنّ النفع والضرّ منه.

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالاتكم التي أنتم عليها، من العداوة التي تمكّنت منها، وعلى قدر جهدكم وطاقتكم في إهلاكها. والأمر للتهديد. والمكانة اسم للمكان، استعير للحال، كما استعير «هنا» و«حيث»

من المكان للزمان. وقرأ أبوبكر: مكاناتكم. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي: على مكاتي، فحذف للاختصار، والمبالغة في الوعيد، والإشعار بأن حاله لا يقف، فإنه تعالى يزيده كل يوم قوة ونصرة. فلذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم في الدارين، فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فَإِنْ خَزِيَ أَعْدَائِهِ دليلاً غلبته، وقد أخزاهم الله يوم بدر ﴿وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم. وهو عذاب النار.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم، فإنه مناط مصالحهم في معاشهم ومعادهم، ولا حاجة لي إلى ذلك، فإني أنا الغني ﴿بِالْحَقِّ﴾ متلبساً به، وليس فيه شيء من الباطل رأساً ﴿فَمَنْ اهْتَدَى﴾ فمن اختار الهدى ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: فقد نفع به نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ ومن اختار الضلالة ﴿فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فقد ضرّها، فإن وباله لا يتخطأها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ وما وكّلت عليهم لتجبرهم على الهدى، فإن التكليف مبني على الاختيار دون الإجبار، وإنما أمرت بالبلاغ وقد بلغت، وجزاء أعمالهم على الذي يقدر على إيمانهم وإحيائهم وحفظ أعمالهم، وهو الله سبحانه.

كما قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يقبضها عن الأبدان، بأن يقطع تعلّقها عنها، وتصرفها فيها ظاهراً وباطناً عند موتها، أي: موت أبدانها ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ويقبضها عن الأبدان، ويقطع تعلّقها عنها وتصرفاتها في النوم. فالنوم شبيه بالموت. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾^(١) حيث لا يميّزون ولا يتصرفون، كما أن الموتى كذلك ﴿فَيُمْسِكُ﴾ الأنفس ﴿الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ الحقيقي، ولا يردّها إلى البدن إلى يوم القيامة. وقرأ حمزة والكسائي: قُضِيَ، بضمّ القاف وكسر الصاد، والموت بالرفع. ﴿وَيُرْسِلُ الْآخَرَىٰ﴾ أي: الأنفس النائمة إلى بدنّها عند اليقظة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقت مضروب لموته، وهو غاية جنس الإرسال.

وقريب منه ما روي عن ابن عباس: أن في بني آدم نفساً وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس. فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النفس والحياة، فيتوفيان عند الموت، وتتوفى النفس وحدها عند النوم.

وروى العياشي بالإسناد عن الحسن بن محبوب، عن عمرو بن ثابت أبي المقدام، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما من أحد ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء، وبقيت روحه في بدنه، وصار بينهما سبب كشعاع الشمس. فإن أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس، وإن أذن الله في رد الروح أجابت النفس الروح. وهو قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية».

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ من التوفي والإمساك والارسال ﴿لآيَاتٍ﴾ دالة على كمال قدرته وحكمته ﴿يَقُومُ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يجيئون أفكارهم في كيفية تعلقها بالأبدان، وتوفيها عنها بالكلية حين الموت، وإمساكها باقية لا تغنى بفنائها، والحكمة في توفيها عن ظواهرها، وإرسالها حيناً بعد حين إلى توفي آجالها.

أَمْ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَؤُكَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾

﴿أَمْ آتَّخَذُوا﴾ بل آتخذت قريش. والهمزة للإنكار. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من دون إذنه ﴿شُفَعَاءَ﴾ تشفع لهم عند الله، حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿قُلْ أُولَؤُكَانُوا﴾ أي: أيشفعون ولو كانوا ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾ قط حتى ملكوا الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا عقل لهم، لأنهم جمادات، فلا يقدر ولا يعلمون.

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لا يستطيع أحد شفاعته إلا بإذنه. ثم قرّر ذلك فقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنه مالك الملك كله، لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، ولا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له، فله ملك الدنيا والآخرة.

وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

ثم أخبر سبحانه عن سوء اعتقادهم وشدة عنادهم، فقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا أفرّد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم، بأن قيل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ انقبضت ونفرت ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: آلهتهم، سواء ذكر الله معهم أم لم يذكر ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لفرط افتنانهم بها، ونسيانهم حق الله إلى هواهم فيها. ولقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فيهما، فإن الاستبشار أن يمتلىء القلب سروراً حتى تنبسط بشرة الوجه، والاشمئزاز أن يمتلىء غمّاً وغيظاً يظهر الانقباض في أديم الوجه. والعامل في «إذا ذكر» المفاجأة، تقديره: وقت ذكر الذين من دونه فاجؤا وقت الاستبشار.

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ
بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

ولما بين أدلة التوحيد بالطريق المذكور فلم ينظروا فيها، أمر نبيه أن يحاكمهم إليه ليفعل بهم ما يستحقونه، فقال:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ يا خالقهما ومنشئهما ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يا عالم ما غاب علمه عن جميع الخلق، وعالم ما شهدوه وعلموه. يعني: التجيء إلى الله بالدعاء، فإنه القادر على الأشياء، والعالم بالأحوال كلها ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ فأنت وحدك تقدر أن تحكم بينهم يوم القيامة أو الدنيا ﴿فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في أمر دينهم ودنياهم، وتفصل بينهم بالحق في الحقوق والمظالم، فاحكم بيني وبين قومي بالحق. وفيه وصف لحالهم، وإعذار له ﷺ، وتسلية له، وبشارة للمؤمنين بالظفر والنصر، ووعيد للمشركين، لأنه سبحانه إنما أمره ﷻ به للإجابة لا محالة.

وعن سعيد بن المسيّب أنه قال: إني لأعرف موضع آية لم يقرأها أحد قط، فسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه، وقرأ هذه الآية.

وعن الربيع بن خثيم - وكان قليل الكلام - : أنه أخبر بقتل الحسين ﷺ - وسخط على قاتله - وقالوا: الآن يتكلم، فما زاد على أن قال: آه أوقد فعلوا؟ وقرأ هذه الآية. وروي: أنه قال على أثره: قتل من كان ﷺ يجلسه في حجره، ويضع فاه على فيه.

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾
وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

ثم أخبر سبحانه عن وقوع العذاب الأليم والعقاب العظيم بالكفار، وعن إقناط كليهم من الخلاص، فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ زيادة عليه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وقد مضى تفسيره ﴿وَبَذَا لَهُمْ﴾ وظهر لهم يوم القيامة من صنوف العذاب ﴿مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ من الخلاص. وهذا وعيد لهم لا كنه لفظاعته وشدته. وهو نظير قوله في الوعد: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(١).

والمعنى: وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم، ولم يحدثوا به نفوسهم.

وقيل: عملوا أعمالاً حسبوها حسنات، فإذا هي سيئات.

وعن سفيان الثوري: أنه قرأها فقال: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء. وجزع محمد بن المنكدر عند موته فقيل له: فقال: أخشى آية من كتاب الله، وتلاها، ثم قال: أنا أخشى أن يبدوا لي من الله في ذلك ما لم أحاسبه.

﴿وَبَذَا لَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾ «ما» موصولة، أي: جزاء سيئات أعمالهم. أو مصدرية، أي: سيئات كسبهم حين تعرض صحائفهم، وكانت خافية عليهم، كقوله: ﴿أَخْضَاءُ اللَّهِ وَسُوءُ﴾^(٢). أو أراد بالسيئات أنواع العذاب التي يجازون بها على ما كسبوا. فسمّاها سيئات، كما قال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾^(٣).

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ وأحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ جزاء هزئهم بما ينذرهم النبي ﷺ، مما كانوا ينكرونه ويكذبون به.

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ

(١) السجدة: ١٧.

(٢) المجادلة: ٦.

(٣) الشورى: ٤٠.

قَبْلَهُمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ
﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

ثم أخبر عن مناقضتهم وتعكسهم في التسبب، بأنهم يشمئزون عن ذكر الله وحده، ويستبشرون بذكر الآلهة، مع أنهم في حالة الضر كانوا يدعون الله وحده ويزدرون آلهتهم. فقال عطفاً على قوله: «وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ»:

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي: دعا من اشماراً عن ذكره دون من استبشر بذكره. وما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراض مؤكّد لإنكار ذلك عليهم. والسبب في عطف هذه الآية بالفاء السببية، وعطف مثلها في أوّل السورة^(١) بالواو: أن هذه وقعت تعكساً في التسبب.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ أعطيناه ﴿نِعْمَةً﴾ من الصحة والسعة في الرزق وغير ذلك، تخويلاً صادراً ﴿مِنَّا﴾ تفضلاً، فإنّ التخويل مختصّ بالتفضل، يقال: خولني إذا أعطاك على غير جزاء ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على علم مني بوجوه كسبه، كما قال قارون: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(٢) يعني: الكيمياء. أو على علم من الله بي واستحقاقي. والهاء لـ «ما» إن جعلت موصولة. وإن جعلت كافة فللنعمّة. وتذكيره ذهاباً إلى المعنى، لأنّ معنى قوله: «نعمّة منّا» شيئاً

(١) الزمر: ٨.

(٢) القصص: ٧٨.

من النعمة وقسماً منها.

ثم رد ما قاله بقوله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: امتحان واختبار له أشكر أم يكفر؟ لنجazy بحسبها. وتأنيت الضمير باعتبار لفظ النعمة أو الخبر. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ذلك. وهو دليل على أن الإنسان للجنس.

﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الهاء لقوله: «إنما أوتيته على علم» لأنها كلمة أو جملة أو مقالة. «والذين من قبلهم» قارون وقومه، حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ورضي له قومه، فكأنهم قالوها. ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا وجمعون منه.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ جزاء سيئات أعمالهم، أو جزاء أعمالهم. وسواء سيئة لأنه في مقابلة أعمالهم السيئة، رمزاً إلى أن جميع أعمالهم سيئة. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالعتو ﴿مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ المشركين. و«من» للبيان أو للتبعيض. ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كما أصاب أولئك. وقد أصابهم، فإنهم قحطوا سبع سنين، وقتل بيدر صناديدهم. ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين، بأن يعجزوا الله بالخروج من قدرته.

﴿أَوَلَمْ يَغْلَبُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْسُطُ الرُّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ حيث حبس عنهم الرزق سبعا، ثم بسط لهم سبعا، بحسب ما يعلم من المصلحة ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ لدلالات واضحات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك.

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ

وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ
 مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ
 ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ
 لَمِنَ السَّآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾
 أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ
 جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾

روي: أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ قَالُوا: يزعم محمدٌ أَنَّ من عبد الوثن وقتل النفس بغير
 حقٍّ لم يغفر له، فكيف يغفر ولم نهاجر، وقد عبدنا الأوثان وقتلنا الأنفس؟! فنزلت:
 ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أفرطوا في الجناية عليها
 بالإسراف في المعاصي والتوغل فيها. وقد مرَّ^(١) من قبل في هذه السورة - حيث
 فسرنا قوله تعالى: «ولا يرضى لعباده الكفر» - قول الفاضل النيشابوري في تعميم
 العباد وتخصيصه في هذه الآية، ونعيده هنا لتحقيق المقام. قال: «ثم إن قلنا: العباد
 عامٌ فالإسراف على النفس يعمُّ الشرك، ولا نزاع أَنَّ عدم اليأس من الرحمة يكون
 مشروطاً بالتوبة والإيمان. وإن قلنا: العباد المضاف في عرف القرآن مختصّ
 بالمؤمنين، فالإسراف إمّا بالصغائر، ولا خلاف في أنها مكفرة ما اجتنب الكبائر.

وإمّا بالكبائر وحينئذٍ يبقى النزاع بين الفريقين، فالمعتزلة شرطوا التوبة، والأشاعرة العفو^(١).

﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ لا تيأسوا من مغفرته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يعني: بشرط التوبة. وقد تكرر ذكر هذا الشرط في القرآن، فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكراً له فيما لم يذكر فيه، لأنّ القرآن في حكم كلام واحد، ولا يجوز فيه التناقض. فإن مات الموحد الفاسق من غير توبة فهو في مشيئته، إن شاء عذبه بعدله، وإن شاء غفر له بفضل، كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢). ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ على المبالغة وإفادة الحصر.

واعلم أنّ في الآية اثني عشر شيئاً يدلّ كلّ واحد منها على الرجاء على مغفرة جميع الذنوب:

الأوّل: إضافة العباد إلى ذاته المستلزمة للرحمة والشفقة.

والثاني: إيثار «أسرفوا» على: عصوا، فإنّ ذكر العصيان مشعر على القهر.

والثالث: إيثاره على: أخطأوا، فإنّ «أسرفوا» مشتمل على رفق العتاب دون الإخطاء.

والرابع: النهي عن القنوط من رحمته المستلزم لتحريم اليأس من المغفرة.

الخامس: تعليله بأنّ الله يغفر الذنوب.

السادس: وضع اسم الله موضع الضمير، ليكون إسناد المغفرة إلى صريح اسمه.

السابع: استيعاب المغفرة بجميع الذنوب، بإيراد صيغة الجمع المحلّى باللام، لا ببعض غير بعض.

(١) غرائب القرآن ٦: ١٠.

(٢) النساء: ٤٨.

الثامن : تأكيده بلفظ «جميعاً» .

التاسع : إيراد كلمة «إِنَّ» المفيدة للتأكيد .

العاشر : إيراد ضمير الفصل بين الاسم والخبر الذي يفيد الحصر .

الحادي عشر : تقديم المغفرة على الرحمة ، لشدة عنايته بها .

الثاني عشر : ختم الآية بالرحمة دون بواقي الصفات .

روي عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال : «ما أحبُّ أن لي الدنيا وما

فيها بهذه الآية . فقال رجل يا رسول الله : ومن أشرك ؟ فسكت ساعة ، ثم قال : ألا

ومن أشرك ، ثلاث مرّات» . وعلى هذا يكون مخصوصاً بشرط الإيمان .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : «ما في القرآن آية أوسع رحمة من «يا عبادي

الذين أسرفوا» الآية» .

قيل : إِنَّ الآية نزلت في وحشي قاتل حمزة حين أراد أن يسلم ، وخاف أن لا

تقبل توبته . فلما نزلت الآية أسلم . فقيل : يا رسول الله هذه له خاصة أو للمسلمين

عامة ؟ فقال : «بل للمسلمين عامة» .

وفي سبب نزولها دلالة على أن المغفرة مشروطة بالتوبة . وكذا يدل عليها أنه

سبحانه دعا عباده إلى التوبة بعد هذه الآية ، وأمرهم بالإنابة ، فقال : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَيَّ

رَبُّكُمْ﴾ وارجعوا إليه من الشرك والمعاصي ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ وانقادوا له بالطاعة ،

وأخلصوا له العمل ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ عند نزول العذاب

بكم . فذكر الإنابة على أثر المغفرة . لتلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة .

ويرتكب المعصية اتكاءً على ظاهر الآية المتقدمة .

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ من الحلال والحرام ، والأمر والنهي ،

والوعد والوعيد . فمن أتى بالمأمور به ، وترك المنهي عنه ، فقد اتبع أحسن ما أنزل .

أو اتبعوا الواجبات والمندوبات التي هي الطاعات دون المباحات . وقيل : المراد

العزائم دون الرخص، أو الناسخ دون المنسوخ. وهذا مثل قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ
النَّوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(١). ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بِغَفَّةٍ﴾ فجاءة ﴿وَأَنْتُمْ لَا
تَشْعُرُونَ﴾ بمجيئه، أي: لا تعرفون وقت نزوله بكم فتداركوا.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ كراهة أن تقول. وتكثير «نفس» لأن القائل بعض الأنفس،
وهي نفس الكافر. ويجوز أن يراد نفس متميزة من الأنفس، إما بفرط لجاج في
الكفر وشدة عناد في الطغيان، أو بعذاب عظيم وعقاب أليم، أو يراد به التكثير. ﴿يَا
حَسْرَتِي﴾ يا ندامتي ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ﴾ بما قصرت. و«ما» مصدرية، مثلها في ﴿يَمَا
رَحُبَّتْ﴾^(٢). والمعنى: على تقصيري. ﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ في جانبه، أي: في حقه،
وهو طاعته. وقيل: في ذاته، على تقدير مضاف كالطاعة. وقيل: في قربه
وجواره، وهو الجنة. يقال: فلان في جنب فلان، أي: في قربه وجواره. ومنه قوله
تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ﴾^(٣). فيكون المعنى: على ما فرطت في طلب جواره
وقربه.

وروى العياشي: بالإسناد عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال:
«نحن جنب الله».

﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاجِدِينَ﴾ وإني كنت لمن المستهزئين بالقرآن والنبي
والمؤمنين. ومحل «إن كنت» نصب على الحال، كأنه قال: فرطت وأنا ساخر، أي:
فرطت في حال سخريتي.

وروي: أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وفسق، وأتاه إبليس وقال
له: تمتع من الدنيا ثم تب، فأطاعه، وكان له مال فأنفقه في الفجور، فأتاه ملك

(١) الزمر: ١٨.

(٢) التوبة: ٢٥.

(٣) النساء: ٣٦.

الموت في آلد ما كان، فقال: يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله، ذهب عمري في طاعة الشيطان، وأسخطت ربِّي، فندم حين لم ينفعه الندم، فأنزل الله خبره في القرآن.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ بالإرشاد إلى الحق ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُنْتَقِينَ﴾ من الشرك والمعاصي. ولا يخلو: إما أن يريد به الهداية بالإلجاء، أو بالألطف، أو بالوحي. والأول خارج عن المصلحة والحكمة، لمنافاته التكليف الذي هو مدار الشرع عليه. والآخران قد حصلّا لكنّه لم ينظر إليه وأعرض عنه، لأجل اشتغاله بالدنيا والأباطيل.

﴿أَوْ تَقُولَ جِئْتُ مِنَ الْعَذَابِ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل. و«أو» للدلالة على أنّه لا يخلو من هذه الأقوال تحيراً وتعلّلاً بما لا طائل تحته، كما حكى عنهم الثعلل بإغواء الرؤساء والشياطين ونحو ذلك. ونحوه: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾^(١).

فردّ الله عليه قوله: «لو أنّ الله هداني» المتضمّن معنى النفي، فقال: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ أي: قد هديت بالوحي ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ عن قبولها ﴿وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وآثرت الكفر على الإيمان، والضلالة على الهدى. وتذكير الخطاب على المعنى. فهذه الآية جواب قوله: «لو أنّ الله هداني»، وحقّها أن تذكر متّصلة به، لكن فصل بينهما، لأنّ تقديمه يفوّق القرائن الثلاث، وتأخير المردّد يخلّ بالنظم المطابق للواقع، لأنّه يتحرّس على التفريط في الطاعة، ثمّ يتعلّل بفقد الهداية، ثمّ يتمنّى الرجعة. فكان الصواب ما جاء عليه. وهو أنّه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها، ثمّ أجاب من بينها عمّا اقتضى الجواب.

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بأن وصفوه بما لا يجوز عليه، وهو متعالٍ عنه. فأضافوا إليه الولد والشريك، وقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾^(١). وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾^(٢). وقالوا: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾^(٣). ولا يبعد عنهم قوم ينسبون القبائح إليه، ويجوزون أن يخلق خلقاً لا لغرض، ويؤلم لا لعوض، ويكلف ما لا يطاق، ويجسمونه بكونه مرئياً معانياً مدركاً بالحاسة، ويشبتون له قدماً ويداً وجنباً، ويجعلون معاني قدماء، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالهم من الشدة، أو بما يتخيل عليها من ظلمة الجهل. والجملة حال، إذ الظاهر أن «ترى» من رؤية البصر. واكتفى فيها بالضمير عن الواو. ويحتمل أن يكون من رؤية القلب. فهو مفعول ثانٍ لـ«ترى».

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مقام ﴿لِفُتُكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة. والاستفهام تقرير، لأنهم يرون كذلك.

وروى العياشي بإسناده عن خثيمة قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من حدّث عَنَّا بحديث فنحن سائلوه عنه يوماً، فإن صدق علينا فإنما يصدق على الله وعلى رسوله، وإن كذب علينا فإنما يكذب على الله وعلى رسوله، لأننا إذا حدّثنا لا

(١) يونس: ١٨.

(٢) الزخرف: ٢٠.

(٣) الأعراف: ٢٨.

نقول: قال فلان وقال فلان. بل إنما نقول: قال الله وقال رسول الله. ثم تلا هذه الآية: «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَّسْوَدَةٌ». ثم أشار خثيمة إلى أذنيه، فقال: صمنا إن لم أكن سمعته.

وعن سورة بن كليب قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال: «كل إمام انتحل إمامة ليست له من الله. قلت: وإن كان علويًا؟ قال: وإن كان علويًا. قلت: وإن كان فاطميًا؟ قال: وإن كان فاطميًا».

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

ولما أخبر سبحانه عن حال الكفار، عقبه بذكر حال الأتقياء الأبرار، فقال:

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ معاصيه ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بسبب فلاحهم. مفعلة من الفوز. يقال: فاز بكذا، إذا أفلح به وظفر بمراده منه. أو بسبب منجاتهم، من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْزَنُوا بِنَفْسِكُمْ فِي مَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(١)، أي: بمنجاة منه. وقرأ الكوفيتون غير حفص بالجمع، تطبيقاً له بالمضاف إليه. والباء صلة «ينجي»، أو لقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ﴾ المكروه والشدة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهو حال، أو استئناف لبيان المفازة. كأنه قيل: وما مفازتهم؟ فقيل: لا يمسهم السوء، أي: ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم، والنجاة من أعظم الفلاح. وسبب نجاتهم العمل الصالح. ولهذا فسر ابن عباس المفازة بالأعمال الحسنة، من قبيل تسمية المسبب باسم السبب. ولا شبهة أن العمل الصالح سبب الفلاح، وهو دخول الجنة.

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾

ولما ذكر الوعد والوعيد بين أنه القادر على كل شيء بقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ محدث كل شيء ومبدعه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ مدبر حافظ يتولى التصرف فيه.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره. وهو كناية عن قدرته وحفظه لهما. وفيها مزيد دلالة على الاختصاص، لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها. ولا واحد لها من لفظها. وقيل: جمع مقلد أو مقلاد، من: قلدته إذا ألزمته. وقيل: جمع إقليد معرب إكليد على الشذوذ، كمذاكير. فالتعريب أحالها عربيّة.

وسئل النبي ﷺ عن المقاليد فقال: «تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأوّل والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير». والمعنى على هذا: أن الله هذه الكلمات، يوحد بها ويمجد، وهي مفاتيح خير السماوات والأرض، من تكلم بها أصابه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ متصل بقوله: «وينجي الله الذين اتقوا». والمعنى: وينجي الله المتقين بحفازتهم، والذين كفروا هم الخاسرون. وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه هو خالق الأشياء كلها، ومهيمن على العباد. مطّلع على أفعالهم، فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وما

يَسْتَحَقُّونَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَزَاءِ .

وحقّ النظم أن يقال: ويحشر الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى النَّارِ. لكن غيّر للتصريح بالوعد والتعريض بالوعيد، قضية للكرم.

وعلى التفسير الثاني متصل بقوله: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». على معنى: أَنَّ مِنْ لَهُ الْمَقَالِيدَ يَلِيقُ بِأَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وَبِآيَاتِهِ، لِيُنَالَ خَيْرَ الدَّارَيْنِ. فَمَنْ كَفَرَ بِهِ يَكُونُ خَاسِرًا، لِأَنَّهُمْ يَخْسِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا، وَيَصْلُونَ النَّارَ وَسَعِيرَهَا. وعلى هذا التفسير: المراد بِآيَاتِ اللَّهِ كلمات توحيده وتمجيده. وتخصيص الخسار بهم، لِأَنَّ غَيْرَهُمْ ذُو حِفْظٍ مِنَ الثَّوَابِ وَالرَّحْمَةِ.

قُلْ أَغْفِرِ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاَعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾

﴿قُلْ أَغْفِرِ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ منصوب بـ «أعبد» أي: أغفر الله أعبد بعد هذه الدلائل والمواعيد؟ وقوله: «تأمروني» اعتراض. ومعناه: أغفر الله أعبد بأمركم؟ وذلك حين قال له المشركون عقيب ذلك: استلم بعض آلهتنا ونؤمن باللهك، لفرط غباوتهم. ويجوز أن ينتصب بما دلّ عليه «تأمروني أعبد» لأنه بمعنى: تعبدونني وتقولون لي أعبد. على أن أصله: تأمروني أن أعبد، فحذف «أن» ورفع الفعل، كقوله: أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضِرِ الْوَعْيَ^(١).

وقرأ ابن عامر: تأمروني، بإظهار النونين على الأصل. ونافع بحذف الثانية، فإنها تحذف كثيراً.

ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ قَطْعاً لَطِمَ الْكَفَّارَ فِيمَا قَالُوا لَهُ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الرسل ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كلام على سبيل فرض المحال، والأمر المحال يصحّ فرضه لغرض من الأغراض. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾^(١). يعني: على سبيل الإلجاء. ولن يكون ذلك لامتناع الداعي إليه، ووجود الصارف عنه. والفرض هاهنا من هذا الفرض تهيج الرسل، وإقنات المرسلين عنهم، وإشعار على تهديد الأمة على الإشراك. وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد. واللام الأولى موطئة للقسم المحذوف، والثانية للجواب. وهذا الجواب ساذّ مسدّد الجوابين، أعني: جوابي القسم والشرط.

وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم، لأنّ شركهم أقبح. ألا ترى إلى قوله: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾^(٢). وأن يكون على التقييد بالموت، كما صرح به في قوله: ﴿وَمَنْ يَزِدْكَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾^(٣). وليس فيه ما يدلّ على صحّة القول بالإحباط على ما يذهب إليه أهل الوعيد، لأنّ المعنى فيه: أنّ من أشرك في عبادة الله غيره - من الأصنام وغيرها - وقعت عبادته على وجه لا يستحقّ عليها الثواب به. ولأجل ذلك وصفها بأنّها محبطة، إذ لو كانت العبادة خالصة لوجه الله لاستحقّ عليها الثواب. وعطف الخسران عليه من عطف المسبّب على السبب.

ثُمَّ رَدَّ مَا أَمْرُوهُ بِهِ مِنْ اسْتِلَامِ بَعْضِ آلِهَتِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَلِ اللَّهُ فَاَعْبُدْ﴾ كأنه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته، بل إن كنت عاقلاً فاعبد الله. فحذف الشرط، وجعل

(١) يونس: ٩٩.

(٢) الإسراء: ٧٥.

(٣) البقرة: ٢١٧.

تقديم المفعول عوضاً منه. ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إنعامه عليك. وفيه إشارة إلى موجب اختصاص العبادة له.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

ولما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الانسان حق معرفته، وقدره في نفسه حق تقديره، عظمه حق تعظيمه، قيل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما قدروا عظمته في أنفسهم حق عظمته، حيث جعلوا له شركاء، ووصفوه بما لا يليق به.

ثم قال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ تنبيهاً على عظمته، وحقارة الأفعال العظام التي تحير فيها الأوهام بالإضافة إلى قدرته، ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه، على طريقة التمثيل والتخييل، من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازاً.

والقبضة المرة من القبض، كقوله: ﴿فَقَبِضْتُ قَبْضَةً مِنَ آثَرِ الرُّسُولِ﴾^(١). أطلقت بمعنى القبضة، وهي المقدار المقبوض بالكف، تسمية بالمصدر، أو بتقدير: ذات قبضة.

وتأكيد الأرض بالجميع لأن المراد بها الأرضون السبع، أو جميع أبعاضها البادية^(٢) والغائرة.

والطي: ضدّ النشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ

(١) طه: ٩٦.

(٢) البادية: الصحراء. والغائرة: ما انحدر واطمأن من الأرض.

لِنَكْتُبُ^(١).

وذكر اليمين مبالغة في الاقتدار، لأنَّ معظم القدرة يصدر منه. وهذا كما قال:
﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(٢) أي: ما كانت تحت قدرتك. وليس على معناه الحقيقي،
إذ ليس الملك يختص باليمين دون الشمال وسائر الجسد.

وكذلك حكم ما يروى: «أَنَّ حَبْرًا مِنَ الْأَحْبَارِ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:
يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى
أَصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ عَلَى أَصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى أَصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى أَصْبَعٍ. ثُمَّ
يَهْزَهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ الْمُتَكَبِّرِينَ وَالْجَبَّارِينَ؟ فَضَحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ، ثُمَّ قَرَأَ تَصْدِيقًا لَهُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٣).

وإنما ضحك أفصح العرب وتعجب، لأنَّه لم يفهم منه إلَّا ما يفهمه علماء
البيان، من غير تصوّر إمساك ولا أصبع ولا هزّ ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع
أوّل شيء وآخره على الزبدة والخلصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة، وأنَّ
الأفعال العظام التي تتحرّر فيها الأذهان ولا تكتننها الأوهام، هيّنة عليه هواناً لا
يوصل السامع إلى الوقوف عليه، إلَّا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخيل.
ولا ترى باباً في علم البيان أدقّ ولا ألطف من هذا الباب، ولا أنفع وأعون على
تعاطي تأويل المشتبهات، من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية
وكلام الأنبياء.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعد من هذه قدرته وعظمته، وما أعلاه
عن إشراكهم. أو عما يضاف إليه من الشركاء.

(١) الأنبياء: ١٠٤.

(٢) النساء: ٣.

(٣) انظر صحيح البخاري ٦: ١٥٧.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني: المرّة الأولى. وهو قرن ينفخ فيه إسرافيل. ووجه الحكمة في ذلك أنها علامة جعلها الله تعالى ليعلم بها العقلاء آخر أمرهم في دار التكليف، فشبّه ذلك بما يتعارفوه من بوق الرحيل والنزول.

﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ خَرُّوا مَيِّتًا، أو مغشياً عليهم من شدة تلك الصيحة. يقال: صعق فلان إذا مات بحال هائلة شبيهة بالصيحة العظيمة. ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قيل: جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، فإنهم لا يموتون بهذه الصيحة بعد. وقيل: حملة العرش.

وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «أنه سأل جبرئيل عن هذه الآية من الذي لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء متقلّدون أسيافهم حول العرش». ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ نفخة أخرى. وهي تدلّ على أنّ المراد بالأولى نفخة واحدة، كما نصّ به في مواضع^(١) أخر. وقال قتادة: إنّ ما بين النفختين أربعين سنة. ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قائمون من قبورهم. أو متوقّفون في مكانهم لتحيرهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ حال من ضمير «قيام». والمعنى: يقلّبون أبصارهم في الجوانب كالمبهورين. أو ينتظرون ما يفعل بهم. وفي ذكر «إذا» المفاجأة إخبار عن سرعة إيجادهم. يعني: إذا

نفخ النفخة الثانية أعادهم الله تعالى عقيب ذلك دفعة يقومون من قبورهم أحياء.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقام فيها من العدل. سمّاه نوراً، لأنّه يزيّن البقاع ويظهر الحقوق، كما سمّى الظلم ظلمة. وترى الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك، كما يقولون: أظلمت البلاد بجور فلان. وفي الحديث: «الظلم ظلمات يوم القيامة». وأضاف اسمه إلى الأرض، لأنّه يزيّنها حيث ينشر فيها عدله، وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها. ولعمري إنّك لا ترى أزين للبقاع من العدل، ولا أعمر لها منه. أو المراد نور خلق فيها بلا توسط أجسام مضيئة، ولذلك أضافه إلى نفسه.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ للحساب والجزاء. من: وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه. أو صحائف الأعمال التي كتبتها الملائكة على بني آدم توضع في أيديهم ليقروا منها أعمالهم. واكتفي باسم الجنس عن الجمع. وقيل: اللوح المحفوظ يقابل به الصحائف.

﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ للأمم وعليهم، من الملائكة والأوصياء وخيار المؤمنين. وقيل: المستشهدون في سبيل الله، فإنّهم عدول الآخرة، يشهدون على الأمم بما شاهدوا. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين العباد ﴿بِالْحَقِّ﴾ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب، على ما جرى به الوعد.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ أي: جزاء ما عملت، على حذف المضاف ﴿وَهُوَ أَغْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يفوته شيء من أفعالهم.

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ

لِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾
 قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُكْبِرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ
 الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ
 خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ
 ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ
 بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

ثم فصل التوفية بقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويساقون سوقاً في عنف
 وهوان ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ كما يفعل بالأسارى إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ﴿زُمَرًا﴾
 أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض، على تفاوت أقدامهم في الضلالة والشرارة.
 وهي جمع زمرة. واشتقاقها من الزمر، وهو الصوت، إذ الجماعة لا تخلو عنه. أو
 من قولهم: شاة زمرة: قليلة الشعر، ورجل زمر: قليل المروءة، فإن كل زمر قليل
 بالنسبة إلى كل الزمر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ انتهوا إلى جهنم ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ليدخلوها. وهي
 سبعة أبواب، لقوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾^(١) الآية. و«حتى» هي التي تحكي بعدها

الجميل. والجملة المحكيّة بعدها هي الشرطيّة. وقرأ الكوفيّون: فُتِحَتْ بتخفيف التاء.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ تقيماً وتوبيخاً ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ من جنسكم ﴿يَقُولُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتُ رَبِّكُمْ﴾ حججه وما يدلّ على معرفته ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: لقاء وقتكم هذا. وهو وقت دخولهم النار. لا يوم القيامة. وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضاً في أوقات الشدّة.

﴿قَالُوا بَلَى﴾ أتونا وتلوا علينا ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: كلمة الله بالعذاب علينا. وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١) لسوء أعمالنا، كما قالوا: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ﴾^(٢). فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب، وهو الكفر والضلال. والمعنى: وجب العقاب على من كفر بالله، لأنّه أخبر بذلك، وعلم من يكفر ويوافي بكفره، فقطع على عقابه، فلم يكن شيء يقع منه خلاف ما علمه وأخبر به، فصار كوننا في جهنّم موافقاً لما أخبره به تعالى ولما علمه. ووضع الظاهر فيه موضع الضمير، للدلالة على اختصاص تلك الكلمة بالكفرة.

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبهم القائل لتحويل ما يقال لهم ﴿فَيَبْسُ مَنُؤَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام فيه للجنس. والمخصوص بالذمّ مخصوص سبق ذكره. وهو جهنّم. ولا ينافي إشعاره بأنّ مثوهم في النار لتكبرهم عن الحقّ أن يكون دخولهم فيها، لأنّ كلمة العذاب حقّت عليهم، فإنّ تكبرهم وسائر مقابحهم مسببة عنه.

﴿وَسَبِقَ الَّذِينَ أَنْقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ﴾ يساقون إسرعاً بهم إلى دار الكرامة

(١) هود: ١١٩.

(٢) المؤمنون: ١٠٦.

والرضوان، كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان بين سوقهم وسوق أهل النار. وقيل: سيق مراكبهم، إذ لا يذهب بهم إلا راكبين. ويجوز أن يكون ذكر السوق هاهنا على وجه الزواج والمقابلة لسوق الكافرين إلى النار. ﴿زُفْرًا﴾ على تفاوت مراتبهم في الشرف وعلو الطبقة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وهي ثمانية، كما نقل عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، مِنْهَا بَابٌ يُسَمَّى بَابَ الرِّيَّانِ، لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ». رواه البخاري ومسلم في الصحيحين^(١). وحذف جواب «إذا» للدلالة على أن لهم حينئذٍ من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف. ولم يحذف الواو لتكون «فتحت» جزاء الشرط، للدلالة على أن أبواب الجنة تفتح لهم قبل مجيئهم غير منتظرين. وقرأ الكوفيون: فتحت بالتخفيف.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ عند استقبالهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلمتم من الآفات، إذ لا يعترىكم بعد مكروه ﴿طَيِّبُكُمْ﴾ طابت أنفسكم بدخول الجنة. أو طبتم بالعمل الصالح في الدنيا، وطابت أعمالكم الصالحة وزكت. أو طهرتم من دنس المعاصي. وروى: أنهم إذا قربوا من الجنة يردون على عين من الماء فيغتسلون بها، ويشربون منها، فيطهر الله أجوافهم، فلا يكون بعد ذلك منهم حدث وأذى، ولا تتغير ألوانهم، فيقول الملائكة لهم: طبتم.

﴿فَانْخَلَوْهَا خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود فيها. والفاء للدلالة على أن الطهارة عن المعصية سبب لدخولهم وخلودهم. فما هي إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين، لأنها دار طهرها الله من كل دنس، وطيبها من كل قدر، فلا يدخلها إلا مناسب لها، موصوف بصفتها. فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة، وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة، إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم، ويوفقنا الفقار الرحيم، توبة نصوحاً

تَنَقَّى^(١) أَنْفُسَنَا مِنْ دَرَنِ الذُّنُوبِ، وَتَمِيطْ وَضْرَ هَذِهِ الْقُلُوبِ. وَحَيْثُ لَا يَمْنَعُ دُخُولَ الْعَاصِي بَعْفُوهُ الْمَطْهَرُ لِلذُّنُوبِ الْمَكْفُورِ لِلْعَاصِي.

﴿وَقَالُوا﴾ إِذَا دَخَلُوهَا اعْتِرَافًا بِنِعْمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ﴿الْحَفْظُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَغَدَهُ﴾ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ بِالْبَيْتِ وَالثَّوَابِ ﴿وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ﴾ يَرِيدُونَ الْمَكَانَ الَّذِي اسْتَقَرُّوا فِيهِ عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ، فَإِنَّ إِبْرَائِيْمَ هَاهُنَا بِمَعْنَى تَمْلِيكِهَا. يَعْنِي: يُمْكِنُنَا مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهَا تَمْكِينُ الْوَارِثِ فِيمَا يَرِثُهُ. وَقِيلَ: ذَكَرَ الْإِبْرَائِيْمَ لِأَنَّهُمْ وَرَثُوهَا عَنْ أَهْلِ النَّارِ. ﴿نَتَّبِعُ أَهْلَ النَّارِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أَي: يَتَّبِعُونَ كُلَّ مَنَّا فِي أَيِّ مَقَامٍ أَرَادَهُ مِنَ جَنَّتِهِ الْوَاسِعَةِ. وَفِي الْحَدِيثِ: أَقَلُّ مَنَازِلِ الْمُؤْمِنِ فِيهَا عَلَى سَعَةِ الدُّنْيَا سَبْعُ مَرَّاتٍ. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ الْجَنَّةُ.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ﴾ أَي: وَمِنْ عَجَائِبِ أُمُورِ الْآخِرَةِ أَنَّكَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ ﴿خَافِينَ﴾ مُحَدِّقِينَ ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ «مِنْ» لِبَتْدَاءِ الْحِفُوفِ. وَقِيلَ: مُزِيدَةٌ، أَي: حَوْلُهُ. ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ يَنْزَهُونَ اللَّهَ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ ﴿يَحْفَظُونَ فِيهِمْ﴾ مُلْتَبِسِينَ بِحَمْدِهِ. وَالْجُمْلَةُ حَالُ ثَانِيَةٍ، أَوْ مُقَيَّدَةٌ لِلأُولَى.

وَالْمَعْنَى: ذَاكِرِينَ لَهُ بِوَصْفِي جَلَالِهِ وَإِكْرَامِهِ، مُتَلَذِّذِينَ بِهِ لَا مُتَعَبِّدِينَ. وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنْ مُنْتَهَى دَرَجَاتِ الْعَالَمِينَ، وَأَعْلَى لَذَائِذِهِمْ، هُوَ الْإِسْتِفْرَاقُ فِي صِفَاتِ الْحَقِّ. وَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَمْرَ الْقَضَاءِ فِي الْآخِرَةِ بِنَصْبِ الْعَرْشِ، وَقِيَامِ الْمَلَائِكَةِ حَوْلَهُ مُعْظَمِينَ لَهُ سُبْحَانَهُ وَمُسَبِّحِينَ، كَمَا أَنَّ السُّلْطَانَ إِذَا أَرَادَ الْجُلُوسَ لِلْمُظَالَمِ يَفْعَلُ كَذَلِكَ تَعْظِيْمًا لِأَمْرِهِ، وَإِنْ اسْتَحَالَ كَوْنُهُ عَزَّ وَعَلَا عَلَى الْعَرْشِ، وَالْجُلُوسَ عَلَى الْعَرْشِ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ فَصْلٌ بَيْنَ الْخَلْقِ بِإِدْخَالِ بَعْضِهِمُ النَّارَ وَبَعْضُهُمُ الْجَنَّةَ. أَوْ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ بِإِقَامَتِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ عَلَى حَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ

(١) أَي: تَنْظِفُ. وَالذَّرَنُ: الْوَسْخُ. وَتَمِيطُ أَي: تُذْهِبُ. وَالْوَضْرُ: الْوَسْخُ.

وإن كانوا معصومين جميعاً، لكن يفاضل بين مراتبهم على حسب مراتبهم في عبادتهم. ﴿بِالْحَقِّ﴾ قضاءً بالحق والعدل ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: على ما قضى بيننا بالحق. والقائلون هم المؤمنون من المقضي بينهم، أي: المؤمنون قالوا: الحمد لله على قضائه بيننا، وإنزال كلِّ مَنَّا منزلته التي هي حقّه. أو القائلون الملائكة. وطبيّ ذكرهم لتعظيمهم وتعظيمهم.

وقيل: إنّه من كلام الله تعالى. فقال في ابتداء الخلق: الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض. وقال بعد إفناء الخلق وبعثهم، واستقرار أهل الجنة في الجنة: الحمد لله ربّ العالمين. فوجب الأخذ بأدبه في ابتداء كلِّ أمر بالحمد وختمه بالحمد.

الحمد لله



سورة المؤمن

مَكِّيَّة. وهي خمس وثمانون آية.

روى أبو بريرة الأسلمي عن رسول الله ﷺ: «من أحب أن يرتع في رياض الجنة، فليقرأ الحواميم في صلاة الليل».

أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «الحواميم ديباج القرآن».

ابن عباس قال: لكل شيء لباب، ولباب القرآن الحواميم.

ابن مسعود قال: إذا وقعت في «آل حم» وقعت في روضات دمشق^(١)، أتأثق

فيهنّ.

أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة حم المؤمن، لم يبق روح نبيّ

ولا صديق ولا مؤمن إلّا صلّوا عليه، واستغفروا له».

وروى أبو بشير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الحواميم ريحان القرآن، فاحمدوا

الله واشكروه بحفظها وتلاوتها. وإنّ العبد ليقوم يقرأ الحواميم، فيخرج من فيه أطيب

من المسك الأذفر^(٢) والعنبر. وإنّ الله ليرحم تاليتها وقارئها. ويرحم جيرانه

وأصدقاءه ومعارفه، وكلّ حميم أو قريب له. وإنّه في القيامة يستغفر له العرش

والكرسيّ وملائكة الله المقربون».

(١) الدَّمْتُ والدَمِثُ: المكان اللين السهل. وأَرْضُ دَمْثَاءَ: لينة سهلة.

(٢) أي: طيب الريح.

وروى أبو الصباح عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ حم المؤمن في كل ثلاث، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وألزمه التقوى، وجعل الآخرة خيراً له من الدنيا».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾

واعلم أن الله سبحانه لما ختم سورة الزمر بذكر الملائكة والجنة والنار، افتتح هذه السورة بمثل ذلك، فقال جلّ وعزّ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْ﴾ قد مضى ذكر الأقوال في الحروف المقطعة في مفتتح سورة البقرة.

وقال القرطبي: هاهنا أقسم الله سبحانه بحلمه وملكه، لا يعذب من عاذ به، وقال: لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه.

وعن عطاء الخراساني: هو افتتاح أسمائه: حليم، حميد، حيّ، حكيم، حنان، ملك، مجيد، مبدىء، معيد.

وعن الكلبي: معناه: حَمْ أي: قضي في اللوح المحفوظ ما هو كائن من الحقائق وكتب فيه.

وأمال ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ألف «حا» إمالة محضة. ونافع برواية ورش وأبو عمرو بين بين. وغيرهم فتحها.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ يحتمل أن يكون تخصيص الوصفين،

لما في القرآن من الإعجاز والحكم الدالّ على كمال القدرة الكاملة والحكمة البالغة. ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ صفات آخر لتحقيق ما في القرآن من الترغيب والترهيب، والحثّ على ما هو المقصود منه. والإضافة فيها حقيقيّة، لأنّه لم يرد بها زمان مخصوص من ماضٍ ومضارع، بل إنّما أريد ثبوت ذلك ودوامه، فكان حكمها حكم: إله الخلق وربّ العرش. فيوافق موصوفها، لإفادتها التعريف.

و «شديد العقاب» وإن كان في تقدير النكرة - أعني: شديد عقابه، لا ينفكّ من هذا - ولكن يؤول إلى: الشديد عقابه، فحذف اللام ليزاوج ما قبله وما بعده لفظاً. وقد غيّروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل الازدواج. أو أبدال^(١). وجعل «شديد العقاب» وحده بدلاً مشوّش للنظم.

وتوسيط الواو بين الأولين لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة. أو لتغاير الوصفين، إذ ربما يتوهّم الاتحاد. أو لتغاير موقع الفعلين، لأنّ الغفر هو الستر، فيكون لذنوبٍ باقي، وذلك لمن لم يتب، فإنّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

والتّوب مصدر، كالتوبة. وهو والتّوب والأوب أخوات في معنى الرجوع. وقيل: جمع التوبة. والطّول: التفضّل بترك العقاب المستحقّ. يقال: طال عليه وتطوّل إذا تفضّل. وفي توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل رجحانها.

روي عن ابن عبّاس أنّه قال: «غافر الذنب» لمن قال: لا إله إلّا الله. «شديد العقاب» لمن لم يقل: لا إله إلّا الله. «ذي الطول» ذي الغنى عمّن لم يقل.

(١) عطف على قوله: صفات آخر ...، في بداية الفقرة السابقة.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الموصوف بهذه الصفات دون غيره، ولا يستحق العبادة سواه، فيجب الإقبال الكلّي على عبادته ﴿إِنِّيهِ الْقَصِيرُ﴾ المرجع للجزاء، فيجازي المطيع والعاصي. والمعنى: أَنَّ الأمور تؤول إلى حيث لا يملك أحد النفع والضرر والأمر والنهي غيره تعالى، وذلك يوم القيامة.

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾

ولمّا حَقَّقَ أمر التنزيل سَجَل بالكفر على المجادلين فيه بالظن، فقال: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لادحاض الحق، لقوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾^(١) ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَإِنَّ الجدل فيه لحلّ مشكلاته، واستنباط حقائقه، وإيضاح ملتبساته، وقطع تشبّث أهل الزيغ به، وردّ مطاعنهم فيه، فمن أعظم الطاعات. ولذلك قال ﷺ: «إِنَّ جَدَالَ فِي الْقُرْآنِ كَفَرٌ» بالتنكير، فَإِنَّ إيراده منكراً تمييز بين جدال وجدال.

ولمّا كان الكفّار مشهوداً عليهم من قبل الله بالكفر، والكافر لا أحد أشقى منه

عند الله، وجب على من تحقق ذلك أن لا ترجح أحوالهم في عينه، ولا يغرّه إقبالهم في دنياهم بوسيلة المكاسب المربحة. ولهذا عطف ذلك على بيان مجادلتهم بالفاء العاطفة، فقال:

﴿فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ أي: إمهالهم في دنياهم، وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة، لأنهم مأخوذون عما قريب بكفرهم أخذ من قبلهم، كما قال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ﴾ والذين تحزّبوا على الرسل وناصبوهم، كعاد وثمود ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ بعد قوم نوح ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هؤلاء ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا من إصابته بما أرادوا من تعذيب وقتل، من الأخذ بمعنى الأسر. ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بما لا حقيقة له ﴿لِيُذِجُوا بِهِ الْخَقَّ﴾ ليزيلوه به ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ يعني: أنهم قصدوا أخذ رسولهم، فجعلت جزاءهم على إرادة أخذه أن أخذتهم بالإهلاك. ثم قرّر ذلك فقال تعجيباً: ﴿فَكَيفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فإنكم تمرّون على ديارهم، فتعاينون أثر ذلك.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ﴾ أي: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل، كذلك وجب ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: وعيده، أو قضاؤه بالعذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكفرهم ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ لأنّ علّة واحدة - وهي الكفر - تجمعهم أنهم من أصحاب النار. وهذا بدل من «كلمة ربك» بدل الكلّ على إرادة اللفظ، أي: وجب أنهم أصحاب النار. أو الاشتمال على إرادة المعنى.

الَّذِينَ يَخْلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ

تَأْتُوا وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ
الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

ثم أخبر سبحانه عن حال المؤمنين، وأنه يستغفر لهم الملائكة مع عظم منزلتهم عند الله، فحالهم بخلاف أحوال من تقدّم ذكرهم من الكفار، فقال:

﴿الَّذِينَ يَخُمَلُونَ الْعَرْشِ﴾ على عواتقهم امتثالاً لأمر الله ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ من الملائكة المطيِّفين. وهم الكروبيّون سادة طبقات الملائكة. وحملهم العرش وحفيّهم حوله مجاز عن حفظهم وتديبرهم له. أو كناية عن فرط قربهم من ذي العرش، ومكانتهم عنده، وتوسّطهم في نفاذ أمره.

روي عن النبي ﷺ: «أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ أَرْجَلُهُمْ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَرُؤُوسُهُمْ قَدْ خَرَقَتْ الْعَرْشَ، وَهُمْ خَشُوعٌ لَا يَرْفَعُونَ طَرْفَهُمْ».

وأيضاً عن النبي ﷺ: «لَا تَتَفَكَّرُوا فِي عَظَمِ رَيْكُم، وَلَكِنْ تَفَكَّرُوا فِيَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ». فَإِنَّ خَلْقاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَقَالُ لَهُ إِسْرَافِيلُ، زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَا الْعَرْشِ عَلَى كَاهِلِهِ، وَقَدَمَاهُ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَقَدْ مَرَقَ^(١) رَأْسُهُ مِنْ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ. وَإِنَّهُ لِيَتَضَاعَلُ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ الْوَصْعُ^(٢).

وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ جَمِيعَ الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَغْدُوا وَيَرْحُوا بِالسَّلَامِ

(١) أي: خرج.

(٢) الوصع: طائر أصغر من العصفور.

على حملة العرش، تفضيلاً لهم على سائر الملائكة».

وقيل: خلق الله العرش من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام.

وقيل: حول العرش سبعون ألف صنف من الملائكة، يطوفون به مهلّلين مكبّرين. ومن ورائهم سبعون ألف صفّ قيام، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم، رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير. ومن ورائهم مائة ألف صفّ قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا وهو يستبّح بما لا يستبّح به الآخر.

وعن مجاهد: بين الملائكة وبين العرش سبعون حجاباً من نور.

﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ينزهونه عما يصفه به هؤلاء المجادلون، ملتبسين ﴿بِخَفِيٍّ وَبُهُمْ﴾ أي: يذكرون الله بمجامع الثناء، من صفات الجلال والإكرام. وجعل التسبيح أصلاً والتحميد حالاً، لأنّ الحمد مقتضى حالهم، لإيجاد الله إيتاهم، وتوفيقهم في العبادة، دون التسبيح.

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أخبر عنهم بالإيمان لإظهار شرفه وفضله والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء في مواضع من كتابه بالصلاح، لإظهار شرفه. ولما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم، علم أنّ إيمانهم وإيمان من في الأرض وكلّ من غاب عن ذلك المقام سواء، في أنّ إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير. وأنّه لا طريق إلى معرفته إلا هذا. وأنّه منزّه عن صفات الأجسام والأجرام.

وزعم الزمخشري^(١) والعلامة الرازي^(٢) أنّ في الآية ردّاً على المجسّمة، كما أورده النيشابوري في تفسيره قائلاً: «قال في الكشف: فيه تكذيب المجسّمة، فإنّ الأمر لو كان كما زعموا لكان الملائكة يشاهدونه، فلا يوصفون بالإيمان، لأنّه لا

(١) الكشف ٤: ١٥٢.

(٢) التفسير الكبير ٢٧: ٣٢-٣٣.

يوصف بالإيمان إلّا الغائب، فعلم أنّ إيمانهم كإيمان أهل الأرض والكلّ سواء، في أنّ إيمانهم بطريق النظر والاستدلال.

واستحسن هذا الكلام الامام فخرالدين الرازي في تفسيره الكبير حتّى ترخّم عليه، وقال: «لو لم يكن في كتابه إلّا هذه النكتة لكفى به فخراً وشرفاً».

وأنا أقول: لا نسلم أنّ الإيمان لا يكون إلّا بالغائب، وإلّا لم يكن الإيمان بالنبيّ وقت تحدّيه وبالقرآن. وإن شئت فتأمل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾^(١). فلو لم يكن إيمان بالشهادة لم يكن لقوله: «بالغيب» فائدة. على أنّه يحتمل أن يشاهد الربّ وينكر كونه ربّاً وإلهاً. ويمكن أن يكون محمول الشيء محجوباً عن ذلك الشيء. فمن أين يلزم تكذيب المجسّمة؟

وزعم الإمام فخرالدين أنّ في الآية دلالة أخرى على إبطال قول أهل التجسيم أنّ الإله على العرش، فإنّه لو كان كما زعموا - وحامل الشيء حامل لكلّ ما على ذلك الشيء - لزم أن يكون الملائكة حاملين للإله العالم حافظين له، والحافظ أولى بالإلهيّة من المحفوظ.

قلت: لا شك أنّ هذه مغالطة، جاز الحمل لأجل العظمة وإظهار الكبرياء على ما يزعم الخصم، كيف يلزم منه ذلك؟! وهل يزعم عاقل أنّ الحمار أشرف من الإنسان الراكب عليه من جهة الركوب عليه^(٢).

انتهى كلامه المصريح بتخطئتهما. والحقّ أنّهما زلعا وعثرا، سيّما الرازي، فإنّه خبط خبط عشواء، وركب متن عمية، وإن ذيل النيشابوري كلامه بقوله: «وإنّما ذكرت ما ذكرت لكونه وارداً على كلام الإمامين، مع وفور فضلها وبعد غورهما، لا لأنّي مائل في المسألة إلى غير معتقدهما».

(١) البقرة: ٣.

(٢) غرائب القرآن للنيشابوري ٦: ٢٣.

ولأجل أن المشاركة في الإيمان توجب النصيح والشفقة وإن تخالفت الأجناس، لأنها أقوى المناسبات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١)، يطلب الملائكة من الله المغفرة لأهل الإيمان من الثقيلين، كما قال عز اسمه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ كأنه قيل: ويؤمنون به ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم من أهل الأرض، وإن تباعدت الأماكن بينهم وبين الثقيلين. فبين قوله: «ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا» غاية التناسب والتجانس.

﴿رَبُّنَا﴾ أي: يقولون ربنا. وهذا بيان لـ«يستغفرون» مرفوع المحل مثله. ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمٌ﴾ أي: وسعت رحمتك وعلمك، فأزيل الكلام عن أصله، بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم. وأخرجنا منصوبين على التمييز، للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء. وتقديم الرحمة على العلم، لأنها المقصودة بالذات هاهنا.

﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق. وهو دين الإسلام. فما بعد الفاء مشتمل على حديث الرحمة والعلم، لا الغفران وحده. فيطابق قوله: «وسعت كل شيء رحمة وعلماً».

﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ واحفظهم عنه. وهو تصريح بعد إشعار، للتأكيد والدلالة على شدة العذاب. والفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون: زيادة الكرامة والثواب. أو الدلالة على أن إسقاط العقاب عند التوبة تفضل من الله تعالى، إذ لو كان واجباً لكان لا يحتاج إلى مسألتهم، بل كان يفعله الله سبحانه لا محالة.

﴿رَبُّنَا وَأَنْجَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ النَّارِ وَعَدْتَهُمْ﴾ إياها على ألسن الرسل ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ عطف على «هم» الأول، أي: أدخل هؤلاء

معه ليتّمس سرورهم. أو الثاني، لبيان عموم الوعد. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الملك الذي لا يغلب، ولا يمتنع عليه مقدور ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، ومن ذلك الوفاء بالوعد.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ العقوبات. أو جزاء السيئات، فحذف المضاف. وهذا تعميم بعد تخصيص، أو مخصوص بمن صلح. والوقاية منها: التكفير، أو قبول التوبة. أو المعاصي نفسها في الدنيا. وعلى هذا، معنى قوله: ﴿وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ﴾ من تقها في الدنيا فقد رحمته في الآخرة. كأنهم طلبوا السبب بعد ماسألو المسبب. وعلى الأول: ومن تق العقوبات أو جزاء المعاصي يوم القيامة فقد رحمته. ﴿وَذَلِكَ﴾ يعني: الرحمة، أو الوقاية، أو مجموعهما ﴿هُوَ الْغَفُورُ الْعَظِيمُ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَشْيَيْنَ وَأَحْيَيْنَا أَشْيَيْنَ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

ثم عاد الكلام إلى من تقدّم ذكرهم من الكفار، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون﴾ أي: يناديهم الملائكة يوم القيامة، فيقولون لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لمقت الله أنفسكم أشدّ مما تمقتون اليوم وأنتم في النار من مقتكم أنفسكم الأمانة بالسوء. والمقت: أشدّ البغض. فوضع في موضع أبلغ الإنكار وأشدّه.

وعن الحسن: لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم، فنودوا: «لمقت الله».

وقيل: معناه: لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض، كقوله تعالى: ﴿يَخْفَرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾^(١).

﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ ظرف. وعامله فعل دلّ عليه المقت الأول، لا هو، لأنّه أخبر عنه، وقد فصل بينه وبين الظرف خبره، أعني «أكبر»، فلا يجوز. ولا المقت الثاني، لأنّ مقتهم أنفسهم يوم القيامة حين عاينوا جزاء أعمالهم الخبيثة. فالمعنى: مقتكم الله حين كان الأنبياء يدعونكم ﴿إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ فتأبون قبوله، وتختارون عليه الكفر. أو تعليل للحكم، وزمان المقتين واحد.

ثمّ حكى سبحانه عن الكفار الذين تقدّم وصفهم بعد حصولهم في النار، بأنهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَفْتَنَّا﴾ إماتتين، بأن خلقتنا أمواتاً أولاً، ثمّ صيرتنا أمواتاً عند انقضاء آجالنا، فإنّ الإماتة جعل الشيء عادم الحياة ابتداءً، فيصحّ أن يستمرّ خلقهم أمواتاً إماتة، كما يصحّ أن تقول: سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل، وتقول للحقار: ضيق فم الركبة^(٢)، ووسع أسفلها، وليس ثمّ نقل من كبر إلى صغر، ولا من صغر إلى كبر، ولا من ضيق إلى سعة، ولا من سعة إلى ضيق، وإنّما أردت الإنشاء على تلك الصفات. والسبب في صحّته أنّ الصغر والكبر جائزان معاً على المصنوع الواحد من غير ترجّح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكّن منهما على السواء، فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كتنقله منه.

﴿وَآخِيزْنَا اثْنَيْنِ﴾ الإحياء الأولى، وإحياء البعث. وناهيك تفسيراً لذلك

(١) العنكبوت: ٢٥.

(٢) الرّكبة: البئر ذات الماء.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَفْوَاتًا فَأَخْيَاكُمُ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾^(١). وكذا عن ابن عباس وأئمة التفسير.

وعن السدي: أن المراد بالإماتتين: التي بعد حياة الدنيا، والتي بعد حياة القبر. ولزمه إثبات ثلاث إحياءات: إحياءة في ظهر الأرض، وإحياءة في القبر للسؤال، وإحياءة للحشر. وهو خلاف ما في القرآن، إلا أن يتمحل فيجعل حياة القبر غير معتد بها، لقلة زمانها.

ومقصودهم من هذا القول اعترافهم بعد المعاينة بما غفلوا عنه ولم يكثرثوا به، ولذلك تسببوا بقولهم: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فإن اعترافهم لها من اغترارهم بالدنيا وإنكارهم البعث. وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى، لأن من لم يخش العاقبة توسع في المعاصي. فلما رأوا الإماتة والإحياء تكررا عليهم، علموا بأن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم.

﴿فَهَذَا إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ نوع خروج سريع أو بطيء من النار ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ طريق فنسلكه. وذلك إنما يقولونه من فرط قنوطهم تعللاً وتحيراً. ولذلك أجيبوا بقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي أنتم فيه من أنه لا سبيل لكم إلى خروج من سبيل ﴿بِأَنَّهُ﴾ بسبب أنه ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخُذَهُ﴾ متحداً. أو توحد وحده، فحذف الفعل وأقيم مقامه في الحالية. ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بالتوحيد ﴿وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ بالإشراك ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ المستحق للعبادة، حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد ﴿النَّعْيِي﴾ القادر على كل شيء، ليس فوقه من هو أقدر منه، أو من يساويه في مقدوره. ونقلت هذه اللفظة من علو المكان إلى علو الشأن، ولذلك جاز وصفه سبحانه بذلك، كما يقال: استعلى فلان عليه بالقوة وبالحجة. ﴿الْكَبِيرِ﴾

العظيم في صفاته التي لا يشاركه فيها غيره، ومن أن يشرك به ويسوى به بعض مخلوقاته.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن
يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ
الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ
التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ
لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ
اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ﴾ مصنوعاته الدالة على توحيده وكمال قدرته، من
الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق والشمس والقمر والنجوم، وسائر ما في
السموات والأرض ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أسباب رزق، كالمطر، مراعاة
لمعاشكم.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ وما يعتبر ويتعظ بالآيات التي هي كالمركوزة في العقول،
لظهورها المغفول عنها، لانهماك في التقليد واتباع الهوى ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يرجع عن
الإنكار والعناد بالإقبال عليها والتفكير فيها، فإن المعاند لا سبيل إلى تذكره واتعاظه،
والجازم بشيء لا ينظر فيما ينافيه.

ثم قال لمن ينيب: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ

الْكَافِرُونَ﴾ إخلاصكم، وشقّ عليهم.

﴿زَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ خبران آخران لقوله: «هو». أو خبران لمبتدأ محذوف، للدلالة على علو صمديته، من حيث المعقول والمحسوس الدالّ على تفرّده في الألوهيّة، فإنّ من ارتفعت درجات كماله ومراتب عزّته وملكوته بحيث لا يحيط العقل بكنهه، وكان العرش الذي هو أصل العالم الجسماني في قبضة قدرته، لا يصحّ أن يشرك به.

وقيل: معناه: رافع درجات مراتب المخلوقات من الأنبياء والأولياء في الجنّة، أو درجات ثوابه التي ينزلها أوليائه في الجنّة.

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ خبر رابع للدلالة على أنّ الروحانيّات أيضاً مسخّرات لأمره، والمراد بالروح الوحي. وتسميته بالروح لأنّه يحيي القلوب من موت الكفر. و«من» لا ابتداء الغاية. يعني: يلقي الوحي الذي مبدؤه من أمره، أو بيانته. والمعنى: هو يلقي الوحي الذي هو أمره بالخير.

﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على قلب من يشاء ممّن يراه أهلاً للنبوّة. يقال: ألقيت عليه كذا، أي: فهمته ﴿لِيُنْذِرَ﴾ غاية الإلقاء. والمستكن فيه لله، أو لا «من»، أو لا «الروح». أي: لينذر الله بالروح، أو الملقى عليه به، أو الروح. ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يوم القيامة، فإنّ فيه تتلاقى الأرواح والأجساد، وأهل السماء والأرض. أو المعبودون والعباد. أو العتال والأعمال.

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ خارجون من قبورهم. أو ظاهرون لا يستترهم شيء، من جبل أو أكمة^(١) أو بناء، لأنّ الأرض يومئذٍ تكون قاعاً صاففاً. أو لا عليهم ثياب، بل إنّما هم عراة مكشوفون، كما قال النبي ﷺ: «يحشرون عراة حفاة

(١) الأكمة: التلّ، أو الموضع الذي يكون أكثر ارتفاعاً ممّا حوله.

غراً^(١). أو ظاهرة نفوسهم، لا تحجبهم غواشي الأبدان الكثيفة. أو أعمالهم وسرائرهم.

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ من أعيانهم وأعمالهم. وهذا تقرير لقوله: «هم بارزون»، وإزاحة لنحو ما يتوهم في الدنيا. يعني: أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استروا بالحيطان والحجب أن الله لا يراهم، وتخفى عليه أعمالهم، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

﴿لَئِنْ أَمْلَكُ الْيَوْمَ﴾ فيقرّ المؤمنون والكافرون ﴿بِإِلَهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وهذا حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم، ولما يجاب به. ومعناه: أنه ينادي منادٍ فيقول: لمن الملك اليوم. فيجيبه أهل المحشر: لله الواحد القهار.

وقيل: يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد بأرض بيضاء، كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط، فأول ما يتكلم به أن ينادي منادٍ: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار.

وقال القرطبي: يقول الله تعالى ذلك بين النفختين حين يفني الخلائق كلها، ثم يجيب نفسه، لأنه بقي وحده.

ويضعف هذا القول، إذ بين أنه يقول ذلك يوم التلاق، يوم يبرز العباد فيه من قبورهم. وإنما خصّ ذلك اليوم بأن له الملك فيه، لأنه قد ملك العباد بعض الأمور في الدنيا، ولا يملك أحد شيئاً ذلك اليوم. أو حكاية لما دلّ عليه ظاهر الحال فيه من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط، وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائماً.

ولما قرّر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم، عدّد نتائج ذلك بقوله: ﴿الْيَوْمَ

(١) غُزِلَ جمع أغْرِلَ، وهو الصبي الذي لم يختن.

(٢) فصلت: ٢٢.

فُجِرَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴿ يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. وتحقيقه: أَنَّ النفوس تكتسب بالعقائد والأعمال هيئات توجب لذتها وألمها، لكنها لا تشعر بها في الدنيا لعوائق تشغلها، فإذا قامت قيامتها زالت العوائق وأدركت لذتها وألمها. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَعِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقْضِيَهُ مِنْهُ. وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ».

﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ بنقص الثواب وزيادة العذاب ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيصل إليهم ما يستحقونه سريعاً في وقت واحد، وهو أسرع الحاسبين. وعن ابن عباس: إذا أخذ في حسابهم لم يَقُلْ^(١) أهل الجنة إلا فيها، ولا أهل النار إلا فيها.

وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مِمَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يخوف المكلفين يوم القيامة، فقال: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أي: القيامة سميت بها لأزوفها، أي: قربها. ويجوز أن يريد بيوم الآزفة وقت الخطأ الآزفة، وهي مشارفتهم دخول النار. ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ فإنها

(١) من: قَالَ يَقِيلُ قِيلَوْلَةً: نام في القائلة، أي: في منتصف النهار.

ترتفع عن مقارها فتلتصق بحلقوقهم، فلا هي تخرج فيموتوا، ولا ترجع إلى موضعها فيتنفسوا ويتروحووا، ولكنها معترضة كالشجاء^(١).

﴿كَاطِمِينَ﴾ متلئين غمّاً وخوفاً. حال من أصحاب القلوب على المعنى، لأنّ المعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها. ويجوز أن يكون حالاً من القلوب، أي: حال كون القلوب كاظمة على غمّ وكرب فيها مع بلوغها الحناجر. وإنما جمع جمع السلامة، لأنّه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء، كما قال: ﴿زَانِتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٢). وقال: ﴿فَقُلْتُ أَغْنَاكُمُ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(٣). أو من مفعول «أنذرهم» على أنّه حال مقدّرة، أي: أنذرهم مقدّرين أو مشارفين الكظم، كقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(٤).

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ أي: شفيع يشفع، فإنّ المطاع مجاز في المشفع، لأنّ حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر، في أنّها لا تكون إلّا لمن فوقك، فلو كان المطاع على حقيقته لكان الله مطيعاً، والمطيع يكون أدنى مرتبة، تعالى الله عن ذلك. والضائر إن كانت للكفّار - وهو الظاهر - كان وضع الظالمين موضع ضميرهم، للدلالة على اختصاص ذلك بهم، وأنّه لظلمهم.

واعلم أنّ معنى قوله: «ولا شفيع يطاع» نفي الشفاعة والطاعة معاً، لا نفي الطاعة دون الشفاعة. كما تقول: ما عندي كتاب يباع. فهو محتمل نفي البيع وحده، وأنّ عندك كتاباً إلّا أنّك لا تبيعه، ونفيهما جميعاً، بأن لا كتاب عندك، ولا كونه مبيعاً. لأنّ الشفعاء هم أولياء الله، وأولياء الله لا يحبّون ولا يرضون إلّا من أحبّه الله

(١) الشجاء: ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه.

(٢) يوسف: ٤.

(٣) الشعراء: ٤.

(٤) الزمر: ٧٣.

ورضيه، وأنَّ الله لا يحب الظالمين، فلا يحبونهم، وإذا لم يحبوهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(١). وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(٢). ولأنَّ الشفاعة لا تكون إلَّا في زيادة التفضل، وأهل التفضل وزيدته إنما هم أهل الثواب، بدليل قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣). وعن الحسن: والله ما يكون لهم شفيع ألبتة.

والفائدة في ذكر الصفة ونفيها - مع أنَّ الغرض حاصل بذكر الشفيع ونفيه فقط - إقامة انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة، لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها، فيكون ضمها إليه إزالة لتوهم وجود الموصوف. بيانه: إنَّك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت: مالي فرس أركبه، ولا معي سلاح أحارب به، فقد جعلت عدم الفرس وفقد السلاح علّة مانعة من الركوب والمحاربة. كأنك تقول: كيف يتأتى مني الركوب والمحاربة ولا فرس لي ولا سلاح معي؟ فكَذلك قوله: «ولا شفيع يطاع» معناه: كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع؟

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ أي: النظرة الخائنة، كالنظرة الثانية إلى غير المحرم، واستراق النظر إليه، على أن تكون صفة للنظرة. أو خيانة الأعين، على أن تكون مصدراً بمعنى الخيانة، كالعافية بمعنى المعافاة. ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين، لأنّه لا يساعد عليه قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ من الضمائر.

والجملة خبر خامس، للدلالة على أنَّها ما من خفي إلَّا وهو متعلّق العلم وانجزاء، مثل «يلقي الروح»، ولكن «يلقي الروح» قد علّل بقوله: «لينذر يوم التلاق». ثم استطرّد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: «ولا شفيع يطاع»، فبعّد

(١) البقرة: ٢٧٠.

(٢) الأنبياء: ٢٨.

(٣) النساء: ١٧٣.

لذلك عن أخواته.

﴿وَاللَّهُ﴾ والذي هذه صفاته ﴿يَقْضِي﴾ يفصل بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾ فيوصل كل ذي حق إلى حقه، لأنه المالك الحاكم على الإطلاق، المستغني عن الجور، فلا يقضي بشيء إلا وهو حق ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ تهكم بهم، لأن الجهاد لا يقال فيه إنه يقضي أو لا يقضي. وقرأ نافع وهشام بالتاء، على الالتفات، أو إضمار: قل.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ فيسمع المسموعات ﴿الْبَصِيرُ﴾ يبصر المبصرات. وهذا تقرير لعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، وقضائه بالحق. ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون. وتعريض بحال ما يدعون من دونه من الأصنام، وأنها لا تسمع ولا تبصر. وهاتان الصفتان إذا أطلقنا على الله يرجعان إلى كونه حيّاً عالماً بجميع المسموعات والمبصرات، لاستغنائه عن آتني السمع والبصر.

أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

ثم نبههم سبحانه على أن ينظروا في حال الأمم المكذبة الخالية نظر اعتبار وتفكر، فقال:

﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مآل حال الذين كذبوا الرسل قبلهم، كعاد وتمود ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة وتمكناً.

وإنما جيء بالفصل بين معرفة وغير معرفة، وحقه أن يقع بين معرفتين، لمضارعة «افعل من» للمعرفة في امتناع دخول اللام عليه، فأجري مجراه. وقرأ ابن عامر: أشد منكم بالكاف. ﴿وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ مثل القلاع والمدائن الحصينة. وقيل: المعنى: وأكثر آثاراً، كقوله: متقلداً سيفاً ورمحاً^(١). أي: وحاملاً رمحاً، لأن الرمح لا يتقلد. ﴿فَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يمنع العذاب عنهم.

﴿ذَلِكَ﴾ الأخذ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَاتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالنَّبِيِّاتِ﴾ بالمعجزات الباهرات، والأحكام الواضحات ﴿فَتَكْفَرُوا فَاخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أهلهم عقوبة على كفرهم ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ قادر على الانتقام منهم، متمكن مما يريد غاية التمكن ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يؤبه بعقاب دون عقابه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُكَبَّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكْ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكْ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

ثم ذكر قصّة موسى وفرعون لينظروا فيها نظر اعتبار، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ يعني: المعجزات ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وحجّة ظاهرة. والعطف لتفاير الوصفين، أو لإفراد بعض المعجزات كالعصا، تقديماً لشأنه.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾ كان موسى ﷺ رسولاً إلى كافّتهم، إلّا أنّه خصّ فرعون وهامان وقارون بالذكر، لأنّ فرعون رئيسهم، وكان هامان وزيره، وقارون صاحب كنوزه، والباقيون تبع لهم ﴿فَقَالُوا سَاجِدٌ كَذَّابٌ﴾ يعنون: موسى ﷺ. وفيه تسليّة لرسول الله ﷺ، وبيان لعاقبة من هو أشدّ من الذين كانوا من قبلهم بطشاً وأقربهم زماناً.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بالنبوة ﴿مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ أي: أعيّدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولاً، كي يصدّوا عن مظاهرة موسى ﴿وَمَا كُنْزُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ في ضياع. يعني: أنّهم باسّروا قتلهم أولاً فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يغني عنهم هذا القتل الثاني. ووضع الظاهر فيه موضع الضمير لتعميم الحكم، والدلالة على العلة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي﴾ اتركوني ﴿اقْتُلْ مُوسَى﴾ كانوا يكفّونه عن قتله، ويقولون: إنّهُ ليس الذي تخافه، وهو أقلّ من ذلك وأضعف، وما هو إلّا بعض السحرة، ومثله لا يقاوم إلّا ساحراً مثله، ولو قتلته أدخلت الشبهة على الناس أنّك عجزت عن معارضته بالحجّة.

والظاهر أنّ فرعون كان قد استيقن أنّه نبيّ، وأنّ ما جاء به آيات وما هو

بسحر، ولكنه كان فيه خب^(١) وجريزة، وكان قتلاً سفاكاً للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يثل^(٢) عرشه ويهدم ملكه؟! ولكنه كان يخاف إن هم يقتله لا يتيسر له ويعاجل بالهلاك.

وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه. وكان قوله: «ذروني أقتل موسى» تمويهاً على قومه، وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفرع.

﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغير ما أنتم عليه من عبادتي وعبادة الأصنام، لقوله: ﴿وَيَذَرُكَ وَأَيْهَتَكَ﴾^(٣) ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ما يفسد دنياكم من التفاتن^(٤) والتهارج الذي يذهب معه الأمن، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعاش، ويهلك الناس قتلاً وضياًعاً، إن لم يقدر أن يبدل دينكم بالكلية.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر^(٥) بالواو، على معنى الجمع. وابن كثير وابن عامر والكوفيون غير حفص بفتح الياء والهاء ورفع «الفساد». ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ أي: لقومه لما سمع كلام فرعون ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ عن الإذعان للحق. وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه، وعلى فرط ظلمه.

ثم قال ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب

(١) الخَبُّ: الخديعة. ورجل خَبٌّ: خداع.

(٢) أي: يهدم ويسقط.

(٣) الأعراف: ١٢٧.

(٤) أي: الوقوع في الفتنة والتحارب. والتهارج: القتال والمهارة.

(٥) أي: وأن يظهر....

سورة المؤمن، آية ٢٣-٢٨ ١٣٣

بالجزاء. وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على الله وعباده، ولم يترك معصية عظيمة إلا ارتكبها. وصدر الكلام بـ«إِنَّ» تأكيداً وإشعاراً على أَنَّ السبب المؤكد في دفع الشر هو العياذ بالله. وخصَّ اسم الرب، لأنَّ المطلوب هو الحفظ والتربية. وإضافته إليه وإلهم حثاً لهم على اقتدائهم به، فيعودوا به عياده، لما في تظاهر الأرواح من استجلاب الإجابة. ولم يسمَّ فرعون، وذكر وصفاً يعمّه وغيره، لتعميم الاستعاذة، والدلالة على الحامل له على هذا القول.

وقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي: عُدْتُ - فيه وفي الدخان^(١) - بالإدغام. وعن نافع مثله.

ولمّا قصد فرعون قتل موسى وعظه المؤمن من آله، كما قال عزَّ اسمه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وكان قبطياً ابن عمِّ لفرعون، آمن بموسى سرّاً. وقيل: «من» متعلق بقوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ من آل فرعون على وجه التقية. اسمه سمعان، أو حبيب، أو خربيل. وقيل: حزيل.

قال أبو عبدالله عليه السلام: «التقية من ديني ودين آبائي». و«لا دين لمن لا تقية له». و«التقية ترس الله في أرضه، لأنَّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الاسلام لقتل». وقال ابن عباس: لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره، وغير امرأة فرعون، وغير المؤمن الذي أنذر موسى، وهو الذي جاء من أقصى المدينة.

﴿اتَّقَتُوا رِجْلًا﴾ أتقصدون قتله ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ لأن يقول، أو وقت أن يقول، من غير رؤية وتأمل في أمره ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وحده. وهو في الدلالة على الحصر مثل: صديقي زيد. وفيه إنكار منه عظيم، وتبكيك شديد. كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة، وما لكم علة قط في ارتكاب قتلها إلا كلمة الحق التي نطق بها، وهي قوله: «رَبِّيَ اللَّهُ»؟!

﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المتكررة على صدقه. من المعجزات والاستدلالات، أي: لم يحضر لتصحيح قوله بيّنة واحدة، ولكن بيّات عدّة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أضافه إليهم بعد ذكر البيّات احتجاجاً عليهم، واستدراجاً لهم إلى الاعتراف به.

ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم من باب الاحتياط، فقال: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوا فَعَلْنَاهُ كَذِبُهُ﴾ يعود عليه، ولا يتخطاه وبال كذبه، فيحتاج في دفعه إلى قتله ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوا فَعَلْنَاهُ كَذِبُهُ﴾ يعذبكم ﴿فَلَا أَقِلَّ مِنْ أَنْ يَصِيبَكُمْ بَعْضُهُ إِنْ تَعَرَّضْتُمْ لَهُ﴾.

وفيه مبالغة في التحذير، وإظهار للإتصاف والمداراة والتلطّف وعدم التعصّب، كقوله: ﴿وَأَنَا أَوْ يَأْتِكُمْ لَعَلِّي هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١). فجاء بما علم أنّه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه، ولذلك قدّم كونه كاذباً. ثم قال: «بعض الذي يعدكم»، ولم يقل: يصيبكم جميع الذي يعدكم، مع أنّ موسى نبيّ صادق لا بدّ لما يعدهم أن يصيبهم كلّهُ. والمراد بالبعض: عذاب الدنيا، وهو بعض مواعيده. كأنّه خوفهم بما هو أظهر احتمالاً عندهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاج ثالث. ومعناه: لو كان موسى مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى ما يدّعي من النبوة، ولما عضده بتلك المعجزات. ويحتمل أن يكون معناه: أنّ من خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر فلا حاجة لكم إلى قتله. ولعلّه أراد به المعنى الأوّل، وخيّل إليهم الثاني لتلين شكيمتهم، وعرض به لفرعون بأنّه مسرف كذاب لا يهديه الله سبيل الصواب وطريق النجاة. ويجوز أن يكون ذلك ابتداء كلام من الله تعالى.

يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ
 إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ
 ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾
 مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ
 ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ مَا
 لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ
 يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ
 قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ
 ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقَامًا عِنْدَ اللَّهِ
 وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

ثم ذكرهم مؤمن من آل فرعون ما هم فيه من الملك ليذكروا الله تعالى على
 ذلك بالإيمان به، فقال:

﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ عالين على الناس غالبين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾
 أرض مصر ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ عذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ أي: فلا تفسدوا

أمركم، ولا تعرّضوا لبأس الله بقتله، فإنّه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد. وإنما أدرج نفسه في الضميرين، لأنّه كان منهم في القرابة. وليريه أنّهم ومساهمهم فيما ينصح لهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ﴾ ما أشير عليكم ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾ لنفسي، وأستصوبه من قتله ﴿وَمَا أَفْهِيكُمْ﴾ وما أعلمكم ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ إلّا ما علمت من طريق الصواب. ولا أدخر منه شيئاً، ولا أسرّ عنكم خلاف ما أظهر. يعني: أنّ قلبي ولساني متواطئان على ما أقول لكم. وقد كذب لعنه الله، فإنّه كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى، ولكنّه كان يتجلّد، ولولا استشعاره لم يستشر أحداً، ولم يقف الأمر على الإشارة.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ في تكذيبه. والتعرّض له ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ مثل أيّام الأمم الماضية. يعني: وقائعهم. وجمع الأحزاب مع التفسير أغنى عن جمع اليوم، فإنّه لم يلبس أنّ كلّ حزب منهم كان له يوم دمار.

﴿مِثْلَ ذَأْبٍ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ مثل جزاء ما كانوا عليه دائماً - أي: دائماً - من الكفر وإيذاء الرسل، ولا يفترّون عنه ساعة ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط عليه السلام ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ يعني: أنّ تدميرهم كان عدلاً وقسطاً، فلا يعاقبهم بغير ذنب، ولا يخلي الظالم منهم بغير انتقام. وهو أبلغ من قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(١)، من حيث جعل المنفيّ إرادة الظلم، لأنّ من كان عن إرادة الظلم بعيداً كان عن الظلم أبعد. وفي هذا أوضح دليل على فساد قول المجبّرة القائلة بأنّ كلّ ظلم يكون في العالم فهو بإرادة الله تعالى.

ثمّ حذّره من عذاب الآخرة أيضاً، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ﴾ يوم القيامة ينادي بعضهم بعضاً للاستغاثة، أو يتصايحون بالويل والثبور. أو

يَتَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ وَأَصْحَابُ النَّارِ، كما حكى في الأعراف في قوله: ﴿وَتَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾^(١) ﴿وَتَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾^(٢).

﴿يَوْمَ تُولَوْنَ﴾ عن الموقف ﴿مُذْبِرِينَ﴾ منصرفين عنه إلى النار. وقيل: فازين عنها. ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم من عذابه ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ خذلاناً وتخليه، لفرط عناده. أو عن طريق الجنة. ﴿فَقَالَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب، على أن فرعون موسى، أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد. أو سبطه يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب. أقام فيهم نبياً عشرين سنة. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل موسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات، فشككتهم فيها ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ﴾ فلم تزالوا شاكّين كافرين ﴿مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ من الدين ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ مات ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ ضمّاً إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالته من بعده. أو جزماً بأن لا يبعث من بعده رسول مع الشك في رسالته، حكماً من عند أنفسكم من غير برهان منكم على تكذيب الرسل.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الضلال، أي: الخذلان ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ يخذل الله في العصيان لفرط العناد ﴿مَنْ هُوَ مُشْرِفٌ﴾ مفرط فيه ﴿مُزَاتِبٌ﴾ شاكّ فيما تشهد به البيّنات، لغلبة الوهم والانهماك في التقليد.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ بدل من الموصول الأول، لأنّه بمعنى الجمع، فكأنّه قال: كلّ مسرف ﴿بِغْيَرِ سُلْطَانٍ﴾ بغير حجة، بل إمّا بتقليد أو بشبهة داحضة ﴿أَنَاهُمْ كِبَرُ﴾ فيه ضمير «مَنْ». وإفراده للفظ، كما جمع البدل منه للمعنى. وليس بدع أن يحمل على اللفظ تارة، وعلى المعنى أخرى. ﴿مَقْتًا﴾ تمييز ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويجوز أن يكون مبتدأ خبره «كبر» على حذف مضاف، أي: وجدال الذين يجادلون كبر مقتاً. أو خبره «بغير سلطان» وفاعل «كبر» ﴿كَذَلِكَ﴾

أي: كبر مقتاً مثل ذلك الجدل. فيكون قوله: ﴿يَطْفَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ﴾ استثناءً للدلالة على الموجب لجدهم. والطبع بمعنى الخذلان والتخلية، كما مر غير مرة.

وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان: قلب بالتونين، على وصفه بالتكبر والتجبر، لأنه منبعهما، كقولهم: رأت عيني، وسمعت أذني، أو على حذف مضاف، أي: كل ذي قلب متكبر.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾
 أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ
 لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾
 وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا
 يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشِىَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ
 يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

ثم بين سبحانه ما موه به فرعون على قومه، لما وعظه المؤمن، وخوفه من قتل موسى، وانقطعت حجته، فقال:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ بناءً مكشوفاً عالياً مشيداً بالآجر.
 من: صرح الشيء إذا ظهر، أي: بناءً ظاهراً لا يخفى على الناظر. ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ

الْأَنْبِيَاءِ الطَّرِيقَ. وَكُلَّ مَا أَوْصَلَكَ إِلَى شَيْءٍ فَهُوَ سَبَبٌ إِلَيْهِ.

﴿أَنْبِيَاءُ السَّمَوَاتِ﴾ بيان لها. وفي إيهامها ثم إيضاحها تفخيم لشأنها، وتشويق للسامع إلى معرفتها، فإنه لما كان بلوغها أمراً عجبياً، أراد أن يورده على نفس متشوّفة^(١) إليه، ليعطيه السامع حقه من التعجب، فأبهمه ليشوّف إليه نفس هامان.

ثم أوضحه ﴿فَأَطْلِعْ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾ عطف على «أبلغ». وقرأ حفص بالنصب، على جواب الترجي. ولعله أراد أن يبني له رسداً في موضع عالٍ، يرصد منه أحوال الكواكب، التي هي أسباب سماوية تدلّ على الحوادث الأرضية، فيرى هل فيها ما يدلّ على إرسال الله إياه؟! أو أن يرى فساد قول موسى، بأن إخباره من إله السماء يتوقف على اطلاعه ووصوله إليه، وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء، وهو ممّا لا يقوى عليه الإنسان. وذلك لجهله بالله، وكيفية استنبائه.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ في دعوى الرسالة ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التزيين ﴿زَيْنٌ لِّفِرْعَوْنَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ﴾ سبيل الرشاد. ومزيته هو الشيطان بوسوسته، كقوله: ﴿وَزَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾^(٢). أو الله على وجه التخلية، فإنه مكّن الشيطان وأمهله. ومثله: ﴿زَيْنًا لَهُمُ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَغْمَهُونَ﴾^(٣).

وقرأ الحجازيان والشامي وأبو عمرو: وَصَدَّ، على أن فرعون صدّ الناس عن الهدى بأمثال هذه التحويلات والشبهات. ويؤيده ﴿وَمَا كُنْزُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾

(١) تشوّف إلى الشيء: تطلّع إليه.

(٢ و ٣) النمل: ٢٤ و ٤.

في خسار وهلاك.

ثم عاد الكلام إلى ذكر نصيحة مؤمن آل فرعون، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ يعني: مؤمن آل فرعون. وقيل: موسى ﷺ. ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ﴾ بالدلالة ﴿سَبِيلَ الرُّشَادِ﴾ سبيلاً يصل سالكه إلى المقصود.

وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي. وتكرر النداء لزيادة تنبيه لهم، وإيقاظ عن سنة الغفلة، وأنهم قومه وعشيرته، وهم فيما يوبقهم، وهو يعلم وجه خلاصهم، ونصيحتهم عليه واجبة، فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم، ويستدعي بذلك أن لا يتهموه، وأن يتنبهوا على أن سرورهم سروره، وغمهم غمه، وينزلوا على تنصيحهم لهم. كما كرر إبراهيم ﷺ في نصيحة أبيه: ﴿يَا أَبَتِ﴾^(١). فلأجل ذلك كرر النداء مرة أخرى بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِيَ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ تمتع يسير، لسرعة زوالها.

ثم ذكرهم تعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها، وأنها هي الوطن الحقيقي والمستقر الأصلي. وذكر الأعمال سيئها وحسنها، وعاقبة كل منهما، ليشتط عما يتلف، وينشط لما يزلف، فقال:

﴿وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ لخلودها ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلاً من الله. وفيه دليل على أن الجنايات تغرم بمثلها. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ دَخَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير وموازنة بالعمل، بل أضعافاً مضاعفة، فضلاً منه ورحمة. وتقسيم العمال، وجعل الجزاء جملة اسمية مصدرة باسم الإشارة، وتفضيل الثواب، لتغليب الرحمة. وجعل العمل عمدة والإيمان حالاً، للدلالة على أنه شرط في اعتبار العمل، وأن ثوابه أعلى من ذلك.

وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾
تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ
الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي
الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾
فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾
فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ
يُغْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

ثم وازى بين الدعوتين: دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى
اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، فقال:

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ من النار بالإيمان بالله ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى
النَّارِ﴾ إلى الشرك الذي يوجب النار. ويخهم بذلك على ما يقابلون به نصحه.
وعطفه على النداء الثاني، لأنه داخل على ما هو بيان لما قبله. ولم يعطف الثاني
على الأول، لأن ما بعده أيضاً تفسير لما أجمل فيه تصريحاً أو تعريضاً.
﴿أَتَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ بدل أو بيان فيه تعليل. والدعاء كالهداية في التعدية
بـ«إلى» واللام. فيقال: دعاه إلى كذا ودعا له، كما يقال: هداه إلى الطريق وهدى له.

﴿وَأَشْرِكْ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ﴾ بربوبيته ﴿عَلِمَ﴾ المراد بنفي العلم نفي المعلوم. كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله، وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلهاً. وفيه إشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان، فاعتقادها لا يصح إلا عن إيقان. ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَزِيرِ الْغَفَّارِ﴾ المستجمع لصفات الألوهية، من كمال القدرة والغلبة، وما يتوقف عليه من العلم والإرادة، والتمكّن من المجازاة، والقدرة على التعذيب والغفران.

﴿لَا جَرَمَ﴾ لاردّ لما دعاه إليه قومه. و«جَرَمَ» فَعَلَ بمعنى: حقّ، وفاعله ﴿أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: حقّ ووجب عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلاً، لأنّها جمادات ليس لها ما يقتضي ألوهيتها. أو عدم دعوة مستجابة. أو عدم استجابة دعوة لها.

وقيل: «جرم» بمعنى: كسب، من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ ضَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾^(١). وفاعله مستكن في «تدعونني» أي: كسب ذلك الدعاء إليه أن لا دعوة له. بمعنى: ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته.

وقيل: «لا جرم» نظير: لا بدّ، فعل من الجرم بمعنى القطع، كما أن بدأ فعل من التبديد، وهو التفريق. والمعنى: لا قطع لبطلان دعوى ألوهية الأصنام، أي: لا تزال باطلة، لا ينقطع ذلك في وقت ما فينقلب حقاً. ويؤيده قولهم: لا جرم أنّه يفعل، فإنّه لغة فيه، كالرشد والرشد.

﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: وجب أن مرجعنا ومصيرنا إلى الله بالموت. فيجازي كلّ بما يستحقّه ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ووجب أن المسرفين في الضلالة والطغيان، كالإشراك وسفك الدماء. وقيل: الذين غلب شرهم خيرهم. ﴿هُم أَضْحَابُ النَّارِ﴾ ملازموها.

ثم قال لهم على وجه التخويف والوعظ : ﴿فَسَدِّكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ صحّة ما أقول لكم من النصيحة إذا حصلتم في العذاب بكفركم. ثم أظهر إيمانه بقوله : ﴿وَأَفَوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ ليعصمني من كلّ سوء. والأمر : اسم جنس. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِصِيرِ الْعِبَادِ﴾ عالم بأحوالهم وبما يفعلونه من الطاعة والمعصية.

وهذا جواب توعدّهم المفهوم من قوله : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ صرف الله عنه شدائد مكرهم، وما همّوا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم، فنجا مع موسى حتّى عبر البحر ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ بفرعون وقومه. واستغنى بذكرهم عن ذكره، للعلم بأنّه أولى بذلك. وقيل : بطلبة المؤمن من قومه، فإنّه فرّ إلى جبل، فبعث فرعون بطائفة فوجدوه يصلّي والوحوش صفوف حوله، فرجعوا رعباً، فقتلهم. ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الفرق، أو القتل، أو النار.

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ جملة مستأنفة. أو «النار» خبر محذوف، و«يعرضون» استئناف للبيان. أو بدل من «سوء العذاب»، و«يعرضون» حال من النار، أو من الآل. والمراد بعرضهم على النار إحراقهم بها. من قولهم : عرض الأسارى على السيف إذا قتلوا به. وذلك لأرواحهم، كما روى ابن مسعود : أن أرواحهم في أجواف طيور سود، تعرض على النار بكرة وعشيّاً إلى يوم القيامة. وذكر الوقتين يحتمل التخصيص والتأييد. وفيه دليل على بقاء النفس وعذاب القبر. وعن نافع، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : «إِنْ أَحْدَكُمْ إِذَا مَاتَ عَرَضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ النَّارِ. فَيَقَالُ : هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وأورده البخاري^(١) ومسلم في الصحيح. وقال أبو عبد الله ﷺ : ذلك في البرزخ.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي : هذا ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعة قيل لهم :

﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يَا آلَ فِرْعَوْنَ^(١) ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ عَذَابِ جَهَنَّمَ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ مِمَّا كَانُوا فِيهِ. أَوْ أَشَدُّ عَذَابِ جَهَنَّمَ.

وَقَرَأَ نَافِعٌ وَحْمِزَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ وَحَفْصٌ: أَدْخِلُوا، عَلَى أَمْرِ الْمَلَائِكَةِ بِإِدْخَالِهِمُ النَّارَ.

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾

ثم ذكر سبحانه ما يجري بين أهل النار من الحجاج، فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ واذكر لقومك وقت تخاصمهم فيها. ويحتمل عطفه على «غدوًا».

ثم فصل التخاصم بقوله: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم الرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أتباعاً، كخدم جمع خادم. أو ذوي

تبع، على إضمار مضاف، بمعنى: أتباع. أو وصف بالمصدر تجوزاً. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ بالدفع أو الحمل، فإنه يلزم الرئيس الدفع أو الحمل عن أتباعه والمتفادين لأمره. و«نصيباً» مفعول به لما دلَّ عليه «مغنون عتاً» من معنى الدفع أو الحمل. أو مصدر، كشيئاً في قوله: ﴿لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾^(١). و«من» صلة «مغنون».

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه. والتقدير: كلنا. يعني: نحن وأنتم. ﴿فِيهَا﴾ في النار، فكيف نغني عنكم؟! ولو قدرنا لأغنيا عن أنفسنا. و«كلٌّ فيها» مبتدأ وخبر في موضع رفع بأنه خبر «إن». والمعنى: إنا مجتمعون في النار. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ بأن أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ولا معقب لحكمه. أو بأن لا يتحمل أحد عن أحد، وأنه يعاقب من أشرك به وعبد معه غيره لا محالة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ أي: المتبوعون والأتباع ﴿إِخْرَجْنَا مِنْهَا﴾ لقوام تعذيب أهل النار. ووضع جهنم موضع الضمير للتهويل، أو لبيان محلهم فيها، إذ يحتمل أن تكون جهنم أبعد دركاتها قرأ، من قولهم: بئر جهنم بعيدة القعر، وفيها أعتى الكفار وأطفاهم، فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أقرب إجابة للدعوة، لزيادة قربهم من الله، فلهذا تعددهم أهل النار بطلب الدعوة منهم. ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ يَخْشَفُ عَنَّا يَوْمًا﴾ قدر يوم ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ شيئاً من العذاب. ويجوز أن يكون المفعول «يوماً» بحذف المضاف، و«من العذاب» بيانه.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والدلالات الواضحة على صحة التوحيد والنبوات. أرادوا به إلزامهم للحجة، وتوبيخهم على إضاعتهم أوقات الدعاء، وتعطيلهم أسباب الإجابة.

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ جاءتنا الرسل والبيئات، فكذبناهم وجحدنا نبوتهم.
 ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أنتم فإنا لا نجترىء فيه، أو لم يؤذن لنا في الدعاء لأمثالكم.
 وفيه إقناط لهم عن الإجابة، ودلالة على الخيبة، فإن الملك المقرب إذا لم يسمع
 دعاؤه فكيف يسمع دعاء الكافر؟! كما قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ في
 ضياع لا يجاب.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالحجة والظفر والنصرة والغلبة، والانتقام
 لهم من الكفرة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي: في الدارين، وإن غلبوا
 في الدنيا في بعض الأحيان امتحاناً من الله، فالعاقبة لهم، فإنه يتيح الله من يقتص من
 أعدائهم، كما نصر يحيى بن زكريا - لما قتل - حين قتل به سبعون ألفاً، فهم لا
 معالة منصورون في الدنيا. والأشهاد جمع شاهد، كصاحب وأصحاب. والمراد بهم
 من يقوم يوم القيامة للشهادة على الناس، من الملائكة والأنبياء والمؤمنين.
 ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليوم بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ بدل
 من الأول. وعدم نفع المعذرة لأنها باطلة، أو لأنه لم يؤذن لهم فيعتذروا. وقرأ غير
 الكوفيين ونافع بالتاء. ﴿وَلَهُمُ الْعَذَابُ﴾ البعد من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ سوء
 دار الآخرة. وهو عذابها.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى
 وَذِكْرًى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ
 وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾

ثم ذكر حسن عاقبة موسى وقومه ونجاتهم من فرعون، فقال: ﴿وَلَقَدْ

آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ﴿ مَا يَهْتَدِي بِهِ فِي الدِّينِ، مِنَ الْمَعْجَزَاتِ وَصَحَفَ التَّوْرَةَ وَالشَّرَائِعَ، بَعْدَ اسْتِصْصَالِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴿وَأَوْزَنَّا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ التَّوْرَةَ ﴿هُدًى﴾ هَدَايَةً يَعْرِفُونَ بِهَا مَعَالِمَ دِينِهِمْ ﴿وَذِكْرً﴾ وَتَذَكُّرَةً لَهُمْ بِهَا وَعِبْرَةً . أَوْ هَادِيًا وَمَذْكُرًا. ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لِذَوِي الْعُقُولِ السَّالِمَةِ .

ثمَّ أَمَرَ نَبِيَّهٖ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى تَحَمُّلِ أَذَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِفْتَاحُ الْفِرَاجِ، وَلِكُلِّ عَسْرٍ يَسْرٌ، وَلِكُلِّ نَازِلَةٍ حَسَنٌ عَاقِبَةٌ، كَعَوَاقِبِ أُمُورِ مُوسَى بَعْدَ تَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، فَقَالَ:

﴿قَاضِيْنَ﴾ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ فِي تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ ﴿إِنْ وَغَدَ اللَّهُ﴾ بِنَصْرَةِ الرِّسْلِ ﴿حَقُّ﴾ وَاجِبٌ عَلَيْهِ ثَابِتٌ لَا يَخْلُفُهُ. وَاسْتَشْهَدَ بِمُوسَى وَمَا آتَاهُ مِنْ أَسْبَابِ الْهُدَى وَالنَّصْرِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، وَإِبْقَاءِ آثَارِ هِدَايَةِ بَنِي إِسْرَآئِيلَ. فَالَّهُ نَاصِرُكَ كَمَا نَصَرَهُمْ، وَمُظْهِرُكَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَمُبْلِغُكَ إِلَى الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ وَأَقْبِلْ عَلَى أَمْرِ دِينِكَ، وَتَدَارَكَ فِرْطَاتِكَ - كَتَرَكَ الْأَوَّلَى - بِالْإِسْتِغْفَارِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى كَافِيكَ فِي النَّصْرِ وَإِظْهَارِ الْأَمْرِ. وَمِثْلُ هَذَا تَعَبُّدٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ، لِكَيْ يَزِيدَ فِي الدَّرَجَاتِ، وَلِيَصِيرَ سَنَةً لِمَنْ بَعْدَهُ. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالنَّعْشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ وَدَمٌ عَلَى التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ لِرَبِّكَ. وَقِيلَ: مِنْ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَى اللَّيْلِ، وَمِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَرِيدُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ. وَقِيلَ: صَلَّى لَهُذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ، إِذَا كَانَ الْوَاجِبُ بِمَكَّةَ رَكَعَتَيْنِ بَكْرَةً وَرَكَعَتَيْنِ عَشِيًّا.

وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: يَا بَنِي آدَمَ اذْكُرْنِي بَعْدَ الْغَدَاةِ سَاعَةً، وَبَعْدَ الْعَصْرِ سَاعَةً، أَكْفِكَ مَا أَمَّكَ».

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ
إِلَّا كِبَرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾
وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ
عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ في دفعها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ بغير حجة
﴿أَتَاهُمْ﴾ عام في كل مجادل مبطل، وإن نزلت في مشركي مكة واليهود حين قالوا:
سيخرج صاحبنا المسيح بن داود - يريدون الدجال - ويبلغ سلطانه البر والبحر،
وتسير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله، فيرجع إلينا الملك. فسئى الله تمنيهم
ذلك كبراً، ونفى أن يبلغوا متمناه، وقال: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ﴾ إلا تكبر عن
الحق، وتعظم عن التفكير والتعلم. أو إرادة التقدم والرئاسة. ﴿مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ ببالغي
موجب الكبر ومقتضيه. وهو الرئاسة أو النبوة. أو ببالغي دفع الآيات.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فالتجىء إليه من كيد من يحسدك ويبغي عليك ﴿إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بما تعمل ويعملون. فهو ناصرك عليهم، وعاصمك من شرهم.

ولمّا كانت مجادلتهم في آيات الله مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدار المخاصمة، فاحتجّ بخلق السماوات والأرض، لأنّهم كانوا مقرّين بأنّ الله خالقهما، فقال:

﴿نَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ فمن قدر على خلقهما مع عظمهما من غير أصل، ووقوفهما بغير عمد، قدر على خلق الانسان مع مهانتة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنّهم لا ينظرون ولا يتأمّلون، لفرط غفلتهم واتباعهم أهواءهم. يعني: أنهم إذا أقروا بأنّ الله تعالى خلق السماوات والأرض، فكيف أنكروا قدرته على إحياء الموتى؟! ولكنّهم أعرضوا عن التدبّر، فحلّوا محلّ الجاهل الذي لا يعلم شيئاً.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ الغافل المتكبر والعاقل المستبصر، أي: لا يستوي من أهمل نفسه ومن تفكّر فعرف الحقّ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْفُسِّيءُ﴾ أي: المحسن والمسيء، في الكرامة والإهانة، والهدى والضلال، فينبغي أن يكون لهم حال يظهر فيها التفاوت، وهي فيما بعد البعث.

وزيادة لفظة «لا» في «المسيء» لأنّ المقصود نفي مساواة المسيء للمحسن فيما له من الفضل والكرامة. والعاطف الثاني عطف الموصول بما عطف عليه على الأعمى والبصير، لتغاير الوصفين في المقصود، أو الدلالة بالصراحة والتمثيل.

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكر أقلّ يتذكرون. أو قليلاً تذكّرهم. والضمير للناس، أو الكفّار. وقرأ الكوفيّون بالتاء، على تغليب المخاطب، أو الالتفات، أو أمر الرسول بالمخاطبة.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شكّ في مجيئها، لوضوح الدلالة على جوازها، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدّقون بها، لقصور نظرهم على ظاهر ما يحسّون به.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾ اعبدوني. وعن الحسن - وقد سئل عنها - : اعملوا وأبشروا، فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويزيدهم من فضله.

وعن الثوري أنه قيل له : ادع الله. فقال : إن ترك الذنوب هو الدعاء. وفي الحديث : «إذا شغل عبدي طاعتي عن الدعاء، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

وعن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال : «الدعاء هو العبادة. ثم قرأ : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾».

﴿اسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أثب لكم لقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ صاغرين. وقرأ ابن كثير وأبو بكر بضم الياء وفتح الخاء. وعن ابن عباس : وحدثني أغفر لكم. وهذا تفسير للدعاء بالعبادة، ثم للعبادة بالتحديد.

ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما، ويريد بـ«عبادتي» دعائي، لأن الدعاء باب من العبادة، ومن أفضل أبوابها. ويصدق قول ابن عباس : «أفضل العبادة الدعاء». وعلى هذا : استجابته مشروط باقتضاء المصلحة.

وعن كعب : أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلا نبياً رسلاً. كان يقول لكل نبي : أنت شاهدي على خلقي. وقال لهذه الأمة : ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(١). وكان يقول : ما عليك من حرج. وقال لها : ﴿مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرْجٍ﴾^(٢). وكان يقول : ادعني أستجب لك. وقال لها : «ادعوني أستجب لكم». وعلى القول الأخير : الآية دالة على عظم قدر الدعاء عند الله تعالى، وعلى

(١) البقرة : ١٤٣.

(٢) المائدة : ٦.

فضل الانقطاع إليه. وقد روي عن معاوية بن عمار قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلني الله فداك ما تقول في رجلين دخلا المسجد جميعاً، كان أحدهما أكثر صلاة، والآخر أكثر دعاءً، فأيهما أفضل؟ قال: كلُّ حسن. قلت: قد علمت، ولكن أتيهما أفضل؟ قال: أكثرهما دعاءً. أما تسمع قول الله تعالى: «ادعوني أستجب لكم» إلى آخر الآية. وقال: هي العبادة الكبرى».

وروى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أيضاً في هذه الآية قال: «هو الدعاء. وأفضل العبادة الدعاء».

وروى حنان بن سدير، عن أبيه، قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: أيّ العبادة أفضل؟ قال: ما من شيء أحبّ إلى الله من أن يسأل ويطلب ما عنده. وما أحد أبغض إلى الله ﷻ ممن يستكبر عن عبادته، ولا يسأل ما عنده».

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاَنى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾

ثم ذكر ما يدلّ على توحيده، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ وهو ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ لتستريحوا فيه، بأن خلقه بارداً مظلماً ليؤدّي إلى ضعف المحركات وهدوء الحواسّ ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مضيئاً تبصرون فيه مواضع حاجاتكم. وإسناد الإبصار إلى النهار مجاز، لأنّ الإبصار في الحقيقة لأهل النهار، فعُدل إلى المجاز مبالغة، ولذلك لم يقل: لتبصروا

فيه ، ليقابل قوله : «لتسكنوا» .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لا يوازيه فضل . وللإشعار بهذا المعنى - الذي هو مفاد تنكير الفضل - لم يقل : لمفضل أو لمفضل . ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لجهلهم بالمنعم ، وإغفالهم مواقع النعم . وتكرير الناس ، وعدم الاكتفاء بالضمير ، لتخصيص الكفران بالناس ، كقوله : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾^(١) . ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾^(٢) . ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٣) .

﴿ذَلِكُمْ﴾ المخصوص بهذه الأفعال المقتضية للألوهية والربوبية ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من السماوات والأرض وما بينهما ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة تخصّص اللاحقة السابقة وتقرّرها ، أي : هو الجامع لهذه الأوصاف ، من الإلهية والربوبية ، وخلق كلّ شيء وإنشائه بحيث لا يمتنع عليه شيء ، والوحدانية التي لا ثاني له ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف ومن أيّ وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ، مع وضوح الدلالة على توحيده ؟!

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ما أفك وصرف هؤلاء ﴿يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانَُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي : يؤفك عن الحقّ كلّ من جحد بآيات الله ولم يتأملها ، ولم يكن همّه طلب الحقّ وخشية العاقبة . وهم من تقدّمهم من أكابرهم ورؤسائهم ، فإنّهم هم الذين صرفوهم عن الحقّ .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ قَبَّارُكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

(١) الحج : ٦٦ .

(٢) العاديات : ٦ .

(٣) إبراهيم : ٣٤ .

﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي
 الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
 تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ
 لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
 تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ
 فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

ثم ذكر سبحانه استدلالاً آخر بأفعال آخر مخصوصة على توحيده، فقال:
 ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي: قبة. ومنه: أبنية العرب
 لمضاربهم، لأن السماء في منظر العين كقبة مضروبة على وجه الأرض. ﴿وَصَوَّرَكُمْ
 فَأَخْسَنَ صُورَكُمْ﴾ بأن خلقكم منتصبين القائمة، بادي البشرية، متناسبي الأعضاء
 والتخطيطات، متهيئين لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات. قيل لم يخلق حيواناً
 أحسن صورة من الإنسان.

وعن ابن عباس: خلق ابن آدم قائماً معتدلاً، يأكل بيده، ويتناول بيده، وكل
 ما خلق الله غيره يتناول بفيه.

﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ اللذائذ، فإنه ليس شيء من الحيوان له طيبات
 المأكول والمشارب مثل ما خلق الله سبحانه لابن آدم، فإن أنواع اللذات والطيبات
 التي خلقها الله تعالى لهم - من الثمار وفنون النبات واللحوم وغير ذلك - ممتلئة

يحصى كثرة.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: فاعل هذه الأشياء ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فإن كل ما سواه مريبوب؛ مقتدر بالذات، معرض للزوال.

﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ المتفرد بالحياة الذاتية ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجود يساويه أو يدانيه في ذاته وصفاته ﴿فَادْعُوهُ﴾ فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الطاعة، من الشرك والرياء. قائلين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عن ابن عباس: من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ من الحجج العقلية والآيات السمعية، فإنها مقوية لأدلة العقل، ومؤكدة لها، ومضمنة ذكرها، نحو قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١). وأشياء ذلك من التنبيهات على أدلة العقل. ولا شبهة أن تناصر الأدلة العقلية والسمعية أقوى في إبطال مذهبهم، وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية.

﴿وَأَمِزْتُ أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن أتقاد له، أو أخلص له ديني.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أطفالاً. والتوحيد لإرادة الجنس، أو على تأويل كل واحد منكم ﴿ثُمَّ لِيَتَّبِعُوا أَسْمَكُمْ﴾ يتعلق اللام فيه بمحذوف تقديره: ثم يبيحكم لتبلغوا. وكذا في قوله: ﴿ثُمَّ لِيَتَّخِذُوا شُيُوخًا﴾ ويجوز عطفه على «لتبلغوا». وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام: شيوخاً بضم الشين. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل الشيخوخة. أو قبل بلوغ الأشد. أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطاً. ﴿وَلِيَتَّبِعُوا﴾ أي: ويفعل ذلك لتبلغوا ﴿أَجَلًا مُسَمًّى﴾ هو وقت الموت. وقيل: يوم القيامة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من الحجج والعبر.

﴿هُوَ الَّذِي يُخَيِّبُ وَيُعْيِطُ﴾ يحييكم ويميتكم. فأولكم من تراب، وآخركم إلى

تراب. ﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا﴾ فإذا أرادته ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فَإِنَّمَا يَكُونُهُ مِنْ غير كلفة ولا معاناة، ولا مَدَّة ولا عَدَّة، ومن غير أن يتعَذَّر بل يتعَسَّر عليه. فهو بمنزلة ما يقال له: كن فيكون، لأنَّه سبحانه يخاطب المعدوم بالتكوّن. والفاء الأولى للدلالة على أن ذلك نتيجة ما سبق من قدرته على الإحياء والإماتة، وسائر أفعاله المحكمة المتقنة، من حيث إنَّه يقتضي قدرة ذاتية غير متوقِّفة على العدد والمواد. كأنَّه قال: فلذلك الاقتدار الذاتي إذا قُضِيَ أَمْرًا كان أهون شيء وأسرع.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُضْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِيهِ أَغْنَاهُمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنْهَا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنتُمْ تَتَرَحَّضُونَ ﴿٧٥﴾ أَدْخِلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُكْبِرِينَ ﴿٧٦﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ في إبطالها ودفعها ﴿أَنِّي يُضْرَفُونَ﴾ أين يقلبون عن التصديق به؟ ولو كانوا يخاصمون في آيات الله بالنظر في صحتها والفكر فيها، لما ذمَّهم الله تعالى. وكثر^(١) ذمَّ المجادلة لتعدد المجادل، أو

المجادل فيه ، أو للتوكيد .

ثم وصفهم بالتكذيب فقال : ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالنَّبَاتِ ﴾ بالقرآن ، أو بجنس الكتب السماوية ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ من سائر الكتب ، أو الوحي والشرائع ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ جزاء تكذيبهم ، فيعرفون أن ما دعوتهم إليه حق ، وما ارتكبهوه ضلال وفساد .

﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَغْنَاقِهِمْ ﴾ ظرف لـ « يعلمون » إذ المعنى على الاستقبال ، وإن كان « إذ » للمضي . والتعبير عن الاستقبال بلفظ المضي لتيقنه ، فلا يكون ذلك مثل قولك : سوف أصوم أمس . ﴿ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ عطف على الأغلال . أو مبتدأ خبره ﴿ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ﴾ والعائد محذوف ، تقديره : يسحبون - أي : يجزّون - بها في الماء الحار الذي قد انتهت حرارته . وهو على الأول حال .

﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ أي : يقذفون وتوقد بهم في جميع جوانبهم . من : سجر التثور إذا ملأه بالوقود . ومنه : السجير للصديق ، كأنه سجر بالحب . أي : ملئ . والمعنى : أنهم في النار ، فهي محيطة بهم ، وهم مسجورون بالنار ، مملوءة بها أجوافهم . ومنه : قوله : ﴿ نَارُ اللَّهِ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِدَةِ ﴾ ^(١) . والمراد : تعذيبهم بأنواع من العذاب ، وينقلون من بعضها إلى بعض .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأصنام ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ غابوا عن عيوننا ، فلا نراهم لنتنتفع بهم ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ بل تبين لنا أننا لم نكن نعبد شيئاً بعبادتهم ، كقولك : حسبت أن فلاناً شيء ، فإذا هو ليس بشيء ، إذا لم تر عنده خيراً .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ يضلهم عن آلهتهم ، حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا . أو المعنى : كما أضل الله أعمال هؤلاء وأبطل ما كانوا يؤمنونه ، كذلك يفعل بجميع من يتدين بالكفر ، فلا ينتفعون

بشيء من أعمالهم.

وقيل: يضل الكافرين عن طريق الجنة والثواب، كما أضلهم عما اتخذوه إلهاً، بأن صرفهم عن الطمع في نيل منفعة من جبتها.

والآية لا تنافي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾^(١) بأنهم مقرونون بآلهتهم، لجواز أن يضلوا عنهم حين وبخوا وقيل لهم: أينما كنتم تشركون من دون الله فيغيثوكم ويشفعوا لكم، وأن يكونوا معهم في سائر الأوقات.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الإضلال ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهو الشرك والطفیان ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ تتوسعون في الفرح تبطراً وتكبراً، والعدول إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ.

ثم حكي سبحانه عن هؤلاء الكفار أنه يقال لهم: ﴿انْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ الأبواب السبعة المقسومة لكم في قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾^(٢) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود ﴿فَبِئْسَ مَقْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق جهنم. وكان مقتضى النظم: فبئس مدخل المتكبرين، كما تقول: زر بيت الله فنعم المزار، ولكن لما كان الدخول المقيّد بالخلود سبب الشواء - أي: الإقامة - عبّر بالمشوى. وإنما أطلق عليه اسم «بئس» مع كونه حسناً، لأن الطبع ينفر عنه كما ينفر العقل عن القبيح.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّتْكَ بِبَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ
فَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

(١) الأنبياء: ٩٨.

(٢) الحجر: ٤٤.

وبعد تهديد الكفار أمر نبيه ﷺ بالصبر على مقاساته أذيتهم، فقال:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالنصر لأنبيائه، والانتقام من أعدائه ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالة. أو ما وعد الله به المؤمنين على الصبر - من الثواب في الجنة - حق لا شك فيه.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في حياتك. أصله: إن ترك. و«ما» مزيدة لتأكيد الشرطية، ولذلك لحقت النون الفعل، ولا تلحق مع «إن» وحدها بدون «ما»، فلا يقال: إن تكرمني أكرمك، ولكن: إما تكرمني أكرمك. ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ وهو القتل والأسر. وإنما قال: «بعض الذي» لأن المعجل من عذابهم في الدنيا هو بعض ما يستحقونه.

﴿أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ﴾ قبل أن تراه ﴿فَالْيَنَّا يُزَجِّفُونَ﴾ يوم القيامة، فنتقم منهم أشد الانتقام، ولا يفوتونا. ونحوه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ أو نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ^(١). وهو جواب «نتوفيتك». وجواب «نريتك» محذوف، مثل: فذاك. ويجوز أن يكون جواباً لهما، بمعنى: إن نعذبهم في حياتك أولم نعذبهم، فإننا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب. ويدل على شدته الاختصار بذكر الرجوع في هذا المعرض.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

روي: أَنَّ المشركين قد اقترحوا بالمعجزات عناداً بعد ظهور ما يغنيهم عنها، فقال سبحانه تسليية لنبِيِّهِ ﷺ :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أخبارهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ ذكرهم، إذ على المشهور عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والمذكور قصصهم أشخاص معدودة.

وقيل: إِنَّ عددهم ثمانية آلاف نبي، أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من غيرهم.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ بمعجزة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وأمره، فإنَّ المعجزات عطايا قسّمها بينهم على ما اقتضته حكمته كسائر القسم، ليس لهم اختيار في إثارت بعضها والاستبداد بإتيان المقترح بها.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالعذاب في الدنيا أو الآخرة ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ بإنجاء المحقّ وتعذيب المبطل ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْفَاسِقُونَ﴾ المعاندون باقتراح الآيات، فأنكروها وسئوها سحراً. والمبطل بمعنى صاحب الباطل، أو الذي يخسر الجنة، ويدخل في النار بدلاً منها.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾

ثم عدّد سبحانه نعمه على خلقه فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ من الإبل والبقر والغنم ﴿لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فإنَّ من جنسها ما يؤكل كالغنم، ومنها

ما يؤكل ويركب، كالإبل والبقر.

وقيل: المراد بالأنعام هاهنا الإبل خاصة، لأنها التي تتركب ويحمل عليها في أكثر العادات.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كالألبان والجلود والأوبار والأصواف والأشعار
﴿وَلِتَبْتَغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بأن تركبوها وتبلغوا المواضع التي تقصدونها
بحوائجكم بالمسافرة عليها ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البرّ ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر
﴿تَحْمَلُونَ﴾.

وإنما قال: «وعلى الفلك» ولم يقل: في الفلك، للمزاوجة. أو لأن معنى
الإيلاء^(١) ومعنى الاستعلاء كلاهما مستقيم، لأنّ الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة
له يستعليها. فلما صحّ المعنيان صحّت العبارتان، كما قال: ﴿قُلْنَا اخْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ
زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾^(٢).

ولم يقل: ولتأكلوا، ليكون موافقاً لما قبله وما بعده في التعليل، كما هو
مقتضى النظم، لأنّ الركوب قد يكون في الحجّ والغزو، وفي بلوغ الحاجة: الهجرة
من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم. وهذه أغراض دينية إما واجبة أو مندوبة
مما يتعلّق به إرادة الحكيم. وأمّا الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباح الذي لا
ينعلّق به أمره، لأنّ الأمر لا يكون إلّا بما فيه ترجيح من واجب أو ندى، والمباح
إنما يكون مساوي الطرفين لا رجحان فيهما أصلاً في نظر الشرع. فلأجل ذلك
الفرق أورد الغرض في الركوب، وترك في الأكل. أو للفرق بين العين والمنفعة.

﴿وَيُؤَيِّدُكُمْ آيَاتِهِ﴾ دلائله الدالة على كمال قدرته وفرط رحمته ﴿فَإِي آيَاتِ
الله﴾ جاءت على اللغة المستفيضة المشهورة. وقولك: فأية آيات الله، قليل، لأنّ

(١) أو عيبت الزاد والمتاع في الوعاء، إذا جعلته في الوعاء وأدخلته فيه.

(٢) هود: ٤٠.

التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات - نحو: حمار وحمارة - غريب، وهي في «أي» أغرب، لإيهامه. والمعنى: أي آية من تلك الآيات ﴿تُنْكِرُونَ﴾ فإنها لظهورها لا تقبل الإنكار. وهو ناصب «أي»، إذ لو قدرته متعلقاً بضميره كان الأولى رفعه.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ
وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ
وَحُدِّدْهُ وَكَفَّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا
بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

ثم قال سبحانه مخاطباً للكفار الذين جحدوا آيات الله، وأنكروا أدلته الدالة على توحيده: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ما بقي منهم من القصور والمصانع ونحوها. وقيل: آثار أقدامهم في الأرض، لعظم أجرامهم. ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ نافية، أو استفهامية منصوبة بـ«أغنى»، أي: أي شيء أغنى عنهم؟! ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ موصولة، أو مصدرية مرفوعة به، أي: مكسبهم، أو كسبهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات ﴿فَرِحُوا﴾

بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴿ واستحقروا علم الرسل . والمراد بالعلم عقائدهم الزائفة وشبههم الداحضة ، كقوله تعالى : ﴿ يَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ ^(١) . وهو قولهم : لا نبعث ولا نعدب . ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسْرَىٰ ﴾ ^(٢) . وَلَئِنْ رُيدَتْ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ ^(٣) . وكانوا يفرحون بذلك ، ويدفعون به البيّنات وعلم الأنبياء ، كما قال ﷺ ﴿ كُلُّ جَزْبٍ بِمَا لَدَيْنَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ ^(٤) . وستأها علماً على زعمهم تهكماً بهم .

أو ^(٥) العلوم الطبيعّية والفلسفة والتنجيم ، وعلوم الدهريّين من بني يونان . وكانوا إذا سمعوا بوحى الله دفعوه ، وصغّروا علم الأنبياء إلى علمهم . وعن سقراط : أنّه سمع بموسى ﷺ ، وقيل له : لو هاجرت إليه . فقال : نحن قوم مهذبون ، فلا حاجة إلى من يهذبنا .

أو علمهم بأمور الدنيا ، ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال تعالى : ﴿ يَغْلَبُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ ^(٦) . ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ ^(٧) . فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات - وهي أبعد شيء من علمهم ، لبعثها على رفض الدنيا ، وذمّ الملاذّ والشهوات - لم يلتفتوا إليها ، وصغّروا واستهزؤا بها ، واعتقدوا أنّه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ، وفرحوا به .

أو علم الأنبياء . وفرحهم به ضحكهم منه واستهزأؤهم به . ويؤيده ﴿ وَخَاقٍ ﴾

(١) النمل : ٦٦ .

(٢) فصلت : ٥٠ .

(٣) الكهف : ٣٦ .

(٤) الروم : ٣٢ .

(٥) عطف على قوله : والمراد بالعلم عقائدهم في بداية الفقرة السابقة .

(٦) الروم : ٧ .

(٧) النجم : ٣٠ .

وحلّ ونزل ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ﴾ جزاء ما كانوا به ﴿يَسْتَفْهِزُّونَ﴾ .
وقيل : الفرح أيضاً للرسول ، فإنهم لما رأوا تماذي جهل الكفار وسوء عاقبتهم ،
فرحوا بما أوتوا من العلم ، وشكروا الله عليه ، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم
واستهزائهم .

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ شدة عذابنا . ومنه قوله تعالى : ﴿يَعَذَابُ بَئِيسٍ﴾^(١) .
﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَذَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ يعنون أصنامهم .
﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ لا امتناع قبوله حينئذٍ ، لأنّ فعل
الملجأ لا يقبل ، ولا يستحقّ به المدح . ولذلك قال : « فلم يك ينفعهم » بمعنى : لم
يصحّ ولم يستقم . ولم يقل : فلم ينفعهم إيمانهم .

وترادف هذه الفاءات ، أمّا في قوله : « فما أغنى عنهم » فلاّنه نتيجة قوله :
« كانوا أكثر منهم » . وأمّا في قوله : « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات » فجار مجرى
البيان والتفسير لقوله : « فما أغنى عنهم » . كقولك : رزق زيد المال ، فمنع المعروف ،
فلم يحسن إلى الفقراء . وقوله « فلما رأوا بأسنا » تابع لقوله « فلما جاءتهم » . كأنه
قال : فكفروا ، فلما رأوا بأسنا آمنوا . وكذلك : « فلم يك ينفعهم إيمانهم » تابع لإيمانهم
لما رأوا بأس الله .

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي : سنّ الله ذلك سنّة ماضية في العباد .
والمراد الطريقة المستمرة من فعله بأعدائه الجاحدين . وهي من المصادر المؤكدة .
﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ أي : وقت رؤيتهم البأس . اسم مكان استعير للزمان .

سورة حم السجدة (فصلت)

مَكِّيَّة. وهي أربع وخمسون آية.

أَبِي بن كعب عن النَّبِيِّ ﷺ: «من قرأ حم السجدة أُعطي بعدد كلِّ حرف منها عشر حسنات».

وروى ذريح المحاربي عن أَبِي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ حم السجدة كانت له نوراً يوم القيامة مدَّ بصره وسروراً، وعاش في هذه الدنيا محموداً مغبوطاً».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾
وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَمَةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ
حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا
إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا
يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾

ولما ختم الله سبحانه سورة المؤمن بذكر المنكرين آيات الله، افتتح هذه السورة بمثل ذلك، فقال:

﴿يَسْمِ اللّٰهُ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ حَم﴾ إن جعل اسماً للسورة كان مبتدأ، وخبره ﴿تَنْزِيْلٌ مِّنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ﴾. وإن جعل تعديداً للحروف، فـ«تنزيل» خبر محذوف. أو مبتدأ، لتخصّصه بالصفة، وخبره ﴿كِتَابٌ﴾. وهو على الأولين بدل منه، أو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف. وقد تقدّم^(١) القول فيه.

وقيل في وجه الاشتراك في افتتاح هذه السور السبع بـ«حم» وتسميتها به: إنها مصدرة ببيان الكتاب، متشاكله في النظم والمعنى. وإضافة التنزيل إلى الرحمن الرحيم، للدلالة على أنه مناط المصالح الدينيّة والدينيّة.

﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ ميّزت باعتبار اللفظ، وجعلت تفاصيل في معانٍ مختلفة، من أحكام وأمثال ومواعظ ووعد ووعيد وغير ذلك.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على المدح أو الحال من «فُصِّلَتْ». وفيه امتنان بسهولة قراءته وفهمه.

﴿يَقُومُ يَغْلِبُونَ﴾ لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبيّنة بلسانهم العربيّ المبين، لا يلتبس عليهم شيء منه. أو لأهل العلم والنظر. وهو صفة أخرى لـ«قرآنًا». أو صلة لـ«تنزيل» أو لـ«فُصِّلَتْ» أي: تنزيل من الله لأجلهم، أو فُصِّلَتْ آياته لهم. والأجود أن يكون صفة، لوقوعه بين الصفات. والمعنى: قرآنًا عربيًّا كائنًا لقوم يعلمون.

﴿بَشِيرًا﴾ للعاملين به ﴿وَنَذِيرًا﴾ للمخالفين له ﴿فَاعْرِضْ أَخْبَرَهُمْ﴾ عن تدبّره وقبوله ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تأمل وطاعة، فكأنهم لا يسمعون رأساً. من قولك: تشقّعت إلى فلان فلم يسمع قولي. ولقد سمعه، ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل

بمقتضاه فكأنه لم يسمعه.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَجِنَّةٍ﴾ أغطية جمع كنان، وهو الغطاء ﴿يَمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ صمم. وأصله النقل. ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ يمنعنا عن التواصل. و«من» لإفادة أَنَّ الحجاب ابتداءً مِنَّا وابتداءً منك، بحيث استوعب المسافة المتوسطة، ولم يبق فراغ.

وهذه تمثيلات لنُبُو قلوبهم عن إدراك ما يدعوههم إليه واعتقادهم، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها، كقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾^(١). ومَجَّ أَسْمَاعُهُمْ له، كأنَّ بها صمماً عنه. وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول ﷺ. يعني: لأجل تباعد المذهبين كأنَّ بينهم وماهم عليه، وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه، حجاباً ساتراً وحاجزاً منيعاً من جبل ونحوه.

﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك، أو في إبطال أمرنا ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على ديننا، أو في إبطال أمرك. قيل: إِنَّ أبا جهل رفع ثوباً بينه وبين النبي ﷺ فقال: يا محمد أنت من ذلك الجانب ونحن من هذا الجانب، فاعمل أنت على دينك ومذهبك، إِنَّا عاملون على ديننا ومذهبنا.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لست ملكاً ولا جنياً لا يمكنكم التلقي منه، ولا أدعوكم إلى ما تنبؤ عنه العقول والأسماع، وإِنَّمَا أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل، وقد يدلُّ عليهما دلائل العقل وشواهد النقل.

﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فاستقيموا في أفعالكم متوجِّهين إليه. أو فاستوتوا إليه بالتوحيد والإخلاص، غير ذاهبين يميناً وشمالاً، ولا ملتفتين إلى ما يسوِّل لكم الشيطان ﴿وَاسْتَغْفِرُوا﴾ وتوبوا إليه ممَّا أنتم عليه من سوء العقيدة والعمل.

ثم هدَّدهم على ذلك بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُصْرِئِينَ﴾ من فرط جهالتهم

واستخفافهم بالله تعالى ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لِبخلهم، وعدم إشفاقهم على الخلق، وحرصهم على حب الدنيا، وذلك من أعظم الرذائل، وأقرب الأسباب إلى الكفر.

وفيه دليل على أَنَّ الكفَّار مخاطبون بالفروع، وحث شديد على أداء الزكاة، وتخويف بليغ من منعها، حيث جعله مقروناً بالكفر.
وعن عطاء عن ابن عباس أَنَّ معناه: لا يفعلون ما يزرِّي أنفسهم، وهو الإيمان والطاعة.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم في طلب الدنيا وإنكارهم الآخرة، فإنَّ المال أحبُّ الأشياء إلى الإنسان، فإذا بذله في سبيل الله دلَّ ذلك على ثباته في الدين وصدق نيته.
وعن الفراء: أن ذكر الزكاة في هذا الموضع لأجل أَنَّ قريشاً كانت تطعم الحاجَّ وتسقيهم، فحرَّموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَتُنْكُمُ لَكُمْهُنَّ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلْمَسَائِلِينَ ﴿١٠﴾

ثمَّ عقب ما ذكره من وعيد الكافرين بذكر الوعد للمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لا يَمَنُّ به عليهم. من المَنِّ، وأصله القطع، من: مننت الحبل إذا قطعته.

وقيل: نزلت في المرضى والهرمى والزمنى، إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون.

﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ بتحقيق الهمزتين، أو الثانية بين بين، أو بألف بينهما. والاستفهام للتعجيب. والمعنى: كيف تستجيزون أن تكفروا بمن خلق الأرضين السبع ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ في مقدار يومين. أو نوبتين، بأن خلق في كل نوبة ما خلق في أسرع ما يكون.

ويحتمل أن يكون المراد من الأرض ما في جهة السفلى من الأجرام البسيطة، ومن خلقها في يومين أنه خلق لها أصلاً مشتركاً، ثم خلق لها صوراً بها صارت أنواعاً، وكفرهم به إلحادهم في ذاته وصفاته.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً﴾ أمثالاً وأشباهاً، ولا يصح أن يكون له ند ﴿ذَلِكَ﴾ الذي خلق الأرض في يومين ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خالق جميع ما وجد من الممكنات ومربّيها، ومالك التصرف فيهم.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي﴾ جبلاً ثابتات. استئناف غير معطوف على «خلق» للفصل بما هو خارج عن الصلة. ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾ مرتفعة عليها ليظهر ما فيها من وجوه الاستبصار، وتكون منافعها معرضة للطلاب، حاضرة لمحصيلها. وليبصر أن الأرض والجبال أُنْثَال على أُنْثَال، كلّها مفتقرة إلى ممسك لا بدّ لها منه، وهو ممسكها عزّ وعلا بقدرته. ولو كانت تحتها كالأساطين لاستقرّت الأرض عليها، أو كانت مركوزة فيها كالمسامير لمنعت من الميدان. وأيضاً لفاتت الفوائد المذكورة.

﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ وأكثر خيرها وأنماها، بأن خلق فيها أنواع النباتات والحيوانات ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أرزاق أهلها ومعاشهم وما يصلحهم، بأن عين لكل نوع ما يصلحه ويعيش به. أو أقواتاً تنشأ منها، بأن خصّ حدوث كلّ

قوت بقطر من أقطارها.

﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تَمَّةَ أربعةَ أَيَّام من حين ابتداء الخلق. فاليومان الأولان داخلان فيها، كما تقول: سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أَيَّام، وإلى الكوفة في خمسة عشر، أي: في تَمَّةَ خمسة عشر. ولم يقل: في يومين كما في الأول، للإشعار باتصالهما باليومين الأولين، والتصريح على الفذلكة لمدَّة خلق الله الأرض وما فيها.

﴿سَوَاءٌ﴾ أي: استوت سواء، بمعنى استواء. والجملة صفة «أَيَّام». ويدل عليه قراءة يعقوب بالجرّ. والمعنى: أربعة أَيَّام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان. وقيل: حال من الضمير في «أقواتها» أي: قَدَّر الأقوات في الأرض حال كون الأرض مستوية في هذا الحكم.

﴿لِلنَّاسِ أُولَئِكَ﴾ متعلّق بمحذوف تقديره: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو «قَدَّر» أي: قَدَّر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها، المحتاجين إليها من المقتاتين.

وإنما خلق الأرض وما فيها في هذه المدَّة على التأنّي والتدريج، مع أنّه كان قادراً على إيجادها لحظة واحدة، ليعلم أنّ من الصواب التأنّي في الأمور، وترك الاستعجال فيها، كما في الحديث: «التأنّي من الرحمن، والعجلة من الشيطان». وليعلم بذلك أنّها صادرة عن قادر مختار عالم بالمصالح وبوجوه الأحكام، إذ لو صدرت عن مطبوع أو موجب لحصلت في حالة واحدة.

وروى عكرمة عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ وَالْاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَةَ وَالْمَاءَ وَالْعِمْرَانَ وَالْخَرَابَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ. فَتِلْكَ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ. وَخَلَقَ يَوْمَ الْخَمِيسِ السَّمَاوَاتِ، وَخَلَقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ وَالْمَلَائِكَةَ وَآدَمَ».

ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ
 كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ
 فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
 الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثُمُودَ
 ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا
 لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾

ولمَّا بَيَّنَّ خَلْقَ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا، ذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ
 إِلَى السَّمَاءِ﴾ قَصْدُ نَحْوِهَا. مِنْ قَوْلِهِمْ: اسْتَوَىٰ إِلَى مَكَانٍ كَذَا، إِذَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ تَوَجُّهًا لَا
 يَلْوِي عَلَى غَيْرِهِ. وَهُوَ مِنَ الْإِسْتَوَاءِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْإِعْوَجَاجِ. وَنَحْوُهُ قَوْلُهُمْ: اسْتَقَامَ
 إِلَيْهِ وَامْتَدَّ إِلَيْهِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾^(١).

وَالْمَعْنَى: ثُمَّ دَعَاهُ دَاعِيَ الْحِكْمَةِ إِلَى خَلْقِ السَّمَاءِ بَعْدَ خَلْقِ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا،
 مِنْ غَيْرِ صَارِفٍ يَصْرِفُهُ عَنْ ذَلِكَ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ «ثُمَّ» لَتَفَاوُتٍ مَا بَيْنَ الْخَلْقَيْنِ، لَا
 لِلتَّرَاخِي فِي الْمُدَّةِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاسًا﴾^(٢). وَدَحَوْهَا مُتَقَدِّمٌ عَلَى خَلْقِ
 الْجِبَالِ مِنْ فَوْقِهَا.

﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ظَلَمَانِي. قِيلَ: كَانَ عَرْشُهُ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى

(١) فَصَّلَتْ: ٦.

(٢) النَّازِعَاتِ: ٣٠.

الماء، فأخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء وعلا عليه، فأيس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتحها فجعلها أرضين، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع. ويحتمل أنه أراد بالدخان مادتها والأجزاء المتصغرة التي تركبت منها.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا﴾ بما خلقت فيكما من التأثير والتأثر، وأبرز ما أودعتكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة. والمعنى: ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، أي: ائتيا يا أرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك، وائتيا يا سماء مقببة سقفاً لهم. أو ائتيا في الوجود، على أن الخلق السابق بمعنى التقدير.

وقيل: إتيان السماء حدوثها، وإتيان الأرض أن تصير مدحوة. ويجوز أن يكون المعنى: لتأت كل واحدة منكما صاحبتهما الإتيان الذي أريده وتقتضيه حكمتي وتديري، من كون الأرض قراراً للسماء، وكون السماء سقفاً للأرض.

﴿طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ أي: شئتما ذلك أو أبيئتما. والمراد إظهار كمال قدرته، ووجوب وقوع مراده، لا إثبات الطوع والكره لهما. وهما مصدران وقعا موقع الحال، أي: طائعين أو كارهين.

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ منقادين بالذات. والأظهر أن المراد تصوير تأثير قدرته فيهما، وتأثرهما بالذات عن قدرته، من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب. ونحوه قول القائل: قال الجدار للوتد: لِمَ تشقني؟ قال الوتد: سل من يدقني فلم يتركني. أو تمثيلهما بأمر المطاع وإجابة المطيع الطائع، كقوله: «كن فيكون». فمعنى إتيانهما وامثالهما: أنه أراد تكرينهما فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع. فهو من المجاز الذي يسمى التمثيل. وما قيل: إنه تعالى خاطبهما وأقدرهما على الجواب

إِنَّمَا يَتَصَوَّرُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ لَا الْمَتَوَسِّطِ، لِأَنَّ الْإِقْدَارَ فِرْعَ الْوُجُودِ.
وَأِنَّمَا قَالَ: «طَائِعِينَ» وَلَمْ يَقُلْ: طَائِعَتَيْنِ عَلَى اللَّفْظِ، أَوْ طَائِعَاتٍ عَلَى
الْمَعْنَى، لِأَنَّهُمَا سَمَاوَاتٍ وَأَرْضُونَ، بِاعْتِبَارِ كَوْنِهِمَا مَخَاطِبَتَيْنِ، فَتَكُونَا كَقَوْلِهِ:
﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(١).

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فَخَلَقَهُنَّ خَلْقًا إِدْعَائِيًّا، وَأَتَقَنَ أَمْرَهُنَّ. وَالضَّمِيرُ
لِلسَّمَاءِ عَلَى الْمَعْنَى، أَوْ مَبْهَمٍ. وَ«سَبْعَ سَمَوَاتٍ» حَالٌ عَلَى الْأَوَّلِ، وَتَمَيِّزٌ عَلَى
الثَّانِي. ﴿فِي يَوْمَئِذٍ﴾ قِيلَ: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ
يَوْمَ الْجُمُعَةِ. ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ شَأْنَهَا وَمَا يَتَأْتَى مِنْهَا، بِأَنَّ حَمْلَهَا عَلَيْهِ
اخْتِيَارًا أَوْ طَبْعًا. وَقِيلَ: أَوْحَى إِلَى أَهْلِهَا بِأَمْرِهِ.

﴿وَرَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ فَإِنَّ الْكَوَاكِبَ كُلَّهَا تَرَى كَأَنَّهَا تَتَلَأَلُ عَلَيْهَا
﴿وَجِظْفًا﴾ وَحَفْظُهَا مِنَ الْآفَاتِ أَوْ مِنَ الْمُسْتَرْقَةِ حَفْظًا. وَقِيلَ: مَفْعُولٌ لَهُ عَلَى
الْمَعْنَى، كَأَنَّهُ قَالَ: وَخَصَّصْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ زِينَةٍ وَحَفْظًا. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ﴾ الْبَالِغِ فِي الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ مَهْلَكَةٌ
تَنْزِلُ بِكُمْ كَمَا نَزَلَتْ بِمَنْ قَبْلَكُمْ. أَوْ فَحَذَّرَهُمْ أَنْ يَصِيبَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ الْوَقْعَ كَأَنَّهُ
صَاعِقَةٌ. ﴿مِثْلُ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ﴾ حَالٌ مِنَ «صَاعِقَةِ عَادٍ». وَلَا يَجُوزُ جَعْلُهُ صِفَةً
لِ«صَاعِقَةٍ»، أَوْ ظَرْفًا لِ«أَنْذَرْتُكُمْ»، لِفَسَادِ الْمَعْنَى. ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾
أَتَوْهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، وَاجْتَهَدُوا بِهِمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ. أَوْ مِنْ جِهَةِ الزَّمَنِ الْمَاضِي
بِالْإِنْذَارِ عَمَّا جَرَى فِيهِ عَلَى الْكُفَّارِ. وَمِنْ جِهَةِ الْمُسْتَقْبَلِ بِالْتَحْذِيرِ عَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ. وَكُلٌّ مِنَ اللَّفْظَيْنِ يَحْتَمِلُهُمَا. أَوْ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمِنْ بَعْدِهِمْ، إِذْ قَدْ بَلَغَهُمْ خَبَرُ

المتقدمين، وأخبرهم هود وصالح عن المتأخرين، داعيين إلى الإيمان بهم أجمعين. ويحتمل أن يكون عبارة عن الكثرة، كقوله تعالى: ﴿يَاتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾^(١).

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ بأن لا تعبدوا. أو أي: لا تعبدوا. أو مخففة من الثقيلة، أصله: بأنه لا تعبدوا، أي: بأن الشأن والحديث قولنا لكم: لا تعبدوا.
﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرسل ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ برسالته ﴿فَبِأَنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ﴾ على زعمكم ﴿كَافِرُونَ﴾ إذ أنتم بشر مثلنا، لا فضل لكم علينا.

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَبَجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فتعظّموا فيها على أهلها بغير استحقاق ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتراراً بقوتهم وشوكتهم. قيل: كان من قوتهم أن الرجل منهم ينزع الصخرة فيقتلعها بيده. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ

مِنْهُمْ قُوَّةٌ ﴿قُدْرَةٌ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ بِالذَّاتِ، مُقْتَدِرٌ عَلَى مَا لَا يَتَنَاهَى، قَوِيٌّ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يَعْرِفُونَ أَنَّهَا حَقٌّ فَيَنْكُرُونَهَا. وَهُوَ عَظْفٌ عَلَى «فَاسْتَكْبَرُوا».

﴿فَازْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ بَارِدَةٌ تَهْلِكُ بِشِدَّةِ بَرْدِهَا. مِنَ الصَّرِّ، وَهُوَ الْبَرْدُ الَّذِي يَصْرُّ، أَيْ: يَجْمَعُ. أَوْ شَدِيدَةُ الصَّوْتِ فِي هُبُوبِهَا. مِنَ الصَّرِيرِ. ﴿فِي أَيَّامٍ نَّجِسَاتٍ﴾ جَمْعُ نَجَسَةٍ، مِنْ: نَحَسَ نَحْسًا، تَقْيِضُ: سَعِدَ سَعْدًا. وَقَرَأَ الْحَجَازِيَّانَ وَالْبَصْرِيَّانَ بِالسَّكُونِ، عَلَى التَّخْفِيفِ، أَوْ النَّعْتِ عَلَى فَعْلٍ، أَوْ الْوَصْفِ بِالصَّرِّ. وَقِيلَ: كُنْ آخِرُ الشَّوَالِ، مِنَ الْأَرْبَعَاءِ إِلَى الْأَرْبَعَاءِ. وَمَا عَذَّبَ قَوْمٌ إِلَّا فِي يَوْمٍ الْأَرْبَعَاءِ.

﴿لِنَبْذِيَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَضَافَ الْعَذَابَ إِلَى الْخِزْيِ - وَهُوَ الذِّلُّ - عَلَى قَصْدٍ وَصَفِهِ بِهِ، مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْثَرُ﴾ وَهُوَ فِي الْأَصْلِ صِفَةُ الْمَعَذَّبِ، وَإِنَّمَا وَصَفَ بِهِ الْعَذَابَ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ لِلْمُبَالَغَةِ. ﴿وَهُمْ لَا يَنْصَرُونَ﴾ بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فَدَلَّلْنَاهُمْ عَلَى الْحَقِّ، بَنَصَبِ الْحَبِجِّ وَإِرْسَالِ الرِّسْلِ ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعُفَى عَلَى الْهُدَى﴾ فَاخْتَارُوا الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى، وَالْكَفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ صَاعِقَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَهْلَكَتَهُمْ. وَإِضَافَتُهَا إِلَى الْعَذَابِ وَوَصْفُهُ بِالْهُونِ لِلْمُبَالَغَةِ، أَوْ بِحَذْفِ الْمُضَافِ، أَيْ: ذِي الْهُونِ، وَهُوَ الْهُونُ - أَيْ: الْعَذَابُ - الَّذِي يَهِينُهُمْ. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مِنْ اخْتِيَارِ الضَّلَالَةِ وَالْكَفْرِ. ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ مِنْ تِلْكَ الصَّاعِقَةِ.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ
خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ
سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا فَمَا هُمْ مِنَ
الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ وقرأ نافع: نَخْشَرُ، بالنون المفتوحة وضم
السين، ونصب «أَعْدَاءَ». ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم لئلا يتفرقوا.
وهو عبارة عن كثرة أهل النار.

﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاجَدُوا﴾ إذا حضروها. و«ما» مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة
بالحضور. ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بأن
ينطقها الله، أو يظهر عليها آثاراً تدل على ما اقترف بها، فينطق بلسان الحال.
﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ سؤال توبيخ أو تعجب. ولعل المراد
بالجلود النفس الحيوانية. ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: ما نطقنا
باختيارنا، بل أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء. أو ليس نطقنا بعجب من قدرة الله
الذي أنطق كل حي. ولو أول الجواب والنطق بدلالة الحال بقي الشيء عاماً في
الموجودات الممكنة. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يحتمل أن يكون تمام
كلام الجلود، وأن يكون استئنافاً.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْقَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: كنتم تستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش مخافة الفضاحة، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم بها، فما استترتم عنها. وفيه تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يتحقق أنه لا يمر عليه حال إلا وهو عليه رقيب. ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك اجترأتم على ما فعلتم.

﴿وَذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ظنهم هذا. وهو مبتدأ، وقوله: ﴿ظَنَنْتُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَزْدَاكُمْ﴾ خبران له. ويجوز أن يكون «ظننكم» بدلاً، و«أرداكم» خبراً. ﴿فَاصْبِرْهُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إذ صار ما منحوا للاستسعاد به في الدارين سبباً لشقاء المنزلين.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ لا خلاص لهم عنها ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ يسألوا العتبي. وهي الرجوع إلى ما يحتجون. ﴿فَقَاهُمْ مِنَ الْمُفْتَتِينَ﴾ المجابين إليها. ونظيره قوله تعالى حكاية: ﴿أَجْزَغْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ﴾^(١).

وَقَيْضُنَا لَهُمْ قُرْنَاةً فَرَزْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا

كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ
الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَقَيَّضْنَا﴾ أي: قدرنا ﴿لَهُمْ﴾ للكفرة ﴿قُرْنَاءً﴾ أخذاناً^(١) من الشياطين
يستولون عليهم استيلاء القبيض على البيض، وهو القشر. وقيل: أصل القبيض البدل.
ومنه: المقايضة للمعاوضة. ﴿فَزَيَّيْنَاهُمْ مَا بَيَّنَّ آيَاتِهِمْ﴾ من أمر الدنيا واتباع
الشهوات ﴿وَمَا خَلَقْنَاهُمْ﴾ من أمر الآخرة وإنكاره. فدعوهم إلى التكذيب به، وأن لا
جنة ولا نار، ولا بعث ولا حساب.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: كلمة العذاب ﴿فِي أَمَمٍ﴾ في جملة أمم بالخسران
والهلاك. وهو حال من الضمير المجرور في «عليهم». ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ﴾ وقد عملوا مثل أعمالهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم
العذاب. والضمير لهم وللأمم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ﴾ وعارضوه بالهذيان. أو
ارفعوا أصواتكم بها لتشوشوه على القارىء. يقال: لغى يلقى، ولغا يلفو، إذا هذى.
﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: تغلبونه على قراءته.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ المراد بهم هؤلاء القائلون، أو عامة
الكفار ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ جزاء سيئات أعمالهم. وقد سبق
مثله.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الأسوأ، مبتدأ ﴿جَزَاءً أَعَدَّ اللَّهُ﴾ خبره ﴿النَّارُ﴾ عطف
بيان للجزاء، أو خبر محذوف ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ في النار ﴿نَارُ الْخُلْدِ﴾ فإنها دار إقامتهم.
وهو كقولك: في هذه الدار دار سرور، وتعني بالدار عينها، على أن المقصود هو

الصفة. ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ينكرون الحقّ. أو يلغون، وذكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ اضَلَلْنَا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ يعني: شيطاني النوعين الحاملين على الضلالة والعصيان. وقيل: هما إبليس وقابيل، فإنهما سنا الكفر والقتل.

وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو بكر والسوسي: أَرَنَا بالتخفيف، كفخذ في فخذ، وقرأ الدوري باختلاس^(١) كسرة الراء.

﴿نَجْعَلُهُمَا ثُغْتًا أَفْذَامًا﴾ ندوسهما انتقاماً منهما. وقيل: نجعلهما في الدرك الأسفل. ﴿يَبْكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ مكاناً، أو ذلاً.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ
﴿٣١﴾ نَزَّلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا
السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ

(١) اختلس القارئ الحركة: لم يبلغها. ويقابله الإشباع. وهو تبليغ الحركة حتى تصير حرف مد.

﴿ ٣٤ ﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿ ٣٥ ﴾
وَمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ ٣٦ ﴾

ولما ذكر سبحانه وعيد الكفار، عقبه بذكر الوعد للمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ اعترافاً بربوبيته، وإقراراً بوحدانيته ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ثبتوا على الإقرار ومقتضياته، من فعل الأعمال الصالحة، وترك الأفعال السيئة. و«ثم» لتراخي الاستقامة عن الإقرار في الرتبة وفضلها عليه، من حيث إن الإقرار مبدأ الاستقامة، أو لأنها عسر قلماً تتبع الإقرار.

وعن علي عليه السلام معناه: «أدّوا الفرائض بعد الإقرار».

وقال سفيان بن عبد الله الثقفي: «قلت: يا رسول الله أخبرني بأمر أعتصم به. قال: قل: ربّي الله ثمّ استقم. قال: فقلت: ما أخوف ما تخاف عليّ. فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه فقال: هذا».

وعن أنس قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية ثمّ قال: «قد قالها ناس ثمّ كفر أكثرهم. فمن قالها حتّى يموت فهو ممّن استقام عليها».

وروى محمد بن الفضيل قال: «سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الاستقامة،

فقال: هي والله ما أنتم عليه».

﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموت، وفي القبر، وإذا قاموا من قبورهم ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ ما تقدمون عليه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلّقتكم. والخوف: غمّ يلحق لتوقع المكروه. والحزن: غمّ يلحق لوقوعه، من فوات نافع أو حصول ضارّ. والمعنى: إنّ الله كتب لكم الأمن من كلّ غمّ، فلن تذوقوه أبداً. و«أن» مصدرية، أو مخففة مقدّرة بالباء. وأصله: بأنّه لا تخافوا. أو مفسّرة. ﴿وَأُبَشِّرُوا بِالنَّجَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على لسان الرسل.

﴿نَحْنُ﴾ معاشر الملائكة ﴿أُولَئِكَ﴾ أنصاركم وأحباؤكم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ نتولى إيصال الخيرات إليكم من قبل الله تعالى، ونلهمكم الحق، ونحملكم على الخير، بدل ما كانت الشياطين تفعل بالكفرة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بالشفاعة والكرامة، حيثما يتعادي الكفرة وقرناؤهم، ولا نفارقكم إلى أن ندخلكم الجنة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ من اللذائذ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ما تتمنون . من الدعاء بمعنى الطلب . وهو أعم من الأول.

﴿نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ حال من «ما تدعون» للإشعار بأن ما يتمنون بالنسبة إلى ما يعطون مما لا يخطر ببالهم كالنزل، أي: كرزق النزيل، وهو الضيف .
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ صورته صورة الاستفهام، والمراد به النفي . وتقديره: وليس أحد أحسن قولاً ﴿وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى عبادته ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المستسلمين لأمر الله تعالى، المنقادين لطاعته . وليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام، بل المراد أنه اتخذ دين الاسلام مذهبه، كما تقول: هذا قول فلان، والمراد مذهبه .

والآية عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث، وهي: أن يكون موحدًا، معتقدًا لدين الإسلام، عاملًا بالخير، داعيًا إليه . وما هم إلا طبقة العالمين العاملين من أهل العدل والتوحيد، الدعاة إلى دين الله .

وعن ابن عباس: نزلت في النبي ﷺ . وقيل: في المؤذنين .
وفي هذه الآية دلالة على أن الدعاء إلى الدين من أعظم الطاعات وأجل الواجبات . والداعي يجب أن يكون عاملًا بعلمه، ليكون الناس إلى القبول منه أقرب، وإليه أسكن .

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ في الجزاء وحسن العاقبة . و«لا» الثانية

مزيدة لتأكيد النفي. ﴿اذْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ادفع السيئة حيث اعترضتك بالحسنة التي هي أحسن منها، على أَنَّ المراد بالأحسن الزائد مطلقاً. أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات. ومثال ذلك: رجل أساء إليك إساءة، فالحسنة أن تغفو عنه، وألتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمك فتمدحه، ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه.

وإنما لم يقل: فادفع، لأنّه أخرجه مخرج الاستئناف، على أنّه جواب من قال: كيف أصنع؟ للمبالغة. ولهذا أثر «أحسن» على الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة، لأنّ من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها. وعن ابن عباس: «ألتي هي أحسن» الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة.

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام: «أَنَّ الحسنة التقيّة، والسيئة الإذاعة». ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: إذا فعلت ذلك صار عدوك المشاقّ مثل الوليّ الشفيق والحميم الشقيق.

﴿وَمَا يُلْقُهَا﴾ وما يلقي هذه السجّة التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ فإنّها تحبس النفس عن الانتقام ﴿وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الخير وكمال النفس. وقيل: الحظّ العظيم الجنة.

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ وإن يصبك ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ نخس. شبه به وسوسته، لأنّها تبعث الإنسان على ما لا ينبغي، كالدفع بما هو أسوأ. وجعل النزغ نازغاً، على طريقة: جدّ جدّه. أو أريد به نازغ، وصفاً للشيطان بالمصدر للمبالغة. والمعنى: وإن صرفك الشيطان عمّا وصّيت به من الدفع بآلتي هي أحسن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ من شرّه، ولا تطعه، وامض على شأنك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنبئك، أو بصلاحك.

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا
لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ
اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ
﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ
وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي
أَمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا
مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

ثم ذكر دلالات التوحيد فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: حججه الدالة على
وحدانيته، وأدلته على صفاته التي باين به جميع خلقه ﴿الْفَيْلُ﴾ بذهاب الشمس
عن بسيط الأرض ﴿وَالنَّهَارُ﴾ بطلوعها على وجهها، وتقديرهما على وجه مستقر،
وتدبيرهما على نظام مستمر ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وما اختصا به من النور، وما ظهر
فيهما من التدبير في المسير، والتصريف في فلك التدوير.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ وإن كان فيهما منافع كثيرة، لأنهما مخلوقان

مأموران مثلكم ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير للأربعة المذكورة، فإنَّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأتني أو الإناث، يقال: الأقلام بريتها وبريتهن. أو لَمَّا قال: «ومن آياته» كنَّ في معنى الآيات، فقيل: «خلقهنَّ». والمقصود تعليق الفعل بهما إشعاراً بأنَّهما من عداد ما لا يعلم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن كنتم تقصدون بعبادتكم الله كما تزعمون فاسجدوا له، فإنَّ السجود أخصَّ العبادات.

والآية نزلت في ناس منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر، كالصابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنَّهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله، فنهوا عن هذه الوساطة، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله خالصاً إن كانوا إيَّاه يعبدون، وكانوا موحدين غير مشركين.

وهذا موضع السجود عندنا وعند الشافعي، للأمر به. وعند أبي حنيفة الآية الأخرى، لأنَّها من تمام المعنى.

﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ ولم يمتثلوا ما أمروا به، وأبوا إلا الوساطة، فدعهم وشأنهم ﴿قَالِذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة. وهذا عبارة عن الزلفى ومزية المكانة والكرامة. ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾ ينزهونه عن الأنداد ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: دائماً، لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ لا يملون.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على ربوبيته ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ يابسة متطامنة. مستعار من الخشوع بمعنى التذلُّل. وصفها بالهمود في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً﴾^(١). وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو في قوله: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ تزخرفت بالنبات، كأنها بمنزلة المختال في زيِّه ﴿وَرَبَّتْ﴾ وانتفخت به ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بعد موتها ﴿لَمُخْضِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياء والإماتة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون عن الاستقامة ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ يقال: أَلَحَدَ الحافر ولحد، إذا مال عن الاستقامة، فحفر في شقّ. فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة. والظن فيها، وإلقاء المزخرفات، وفعل المكاء^(١) والصفير في أثناء قراءتها. ﴿لَا يَخْشَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فنجازيهم على إلحادهم.

﴿أَفَمَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ﴾ وهم الملحدون ﴿أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ من عذاب الله. وهم المؤمنون المطيعون. والاستفهام للتقرير، أي: لا يستويان أصلاً. قابل الإلقاء في النار بالآتيان آمناً مبالغة في إحماد حال المؤمنين. ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ تهديد شديد ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عالم لا يخفى عليه شيء منها.

ثم أخبر عنهم مهجناً لهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا﴾ بعد إذ ﴿جَاءَهُمْ﴾ بدل من قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا». أو مستأنف. وخبر «إِنْ» محذوف، مثل: معاندون، أو يجازون بكفرهم. وعن أبي عمرو بن العلاء النحوي: أن خبره ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾^(٢). والمراد بالذكر القرآن، لأنهم - لكفرهم به - طعنوا فيه وحرفوا تأويله. ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ كثير النفع، عديم النظير، أو منيع محمي بحماية الله من التغير والتبديل.

﴿لَا يَأْتِيهِ﴾ لا يتطرق إليه ﴿الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ وهذا مثل، كأن الباطل لا يتطرق إليه، ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به. أو المراد: ليس في إخباره عما مضى باطل، ولا في إخباره عما يكون

(١) مَكَا مُكَاءً: صفر بفيه.

(٢) فضّلت: ٤٤.

في المستقبل باطل، بل أخباره كلها موافقة لمخبراتها. وهذا القول مروى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

وقيل: إن الباطل الشيطان. ومعناه: لا يقدر الشيطان أن ينقص منه حقاً، أو يزيد فيه باطلاً. والطاعنون المبطلون وإن كانوا يطعنون فيه ويتأولونه بالباطل، لكن الله حماه عن تعلق باطلهم به، بأن قَبِضَ قوماً عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد أقاويلهم، فلم يخلوا طعن طاعن إلا محوقاً، ولا قول مبطل إلا مضمحلاً. ونحوه قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١).

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ﴾ أي حكيم ﴿حَمِيدٍ﴾ يحمده كل مخلوق بما ظهر عليه من نعمه.

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

ثم سأل نبيه عليه السلام عن تكذيب المبطلين، فقال: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: ما يقول لك كفار قومك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلا مثل ما قال لهم كفار قومهم. وقيل: معناه: ما يقول الله لك إلا مثل ما قال لهم، وهو الأمر بالدعاء إلى الحق في عبادة الله ولزوم طاعته، فهذا القرآن موافق لما قبله من الكتب. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لذو رحمة سابعة لأنبيائه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم. وهو على الثاني يحتمل أن يكون مقول القول، يعني: أن حاصل ما أوحى إليك وإليهم وعد المؤمنين بالمغفرة، ووعد الكافرين بالعقوبة. فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته، ويخافه أهل معصيته.

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ
هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ
عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

روي: أَنَّ المعاندين لفرط تعنتهم كانوا يقولون: هَلَا نَزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ بِلُغَةٍ
الْعَجْمِ. فنزلت: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ الضمير للذكر ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ
آيَاتُهُ﴾ يَبْتَسِلُ بِلِسَانِ نَفْقِهِ ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أَكَلَامُ أَعْجَمِيٍّ وَمَخَاطَبُ عَرَبِيٍّ؟
وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ. وَالْأَعْجَمِيُّ يُقَالُ لِلَّذِي لَا يَفْهَمُ كَلَامَهُ.

وهذا قراءة أبي بكر وحزمة والكسائي. وقرأ قالون وأبو عمرو بالمد
والتسهيل. وورش بالمد وإبدال الثانية ألفاً. وابن كثير وابن ذكوان وحفص بتسهيل
الثانية بغير مد. وهشام: أَعْجَمِيٍّ، عَلَى الْإِخْبَارِ.

والمعنى: إِنَّ الْقَوْمَ غَيْرُ طَالِبِينَ لِلْحَقِّ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمُ الْبَاطِلَةَ وَأَرَءَاهُمُ
الزَّائِفَةَ. فَأَيَّاتُ اللَّهِ عَلَى أَيْ طَرِيقَةٍ جَاءَتْهُمْ كَانُوا غَيْرَ مُنْفَكِّينَ عَنِ التَّعَنُّتِ فِيهَا،
مُقْتَرَحِينَ غَيْرَهَا، لِفَرْطِ الْعِنَادِ وَاللَّجَاجِ.

لا يقال: كَيْفَ يُقَالُ عَرَبِيٌّ وَالْحَالُ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أُمَّةِ الْعَرَبِ؟
لأنَّا نقول: مَبْنَى الْإِنْكَارِ عَلَى تَنَافُرِ حَالَتِي الْكِتَابِ وَالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ، لَا عَلَى أَنَّ
الْمَكْتُوبَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ أَوْ جَمَاعَةٌ، فَوَجِبَ أَنْ يَجْرَدَ لِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَ الْغَرَضِ، وَلَا
يُوصَلُ بِهِ مَا يَخْتَلِ غَرَضاً آخَرٌ. أَلَا تَرَكَ تَقُولُ - وَقَدْ رَأَيْتَ لِبَاساً طَوِيلاً عَلَى امْرَأَةٍ
قَصِيرَةٍ - : اللَّبَاسُ طَوِيلٌ وَاللَّبَاسُ قَصِيرٌ. وَلَوْ قُلْتَ: وَاللَّبَاسَةُ قَصِيرَةٌ، جِئْتُ بِمَا هُوَ
لَكِنَّةٌ وَفَضُولٌ قَوْلٍ، لِأَنَّ الْكَلَامَ لَمْ يَقَعْ فِي ذِكُورَةِ اللَّبَاسِ وَأَنَوْنَتُهُ، وَإِنَّمَا وَقَعَ فِي
غَرَضٍ غَيْرِهِمَا.

﴿قَدْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾ إلى الحق ﴿وَشِفَاءٌ﴾ لما في الصدور من كل شك وشبهة. سمي اليقين شفاءً، كما سمي الشك مرضاً في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾^(١). ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ خبره ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ على تقدير: هو في آذانهم ثقل ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وذلك لتصامهم عن سماعه، وتعاميهم عما يريهم من الآيات. ومن جَوَزَ العطف على عاملين عطف قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾ أي: هو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر. ﴿أُولَئِكَ يُفَانُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: أنهم لا يقبلونه، ولا يراعونه أسماعهم، فمثلهم في شدة إعراضهم عنه، مثل من يصاح به من مسافة بعيدة لا يسمع من مثلها الصوت، فلا يسمع النداء.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

ثم سَلَى نَبِيَّهُ ﷺ عن جحود قومه له وإنكارهم لنبوته بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ بالتصديق والتكذيب، كما اختلف في القرآن، فلا تحزن ولا تبخع^(٢) نفسك عليهم حسرات ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي العدة بالقيامة، وفصل الخصومة في ذلك اليوم. أو تقدير الآجال. ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا باستئصال المكذبين قبل انقضاء آجالهم. ومثل ذلك قوله تعالى:

(١) البقرة: ١٠.

(٢) بَخَعَ نَفْسَهُ: نهكها وكاد يهلكها من غضب أو غم.

﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(١). وقوله: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ﴾^(٢). ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وإن اليهود، أو الذين لا يؤمنون مطلقاً ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من التوراة، أو القرآن ﴿مُريب﴾ موجب للاضطراب وقلق النفس، موقع لهم الريبة، وهي أفضح الشك وأبلغه.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾ نفعه، لأن ثواب ذلك واصل إليه قطعاً ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرره، لأن عقابه يلحق به دون غيره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْغَيْبِ﴾ فيفعل بهم ما ليس له أن يفعله، بأن يعذب غير المسيء، وغير ذلك. وإنما قال بصيغة المبالغة، مع أنه لا يظلم مثقال ذرة، للإشعار بأن من فعل الظلم وإن قلّ - وهو عالم بقبحه، وبأنه غني عنه - لكان ظلاماً. وقيل: هذا على طريق الجواب لمن زعم أنه يظلم العباد، فيأخذ أحداً بذنب غيره، ويشبه بطاعة غيره، ولا شك أن ذلك غاية الظلم ونهاية التعدي.

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

ثم بين سبحانه أنه العالم بوقت القيامة دون غيره، فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: قل ذلك لهم إذا سألوا عنها، إذ لا يعلمها إلا هو ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا﴾ من أوعيتها. جمع كيم بالكسر، وهو وعاء الثمرة. وقرأ نافع وابن عامر

وحفص: من ثمرات بالجمع، لاختلاف الأنواع.

و«ما» نافية. و«من» الأولى زائدة للاستغراق. ويحتمل أن تكون موصولة معطوفة على «الساعة». و«من» مبيّنة، بخلاف قوله: ﴿وَمَا تَخْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ﴾ بمكان، أي: ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضح ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ إِلَّا مقروناً بعلمه واقعاً حسب تعلّقه به. فيعلم سبحانه قدر الثمار وأجزاءها وكيفيتها، من طعومها وروائحها وألوانها. ويعلم ما في بطون الحبالى، وأنواع انتقاله من حال إلى حال، وكيفيته من الطول والقصر والوسط، ومن الخداج^(١) والتمام، والذكورة والأنوثة، والحسن والقيح.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ينادي المشركين ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أضافهم إليه تعالى على زعمهم. وبيانه في قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾^(٢) وفيه تهكّم وتقريع. ﴿قَالُوا أَذْنَاكُ﴾ أعلمناك ﴿مَا مِنْ شَهِيدٍ﴾ من أحد يشهد لهم بالشركة، إذ تبرأنا عنهم لما جاءنا، فما منا اليوم إِلَّا من هو موحد لك. فيكون السؤال عنهم للتوبيخ. أو من أحد يشاهدهم، لأنهم ضلّوا عنّا.

وقيل: هو قول الشركاء، أي: ما منا من شهيد يشهد لهم بأنهم كانوا محقّين فيما أضافوا إلينا من الشركة.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَاءٌ﴾ أي: آلهة غير الله ﴿كَانُوا يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا، أي: لا يرونهم، أو لا ينفعونهم، فكأنهم ضلّوا عنهم على التفسير الأخير ﴿وَوُظِّنُوا﴾ وأيقنوا ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَّجِيسٍ﴾ مهرب من عذاب الله. والظنّ معلق عنه بحرف النفي.

(١) الخداج: كل نقصان في شيء.

(٢) انقصص: ٦٢.

لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾
وَلَنْ أَذْقَنَاهُ رَحْمَةً مِّمَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّهُ لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
قَائِمَةً وَلَنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلْيُنَبِّئِنَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا
عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَضَ
وَنَائٍ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

ثم بين سبحانه طريقتهم المذمومة في الدنيا بقوله: ﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ﴾
لا يمل ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ من طلب السعة في النعمة ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾
الضيقة فيها ﴿فَيَؤُوسٌ﴾ شديد اليأس ﴿قَنُوطٌ﴾ من فضل الله ورحمته. وقد
بولغ فيه من طريقتين: بناءً فعول، ومن طريق التكرير. والقنوط: أن يظهر
عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر، أي: يقطع الرجاء من فضل الله وروحه.
وهذه صفة الكافر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَخَافُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ
الْكَافِرُونَ﴾^(١).

﴿وَلَنْ أَذْقَنَاهُ رَحْمَةً مِّمَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّهُ﴾ أي: إذا فرجنا عنه بصحة بعد
مرض، أو سعة بعد ضيق ﴿لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي﴾ حقي أستحقه، لما لي من الفضل
وأعمال البر. أو هذا لي لا يزول عني. ونحوه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ

قَالُوا لَنَا هَذِهِ^(١).

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ تقوم ﴿وَلَيْتَن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسْنَى﴾ أي: ولئن قامت - على طريق التوهم - كان لي عند الله الحالة الحسنى من الكرامة. وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا فلاستحقاق لا ينفك عنه، أو لقياس أمر الآخرة على أمر الدنيا. وعن بعضهم: للكافر أمنيّتان، يقول في الدنيا: ﴿وَلَيْتَن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسْنَى﴾. ويقول في الآخرة: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(٢). وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فلنخبرتهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ بحقيقة أعمالهم، ولنبرئهم عكس ما اعتقدوا فيها من أنهم يستوجبون عليها كرامة عند الله. وذلك أنهم كانوا ينفقون أموالهم رياء الناس، وطلباً للافتخار والاستكبار لا غير. وكانوا يحسبون أن ما هم عليه سبب الفنى والصحة، وأنهم محققون بذلك ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد متراكم، لا يمكنهم التفصّي عنه.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ عن الشكر، وأبطرته النعمة حتّى كأنه لم يلق بؤساً قط، فنسي المنعم ﴿وَنَايَجَانِبِهِ﴾ عطفه. وهذا عبارة عن الانحراف، كما قالوا: ثنى عطفه، وتولّى بركنه. فالمعنى: انحرف عنه تكبراً وتجبراً عن الاعتراف بنعم الله تعالى، وأعرض وتباعد عنه تكبراً وتعظماً. أو الجانب مجاز عن النفس، كالجنب في قوله ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(٣). فكأنه قال: ونأى بنفسه، كقولهم في المتكبر: ذهب بنفسه، وذهبت به الخيلاء كلّ مذهب.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشُّرُّ﴾ الضرّ ﴿فَذُو دُعَاءٍ غَرِيضٍ﴾ كثير. مستعار ممّا له عرض متسع، للإشعار بكثرته واستمراره، كما استعير الغلظ لشدة العذاب. وهو أبلغ من

(١) الأعراف: ١٣١.

(٢) النبأ: ٤٠.

(٣) الزمر: ٥٦.

الطويل، إذ الطول أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله؟! ﴿قُلْ أَزِيتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ أي: القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ من غير نظر واتباع دليل ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: من أضل منكم. فوضع الموصول موضع الصلة شرحاً لحالهم، وتعليلاً لمزيد ضلالهم.

وتوضيح المرام في هذا المقام: أن الله سبحانه أمر حبيبه بأن يقول لأهل الشرك: إن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلت منها على اليقين وثلج^(١) الصدور، وإنما هو قبل النظر واتباع الدليل أمر محتمل، يجوز أن يكون من عند الله وأن لا يكون من عنده. وأنتم لم تنظروا ولم تفحصوا، فما أنكرتم أن يكون حقاً وقد كفرتم به؟ فأخبروني من أضل منكم وأبعد في المشاققة والمناسبة في أمر الحق، فأهلككم بذلك أنفسكم؟

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَكُونُوا لَهَا آيَةً أَلَّا يَكُونُوا لَهَا آيَةً أَلَّا يَكُونُوا لَهَا آيَةً مَّحِيطٌ ﴿٥٤﴾

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ يعني: ما أخبرهم النبي ﷺ به من الحوادث الآتية، وآثار النوازل الماضية، وما يسر الله له ولأمته من الفتوح والظهور على الجبابرة والأكاسرة، وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعافهم على أقويائهم، ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة، وبسط دولته في الشرق والغرب على وجه خارق للعادة.

﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ما ظهر فيها بين أهل مكة، وما حلّ بهم من عجائب الصنع الدالة على كمال قدرته. والاستقراء يطالعك - في التواريخ والكتب المدونة في مشاهد أهل الإسلام وأيامهم - على عجائب، بحيث لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علماً من أعلام الله وآية من آياته، يقوى معها اليقين، ويزداد بها الإيمان.

﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الضمير للقرآن أو الرسول، أي: يظهر لهم أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد^(١) عنه إلا مكابر حسه، مغالط نفسه.

وعن عطاء معنى الآية: سريهم حججنا ودلائلنا على التوحيد في آفاق العالم وأقطار السماء والأرض، من الشمس والقمر والنجوم والنباتات والأشجار والجبال، وفي أنفسهم ما فيها من لطائف الصنع وبدائع الحكم التي يبتت جملة منها في علم التشريح، حتى يظهر لهم أن الله هو الحق. وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق، كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والتزوير، وأن للباطل ريحاً تخفق ثم تسكن، ودولة تظهر ثم تضمحل.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أولم يكف ربك. والباء مزيدة للتأكيد، كأنه قيل: أو لم تحصل الكفاية به. ومعنى كفايته سبحانه هاهنا: أنه بين للناس ما فيه كفاية، من الدلالة على توحيده وتصحيح نبوة رسله. ولا تكاد تزداد الباء في الفاعل إلا مع «كفى». ﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه. والمعنى: أو لم يكفك أنه تعالى على كل شيء شهيد محقق له، فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة، كما حقق سائر الأشياء الموعودة.

ومحصول المعنى: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد، أي: مطلع مهيم، يستوي عنده غيبه وشهادته. فيكفيهم

(١) أي: لا يميل عنه.

ذلك دليلاً على أنه حق، وأنه من عنده، ولو لم يكن كذلك لما قوي هذه القوة، ولما نصر حاملوه هذه النصرة. أو المعنى: أولم يكف الإنسان رادعاً عن المعاصي أنه تعالى مطلع على كل شيء، لا يخفى عليه خافية.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ لقاء مجازاة ربهم يوم البعث ﴿أَلَا﴾ كلمة تنبيه ﴿إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ مَّحِيطٌ﴾ عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها، ظواهرها وبواطنها، مقتدر عليها، لا يفوته شيء منها، فهو مجازيهم على كفرهم.

سورة حم

وتسمى سورة الشورى أيضاً. مكّية. وعن ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات نزلت بالمدينة: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْوَعْدَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١). قال ابن عباس: ولما نزلت هذه الآية قال رجل: والله ما أنزل الله هذه الآية. فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾^(٢). ثم إن الرجل تاب وقدم فنزل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إلى قوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾^(٣).

وعدد آياتها ثلاث وخمسون.

أبي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة حم عسق كان ممن يصلي عليه الملائكة، ويستغفرون له ويسترحمون».

وروى سيف بن عميرة، عن أبي عبد الله قال: «من قرأ حم عسق بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، حتى يقف بين يدي الله ﷻ فيقول: عبدي أدمنت قراءة حم عسق ولم تدر ما ثوابها، أما لو دريت ما هي وما ثوابها لما مللت من قراءتها، ولكن سأجزيك جزاءك، أدخلوه الجنة، وله فيها قصر من ياقوتة حمراء أبوابها وشرفها ودرجها، منها يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها. وله فيها حوراوان من الحور العين، وألف جارية، وألف غلام من الولدان المخلدين الذين وصفهم الله تعالى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْ ﴿١﴾ عَسَقَ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ
﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَّقَطْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ
أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

واعلم أنه سبحانه لما ختم سورة السجدة بذكر القرآن، افتتح هذه السورة
بذكره أيضاً، فقال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْ عَسَقَ﴾ لعلهما اسمان للسورة، ولذلك فصل
بينهما، وعدّا آيتين. وإن كانا اسماً واحداً فالفصل ليطابق سائر الحواميم.

وقيل: إنما فضلت هذه السورة من بين سائر الحواميم بـ«عسق»، لأن
جميعها استفتح بذكر الكتاب على التصريح به إلا هذه، فذكر عسق ليكون دلالة
على الكتاب، لأنه اسم من أسماء القرآن. وهو معنى قول قتادة، فإنه قال: هو اسم
القرآن.

وقيل: إن هذه السورة انفردت بأن معانيها أوحيت إلى سائر الأنبياء، فلذلك
خصت بهذه التسمية.

وقال عطاء: هي حروف مقطعة منبئة عن حوادث الزمان. فالحاء من حرب،
والميم من تحويل ملك، والعين من عدو مقهور، والسين من الاستئصال بسنين

كسني يوسف، والقاف من قدرة الله ﷻ وقهاريته على الجبابة في الأرض.
وقال النيشابوري في تفسيره: «قيل: رموز إلى فتن كان علي عليه السلام يعرفها.
وقيل: الحاء حكم الله، والميم ملكه، والعين علمه، والسين سناؤه، والقاف قدرته.

وقيل: الحاء حرب علي ومعاوية، والميم ولاية مروانية، والعين ولاية العباسية، والسين ولاية السفينانية، والقاف قدرة المهدي. وهذه الأقاويل مما لا معول عليها.

وقال أهل التصوف: حاء حبه، وميم محبوبية محمد ﷺ، وعين عشقه إلى سيده، وقاف قربه إلى سيده، أقسم أنه يوحى إليه وإلى سائر الأنبياء من قبله، أنه محبوبه في الأزل، ويتبعيته خلق الكائنات»^(١).

وباقى الأقوال في ذلك مذكورة في أول البقرة.

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: مثل ما في هذه السورة من المعاني، أو مثل ذلك الوحي أوحى الله إليك وإلى الرسل من قبلك. يعني: أن الله تعالى كرر هذه المعاني في القرآن وفي جميع الكتب السماوية، لما فيها من التنبيه البليغ واللفظ العظيم لعباده من الأولين والآخرين.

وعن عطاء، عن ابن عباس قال: ما من نبي أنزل الله عليه الكتاب، إلا أنزل عليه معاني هذه السورة بلغاتهم.

وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية، للدلالة على استمرار الوحي، وأن إحياء مثله عادة الله سبحانه.

وقرأ ابن كثير: يُوحى بالفتح، على أن «كذلك» مبتدأ، و«يوحى» خبره المسند إلى ضميره، أي: مثل ذلك يوحى. أو مصدر، و«يوحى» مسند إلى «إليك».

أي: إichاء مثل إichاء هذه السورة يوحى إليك.

والله» مرفوع بما دلّ عليه «يوحي». كأنّ قائلاً قال: من الموحى؟ فقيل: الله. كقراءة السلمي ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾^(١). على البناء للمفعول ورفع «شركاؤهم»، على معنى: زينه لهم شركاؤهم.

و«العزیز الحكيم» صفتان له، مقرّتان لعلوّ شأن الموحى به، أي: القرآن نزل من القادر الذي لا يغالب، المحكم لأفعاله، كما مرّ في السورة السابقة.

أو بالابتداء^(٢)، كما مرّ في قراءة «نوحى» بالنون. و«العزیز» وما بعده أخبار. أو «العزیز الحكيم» صفتان له، وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ خبران له. وعلى الوجوه الآخر استئناف مقرّر لعزّته وحكمته.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ وقرأ نافع والكسائي بالياء ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي: يتشققن من علوّ شأن الله وعظمته. ويدلّ عليه مجيئه بعد قوله: «العليّ العظيم». وقيل: من دعائهم له ولداً، كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾^(٣).

وقرأ البصريّان وأبو بكر: يَنْفَطِرْنَ. والأوّل أبليغ، لأنّه مطاوع: فطر.

﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يبتدىء الانفطار من جهتهنّ فوقانيّة. وتخصيصها على الأوّل، لأنّ أعظم الآيات وأدلّها على علوّ شأنه من فوق السماوات، وهي العرش والكرسي وصفوف الملائكة القائلين بالتسبيح والتقديس حول العرش، وما لا يعلم كنهه إلّا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى. وعلى الثاني، ليدلّ على الانفطار من تحتهنّ بالطريق الأولى. وقيل: الضمير للأرض.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبُحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما

(١) الأنعام: ١٣٧.

(٢) عطف على قوله: بما دلّ عليه، قبل خمسة أسطر.

(٣) مريم: ٩٠.

يستدعي مغفرتهم، من استدعاء الحلم منه تعالى، وإعداد الأسباب المقربة إلى الطاعة. وهذا المعنى يعمّ المؤمن والكافر. بل لو فسر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلل المتوقع عمّ الحيوان، بل الجماد. والأصح أن المراد بهم المؤمنون، لقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١). وحكايتهم عنهم: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾^(٢). فالمراد بالاستغفار الشفاعة.

﴿إِلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إذ ما من مخلوق إلّا وهو ذو حظّ من رحمته. والآية على الأول^(٣) زيادة تقرير لعظمته. فكأنّه قيل: تكاد السماوات يتفطرن هيبة من جلاله، واحتشاماً من كبريائه، والملائكة الذين هم ملء السبع الطباق، وحاقون حول العرش صفوفاً بعد صفوف، يداومون - خضوعاً لعظمته - على عبادته وتسيّحه وتحميده، ويستغفرون لمن في الأرض خوفاً عليهم من سطواته.

وعلى الثاني^(٤)؛ دلالة على تقدّسه عمّا نسب إليه. فكأنّه قيل: يكدن ينفطرن من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء، والملائكة يوحدون الله وينزّهونه عمّا لا يجوز عليه من الصفات التي يضيفها إليه الجاهلون به، حامدين له على ما أولاهم من أطافه التي علم أنّهم عندها يستعصمون، مختارين غير ملجئين، ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض الذين تبرّؤا من تلك الكلمة ومن أهلها. أو يطلبون من ربّهم أن يحلم عن أهل الأرض، ولا يعاجلهم بالعقاب، لما عرفوا في ذلك من المصالح، وحرصاً على نجاة الخلق، وطمعاً في توبة الكفار والفساق منهم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولِيَاءَ﴾ شركاء وأنداداً ﴿اللَّهُ حَقِيقٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب

(١ و ٢) غافر: ٧.

(٣) أي: على قراءة: يَنْفَطِرْنَ.

(٤) أي: على قراءة: يَنْفَطِرْنَ.

على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيء، فيجازيهم بها ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ بموكل بهم، أو بموكل ومفوض إليك أمرهم، ولا قسره على الإيمان، بل إنما أنت منذر فحسب، فلا يضيقت صدرك بتكذيبهم إياك. وفيه تسلية له ﷺ.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُخَبِّرُ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾ الإشارة إلى مصدر: يوحى، أي: مثل ذلك الإيعاء البين المفهم ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أو إلى معنى الآية المتقدمة من أن الله هو الرقيب عليهم وما أنت برقيب عليهم ولكن نذير لهم، فإن هذا المعنى كرره الله في كتابه في مواضع جمّة. فيكون الكاف مفعولاً به لـ «أوحينا»، وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حالاً منه، أي: أوحيناك إليك وهو قرآن عربي بين لا لبس فيه عليك، لتفهم ما يقال لك، ولا تتجاوز حد الإنذار.

﴿يُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أهل أم القرى. وهي مكة. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ﴾ يوم القيامة يجمع فيه الخلائق، أو الأرواح والأشباح، أو العمال والأعمال. يقال: أنذرتك كذا، وأنذرتك بكذا. وقد عدّي الأول - أعني «لتنذر

أَمْ الْقَرَى» - إلى المفعول الأول، والثاني - وهو قوله : «وتتذر يوم الجمع» - إلى المفعول الثاني. فحذف ثاني مفعولي الأول، وأول مفعولي الثاني، للتسهيل وإيهام التعميم.

﴿لَا زَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض لا محلّ له ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي: يجمعون في الموقف أولاً ثم يفرقون. والتقدير: منهم فريق. والضمير للمجموعين، لدلالة الجمع عليه، فإنه في معنى: يوم جمع الخلائق.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: مؤمنين كلّهم على القسر والإكراه، كقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾^(١). وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾^(٢). والدليل على أنّ المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان قوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣). وإدخال همزة الإنكار على المكره دون فعله، دليل على أنّ الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره. فالمعنى: ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعاً على الإيمان.

﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ مشيئة حكمة. فكلفهم وبني أمرهم على ما يختارون، ليدخل المؤمنين في رحمته، وهم المرادون بمن يشاء. وتغيير المقابلة لأجل ذلك، أو للمبالغة في الوعيد، إذ الكلام في الإنذار. ألا ترى أنّه وضعهم في مقابلة الظالمين، وترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه، بقوله: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: يدعمهم بغير من يتولّى أمرهم وينصرهم.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ أم منقطعة. ومعنى الهمزة فيها للإنكار، أي: بل اتخذوا ﴿مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ كالأصنام ﴿فَقَالَهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ هو الذي يجب أن يتولّى وحده، ويعتقد أنّه المولى والسيد. وذكر الفاء لأنّه جواب شرط محذوف، كأنّه قيل بعد إنكار كلّ

(١) السجدة: ١٣.

(٢ و ٣) يونس: ٩٩.

وَلِيٍّ سِوَاهُ: إِنْ أَرَادُوا وَلِيًّا بِحَقِّ فَاللهِ الْوَلِيُّ بِالْحَقِّ، لَا وَلِيٍّ سِوَاهُ.

﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتقرير لكونه حقيقاً بالولاية، أي: ومن شأن هذا الوليَّ أَنَّهُ يحيي الموتى للمجازاة، قادر على كلِّ من الإحياء والإماتة وغير ذلك. فهو الحقيق بأن يتَّخذ وليّاً، دون من لا يقدر على شيء.

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

ثم حكى الله سبحانه قول رسوله للمؤمنين، فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتم والكفار ﴿فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من أمر من أمور الدنيا أو الدين ﴿فَحُكْمُهُ﴾ فحكم ذلك المختلف فيه مفوض ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يميّز بين المحقِّ والمبطل بالنصر، أو بالإثابة والمعاقبة.

وقيل: وما اختلفتم فيه من تأويل متشابه فارجعوا إلى المحكم من كتاب الله، وإلى الظاهر من سنة رسول الله ﷺ.

وقيل: وما تنازعتم من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله، ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره، كقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ

والرَّسُولِ»^(١).

وقيل : وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تَصِل بتكليفكم، ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا: الله أعلم، كعرفة الروح. قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(٢).

﴿ذَلِكُمْ﴾ الحاكم بينكم ﴿اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في ردِّ كيد أعداء الدين، وفي سائر مجامع الأمور ﴿وَالْيَهُ أَنَسِبُ﴾ أرجع في كفاية شرِّهم، وغيرها من المعضلات.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خبر آخر لـ «ذلكم». أو مبتدأ خبره ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساءً لتسكنوا إليها ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: خلق للأنعام من جنسها أزواجاً. أو خلق لكم من الأنعام أصنافاً، أو ذكوراً وإناثاً. ﴿يَذَرُوكُمُ﴾ يكثركم. يقال: ذرأ الله الخلق؛ بثَّم وكثَّره. من الذرء، وهو البثُّ. وفي معناه: الذرو والذرء. والضمير راجع إلى المخاطبين والأنعام، مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب ممَّا لا يعقل. ﴿فِيهِ﴾ في جعل الناس والأنعام أزواجاً ليكون بينهم توالد. وإيثار «فيه» على: به، لإفادة أنَّ هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبثِّ والتكثير.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: شيء يزوجه ويناسبه. والمراد من مثله ذاته، كما في قولهم: مثلك لا يبخل، فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عن ذاته على قصد المبالغة في نفيه، فسلخوا به طريق الكناية، لأنَّهم إذا نفوه عمن يناسبه ويسدُّ مسدَّه. ويكون على أخصَّ أوصافه، فقد نفوه عنه بطريق أولى.

فإذا علم أنَّه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله: ليس كالله شيء، وبين

(١) النساء: ٥٩.

(٢) الإسراء: ٨٥.

قوله: «ليس كمثله شيء» إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها، فكأنهما عبارتان معتبتان على معنى واحد، وهو نفي المماثلة عن ذاته. ونحوه قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(١)، فَإِنَّ معناه: بل هو جواد من غير تصور يد ولا بسطها، لأنهما وقعتا عبارة عن الجود، لا يقصدون شيئاً آخر، حتى إنهم استعملوها فيمن لا يد له، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له.

ومن قال: الكاف فيه زائدة، لعلّه عنى أنّه يعطي معنى: ليس مثله، غير أنّه أكّد لما ذكرناه. وقيل: مثله صفته، أي: ليس كصفته صفة.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: العالم بكلّ ما يسمع ويبصر.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خزائنها ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾

يوسع ويضيّق على وفق مشيئته ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيفعله على ما ينبغي. فإذا علم أنّ الغنى خير للعبد أغناه، وإلا أفقره.

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ

أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أي: شرع لكم من الدين، دين نوح ومحمد ﷺ، ومن
بينهما من أرباب الشرائع، وهو الأصل المشترك فيما بينهم.
ثم فسر الشرع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا
الدِّينَ﴾ وهو الإيمان بما يجب تصديقه، من توحيد الله وكتبه ورسله وحججه ويوم
الجزاء، وسائر ما يكون الرجل بإقامته مؤمناً. ولم يرد الشرائع التي هي مصالح
للأمم على حسب أحوالها من فروعات الإسلام، فإنها مختلفة متفاوتة. قال الله
تعالى: ﴿يَكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾^(١). ومحله النصب على البدل من مفعول
«شرع». أو الرفع على الاستئناف. كأنه قيل: وما ذلك المشروع؟ فقيل: هو إقامة
الدين. أو الجرّ على البدل من هاء «به».

﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في هذا الأصل ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ عظم
وشق عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ يجتلب إلى ما
تدعوهم. أو إلى الدين بالتوفيق والتسديد. ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من ينفع فيهم توفيقه،
ويجدي عليهم لطفه، من أصحاب الاسترشاد ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ بالإرشاد والتوفيق
﴿مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ من يقبل إليه.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ يعني: الأمم السالفة. وقيل: أهل الكتاب، لقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾^(١). ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: العلم بأن التفرق ضلال متوعد عليه على السنة الأنبياء. أو العلم بمبعث الرسول، أو أسباب العلم من الرسل والكتب وغيرهما، فلم يلتفتوا إليها ﴿يَغْيَا بَيْنَهُمْ﴾ عداوة، أو طلباً للدنيا. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بالإمهال ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو يوم القيامة، أو آخر أعمارهم المقدرة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المبطلين حين افترقوا، لعظم ما اختلفوا ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني: أهل الكتاب الذين كانوا في عهد الرسول، أو المشركين الذين أورثوا القرآن من بعد أهل الكتاب ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من الكتاب، لا يعلمونه كما هو، أو لا يؤمنون به حق الإيمان. أو من القرآن. ﴿مُرِيبٌ﴾ مقلق، أو مدخل في الريبة.

وقيل: كان الناس أمة واحدة مؤمنين، بعد أن أهلك الله أهل الأرض أجمعين بالطوفان، فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم، وذلك حين بعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين، وجاءهم العلم، وإنما اختلفوا للبغي بينهم.

﴿فَلْيَذُكِّكَ﴾ فلأجل ذلك التفرق، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً، أو لأجل ذلك الكتاب، أو العلم الذي أوتيته. ﴿فَادْعُ﴾ إلى الاتفاق على الملة الحنيفية القديمة. أو للاتباع لما أوتيت فادع. وعلى هذا يجوز أن تكون اللام في موضع «إلى» لإفادة الصلة، فإنه يفيد معنى كون ما دخل عليه اللام معمولاً متقدماً، فكانه قال: ادع إلى الاتباع، لأنه يقال: دعا إليه.

﴿وَاسْتَقِمْ﴾ على الدعوة ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ كما أمرك الله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ المختلفة الباطلة.

﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي كتاب صحح أن الله أنزله. يعني:

الإيمان بجميع الكتب المنزلة، لا كالكفار الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾^(١).

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الحكومات والشرائع. والأول إشارة إلى كمال القوة النظرية، وهذا إشارة إلى كمال القوة العملية.

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ خالق الكل ومتولي أمره. وإنما قال ذلك لأنّ المشركين قد اعترفوا بأنّ الله هو الخالق. ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ وكلّ مجازى بعمله، ولا يؤاخذ أحد بذنب غيره، فلا يضربنا إصراركم على الكفر. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا حجاج بمعنى: لا خصومة، إذ الحقّ قد ظهر، ولم يبق للمحااجة مجال، ولا للخلاف مبدأ، سوى العناد، فلا حاجة إلى المحااجة.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة، فيفصل بيننا، وينتقم لنا منكم ﴿وَالنَّابِئِ الْفَصِيرِ﴾ مرجع الكل لفصل القضاء.

وهذه محاجة في مواقف المفاولة لا المفاولة، ومشاركة بعد ظهور الحقّ وقيام الحجة والإلزام. فليس في الآية ما يدلّ على مشاركة الكفار رأساً، حتّى تكون منسوخة بآية القتال^(٢).

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا

(١) النساء: ١٥٠ - ١٥١.

(٢) التوبة: ٢٩.

يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا الَّذِينَ يُمَارُونَ
فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ
يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾

ولما تقدّم ظهور الحجّة وانقطاع المحاجة، عقبه بذكر من يحتاج بالباطل،
فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُضَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ في دينه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ﴾ من بعد ما
استجاب له الناس ودخلوا في الاسلام، ليردّوهم إلى دين الجاهليّة، كقوله: ﴿وَدَّ
كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾^(١).
وقيل: نزلت في اليهود والنصارى كانوا يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم،
ونبيّنا قبل نبيّكم، ونحن خير منكم.

وقيل: من بعد ما استجاب الله لرسوله، وأظهر دينه بنصره يوم بدر. أو من
بعد ما استجاب له أهل الكتاب، بأن أقروا بنبوّته واستفتحوا به.

﴿حُجَّتُهُمْ﴾ أي: ما ستّوه حجّة على اعتقادهم ﴿فَاجِصَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ زائلة
باطلة ﴿وَعَلَيْنِهِمْ غَضَبٌ﴾ لمعاندتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على كفرهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحق، مقترناً به،
بعيداً من الباطل، أو بالغرض الصحيح كما اقتضته الحكمة، أو بالواجب من التحليل
والتحريم، وغير ذلك من العقائد والأحكام. ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ والشرع الذي توزن به
الحقوق، ويسوّى بين الناس. أو العدل. ومعنى إنزاله: أنّه أمر به في كتبه المنزلة.

وقيل: الذي توزن به الأجناس. وإنزاله الوحي بإعداده والأمر به في الكتب السماوية.

﴿وَمَا يُذْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ إتيانها، فاتبع الكتاب، واعمل بالشرع، وواظب على العدل، قبل أن يفاجئك اليوم الذي توزن فيه أعمالك وتوفى جزاؤك. وقيل: تذكير القريب لأنه بمعنى: ذات قرب، أو لأن الساعة بمعنى البعث.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون من مجيئها، مع اعتنائهم بها، لتوقع الثواب ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارِضُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ يجادلون فيها، فيخاصمون في مجيئها على وجه الإنكار لها. من المرية، أي: يدخلهم المرية والشك. أو من: مريت الناقة، إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب، لأن كلاً من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة. ﴿لَقِيَ ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله، ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية، ولشهادة العقول على أنه لا بد من دار جزاء. فالبعث أشبه الغائبات إلى المحسوسات، فمن لم يهتد لتجويزه فهو أبعد عن الاهتداء إلى ما وراءه.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ برّ بهم بصنوف من البرّ بحيث لا تبلغها الأفهام. أو عالم بخفيات الأمور والغيوب، فيوصل النعمة إلى العباد من وجه يدق إدراكه، بأن يعطيهم النعم التي لا يترقبونها، ويصرف الآفات عنهم، ويدخل السرور والملاذ إليهم، بحيث خفي أسبابها عنهم، وغير ذلك من الأنطاف التي لا يوقف على كنهها لغموضها.

﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يرزقه كما يشاء، فيخصّ كلاً من عباده بنوع من البرّ على ما اقتضته حكمته. يعني: كلّهم مبروزون بحيث لا يخلو أحد من برّه، إلا أن البرّ أصناف، وله أوصاف، والقسمة بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا

الحكمة والتدبير، فيطير^(١) لبعض العباد صنف من البرّ لم يطر مثله لآخر، ويصيب هذا حظّ له وصف ليس ذلك الوصف لحظّ صاحبه. فمن قسّم له منهم ما لم يقسّم للآخر فقد رزقه، كما يرزق أحد الأخوين ولدًا دون الآخر، على أنّه أصابه بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد. أو معناه: يوسع الرزق على من يشاء. يقال: فلان مرزوق، إذا وصف بسعة الرزق.

وقيل: معناه: يرزق من يشاء في خفض ودعة، ومن يشاء في كدّ وتعب. وكلّ من يرزقه الله من ذي روح، فهو ممّن يشاء أن يرزقه.

﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع الغالب الذي لا يغلب.
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَزَنَ الْآخِرَةِ﴾ ثوابها، أو العمل الذي يوجب ثوابها. شبهه بالزرع من حيث أنّه فائدة تحصل بعمل الدنيا، ولذلك قيل: الدنيا مزرعة الآخرة. والحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض. ويقال للزرع الحاصل منه أيضاً، ﴿نَزْدَ لَهُ فِي حَزْنِهِ﴾ فنعطه بالواحد عشرًا إلى سبعمائة فما فوقها. أو نوقفه في عمله، فضوعفت حسناته. فسُمّي ما يعمله العامل ممّا ينبغي به الفائدة والزكاء حرثًا على المجاز.

﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَزَنَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ شيئًا منها، لا ما يريده ويبتغيه. وهو رزقه الذي قسمنا له. ﴿وَمَالُهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ إذ الأعمال بالنيات، ولكلّ امرئ ما نوى.

وقيل: معناه من قصد بالجهاد وجه الله فله سهم الغانمين والثواب في الآخرة، ومن قصد به الغنيمة لم يحرم ذلك، وحصل له سهمه من الغنيمة، ولكن لا نصيب له من الثواب في الآخرة.

وروي عن النبي ﷺ أنّه قال: «من كانت نيّته الآخرة جمع الله شمله،

(١) أي: يقسم، من: أطار المال: قسمه.

وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت نيته الدنيا فرّق الله عليه أمره، وجعل الفقر بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلّا ما كتب له».

وعن الحسن: من كان يعمل للآخرة نال الدنيا والآخرة، ومن عمل للدنيا فلا حظّ له في الآخرة، لأنّ الأعلى لا يجعل تبعاً للأدون.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ
الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي
رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾
ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

ولمّا أخبر سبحانه أنّ من يطلب الدنيا بأعماله فلا حظّ له في الآخرة، قال:
﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ بل ألهم شركاء. والهمزة للتقريع والتقرير. وشركاؤهم شياطينهم.
﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾ بالترزين ﴿مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ كالشرك، وإنكار البعث،
والعمل للدنيا.

وقيل: شركاؤهم أوثانهم. وإضافتها إليهم لأنهم متّخذوها شركاء لله، فتارة
تضاف إليهم لهذه الملابس، وتارة إلى الله. وإسناد الشرع إليها لأنّها سبب ضلالتهم

وافتنهم بما تدبّروا به، فكأنها شارعة لهم دين الكفر، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾^(١). أو صور من سنّه لهم، كما قيل: إنّ جمشيد أخذ تماثيل مصوّرة بصورته، فأرسلها إلى الأقاليم ليعظّموها.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ﴾ أي: القضاء السابق بتأجيل الجزاء، أو العدة بأنّ الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين، أو المشركين وشركائهم ﴿وَأَنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ في القيامة ﴿مُتَشَفِّقِينَ﴾ خائفين خوفاً شديداً أرق^(٢) قلوبهم ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من السيئات ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: وباله لاحق بهم، وواصل إليهم، لا بدّ لهم منه، أشفقوا أولم يشفقوا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ في أطيب بقاعها وأنزهها، فإنّ الروضة الأرض الخضرة بحسن النبات والأشجار المثمرة المورقة المونقة ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يشتهونه ثابت لهم عند ربهم ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما للمؤمنين ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ الذي يصغر عنده ما لغيرهم في الدنيا.

﴿ذَلِكَ الَّذِي﴾ ذلك الثواب الذي ﴿يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: يبشّرهم الله به، فحذف الجارّ ثمّ العائد. أو ذلك التبشير الذي يبشّره الله عباده، ليستعجلوا بذلك السرور في الدنيا.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي: يَبْشُرُ، من بَشَرَه. ومن شدّد الشين أراد به التكثير، ومن خفّفها فلاّته يدلّ على القليل والكثير.

روي: أنّه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض: أترون محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً؟ فنزلت: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أتعاطاه من

(١) إبراهيم: ٣٦.

(٢) أي: ألاته.

التبليغ والبشارة ﴿أَجْرًا﴾ نفعاً منكم ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ إِلَّا أَنْ تَوَدَّوْا أَهْلَ قَرَابَتِي. ولم يكن هذا أجراً في الحقيقة. لأنَّ قرابته قرابتهم، فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة. ويجوز أن يكون منقطعاً، أي: لا أسألكم أجراً قط، ولكن أسألكم أَنْ تَوَدَّوْا قَرَابَتِي الَّذِينَ هُمْ قَرَابَتُكُمْ، ولا تؤذوهم.

ولم يقل: إِلَّا مَوَدَّةَ الْقُرْبَى، أو إِلَّا الْمَوَدَّةَ لِلْقُرْبَى، بل قال: إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى، لإفادة أَنَّهُمْ جَعَلُوا مَكَاناً لِلْمَوَدَّةِ وَمَقَرّاً لَهَا، كقولك: لي في آل فلان مودة، ولي فيهم هوىٌّ وحُبٌّ شديد. تريد: أَحَبَّهُمْ، وهم مكان حُبِّي ومحله. وليست «في» بصلة للمودة، كاللام إذا قلت: إِلَّا الْمَوَدَّةَ لِلْقُرْبَى، بل هي متعلقة بمحذوف تعلّق الظرف به في قولك: المال في الكيس. وتقديره: إِلَّا الْمَوَدَّةَ ثَابِتَةً فِي الْقُرْبَى وَتَمَكَّنَةً فِيهَا. والقربى مصدر كالزلفى والبشرى، بمعنى القرابة. والمراد: في أهل القربى، كما فسرنا به.

روي عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ قَرَابَتِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجِبَتْ عَلَيْنَا مَوَدَّتُهُمْ؟ قَالَ: «عَلَيَّ، وفاطمة، وابناها».

قال النيشابوري في تفسيره بعد ذكر هذا الحديث: «ولا ريب أَنَّ هذا فخر عظيم وشرف تامّ. ويؤيده ما روي عن عليّ عليه السلام: شكوت إلى رسول الله ﷺ حسد الناس لي، فقال: «أما ترضى أَنْ تكون رابع أربعة: أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين، وأزواجنا عن أيماننا وشمائلتنا، وذُرِّيَّتُنَا خلف أزواجنا»^(١).

وعن النبي ﷺ: «حَرِّمَتِ الْجَنَّةُ عَلَى مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ بَيْتِي وَأَذَانِي فِي عَتْرَتِي. وَمَنْ اصْطَنَعَ صَنِيعَةً إِلَى أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ، وَلَمْ يَجَازِهِ عَلَيْهَا، فَأَنَا أَجَازِيهِ عَلَيْهَا غَدًا إِذَا لَقِيتُنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وقال النيشابوري: إنه كان يقول: «فاطمة بضعة مني، يؤذيني ما يؤذيها». وثبت بالنقل المتواتر أنه كان يحب علياً والحسن والحسين، وإذا كان كذلك وجب علينا محبتهم، لقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾^(١). وكفى شرفاً لآل رسول الله ﷺ وفخراً ختم التشهد بذكرهم، والصلاة عليهم في كل صلاة^(٢). انتهى كلامه.

وورد من طرق الخاصة والعامة أن النبي ﷺ قال: «مثل أهل بيتي كممثل سفينة نوح، من ركب فيها نجا، ومن تخلف عنها غرق». فنحن نركب سفينة حب آل محمد ﷺ، لتخلص في بحر التكليف وظلمة الجاهالة من أمواج الشبه والضلالة.

وروي: أن الأنصار قالوا: فعلنا وفعلنا، كأنهم افتخروا. فقال عباس: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهاهم في مجالسهم، فقال: «يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فاعزكم الله بي؟ قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بي؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: أفلا تجيبونني؟ يعني: لم كم تفتخروا أنتم أيضاً؟

قالوا: ما نقول يا رسول الله؟

قال: ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك؟

قال: فما زال يقول ﷺ حتى جثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله». فنزلت الآية.

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) غرائب القرآن ٦: ٧٤.

وروى الزمخشري والتعلبي في تفسيريهما أنه قال رسول الله ﷺ: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة»^(١).

وقيل: لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله وبينهم قربى، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه نزلت. والمعنى: إلا أن تؤذوني في القربى، أي: في حق القربى ومن أجلها، كما تقول: الحب في الله والبغض في الله، بمعنى: في حقه ومن أجله. يعني: أنكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني، فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى، ولا تؤذوني، ولا تهيجوا عليّ.

وقيل: أتت الأنصار رسول الله بمال جمعه وقالوا: يا رسول الله قد هدانا الله بك، أنت ابن أختنا وتعروك نواب وحقوق ومالك سعة، فاستعن بهذا على ما ينوبك. فنزلت، وردّه.

وقيل: «القربى» التقرب إلى الله، أي: لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجراً، إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح.

والقول الأول منقول عن عليّ بن الحسين، وسعيد بن جبير، وعمرو بن شعيب، وجماعة كثيرة. وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

وفي شواهد التنزيل مرفوعاً إلى أبي أمانة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى، وَخَلَقْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ. فَأَنَا أَصْلُهَا، وَعَلِيٌّ فَرْعُهَا، وَفَاطِمَةُ لِقَاحُهَا، وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ثَمَارُهَا، وَأَشْيَاعُنَا أَوْرَاقُهَا. فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغَصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا نَجَا، وَمَنْ زَاغَ عَنْهَا هَوَى. وَلَوْ أَنَّ عَبْدًا عَبْدَ اللَّهِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ أَلْفَ عَامٍ ثُمَّ أَلْفَ عَامٍ ثُمَّ أَلْفَ عَامٍ، حَتَّى يَصِيرَ كَالشَّنِّ^(١) الْبَالِي، ثُمَّ لَمْ يَدْرِكْ مُحِبَّتَنَا، أَكَبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ عَلَى مَنْخَرِيهِ. ثُمَّ تَلَا: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ الْآيَةَ^(٢)».

وروي عن عليّ عليه السلام قال: «فِينَا فِي آلِ حَمِ آيَةٍ، لَا يَحْفَظُ مَوَدَّتَنَا إِلَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ. ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ».

﴿وَمَنْ يَفْقَرِمْ حَسَنَةً﴾ وَمَنْ يَكْتَسِبُ طَاعَةَ سَيِّمًا حَبَّ آلِ الرَّسُولِ ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا﴾ فِي الْحَسَنَةِ ﴿حُسْنًا﴾ بِمُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَنْ أَذْنَبَ ﴿شَكُورٌ﴾ لِمَنْ أَطَاعَ، بِتَوْفِيَةِ الثَّوَابِ وَالتَّفَضُّلِ عَلَيْهِ بِالزِّيَادَةِ، فَإِنَّ الشُّكُورَ فِي صِفَةِ اللَّهِ مُجَازٌ لِلْإِعْتِدَادِ بِالطَّاعَةِ، وَتَوْفِيَةِ ثَوَابِهَا، وَالتَّفَضُّلِ عَلَى الْمُنَافِ.

وعن السَّدي: أَنَّهُ - أَي: الْحَسَنَةُ - الْمَوَدَّةُ لِآلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وصحَّ عن الحسن بن عليّ أَنَّهُ عليه السلام خُطِبَ النَّاسَ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «أَنَا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ افْتَرَضَ اللَّهُ مَوَدَّتَهُمْ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَقَالَ: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَدَدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا» فَاقْتَرَفَ الْحَسَنَةَ مَوَدَّتَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ».

(١) الشَّنُّ: الْقُرْبَةُ الْبَالِيَةُ الصَّغِيرَةُ.

(٢) شواهد التنزيل ٢: ٢٠٣ ح ٨٢٧.

وروى إسماعيل بن عبد الخالق، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنها نزلت فينا أهل البيت أصحاب الكساء».

والظاهر العموم في أي حسنة كانت، إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة في القربى، دلّ ذلك على أنها تناولت المودة تناولاً أولياً، وكان سائر الحسنات لها توابع.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى﴾ بل أقولون افتري محمد ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة أو القرآن، ف«أم» منقطعة، والهمزة للتوبيخ. كأنه قيل: أيتماكون أن ينسبوا مثل الرسول إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفري وأفحشها؟ ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ استبعاد للافتراء عن مثله، مع الإشعار على أنه إنما يجترىء عليه من كان مختوماً على قلبه جاهلاً بربه، فأما من كان ذا بصيرة ومعرفة فلا. وكأنه قال: إن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم، حتى تفتري عليه الكذب، فإنه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم.

وعن قتادة: معنى «يختم على قلبك» ينسك القرآن، ويقطع عنك الوحي. يعني: لو حدث نفسك بأن تفتري على الله كذباً لطبع الله على قلبك، ولأنساك القرآن. وهذا كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾^(١).

وقيل: «يختم على قلبك» يربط عليه بالصبر، حتى لا يشق عليك أذاهم. ﴿وَيَفْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ استئناف لنفي الافتراء عما يقوله، بأنه لو كان مفترى لمحقه، إذ من عادته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه أو بقضائه، كقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾^(٢). يعني: لو كان مفترياً كما تزعمون لكشف الله افتراءه ومحقه، وقذف بالحق على باطله فدمغه. ويسجوز أن يكون عدة لرسول الله بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهتان والتكذيب، وتثبيت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مرد له من نصرك عليهم.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في صدرك وصدورهم، فيجري الأمر على حسب ذلك. وسقوط الواو من «يمح» في بعض المصاحف لاتباع اللفظ، كما في قوله: ﴿وَيَذِغُ الْإِنْسَانَ﴾^(٣) و﴿سَنَذِعُ الزَّبَانِيَةَ﴾^(٤).

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه وإن عظمت معاصيهم. فكأنه قال: من نسب محمداً إلى الافتراء ثم تاب قبلت توبته وإن جلّت معصيته، والقبول يعدى إلى مفعول ثانٍ بـ«من» و«عن»، لتضمنه معنى الأخذ والإبانة. يقال: قبلت منه الشيء، وقبلته عنه. فمعنى قبلته منه: أخذته منه، وجعلته مبدأ قبولي ومنشأه. ومعنى قبلته عنه: عزلته وأبنته عنه. والتوبة أن يرجع عن

(١) الزمر: ٦٥.

(٢) الأنبياء: ١٨.

(٣) الإسراء: ١١.

(٤) العلق: ١٨.

القيح، وعن الإخلال بالواجب، بالندم عليهما، والعزم على أن لا يعاود.
وروى جابر: أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي
أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، وَكَبَّرَ. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ لَهُ عَلِيٌّ ؓ: «يَا هَذَا إِنَّ
سُرْعَةَ اللِّسَانِ بِالْأَسْتَغْفَارِ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ، وَتَوْبَتِكَ تَحْتَاجُ إِلَى التَّوْبَةِ.
فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا التَّوْبَةُ؟

قال: اسم يقع على سِتَّةِ معاني: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع
الفرائض الإعادة، وردّ المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما رَبَّيْتَهَا في المعصية،
وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كُلِّ ضحك ضحكته». **﴿وَيَغْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾** عن الكبائر إذا تيب عنها، وعن الصغائر إذا اجتنبت
الكبائر. أو يغفو عن الكبائر والصغائر مطلقاً لمن يشاء فضلاً. **﴿وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ﴾**
من خير وشرٍّ، فيجازيهم على ذلك، ويتجاوز عنهم على مقتضى حكمته. وقرأ
حمزة وحفص والكسائي: ما تفعلون بالتاء.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: يستجيب الله لهم، فحذف
اللام كما حذف في **﴿وَإِذَا كَانُوا مِنْهُمْ﴾** ^(١). والمراد إجابة الدعاء أو الإثابة على الطاعة،
فإنها كدعاء وطلب لما يترتب عليها. ومنه قوله ﷺ: «أفضل الدعاء الحمد لله». أو
يستجيبون الله بالطاعة إذا دعاهم إليها. **﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾** على ما سألوا
واستحقوا من الثواب واستوجبوا له.

وروي عن ابن عباس: أَنَّ معنى «ويستجيب الذين آمنوا» أن يشفعهم في
إخوانهم. «ويزيدهم من فضله» يشفعهم في إخوان إخوانهم.

وروي عن أبي عبد الله ؑ قال: «قال رسول الله ﷺ وآله في قوله:
﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن أحسن إليهم في الدنيا».

﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بدل ما للمؤمنين من الثواب والتفضل.

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ
إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا
وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

ولما بين سبحانه أنه يزيد المؤمنين من فضله، أخبر عقبيه أن الزيادة في
الأرزاق في الدنيا تكون على حسب المصالح، فقال:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ لبغى بعضهم على بعض
استيلاءً واستعلاءً، أو لتكبروا وأفسدوا فيها بطراً، فإن الغنى مبطرة مأثرة^(١)، وكفى
بحال قارون عبرة. وهذا على الغالب. وقال رسول الله ﷺ: «أخوف ما أخاف
على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها». وأصل البغي طلب التجاوز عن الاقتصاد فيما
يتحرى كميّة وكيفيّة.

﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ﴾ بتقدير ﴿مَا يَشَاءُ﴾ كما اقتضته مشيئته ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ
خَبِيرٌ﴾ عليهم بخفايا أمرهم وجلايا حالهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يصلحهم وما يفسدهم في
عواقب أمورهم. فيقدر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويفني،
ويمنع ويعطي، ويقبض ويبسط، كما توجه الحكمة الربّانية. ولو أغناهم جميعاً
لبنوا، ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا.

(١) الأثر: البطر. والبطر: التكبر عن الحق وعدم قبوله.

قيل: نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى. قال خُطّاب بن الأرت: فينا نزلت، وذلك أنّا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها.

وقيل: نزلت في العرب كانوا إذا أخصبوا تحاربوا، وإذا أجذبوا انتجعوا. ولا شبهة في أنّ البغي مع الفقر أقلّ، ومع البسط أكثر وأغلب، فلو عمّ البسط لغلب البغي حتّى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن، فلأجل ذلك الفقراء أكثر من الأغنياء.

روى أنس عن النبي ﷺ، عن جبرئيل، عن الله ﷻ: «إنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا السقم، ولو صححته لأفسده. وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا الصحة، ولو أسقمته لأفسده. وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا الغنى، ولو أفقرته لأفسده. وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا الفقر، ولو أغنيته لأفسده. وذلك أنّي أدبّر عبادي لعلمي بقلوبهم.

ومتى قيل: نحن نرى كثيراً من يوسّع عليه الرزق يبغي في الأرض. قلنا: إذا علمنا على الجملة أنّه سبحانه يدبّر أمور عباده بحسب ما يعلم من مصالحهم، فلعلّ هؤلاء كان يستوي حالهم في البغي، وسّع عليهم أو لم يوسّع. أو لعلّهم لولم يوسّع عليهم لكانوا أسوأ حالاً في البغي، فلذلك وسّع عليهم. والله أعلم بتفاصيل أحوالهم.

ثمّ بيّن حسن نظره بعباده، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ المطر الذي يغيثهم من الجذب، ولذلك خصّ بالنافع. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتشديد. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أيسوا منه. ووجه إنزاله بعد القنوط: أنّه أدعى إلى شكر الآتي به وتعظيمه، والمعرفة بموقع إحسانه. ﴿وَيَنْشِئُ رَحْمَةً﴾ أي: يفرّق ويبسط بركات الغيث ومنافعه، وما يحصل به من الخصب في كلّ شيء، من السهل والجبل والنبات

والحيوان ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الَّذِي يَتَوَلَّى عِبَادَهُ بِإِحْسَانِهِ ونشر رحمته ﴿الْخَبِيرُ﴾
المستحقُّ للحمد على ذلك.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فَإِنَّهَا بذاتها وصفاتها تدلُّ على وجود
صانع قادر حكيم ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ مجرور أو مرفوع عطفاً على «السَّمَوَاتِ»
أو «خلق» ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من حيٍّ، على إطلاق اسم المسبَّب على السبب. أو ممَّا يَدَبُ
على الأرض. وما يكون في أحد الشيئين يصدق أنَّه فيهما في الجملة، كقوله تعالى:
﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(١). وإنَّما يخرج من الملح. فلا يقال: لم قيل فيهما
«من دابة» والدوابُّ في الأرض وحدها؟ وأيضاً يجوز أن يكون للملائكة ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾
مع الطيران، فيوصفوا بالديب كما يوصف به الأناسي. ولا يبعد أيضاً أن يخلق في
السموات حيواناً يمشي فيها مشي الأناسي على الأرض. سبحانه الَّذِي خلق ما
نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق.

﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ حشرهم إلى الموقف بعد إِمَاتِهِمْ ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ في أيِّ
وقت يشاء ﴿قَدِيرٌ﴾ متمكِّن منه. و«إِذَا» كما تدخل على الماضي تدخل على
المضارع. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَفْشَى﴾^(٢).

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾
وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ

(١) الرحمن: ٢٢.

(٢) الليل: ١.

رَوَّاكَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِنَنَّ
بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ
مَّحِصٍ ﴿٣٥﴾

ولمَّا بَيَّنَّ سبحانه عظيم نعمه على العباد، بَيَّنَّ بعده أَنَّهُ لَا يعاقبهم إِلَّا على
معاصيهم، فقال:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ من بلوى في نفس أو مال ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾
فبسبب معاصيكم. وذكر الفاء بناء على تضمين «ما» معنى الشرط. ولم يذكرها نافع
وابن عامر استغناء بما في الباء من معنى السببية. ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ من الذنوب،
فلا يعاقب عليها. والآية مخصوصة بالمجرمين. وعن النبي ﷺ: «ما من اختلاج
عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إِلَّا بذنب». وأما ما أصاب غيرهم، من الأنبياء
وسائر المعصومين من الأئمة، ومن الأطفال والمجانين، فلأسباب أخرى، منها
تعريضه للأجر العظيم بالصبر عليه.

وعن بعضهم: من لم يعلم أَنَّ ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه، وأنَّ
ماعفا عنه مولاه أكثر، كان قليل النظر في إحسان ربه إليه.

وعن بعض آخر: العبد ملازم للجنايات في كلِّ أوان، وجناياته في طاعاته
أكثر من جنایاته في معاصيه، لأنَّ جنایة المعصية من وجه، وجناية الطاعة من
وجوه، والله يطهر عبده من جنایاته بأنواع من المصائب، ليخفف عنه أثقاله في
القيامة، ولولا عفوه ورحمته لهلك في أول خطوة.

وعن عليٍّ عليه السلام، عن النبي ﷺ: «من عفي عنه في الدنيا عفي عنه في
الآخرة، ومن عوقب في الدنيا لم تنَّ عليه العقوبة في الآخرة».

وعنه عليه السلام: «هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن».

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فائتين، أي: لا تعجزونني حيث ما كنتم، فلا تسبقونني هرباً في الأرض عما قضي عليكم من المصائب ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ متولٍ بالرحمة يحرسكم عنها ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ﴾ السفن الجارية ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ﴾ كالجمال الطوال.

قالت الخنساء:

وإن صخراً لتأتّم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ وقرأ نافع وحده: الرياح ﴿فَيَنْظِلُّنَّ زَوَاجِدَ﴾ ثوابت لا

تجري ﴿عَلَى ظَهْرِهِ﴾ ظهر البحر ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلاء الله ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه. وهما صفتا المؤمن المخلص، فجعلهما كناية عنه، فإنه هو الذي وكل همته وحبس نفسه على النظر في آيات الله والتفكير فيها. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر».

﴿أَوْ يُوقِنُ﴾ عطف على «يسكن» لأن أصل الكلام: أو يرسلها فيوقن،

أي: يهلكه بإرسال الرياح العاصفة المفرقة، لأنه قسم «يسكن»، فاقصر على المقصود.

وخلاصة المعنى: أنه سبحانه إن يشأ يبتل المسافرين في البحر بإحدى

بليتين: إما أن يسكن الرياح فيركد الجوّاري على متن البحر ويمنعهم من الجري، وإما أن يرسل الرياح عاصفة فيهلكهم إغراقاً. والمراد إهلاك أهلها، لقوله: ﴿يَمُوتُ﴾ كَسَبُوا من المعاصي ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ عطف على «يوقن». وأصل الكلام: أو يرسله عاصفة فيوق ناساً بذنوبهم، وينج ناساً على طريق العفو منهم.

﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ عطف على علّة مقدّرة، مثل: لينتقم منهم

ويعلم. ونحوه في العطف على التعليل المذكور غير عزيز في القرآن. أو على

الجزاء. وتُصَبِّ نَصَبَ الواقع جواباً للأشياء الستة، نحو: إن تأتي آتاك وأعطيك.
وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على الاستثناء. ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَّجِيسٍ﴾ ملجأ يلجئون إليه
من العذاب.

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى
لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَآئِرَ الْإِثْمِ
وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ
إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ آتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ
فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلُمُونَ النَّاسَ
وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ
وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

ثم خاطب سبحانه من تقدّم وصفهم، فقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ﴾ أيها المشركون
﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من الغنى والبسطة ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تمتعون به مدة حياتكم ثم
تموتون فيبقى عنكم، أو يهلك المال قبل موتكم ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة

﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ من هذه المنافع ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لخلوص نفعه ودوامه. و«ما» الأولى موصولة تضمنت معنى الشرط، من حيث إن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها في الحياة الدنيا، فجاءت الفاء في جوابها، بخلاف الثانية.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ عطف على «الَّذين آمنوا» أي: وما عند الله خير وأبقى للمؤمنين المتوكلين على ربهم، المجتنبين الآثام الكبيرة، والأعمال الفاحشة، والأفعال القبيحة شرعاً وعقلاً ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ﴾ مما يفعل بهم من الظلم ﴿يَغْفِرُونَ﴾ يتجاوزون عنه. والإتيان بـ«هم» وإيقاعه مبتدأ، وإسناد «يغفرون» إليه، للدلالة على أنهم الأخصاء بالمغفرة في حال الغضب. ومثله «هم ينتصرون»^(١). وقرأ حمزة والكسائي: كَبِيرَ الْإِثْمِ. وعن ابن عباس: «كبير الإثم» هو الشرك. والمراد بالمغفرة ما يتعلق بالإساءة إلى نفوسهم، فتى عفوا عنها كانوا ممدوحين. فأما ما يتعلق بحقوق الله والحدود الواجبة، فليس للامام تركها ولا العفو عنها، فلا يجوز له العفو عن المرتد وعن جري مجراه.

ثم زاد سبحانه في صفاتهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ أي: وللذين ﴿اسْتَجَابُوا لِزَبْنِهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ قيل: نزلت في الأنصار، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان به وطاعته، فاستجابوا له بالإيمان والإطاعة وإقامة الصلوات الخمس.

وكانوا إذا أرادوا أمراً قبل الإسلام وقبل قدوم النبي ﷺ اجتمعوا وتشاوروا ثم عملوا عليه، فأثنى الله عليهم بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ذو شورى، لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجمعوا عليه، وذلك من فرط تدبرهم وتيقظهم في الأمور. وهي مصدر كالفتيا بمعنى التشاور، وهو المفاوضة في الكلام ليظهر الحق.

وعن الضحاك: هو تشاور الأنصار حين سمعوا بظهور رسول الله ﷺ وورود

النقباء عليه، حتى اجتمعوا في دار أبي أيوب على الإيمان به والنصرة له.
وعن النبي ﷺ أنه قال: «ما من رجل يشاور أحداً إلا هدي إلى الرشاد». **﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾** في سبيل الخير.

﴿وَالَّذِينَ﴾ وللذين **﴿إِذَا أَصَابَهُمُ النَّبِيُّ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾** ممن بغى عليهم، على ما جعله الله لهم من القوة والتسلط، كراهة التذلل. وهو وصفهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر أُمّهات الفضائل. كما نقل عن النخعي أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن يذلّوا أنفسهم، فيجترء عليهم الفساق. والمعنى: أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة، فإذا قال: أخزأك الله، قال: أخزأك الله، من غير أن يعتدي، وهو لا يخالف وصفهم بالفقران، فإنه ينبغي عن عجز المغفور، والانتصار عن مقاومة الخصم. والحلم عن العاجز محمود، وعن المتغلب مذموم، لأنه إجراء وإغراء على البغي.

ثم عَقَّب وصفهم بالانتصار بقوله: **﴿وَجَزَّاءُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾** للمنع عن التعدي. وسُمِّي الثانية سَيِّئَةً للازدواج، أو لأنها تسوء من تنزل به. **﴿فَمَنْ عَفَا﴾** عماله المؤاخذه به **﴿وَأَصْلَحَ﴾** بينه وبين عدوه **﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾** عدة مبهمة تدل على عظم الموعود **﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾** المبتدئين بالسيئة، والمتجاوزين في الانتقام.

وعن النبي ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان له على الله أجر فليقم. قال: فيقوم خلق، فيقال لهم: ما أجركم على الله؟ فيقولون: نحن الذين عفونا عن ظلمنا. فيقال لهم: ادخلوا الجنة بإذن الله».

﴿وَلَمَنْ انْقَصَرَ﴾ لنفسه وانتصف **﴿يَعْذُ ظُلْمِهِ﴾** أي: بعد ما ظلم، فإنه من إضافة المصدر إلى المفعول **﴿فَاُولَئِكَ﴾** إشارة إلى معنى «من» دون لفظه **﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾** بالمعاقبة والمعاقبة.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي: الإثم والعقاب ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ يبتدؤنهم بالإضرار ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يطلبون ما لا يستحقونه تجبراً عليهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلِمَنْ صَبَرَ﴾ على الظلم والأذى ﴿وَعَفَرَ﴾ ولم ينتصر ﴿إِنْ ذَلِكَ﴾ إن ذلك الصبر والتجاوز منه، فحذف كما حذف في قولهم: السمن منوان بدرهم، للعلم به ﴿لَنْ عَزِمَ الْأُمُورُ﴾ من ثابت الأمور التي أمر الله بها، فلم تنسخ.

وقيل: عزم الأمور هو الأخذ بأعلاها في باب نيل الثواب والأجر.

ويحكي: أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن البصري، وكان المسبوب يكظم، ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية. فقال الحسن: عقلها والله وفهمها إذ ضيّمها الجاهلون.

وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مُلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ

حَفِظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّحْنَا بِهَا وَإِنْ تَصْبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ يخذه الله ويخليه بينه وبين نفسه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وِلْيٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من ناصر يتولاه من بعد خذلان الله إياه ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ حين يرونه، فذكر بلفظ الماضي تحقيقاً ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: إلى رجعة إلى الدنيا.

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار قبل دخولهم فيها، ويدل عليه العذاب. ﴿خَاشِعِينَ﴾ متذللين متقاصرين ﴿مِنَ الذَّلِّ﴾ مما يلحقهم من الذلّ ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: يتبدىء نظرهم إلى النار من تحريك لأجفانهم خفي ضعيف بمسارقة، كالمصبور^(١) ينظر إلى السيف. وهكذا نظر الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها، ويملاً عينيه منها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ في الحقيقة ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالتعريض للعذاب المخد، وتفويتهم الانتفاع بنعيم الجنة ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ وأولادهم وأزواجهم وأقاربهم، لا ينتفعون بهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إمّا أن يتعلّق به «خسروا»، ويكون من قول المؤمنين في الدنيا، أو يتعلّق به «قال» أي: يقولون إذا رأوا عظيم ما نزل بالظالمين يوم القيامة ﴿إِلَّا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ المقيم: الدائم الذي لازوال له. هذا تمام كلامهم، أو تصديق من الله لهم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ ممّا عبدوه وأطاعوه في المعصية نصّار ﴿يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ يخذه تخليه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إلى الهدى، أو النجاة.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ أجيبوا داعي ربكم - يعني: محمداً ﷺ - فيما دعاكم إليه ورغبكم فيه من المصير إلى طاعته ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ لا يردّه بعد ما حكم به. و«من» صلة ل«مردّة». وقيل: صلة «يأتي» أي: من قبل أن يأتي يوم من الله لا يقدر أحد على رده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ﴾ مفرّ ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ إنكار لما اقترتموه، أي: لا تقدرون أن تنكروا شيئاً منه، لأنّه مدوّن في صحائف أعمالكم، وتشهد عليه ألسنتكم وجوارحكم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أعرض الكفّار، أي: عدلوا عما دعوتهم إليه ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ رقيباً، أي: مأموراً بحفظهم لئلا يخرجوا عما دعوتهم إليه، كما يحفظ الراعي غنمه لئلا يتفرّقوا، فلا تحزن لإعراضهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ ليس عليك إلا إيصال المعنى إلى أفهامهم، والبيان لما فيه رشدهم، وقد بلغت.

﴿وَأَنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: إذا أوصلنا إليه نعمة، من الصحة والغنى والأمن ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ بطراً أو أشراً. وأراد بالإنسان الجنس لا الواحد، لقوله: ﴿وَأَن تَصْنِبَهُمْ سَيِّئَةً﴾ من المرض والفقر والمخاوف ﴿بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَهُمْ﴾ أيدي المجرمين ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ بليغ الكفران، ينبسى النعمة رأساً، ويذكر البلية ويعظمها، ولا يتأمل سببها. وهذا وإن اختصّ بالمجرمين، لكن جاز إسناده إلى الجنس، لغلبتهم واندراجهم فيه.

وتصدير الشرطيّة الأولى ب«إذا» والثانية ب«أن» لأنّ إذاقة النعمة محقّقة، من حيث إنّها عادة مقتضاة بالذات، بخلاف إصابة البلية. وإقامة علّة الجزاء مقامه، ووضع الظاهر موضع المضمّر في الثانية، للدلالة على أنّ هذا الجنس موسوم بكفران النعمة، كما قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(١). ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾^(٢).

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) العاديات: ٦.

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِائًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِائًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

ولما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها، أتبع ذلك أنَّ له الملك، وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد وفق الحكمة والمصلحة، فقال:

﴿بِهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له التصرف فيهما وفيما بينهما بما تقتضيه الحكمة، فله أن يقسم النعمة بين العباد كيف يشاء ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من أنواع الخلق من غير مجال اعتراض. ثم قال إبدالاً من «يخلق» إبدال البعض: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه ﴿إِنِائًا﴾ فلا يولد له ذكر ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ فلا يولد له أنثى.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِائًا﴾ أو يجمع لهم بين البنين والبنات. تقول العرب: زوّجت إبلي، أي: جمعت بين صغارها وكبارها. ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لا يلد ولا يولد له.

وتنقيح المعنى: أنه سبحانه يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة، فيهب لبعض إما صنفًا واحداً من ذكر أو أنثى، أو الصنفين جميعاً، ويعقم آخرين.

ولعلّ تقديم الإناث لأنها أكثر لتكثير النسل. أو لأنّ مساق الآية للدلالة على أنّ الواقع ما يتعلّق به مشيئة الله، لا مشيئة الإنسان والإناث كذلك. أو لأنّ الكلام في البلاء، والعرب تعدّهنّ بلاء. أو لتطبيب قلوب آبائهنّ. ولما أحرّ الذكور لذلك، تدارك تأخيرهم وهم أحقّاء بالتقديم بتعريفهم، لأنّ التعريف تنويه وتشهير. ويحتمل أن يكون تأخير الذكور ثمّ تعريفهم لرعاية الفواصل.

ثُمَّ قَدَّمَ الذَّكَرَانَ عَلَى الْإِنْثَاءِ لِإِعْطَاءِ كُلِّ الْجَنْسَيْنِ حَقَّهُ مِنَ التَّقْدِيمِ، لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ تَقْدِيمَهُنَّ أَوَّلًا لَمْ يَكُنْ لِمَقْتَضَى آخِرٍ، فَقَالَ: ﴿ذَكَرَانَا وَإِنْثَانَا﴾ كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾^(١) ﴿فَجَعَلْ مِنْهُ الذُّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾^(٢).

وتفسير العاطف في ذكر تزويج الذكران والإنثاء، لأنَّه قسيم المشترك بين القسمين. ولم يحتج إليه الرابع^(٣)، لإفصاحه بأنَّه قسيم المشترك بين الأقسام المتقدمة.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد ﴿قَدِيرٌ﴾ على تكوين ما يصلحهم.

قيل: نزلت في الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، حيث وهب لشعيب ولوط إناثاً، ولإبراهيم ذكوراً، ولمحمد ﷺ ذكوراً وإناثاً، وجعل يحيى وعيسى عقيمين.

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) القيامة: ٣٩.

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ باعتباره الجملة الرابعة في الآية الشريفة.

ثم ذكر ما كان أجلّ النعم المذكورة، وهي النبوة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: وما صحّ لأحدٍ من البشر ﴿أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ إلا أن يوحى إليه وحياً، أي: كلاً ما خفياً يدرك بسرعة. وهو عبارة عن الإلهام، أي: قذف المعنى وإلقاؤه في القلب يقظة أو نوماً، كما أوحى إلى أم موسى عليها السلام، وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده. وعن مجاهد: أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره.

﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: إلا أن يكلمه من ورائه، كما يكلم الملك بعض خواصه وهو من وراء الحجاب، فيسمع صوته ولا يرى شخصه. ومنه الأحاديث المعراجية. أو يسمع الكلام الذي يخلق في الأجسام الجمادية، كما اتفق لموسى عليه السلام في الطور.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: إلا أن يرسل ملكاً من الملائكة ﴿فَيُوحِي بِأُذُنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ فيوحي الملك إلى الأنبياء ما يشاء الله، أي: يبلغ وحيه على وفق ما أمره، كجبرئيل أرسل إلى محمد عليه السلام.

واعلم أن «وحيًا» وما عطف عليه منتصب بالمصدر، لأن «وحيًا» نوع من الكلام كما فسرنا به، و«من وراء حجاب» صفة كلام محذوف، والمعطوف والمعطوف عليه واقعان موقع الحال. والتقدير: وما صحّ أن يكلم أحداً إلا موحياً، أو مسمعاً من وراء الحجاب، أو مرسلًا. والإرسال أيضاً نوع من الكلام، كما تقول: لا أكلّمه إلا جهراً وإلا إخفاتاً، لأنّ الجهر والإخفات ضربان من الكلام. وقرأ نافع: أَوْ يُرْسِلُ برفع اللام.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ عن الإدراك بالابصار وسائر صفات المخلوقين ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته من التكلم بأحد الأنحاء الثلاثة.

وروي: أن اليهود قالت للنبي عليه السلام: ألا تكلم الله وتنتظر إليه إن كنت نبياً، كما كلمه موسى ونظر إليه، فإنّا لن نؤمن لك حتّى تفعل ذلك؟ فقال: «لم ينظر موسى

إلى الله» فنزلت.

وعن عائشة: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. ثم قالت: أولم تسمعوا ربكم يقول: فتلت هذه الآية.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ يعني: ما أوحى إليه. وسماه روحاً، لأن القلوب تحيا به كما يحيا الجسد بالروح. وقيل: جبرئيل. والمعنى: أرسلناه إليك بالوحي.

وعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالوا: «هو ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله ﷺ، ولم يصعد إلى السماء، وإنه لفينا».

﴿مَا كُنْتُ قَدْرِي﴾ قبل الوحي ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: الإيمان بما لا طريق إليه إلا السمع من فروع الاسلام، فإنه ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي، كالعلم بالصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها. لا الإيمان الذي منشأه العقل، كالعلم بالصانع وصفاته وغيره من الأحكام العقلية.

﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الروح، أو الكتاب، أو الإيمان ﴿نُوراً﴾ لأنه طريق النجاة ﴿نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالتوفيق واللفظ، فإن من لا لطف له - لفرط عناده والتوغل في مكابرتة - فلا هداية له ﴿وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو الاسلام.

﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ بدل من الأول ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً ﴿إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ بارتفاع الوسائط والتعلقات، فلا يملك ذلك غيره يوم القيامة. وفيه وعد ووعد للمطيعين والمجرمين.

سورة الزخرف

مَكِّيَّة. وهي تسع وثمانون آية.

أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾»^(١) ادخلوا الجنة بغير حساب».

وعن أبي بصير قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «من أدام قراءة حم الزخرف آمنه الله في قبره من هوائِ الأرض، ومن ضُمَّ القبر، حتَّى يقف بين يدي الله ﷻ، ثم جاءت حتَّى تكون هي التي تدخله الجنة بأمر الله سبحانه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنْصُرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾

ولمّا ختم الله تعالى سورة حمّ عسق بذكر القرآن والوحي، افتتح هذه السورة بذلك أيضاً، فقال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أقسم بالقرآن على أنّه جعله قرآناً عربياً. وهو من الأيمان الحسنة البديعة، لتناسب القسم والمقسم عليه، وكونهما من واحد. ونظيره قول أبي تمام: وثناياك إنّها إغريض^(١). وهو البرد.

ولعلّ إقسام الله بالقرآن من حيث إنّهُ معجز مبين لطرق الهدى وما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة. أو أنّه بين للعرب ما يدلّ على أنّه تعالى صيّره قرآناً عربياً. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه، لأنّه بلغتهم وأساليبهم. ويجوز أن يكون «جعلناه» بمعنى: خلقناه. وحينئذٍ «قرآنا عربياً» حال من الضمير. و«لعلّ» مستعار لمعنى الإرادة ليلاحظ معناها ومعنى الترجي. والمعنى: خلقناه عربياً غير عجمي إرادة أن تعقله العرب، ولئلا يقولوا: لولا فصلت آياته.

وفي هذه الآية دلالة على حدوث القرآن، لأنّ المجعول هو المحدث بعينه. ﴿وَإِنَّهُ﴾ عطف على «إِنَّا» ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ، فإنّه أصل الكتب السماوية، فإنّها كلّها تنسخ منه، وكتب فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. وقرأ حمزة والكسائي: أُمُّ الْكِتَابِ بالكسر. ﴿لَدَيْنَا﴾ محفوظاً عندنا عن التفسير ﴿لَعَلِّي﴾ رفيع الشأن في الكتب، لكونه معجزاً من بينها ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة. أو محكم لا ينسخه غيره.

واعلم أنّ «في أُمِّ الكتاب» متعلّق بـ«عليّ» واللام لا تمنعه. أو حال منه. و«لدينا» بدل منه، أو حال من «أُمِّ الكتاب».

(١) وعجزه: ولآل نُوّار أرض وميض.

والنُّوار: نور الشجر. والوميض: شديد البريق واللمعان.

﴿ أَفَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ ﴾ فنَحْيِهِ ونبَعْدَهُ عنكم. مجاز من قولهم: ضرب الغرائب - أي: الإبل الغريبة - عن الحوض. ومنه قول الحجاج: ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. والفاء للعطف على محذوف، تقديره: أنهملكم فضرب عنكم الذكر، أي: القرآن. و ﴿ صَفْحًا ﴾ مصدر من غير لفظه، فَإِنَّ تحية الذكر عنهم إعراض. أو مفعول له. أو حال بمعنى: صافحين. وأصله: أن تولي الشيء صفحة عنقك. وقيل: إنه بمعنى الجانب. فيكون ظرفاً، كما تقول: ضعه جانباً، وامش جانباً. والمراد إنكار أن يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزال الكتاب.

﴿ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ أي: لأن كنتم. وهو في الحقيقة علة مقتضية لترك الإعراض عنهم. وقرأ نافع وحزمة والكسائي: إن بالكسر، على أن الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك استجهاً لهم، وما قبلها دليل الجزاء. وذلك كما يقول الأجير: إن كنت عملت لك فوقني حقّي، وهو عالم بذلك، ولكنه يخيّل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق، فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوحه، استجهاً له.

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْإِنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾
لَتَسَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

ثم سلى نبيه ﷺ عن استهزاء قومه بقوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي
الْأَوَّلِينَ﴾ في الأمم الماضية ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ حكاية
حال ماضية مستمرة. يعني: من الأمم الخالية كفرت بالأنبياء وسخرت منهم، لفرط
جهلهم، واستهزأت بهم كما استهزأ قومك بك، أي: فلم تضرب عنهم صفحاً
لاستهزائهم برسلهم، بل كررنا الحجج وأعدنا الرسل.

﴿فَاهْلِكُنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي: من القوم المفسدين من قومك، لأنّه صرف
الخطاب عنهم إلى الرسول مخبراً عنهم ﴿بَطْشًا﴾ قوة ومنعة، فلا يغتر هؤلاء
المشركون بالقوة والنجدة ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ وسلف في القرآن قصتهم العجيبة
التي حقها أن تسير مسير المثل لغرابته. وفيه وعد للرسول، ووعيد لهم. يعني: لما
أهلكوا أولئك بتكذيبهم رسلهم وعملهم القبيح، فعاقبة هؤلاء أيضاً الإهلاك.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ سألت قومك ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ
الْعَزِيزُ﴾ القادر الذي لا يقهر ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالح العباد. لعل ذلك لازم مقولهم،
أو ما دلّ عليه إجمالاً، أقيم مقامه تقريراً لإلزام الحجة عليهم. فكأنهم قالوا: الله،
كما حكى عنهم في مواضع آخر. ومعناه: لينسب خلقها إلى الذي هذه أوصافه.
وهذا إخبار عن غاية جهلهم، إذ اعترفوا بأن الله خالق السماوات والأرض، ثم
عبدوا معه غيره، وأنكروا قدرته على البعث. ويجوز أن يكون هذا مقولهم، وما
بعده استئناف.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فستقرّون فيها. وقرأ الحرثيان وأبو عمرو وابن عامر: مهاداً. ﴿وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونها ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا إلى مقاصدكم، أو إلى حكمة الصانع بالنظر في ذلك.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ غيثاً ﴿يَبْقَدِرُ﴾ بمقدار ينفع ولا يضر، بأن يسلم معه البلاد والعباد ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ﴾ فأحيينا بذلك المطر ﴿بِلَدَّةٍ مِّنْهَا﴾ أرضاً جافة يابسة، بإخراج النبات والأشجار والزروع. وتذكير الميت لأنّ البلدة بمعنى البلد والمكان. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج والإنشار ﴿تُخْرَجُونَ﴾ تنشرون من قبوركم. وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي بفتح التاء وضّم الراء.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أصناف المخلوقات، فمن الحيوان الذكر والأنثى، ومن غيره ممّا هو كالمقابل، كالحلو والمرّ، والرطب واليابس، وغير ذلك ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ما تركبونه، على تغليب المتعدي بنفسه - وهو الركوب على الأنعام - على المتعدي بغيره، وهو الركوب على السفينة، إذ يقال: ركبت الدابة، وركبت في السفينة. أو المخلوق للركوب على المصنوع له. أو الغالب على النادر. ولذلك قال:

﴿يَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي: ظهور ما تركبون. وهو الفلك والأنعام. وجمعه للمعنى. ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ تذكروها بقلوبكم معترفين بها حامدين عليها ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مقاومين في القوة. من: أقرن الشيء إذا أطاقه. وأصله: وجده قرينته، إذ الصعب لا يكون قرينة الضعيف.

﴿وَأَنَّا إِنَّا رَبَّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي: راجعون. واتّصالة بذلك لأنّ الركوب للنقل، والنقلة العظمى هو الانقلاب إلى الله في مركب الجنابة. أو لأنّه مخطر نفسه، فكم

من راكب دابة عثرت به أو شمس^(١) أو تقهّمت، أو طاح من ظهرها فهلك. فكان من حقّ الراكب أن لا ينسى عند الركوب يوم هلاكه ومنقلبه إلى الله، حتّى يكون مستعدّاً للقاء الله بإصلاحه من نفسه، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه.

وعنه عليه السلام أنّه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: بسم الله. فإذا استوى على الدابة قال: الحمد لله على كلّ حال، سبحان الذي سخرّ لنا هذا إلى قوله: لمنقلبون، وكبر ثلاثاً، وهلل ثلاثاً. وإذا ركب في السفينة قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

وروى العياشي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ذكر النعمة أن تقول: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وعلمنا القرآن، ومنّ علينا بمحمد عليه السلام. وتقول بعده: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ الآية».

وعن الحسن بن علي عليه السلام: «أنّه رأى رجلاً ركب دابة فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾. فقال عليه السلام: أبهذا أمرتم؟ فقال: وبم أمرنا؟ قال: أن تذكروا نعمة ربكم». كان قد أغفل التحميد فنبّه عليه. وهذا من حسن مراعاتهم لآداب الله، ومحافظةهم على دقيقتها وجليلها. جعلنا الله من المقتدين بهم، والسائرين بسيرتهم. فما أحسن بالعاقل النظر في لطائف الصناعات، فكيف بالنظر في لطائف الديانات؟

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ آتَّخَذَ
مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ

(١) شَمَسَ الفرسُ: منع ظهره، وكان لا يمكن أحداً من ركوبه، ولا يكاد يستقرّ. وتقهّم الفرس براكبه: ألقاه على وجهه.

(٢) هود: ٤١.

لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ
وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ
إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَكَّابٌ شَهِادَتُهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ
الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ
أَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا
عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي
قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم
مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أُولُو جِبْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا
بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَاتَّقِنَا مِنْهُمْ فَاظْطُرُّ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

ثم عاد سبحانه إلى ذكر الكفار الذين تقدم ذكرهم، فقال: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾. هذا متصل بقوله: «ولئن سألتهم» أي: ولئن سألتهم عن خالق السماوات والأرض ليعترفن به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده ولداً، فقالوا: الملائكة بنات الله، فوصفوه بصفات المخلوقين، وسماه جزءاً كما سمي

بعضاً، لأنّه بضعة من الوالد. وفي هذه التسمية دلالة على استحالة الولد على الواحد الحق في ذاته. وقرأ أبوبكر جُزْءاً بضمّين.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الكفران. ومن ذلك نسبة الوالد إلى الله، لأنّها من فرط الجهل به والتحقير لشأنه، وهو أصل الكفران.

ثم أنكر سبحانه عليهم قولهم، فقال: ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمُ بِالْبَنِينَ﴾. معنى الهمزة في «أم» الإنكار والتعجب من شأنهم والتجهيل لهم، حيث لم يقتنعوا بأن جعلوا له جزءاً، حتّى جعلوا له من مخلوقاته أجزاءً أحسن ممّا اختير لهم وأبغض الأشياء إليهم، بحيث إذا بشر أحدهم بها اشتدّ غمّه به، كما قال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً وشبهاً، إذ الولد لابدّ وأن يماثل الوالد. والمعنى: أنّهم نسبوا إليه هذا الجنس، ومن حالهم أنّ أحدهم إذا قيل له: قد ولدت لك بنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ صار وجهه أسود في الغاية، لما يعتريه من الكآبة وفرط الغمّ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء قلبه من الكرب غيضاً وتأسفاً. وفي ذلك دلالات على فساد ما قالوه. وتنكير «بنات» وتعريف «البنين»، وتقديمهنّ في الذكر، لما مرّ في قوله: ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاقًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورُ﴾^(١).

ثم وبّخهم بما افتروه، فقال: ﴿أَوْ مَن يُنْشِئُوا فِي الْجَنَّةِ﴾ أي: أو جعلوا له، أو اتّخذ من يتربّى في الزينة والترفّه، يعني: البنات ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ في المخاصمة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: ليس عندهنّ بيان، ولا يأتين ببرهان يحججن به من يخاصمنه، لضعف عقولهنّ، ونقصانهنّ عن فطرة الرجال. وضعف رأيهنّ. فهذا مقرر لما يدّعيه من نقصان العقل وضعف الرأي.

ويجوز أن يكون «من» مبتدأ محذوف الخبر، أي: أو من هذا حالة ولده.

و«في الخصام» متعلق بـ«مبين». وإضافة «غير» إليه لا تمنعه، لما عرفت.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص: يَنْشَأُ، أي: يربى.

وعن قتادة: قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجبتها إلا تكلمت بالحجة

عليها.

وفيه أنه جعل النشء في الزينة والنعموة من المعاييب والمذام، وأنه من صفة

ريّات الرجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه.

ثم بين كفراً آخر تضمنه مقاتلهم الشنيعة، فقال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ

عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ أي: جعلوا أكمل العباد وأكرمهم على الله تعالى أنقصهم رأياً

وأخسهم صنفاً. فهم جمعوا في كفره ثلاث كفرات، وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد،

ونسبوا إليه أخس النوعين، وجعلوه من الملائكة الذين هم أكرم عباد الله على الله،

واستحققوهم واستخفوا بهم.

وقرأ الحجازيان وابن عامر ويعقوب: عند الرحمن، على تمثيل زلفاهم

واختصاصهم.

ثم رد ذلك عليهم بقوله: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقْنَا﴾ أحضروا خلق الله إياهم

فشاهدوهم إنثاءً، فإن ذلك مما لا يعلم إلا بالمشاهدة. وهو تجهيل وتهكم بهم.

يعني: أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم، فإن الله تعالى لم يضطرهم

إلى علم ذلك، ولا تطرقوا إليه باستدلال، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم، فلم

يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم، فيخبروا عن هذه المشاهدة. وهذا كقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا

الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾^(١).

وعن نافع: أشهدوا على أفعّلوا، بضم الهمة وسكون الشين، وقبلها همزة

الاستفهام مفتوحة، ثم تخفّف الثانية بين بين. وآشهدوا، بمدّة بينهما برواية قالون.

﴿سَتُحْتَبِ شَهَادَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ أي: عنها يوم القيامة. وهذا وعيد.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ أَيُّ: لو شاء عدم عبادة الملائكة ﴿مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ وذلك لزعمهم الباطل أن عبادتهم بمشيئة الله ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: لا يعلمون صحة ما يقولون، فقولهم باطل، لأنه لم يصدر عن علم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ كاذبون، كما يقول إخوانهم المجبرة. ولا دليل على أنهم قالوه مستهزئين لا جادين، ليكونوا عند المجبرة مؤمنين، وادعاء ما لا دليل عليه باطل. على أن الله قد حكى عنهم على سبيل الذم والشهادة بالكفر: أنهم جعلوا له من عباده جزءاً، وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين، وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثاً، وأنهم عبدوهم. وأيضاً لو كانت هذه الكلمة التي نطقوا بها هزءاً، لم يكن لقوله تعالى: «ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون» معنى.

ولما بين أقوالهم الزائغة، ونفى أن يكون لهم بذلك علم من طريق العقل، أضرب عنه إلى إنكار أن يكون لهم سند من جهة النقل، فقال:

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَفْسِحُونَ﴾ بذلك الكتاب متمسكون. ومعلوم أنهم لم يمكنهم ادعاء أن الله تعالى أنزل بذلك كتاباً، فعلم أن ذلك من تخرصهم.

ولما لم يكن لهم على ذلك حجة عقلية ولا نقلية، جنحوا إلى تقليد آبائهم الجهلة، كما حكى الله سبحانه عنهم بقوله: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: ملّة وطريقة تؤمّ، أي: تقصد، كالرحلة للمرحول إليه ﴿وَنَا عَلَىٰ آفَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾. ثم سلى سبحانه رسوله ﷺ على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم، وأن مقدّمهم أيضاً لم يكن لهم سند منظور إليه، فقال:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ﴾ في مجمع من الناس ﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾ أي:

نذيراً، لأنَّ «من» زائدة ﴿إِلَّا قَالُ مُتَرَفُّوهُا﴾ متنعّموها الَّذِينَ أَسْرَفْتَهُم النعمة، أي: أبطرتهم، فلا يحبّون إلّا الشهوات والملاهي ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ تخصيص المترفين إشعار بأنّ التّنعّم وحبّ البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد. وقوله: «على آثارهم مقتدون» خبر لـ«إن»، أو الظرف صلة لـ«مقتدون».

ثم قال للنذير: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَوَلَوْ جِئْتَكُمْ﴾ أي: أتبعون آباءكم ولو جئتمكم ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ بدين أهدى ﴿مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ من دين آبائكم. وهو حكاية أمر ماضٍ أوحى إلى النذير. وفيه حسن التلطّف في الاستدعاء إلى الحقّ، وهو أنّه لو كان ما يدّعونه حقّاً وهدى، وكان ما جئتمكم به من الحقّ أهدى منه، كان أوجب أن يتّبع ويرجع إليه. ويجوز أن يكون ذلك خطاباً لرسول الله ﷺ. ويؤيد الأوّل أنّه قرأ ابن عامر وحفص: قال.

وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أيها المرسلون ﴿كَافِرُونَ﴾ أي: إنّنا ثابتون على دين آبائنا، لا تنفكّ عنه وإن جئتنا بما هو أهدى. وهذا إقناط للنذير من أن ينظروا أو يتفكّروا فيه.

ثم ذكر سبحانه ما فعل بهم، فقال: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالاستئصال ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ لأنبياء الله والجاحدين لهم، فلا تبال بتكذيبهم. وفي هذا إشارة إلى أنّ العاقبة المحمودّة تكون لأهل الحقّ والمصدّقين لرسول الله.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾
وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ
هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ
نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ
﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوبِتَهُمْ
سُفْهًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِيُوبِتَهُمْ أُولَآئِكَ سِرًّا
وَعَلَيْهَا يُكُونُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَاكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ
رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

ثم دلّ على بطلان التقليد بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾. واذكر وقت قوله هذا
ليروا كيف تبرأ آبائهم عن التقليد وتمسك بالدليل، حيث قال ﴿لِأَبِيهِ﴾ أي:
لعنه الذي هو بمنزلة أبيه في تربيته ﴿وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ بريء من
عبادتكم أو معبودكم من الأصنام والكواكب. مصدر نعت به، ولذلك استوى فيه
الواحد والمتعدد، والمذكر والمؤنث.

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ منصوب على أنّه استثناء منقطع، كأنه قال: لكن أعبد

الَّذِي فَطَرَنِي ﴿فَأَنَّهُ سَيُهَيِّدُنِي﴾ أي: سيثبتني على الهداية على الاستقبال، كما هداني في الماضي والحال. أو سيهديني إلى ما وراء ما هداني إليه. ويحتمل أن يكون مجروراً بدلاً من المجرور بـ«من»، على أنه استثناء متصل. وذلك لأنهم - كما قيل - كانوا يعبدون الله مع أوثانهم. وأن تكون «إلا» صفة بمعنى غير، على أن «ما» في «ما تعبدون» موصوفة، تقديره: إئتني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني. فهو نظير قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١).

﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيم أو الله كلمة التوحيد ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ في ذرئته، فيكون فيهم أبداً من يوحد الله ويدعو إلى توحيدهِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحده وتاب عما هو عليه.

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «الكلمة هي الامامة إلى يوم القيامة».

وعن السدي: أن المراد بالذرية هم آل محمد ﷺ.

ثم ذكر سبحانه نعمه على قريش، وهم من أعقاب إبراهيم، فقال:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ﴾ أي: هؤلاء المعاصرين من قريش ﴿وَأَبَاءَهُمْ﴾ بالمد في

العمر والنعمة، ولم أعجلهم بالعقوبة لكفرهم، فاغترّوا بذلك، وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ دعوة التوحيد أو القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الرسالة بما له من المعجزات البينة. أو مبين للتوحيد بالحجج والآيات.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ لينبهم عن غفلتهم ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾

أي: زادوا شرارة، فضمّوا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به، فسمّوا القرآن سحراً وكفروا به، واستحققوا الرسول.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ﴾ من إحدى القريتين:

مكة والطائف ﴿عَظِيمٌ﴾ بالجاه والمال، كالوليد بن المغيرة المخزومي من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وعتبة بن أبي ربيعة من مكة، وكنانة بن عبد ياليل من الطائف. وكان الوليد يقول: لو كان حقاً ما يقول محمد لنزل هذا القرآن عليّ أو على أبي مسعود الثقفي، فإنّ الرسالة منصب عظيم لا يليق إلاّ بعظيم. ولم يعلموا أنّها رتبة روحانيّة تستدعي عظم النفس بالتحلي بالفضائل والكمالات القدسيّة، لا التزخرف بالزخارف الدنيويّة.

فردّ الله سبحانه ذلك عليهم، فقال إنكاراً وتجهيلاً وتعجبياً من تحكّمهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ﴾ أي: النبوة ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهم عاجزون عن تدبيرها، وهي خُوصَصَةٌ^(١) أمرهم وما يصلحهم في دنياهم، ولو وكلهم إلى أنفسهم ولولاهم تدبير أمرهم لضاعوا وهلكوا. فإذا كانوا في تدبير أمر المعيشة الدنيّة في الحياة الدنيا على هذه الصفة، فما ظنك بهم في أن يدبّروا أمر النبوة الّتي هي أعلى المراتب الإنسيّة، ورحمة الله الكبرى، ورأفته العظمى، وما يتبعها من الفوز والفلاح في دار السلام.

إن قيل: المراد بالمعيشة ما يعيشون به من المنافع، فمنهم من يعيش بالحلال، ومنهم من يعيش بالحرام، فإذا قد قَسَمَ الله الحرام كما قَسَمَ الحلال.

فأجيب بأن الله قَسَمَ لكلّ عبد معيشته، وهي مطاعمه ومشاربه وما يصلحه من المنافع، وأذن له في تناولها، ولكن كلّفه أن يسلك في تناولها الطريق الّتي شرعها، فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالاً، وسماها رزق الله، وإذا لم يسلكها تناولها حراماً، وليس له أن يسمّيها رزق الله. فالله تعالى قاسم المعاش والمنافع، ولكنّ العباد يكسبونها صفة الحرام بسوء تناولهم، وهو عدولهم عمّا شرعه الله إلى ما لم يشرعه.

(١) أي: الذين يختصّ بهم. وهي تصغير خاصّة.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ بَأَن أَوْعَيْنَا بَيْنَهُم التَّفَاوُتَ فِي الرِّزْقِ وَغَيْرِهِ، فَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَقْوِيَاءَ وَضَعَفَاءَ، وَأَغْنِيَاءَ وَمَحَاطِيجَ، وَمَوَالِي وَخُدَمَاءَ ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ لِيَتَسَخَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي أَشْغَالِهِمْ وَحَوَائِجِهِمْ، فَيَحْصِلَ بَيْنَهُمْ تَأَلَّفٌ وَتَضَامٌ يَنْتَظِمُ بِذَلِكَ نِظَامُ الْعَالَمِ، لَا لِكَمَالٍ فِي الْمَوْسِعِ، وَلَا لِنَقْصٍ فِي الْمَقْتَرِ ﴿وَرَحْمَةً رَبِّكَ﴾ يَعْنِي: النُّبُوَّةَ وَمَا يَتَّبِعُهَا ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مَنْ حَطَامِ الدُّنْيَا.

ثم أخبر سبحانه عن هوان الدنيا عليه، وقلة مقدارها عنده، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ لَوْلَا كَرَاهَةُ أَنْ يَرِغْبُوا فِي الْكُفْرِ إِذَا رَأَوْا الْكُفَّارَ فِي سَعَةٍ وَتَنَمَّ لِحَبِّهِمُ الدُّنْيَا، فَيَجْتَمِعُوا عَلَيْهِ ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرْ بِالرِّحْقَانِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ بَدَلَ مِنْ «لَمَنْ» بَدَلَ الْاِشْتِمَالِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَّةً، مِثْلُ اللَّامِينَ فِي قَوْلِكَ: وَهَبْتُ لَهُ ثَوْبًا لَقَمِيصِهِ، أَيْ: لِأَجْلِ قَمِيصِهِ. ﴿سَقْفًا﴾ جَمْعُ سَقْفٍ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو: سَقْفًا، اِكْتِفَاءً بِجَمْعِ الْبُيُوتِ، ﴿مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ وَمَصَاعِدَ. جَمْعُ مَعْرَجٍ. ﴿عَلَيْهَا يَفْطَرُونَ﴾ يَحْلُكُونَ السُّطُوحَ، لِحِقَارَةِ الدُّنْيَا ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ﴾ أَيْ: مِنْ فِضَّةٍ. حَذَفْتَ اِكْتِفَاءً بِذِكْرِهَا أَوَّلًا. ﴿عَلَيْهَا يَتَّكُونَ﴾.

﴿وَزُخْرُفًا﴾ وَزِينَةً، عَطَفَ عَلَى «سَقْفًا». أَوْ ذَهَبًا، عَطَفَ عَلَى مُحَلٍّ «مِنْ» فِضَّةٍ. وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ وَزَنْتُ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى الْكَافِرَ مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ». وَإِنَّمَا لَمْ يُوسَّعِ الدُّنْيَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ لِإِرْغَابِ الْكُفَّارِ فِي الْإِسْلَامِ، لِأَنَّ التَّوَسُّعَ عَلَيْهِمْ مُفْسِدَةٌ أَيْضًا، لَمَّا تَوَدَّى إِلَيْهِ مِنَ الدَّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا لَا مُحِضَ الْقَرَبَةِ، فَكَانَتِ الْحِكْمَةُ فِيمَا دَبَّرَ، حَيْثُ جَعَلَ فِي الْفَرِيقَيْنِ أَغْنِيَاءَ وَفُقَرَاءَ، وَغَلَبَ الْفَقْرَ عَلَى الْغِنَى.

﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ «إِنَّ» هِيَ الْمَخْفَقَةُ، وَاللَّامُ هِيَ الْفَارَقَةُ. وَقَرَأَ عَاصِمٌ وَحُمَزَةٌ وَهَشَامٌ بِخِلَافِ عَنْهُ: لَمَّا بِالتَّشْدِيدِ، بِمَعْنَى «إِلَّا»، وَ«إِنْ» نَافِيَةٌ.

﴿وَالْآخِرَةُ﴾ والجنة الباقية ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ خاصة لهم. وفي الآية دلالة على اللطف، وأنه تعالى لا يفعل المفسدة وما يدعو إلى الكفر، وإذا لم يفعل ما يؤدي إلى الكفر فلأن لا يفعل الكفر ولا يريده أولى.

وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾
وَأَنَّهُمْ لَيَصْدُوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا
قَالَ يَا لَيْتَ بَنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ
الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْرَكُونَ ﴿٣٩﴾

ولما تقدم ذكر الوعد للمتقين، عقبه بذكر الوعيد لمن هو على ضد صفتهم، فقال:

﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾ يتعام ويعرض ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: يعرف أنه الحق ثم يتجاهل ويتغابي^(١)، كقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾^(٢). وذلك لفرط اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات. ﴿تَقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا﴾ نقدر له، بمعنى: نخذه ونخل بينه وبين الشيطان، كقوله: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرُونًا﴾^(٣) ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ يوسوسه ويفويه دائماً. وقرأ يعقوب بالياء، على إسناده إلى ضمير الرحمان.

﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصْدُوهُمْ﴾ جمع الضمير للمعنى، إذ المراد جنس العاشي

(١) أي: يتغافل.

(٢) النمل: ١٤.

(٣) فصلت: ٢٥.

والشيطان المقيض له. والمعنى: أَنَّ الشياطين المقيضين ليصدّون العاشين ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن الطريق الَّذي من حقّه أن يسبل ﴿وَيَخْسِبُونَ﴾ ويحسب العاشون ﴿أَنْتُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أَنَّهُمْ على الهدى فيتبعونهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي: العاشي. وقرأ الحجازيان وابن عامر وأبو بكر: جاءنا، أي: العاشي والشيطان ﴿قَالَ﴾ أي: العاشي للشيطان ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ بعد المشرق من المغرب، والمغرب من المشرق. فلما غلب المشرق، وجمع المفرقين بالثنية، أضاف البعد إليهما. ﴿فَبَشِّرْ الْقَرِينُ﴾ أنت.

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: ما أنتم عليه من معني مباحدة القرين ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ إذ صَحَّ أَتَكُمْ ظَلَمْتُمْ أنفسكم في الدنيا. بدل من اليوم. ﴿أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ لأنَّ حَقَّكُمْ أن تشاركوا أنتم وشياطينكم في العذاب، كما كنتم مشتركين في سببه، وهو الكفر. ويجوز أن يسند الفعل إليه، بمعنى: ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب، كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه، لتعاونهم في تحمّل أعبائه، وتقسّمهم لشدّته وعنائه، وذلك أَنَّ كُلَّ واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته.

أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾
فَإِنَّمَا نَذْهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ زُرْتِكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقَدِّرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

روي: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ وَيَكْدُّ رُوحَهُ فِي دَعَاءِ قَوْمِهِ، وَهُمْ لَا يَزِيدُونَ عَلَى دَعَائِهِ إِلَّا تَصَمِيمًا عَلَى الْكُفْرِ وَتَمَادِيًا فِي الْغَيِّ، فَأَنْكَرَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْغَمْصِيَّ﴾ إنكاراً وتجبباً من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم، بعد تمرّنهم على الكفر واستغراقهم في الضلال، بحيث صار عشاهاً^(١) عمىً مقروناً بالصمم ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين.

وفيه إشعار بأن الموجب لذلك تمكّنهم في ضلال لا يخفى، فلا يضيقن صدرك تصميمهم على الكفر، فإنه لا يقدر على هدايتهم إلا الله وحده على سبيل الإلجاء والقسر، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾^(٢). ولما وصفهم بشدة الشكيمة بالكفر والضلال، أتبعه شدة الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة، فقال:

﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبُ بِكَ﴾ «ما» مزيدة بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكدة. والمعنى: فإن قبضناك قبل أن ننصرك عليهم، ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْتَقِمُونَ﴾ بأشدّ الانتقام في الآخرة. كقوله: ﴿أَوْ نَقُوفِيكَ فَلَئِنَّمَا يُجِجُونَ﴾^(٣).

﴿أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ أو إن أردنا أن نريك ما وعدناهم من العذاب. وقرأ يعقوب برواية رويس: أَوْ نُرِيكَ، بإسكان النون. وكذا: نَذْهَبُ. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْنِهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ لا يفوتونا.

قال الحسن وقتادة: إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَ نَبِيَّهِ بِأَنْ لَمْ يَرَهُ تِلْكَ النِّقْمَةَ، وَلَمْ يَرِ فِي أُمَّتِهِ

(١) عَشِيَّ يَعْشَى عَشَاءً: ساء بصره بالليل والنهار.

(٢) فاطر: ٢٢.

(٣) غافر: ٧٧.

إِلَّا مَا قَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ. وَقَدْ كَانَ بَعْدَهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ السَّلَامُ نَقْمَةً شَدِيدَةً. وَقَدْ رَوَى أَنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَرَى مَا تَلْقَى أُمَّتُهُ بَعْدَهُ، فَمَا زَالَ مُنْقَبِضًا، وَلَمْ يَنْبَسِطْ ضَاحِكًا حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى.

وَرَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ قَالَ: «إِنِّي لَأَدْنَاهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَبَّةِ الْوَدَاعِ بِمَنَى، حَتَّى قَالَ: لَأَلْفِيَنَّكُمْ تَرْجِعُونَ بَعْدِي كَقَارَأَ يُضْرَبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ. وَأَيُّمَ اللَّهِ لَتُنَّ فَعَلْتُمُوهَا لَتَعْرِفْنِي فِي الْكُتَيْبَةِ الَّتِي تَضَارِبُكُمْ. ثُمَّ التَفْتُ إِلَى خَلْفِهِ فَقَالَ: أَوْ عَلِيٍّ أَوْ عَلِيٍّ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَرَأَيْنَا أَنَّ جَبْرَائِيلَ غَمَزَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ: «فَإِمَّا نَذْهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ» بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَقِيلَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَى الْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ، وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ نَقْمَةِ اللَّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ بَعْدَ أَنْ أَخْرَجُوهُ مِنْ مَكَّةَ، فَقَدْ أَسْرَ مِنْهُمْ وَقَتْلَ مَعَ قَلَّةٍ أَصْحَابِهِ وَضَعَفَ مِنْهُمْ^(١)، وَكَثُرَ الْكُفَّارُ وَشَدَّةَ شَوْكَتُهُمْ.

ثُمَّ أَمَرَهُ سَبْحَانَهُ بِالتَّمَسُّكِ بِالْقُرْآنِ، فَقَالَ: ﴿فَاسْتَعِذْ بِالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ﴾ فَكَانَ مُتَمَسِّكًا بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالشَّرَائِعِ وَبِالْعَمَلِ بِهِ ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لَا عِوَجَ لَهُ، وَلَا يَحِيدُ عَنْهُ إِلَّا ضَالٌّ شَقِيٌّ. فَزِدْ كُلَّ يَوْمٍ صَلَابَةً فِي الْمَحَامَاةِ عَلَى دِينِ اللَّهِ، وَلَا يَخْرُجْكَ الضَّجَرُ بِأَمْرِهِمْ إِلَى شَيْءٍ مِنَ اللَّيْلِ وَالرَّخَاوَةِ فِي أَمْرِكَ. ﴿وَإِنَّهُ﴾ وَإِنَّ الَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ ﴿لَذِكْرٌ﴾ لِشَرَفٍ ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أَيُّ: عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَنْ قِيَامِكُمْ بِحَقِّهِ، وَعَنْ تَعْظِيمِكُمْ لَهُ، وَشُكْرِكُمْ عَلَى أَنْ رَزَقْتُمُوهُ وَخَصَصْتُمْ بِهِ مِنْ بَيْنِ الْعَالَمِينَ.

﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ لَيْسَ الْمُرَادُ بِسُؤَالِ الرُّسُلِ حَقِيقَةَ السُّؤَالِ، لِإِحَالَتِهِ، بَلْ فِي الْكَلَامِ مُضَافٌ مُقَدَّرٌ، تَقْدِيرُهُ: وَأَسْأَلُ أَمَمَهُمْ وَعُلَمَاءَ دِينِهِمْ. فَإِذَا سَأَلَهُمْ فَكَأَنَّهُ سَأَلَ الْأَنْبِيَاءَ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَالْكَسَائِيُّ بِتَخْفِيفِ الْهَمْزَةِ. ﴿أَجْعَلْنَا

مِنْ دُونِ الرُّخَصِ إِلَهَ يُعْبُدُونَ ﴿ هل حكمنا بعبادة الأوثان ؟ وهل جاءت في ملّة من مللهم ؟

وقيل : إنّ النبي ﷺ جمع له تسعون نبياً - منهم موسى وعيسى - ليلة الإسراء في بيت المقدس فأّمهم ، وقيل له : سلهم ، فلم يشكّ ولم يسأل .
وقيل : السؤال مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قطّ في ملّة من ملل الأنبياء ؟ وكفاه نظراً وفحصاً نظره في كتاب الله المعجز المصدّق لما بين يديه ، وإخبار الله فيه بأنهم لا يعبدون إلا الله . وهذه الآية كافية في نفسها ، لا حاجة إلى غيرها . والسؤال الواقع مجازاً عن النظر ، حيث لا يصحّ السؤال على الحقيقة ، كثير منه مسالة الشعراء الديار والرسوم والأطلال . ومنه قول من قال : سل الأرض من شقّ أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فإنّها إن لم تجبك حواراً^(١) أجابتك اعتباراً . والقول الأوّل قول أكثر المفسرين .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾
وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عِهدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْذُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا

قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾
 أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقِي عَلَيْهِ
 أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ
 فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا آتَقَمْنَا مِنْهُمُ فَاغْرَقْنَاهُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

ولمّا تقدّم سؤال الرسول عن أحوال الرسل وما جاؤا به، اتصل به - استشهاده -
 بصحّة دعوته إلى التوحيد - حديث موسى وعيسى، لأنّ أهل الكتابين إليهما
 ينتسبون، فذكر قصتهما مع أمّتهما تصديقاً لنبيّه في دعواه. فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: أشرف قومه. وخصّهم
 بالذكر وإن كان مرسلأً أيضاً إلى غيرهم، لأنّ من عداهم تبع لهم. ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلني إليكم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ وأظهرها عليهم ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي: فاجؤا
 وقت ضحكهم استهزاءً بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها.

﴿وَمَا نُذِيبُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِمَّا يِقَاسُ إِلَيْهَا﴾ إلّا وهي بالغة أقصى درجات
 الإعجاز، بحيث يحسب الناظر فيها أنّها أكبر ممّا يقاس إليها من الآيات. والمراد
 وصف الكلّ بالكبر. يعني: أنّ الآيات موصوفات بفرط الكبر، لا يكدن يتفاوتن
 فيه. وكذلك الأشياء التي تتلاقى في الفضل، كقولك: رأيت رجلاً أفضل من
 بعض. أو إلّا وهي مختصة بنوع من الإعجاز مفضّلة على غيرها بذلك الاعتبار. فلا

يقال: إن هذا الكلام متناقض. لأن معناه: ما من آية من التسع إلا وهي أكبر من كل واحدة منها، فتكون واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة.

﴿وَآخِذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ كالسنين والطوفان والجراد ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي:

على وجه يرجي رجوعهم.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ نادوه بذلك في تلك الحال لشدة شكيتهم وفرط

حماقتهم. أو لأنهم كانوا يسمّون العالم الماهر ساحراً، لاستعظامهم السحر، فلم يكن صفة ذمّ. ﴿اذْعُ لَنَا رَبِّكَ﴾ فيكشف عنا العذاب ﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ بعهد عندك من النبوة كما زعمت. أو من أن يستجيب دعوتك. أو أن يكشف العذاب عن اهتدى. أو بما عهد عندك فوفيت به، وهو الإيمان والطاعة. ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾.

وقال بعضهم^(١) في تطبيق تسميتهم موسى بالساحر مع قولهم: «إِنَّا لمهتدون»: إن قولهم هذا وعد منويّ إخلافه، وعهد معزوم على نكته، كما دلّ عليه قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ بدعاء موسى ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ فاجؤا نكت عهدهم بالاهتداء. فما كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم: «إِنَّا لمهتدون». وفي هذا تسليّة للنبي ﷺ، فإنّ المعنى: اصبر يا محمد على أذى قومك، فإنّ حالك معهم كحال موسى مع قومه، فيؤول أمرك إلى الاستعلاء على قومك كما آل أمره إلى ذلك.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ جعلهم محلاً لندائه وموقعاً له. والمعنى: نادى

فرعون بنفسه في مجامع قومه عند عظماء القبط، فيرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم ينشر عنه في جموع القبط، فكأنّه نودي به بينهم. أو أمر بالنداء في مجامعهم من نادى بذلك، فأسند النداء إليه، كقولك: قطع الأمير اللصّ. إذا أمر بقطعه.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أنهار النيل. ومعظمها أربعة

أنهر: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تَنيس. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ تحت قصرى، أو سريري، أو أمري، أو بين يديّ في جناني. والواو إمّا عاطفة لـ«هذه الأنهار» على «ملك مصر» و«تجري» حال منها. أو «هذه» مبتدأ، و«الأنهار» صفتها، و«تجري» خبرها. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا الملك العظيم، وشدة قوّتي وتسلّطي، وضعف موسى.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة والبسطة ﴿مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف حقير لا يستعدّ للرئاسة. من المهانة، وهي: القلّة. وقيل: المهين الفقير الذي يمتنن نفسه في جميع ما يحتاج إليه، ليس له من يكفيه أمره. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلام، لما به من العقدة التي في لسانه، فكيف يصلح للرسالة؟ يريد: أنّه ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به. وهو في نفسه مخلّ بما ينعت به الرجال من الفصاحة. وكانت الأنبياء أبناء^(١) بلقاء.

وعن الحسن: كانت العقدة زالت عن لسانه حين أرسله الله. كما قال مخبراً عن نفسه: ﴿وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾^(٢)، ثم قال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾^(٣). ولكن لم يعلم قومه بذلك، فعيره بما كان في لسانه قبل.

وقيل: كان في لسانه لثغة^(٤)، فرفعها الله تعالى وبقي فيه ثقل ما.

و«أم» منقطعة، والهمزة للتقرير، إذ قدّم أسباب فضله. من ملك مصر وجري الأنهار تحته، ونادى بذلك في مجامعهم وقال: أنا خير. كأنّه يقول: أثبت عندكم واستقرّ أنّي أنا خير؟ أو متّصلة، على إقامة المسبّب مقام السبب. والمعنى: أفلا تبصرون، أم تبصرون فتعلمون أنّي خير منه؟ فوضع موضع: تبصرون، قوله: «أنا

(١) أبناء جمع بَن، من: بان الشيء: اتضح، مثل: هَيّن وأهيناء.

(٢) و (٣) طه: ٢٧ و ٣٦.

(٤) اللثغة: النطق بالسين كالتاء، أو بالراء كالغين، إلى غير ذلك. أو ثقل اللسان بالكلام.

خير».

ولمّا وصف نفسه بالملك والعزّة، ووازن بينه وبين موسى ﷺ، ووصفه بالضعف وقلة الأعضاء، اعترض فقال:

﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَنِيسَةُ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي: فهلا إن كان صادقاً ألقى الله عليه مقاليد الملك وسوّدته وسوره، إذ كانوا إذا سوّدوا رجلاً سوّروه وطوّقوه بطوق من ذهب. وأساور^(١) جمع أسورة، جمع سوار. وقرأ يعقوب وحفص: أسورة. ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ مقرونين يعينونه، أو يصدّقونه. من: قرنته به فاقترن. أو متقارنين، من: اقترن بمعنى: تقارن.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ فطلب منهم الخفّة، وحملهم على أن يخفّوا له في مطاوعته. أو فاستخفّ أحلامهم. ﴿فَاطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَاسِقِينَ﴾ فلذلك أطاعوا ذلك الفاسق.

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا بالإفراط في العناد والعصيان. منقول من: أسف إذا اشتد غضبه. ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: لمّا أفرطوا في المعاصي والعدوان، فاستوجبوا أن لا نحلم عنهم، فنعجل لهم عذابنا وانتقامنا. ومعنى غضبه على العصاة إرادة عقابهم، كما أن رضاه عن المطيعين إرادة ثوابهم الذي يستحقّونه على طاعاتهم. وقيل: معناه آسفوا رسلنا، لأنّ الأسف بمعنى الحزن لا يجوز على الله تعالى. ﴿فَآغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في اليمّ، ما نجا منهم أحد.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَافًا﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفّار يقتدون بهم في استحقاق مثل عذابهم. مصدر نعت به. أو جمع سالف، كخدم وخادم. وقرأ حمزة والكسائي بضمّ السين واللام جمع سليف، كرجيف ورُعُف، أو سالف كصابر وصَبُر، أو سلف كخُشْب وخشب. والمعنى: وجعلناهم متقدّمين إلى النار. ﴿وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ عبرة

(١) أي: في قراءة: أساور.

لهم. أو حديثاً عجيب الشأن سائراً مسيراً المثل يحدثون به.

وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُون ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمُرَّنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾

روي: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَرَأَ عَلَى قَرِيشٍ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ^(١) اِمْتَعُضُوا ^(٢) مِنْ ذَلِكَ اِمْتِعَاضاً شَدِيداً.

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: يَا مُحَمَّدُ أَخَاصَّةٌ لَنَا وَلِآلِهَتِنَا، أَمْ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ؟
فَقَالَ ﷺ: هُوَ لَكُمْ وَلِآلِهَتِكُمْ وَلِجَمِيعِ الْأُمَمِ.

فَقَالَ: خَصَمْتُكَ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ نَبِيٌّ وَتُسَنِّي عَلَيْهِ خَيْراً وَعَلَى أُمِّهِ؟ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ النَّصَارَى يَعْبُدُونَهَا، وَعَزِيرِ يَعْبُدُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَعْبُدُونَ، فَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ فَقَدْ رَضِينَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ وَآلِهَتُنَا مَعَهُمْ.

(١) الْأَنْبِيَاءُ: ٩٨.

(٢) اِمْتَعُضْ مِنَ الْأَمْرِ: غَضِبَ مِنْهُ وَشَقَّ عَلَيْهِ.

ففرحوا وضحكوا، وسكت النبي ﷺ. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾^(١). ثم نزلت:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي: مثلاً ضربه ابن الزبيري ﴿إِذَا قَوْمُكَ قَرِيشَ مِنْهُ﴾ من هذا المثل ﴿يَصِيدُونَ﴾ يضجون فرحاً وضحكاً، لظنهم أنَّ الرسول صار ملزماً به.

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بالضم من الصدود، أي: يصدون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل: هما لفتان، نحو يعكف ويعكف.

﴿وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي: آلهتنا خير عندك أم عيسى، فإن كان عيسى في النار فلتكن آلهتنا معه ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ ما ضربوا هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة، لا لتمييز الحق من الباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيمُونَ﴾ شدة الخصومة، حراس على اللجاج، كقوله تعالى: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾^(٢).

ولا شبهة أنَّ قوله: ﴿إِنَّمَا وَمَا تَعْبُدُونَ﴾^(٣) ما أريد به إلا الأصنام. وكذلك قوله ﷺ: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» إنما قصد به الأصنام، ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة. إلا أنَّ ابن الزبيري لخداعه وخبت دخلته^(٤)، لمَّا رأى كلام الله ورسوله محتملاً لفظه وجه العموم، مع علمه بأنَّ المراد به أصنامهم لا غير، وجد للحيلة مساعاً، فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكلِّ معبود غير الله، على طريق فرط الجدل وحُبِّ المكابرة والمغالبة، وتوقع^(٥) في ذلك، فتوقَّر رسول

(١) الأنبياء: ١٠١.

(٢) مريم: ٩٧.

(٣) الأنبياء: ٩٨.

(٤) الدخلة: باطن الأمر.

(٥) أي: قلَّ حياؤه وأظهر الوقاحة.

الله ﷻ حَتَّى أَجَابَ عَنْهُ رَبُّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾^(١). فدلَّ به على أَنَّ الآيةَ خاصَّةٌ في الأصنام. على أَنَّ ظاهر قوله: «وما تعبدون» لغير العقلاء.

وقيل: لَمَّا سمعوا قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾^(٢) قالوا: نحن أهدى من النصارى، لأنَّهم عبدوا آدميًّا ونحن نعبد الملائكة، فنزلت. وقوله: «آلهتنا خير أم هو» على هذا القول تفضيل لآلهتهم على عيسى، لأنَّ المراد بهم الملائكة.

وقيل: لَمَّا نزلت: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قالوا: ما يريد محمَّد بهذا إلَّا أن نعبد، وأنَّه يستأهل أن يعبد وإن كان بشراً، كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر. فالضمير في «أم هو» لمحمد ﷺ. وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم السخريَّة به والاستهزاء.

وروى سادة أهل البيت عليه السلام عن علي عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «جئت إلى النبي ﷺ يوماً فوجدته في ملأ من قریش، فنظر إليَّ ثمَّ قال: يا عليّ مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى بن مريم، أحبَّه قوم فأفرطوا في حبِّه فهلكوا، وأبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا. فعظم ذلك عليهم وضحكوا وقالوا: يشبَّهه بالأنبياء والرسل. فنزلت الآية.

﴿إِنْ هُوَ﴾ وما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ كسائر العبيد ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة وخلقه من غير أب ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ أمراً عجيباً لهم، بأن خلقناه من غير سبب كما خلقنا آدم، وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر. وهو كالجواب المزيج لتلك الشبهة.

ثمَّ قال سبحانه دالًّا على كمال قدرته، وعلى أَنَّهُ لا يفعل إلَّا الأصلاح: ﴿وَلَوْ

(١) الأنبياء: ١٠١.

(٢) آل عمران: ٥٩.

نَشَاءَ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ ﴿١﴾ لولدنا منكم يا رجال ﴿مَلَائِكَةٌ﴾ كما ولدنا عيسى من غير أب، لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر. أو لجعلنا بدلاً منكم ملائكة ﴿فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ يخلقونكم في الأرض، بأن أهلكناكم وجعلنا الملائكة بدلکم سَكَّانَ الأرض يعمرونها ويعبدون الله.

والمعنى: أَنَّ حال عيسى وإن كانت عجيبة، فالله تعالى قادر على ما هو أعجب من ذلك. وَأَنَّ الملائكة مثلکم، من حيث إنها ذوات ممكنة وأجسام حادثة يحتمل خلقها توليداً كما جاز خلقها إبداعاً، وذات القديم متعالية عن الحدوث والإمكان، فمن أين لهم استحقاق الألوهية والانتساب إلى الله سبحانه؟

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ وَإِنَّ عيسى، أي: نزوله من السماء شرط من أشراطها، يعلم منه دنوُّها. فسَمَّى الشرط علماً لحصول العلم به. أو إحياءه الموتى يدلُّ على قدرة الله على النشر الَّذِي هو أَوَّل ساعات القيامة. والأوَّل أكثر وأشهر.

وأورد مسلم في الصحيح قال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم: تعال صلِّ بنا. فيقول: لا إِنَّ بعضكم على بعض أمراء، تكرمة من الله لهذه الأمة»^(١). وفي الحديث أيضاً: «ينزل عيسى على ثنية بالأرض المقدسة يقال لها: أفيق، وعليه مصرتان، أي: حلتان، وشعر رأسه دهن، ويده حربة، وبها يقتل الدجال. فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤمُّ بهم، فيتأخَّر الإمام، فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد ﷺ. ثم يقتل الخنازير، ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلّا من آمن به».

وعن الحسن: الضمير للقرآن، فَإِنَّ فيه الإعلام بالساعة والدلالة عليها. وفي حديث آخر: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم».

﴿فَلَا تَفْقَرُونَ بِهَا﴾ فلا تشكَّنَّ فيها. من المرية. وهي الشك. ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ واتبعوا هداي، أو شرعي، أو رسولي. وقيل: هو قول الرسول، أمر أن يقول: اتبعوني ﴿هَذَا﴾ أي: هذا الذي أدعوكم إليه. أو هذا القرآن إن جعل الضمير في «وإنه» للقرآن. ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا يضلَّ سالكه. وقرأ أبو عمرو: فاتبعوني. ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ عن المتابعة ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بانت عداوته لكم، إذ أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه اللباس، وعرضكم للبلية.

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

ثم أخبر سبحانه عن حال عيسى عليه السلام حين بعثه الله نبياً، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات، أو بآيات الإنجيل، أو بالشرائع الواضحات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل، أو بالشرعة ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو ما يكون من أمر الدين، لا ما يتعلق بأمر الدنيا، فإن الأنبياء لم يبعثوا لبيانه، ولذلك قال ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ فيما أبلغه عنه. ثم بين ما أمرهم بالطاعة فيه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ كأنه قال: ما أمركم هو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى مجموع

الأمريين ﴿صِبْرًا طُوسْتَقِيمٌ﴾ يفضي بكم إلى الجنة. وهذا من تمة كلام عيسى، أو استئناف من الله يدل على ما هو المقتضي للطاعة في ذلك.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة بعد عيسى ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى، أو اليهود والنصارى من بين قومه المبعوث هو إليهم ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من المتحزبين ﴿مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ هو يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ هل ينظر قريش، أو الذين ظلموا ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل من «الساعة». والمعنى: ما ينظرون إلا إتيان الساعة ﴿بَغْفَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ غافلون عنها، لاشتغالهم بأمور الدنيا، وإنكارهم لها.

الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بَايَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿الْأَخِلَاءُ﴾ الأحباء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بـ«عدو» في قوله: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: يتعادون يومئذٍ، لأنه ينقطع فيه كلُّ خلة بين المتخالفين في غير ذات الله، وينقلب عداوة ومقتاً، لأنه ظهر عليهم في ذلك اليوم أن ما كانوا يتخالفون له صار

سبباً للعذاب ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ إِلَّا خَلَّةُ الْمُتَصَادِقِينَ فِي اللَّهِ، فَإِنَّهَا لَمَّا كَانَتْ فِي اللَّهِ تَبْقَى نَافِعَةً أَبَدَ الْآبَادِ، بَلْ تَصِيرُ زَائِدَةً إِذَا رَأَوْا ثَوَابَ التَّحَابِّ فِي اللَّهِ وَالتَّبَاغُضِ فِي اللَّهِ. وَقِيلَ: «إِلَّا الْمُتَّقِينَ» إِلَّا الْمُجْتَنِبِينَ أَخْلَاءَ السُّوءِ. وَقِيلَ نَزَلَتْ: فِي أَبِي بَنِ خُلْفٍ وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مَعِيْطٍ.

ثُمَّ حَكَى عَمَّا يَنَادِي بِهِ الْمُتَّقُونَ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ يَوْمَئِذٍ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا عِبَادِ﴾ أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ: يَا عِبَادِي ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَخْزَنُونَ﴾ مِنْ فَوَاتِ الثَّوَابِ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكَسَاثِي وَحَفْصٌ بِحَذْفِ الْيَاءِ مِنْ: عِبَادِ.

ثُمَّ وَصَفَ الْمُنَادُونَ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ صَدَّقُوا بِدَلَالَتِنَا وَحُجَّتِنَا وَاتَّبَعُوهَا. وَهُوَ مَنْصُوبُ الْمُحَلِّ، لِأَنَّهُ صِفَةُ مُنَادِي مُضَافٍ. ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ حَالٍ مِنَ الْوَاوِ، أَيْ: الَّذِينَ آمَنُوا مُخْلِصِينَ وَجُوهَهُمْ لَنَا، جَاعِلِينَ أَنْفُسَهُمْ سَالِمَةً لَطَاعَتَنَا. غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ أَكَّدَ وَأَبْلَغَ.

قِيلَ: إِذَا بَعَثَ اللَّهُ النَّاسَ فَرَعَ كُلِّ أَحَدٍ، فَيَنَادِي مُنَادٍ: يَا عِبَادِي، فَيَرْجُوها النَّاسُ كُلُّهُمْ. ثُمَّ يَتَّبِعُهَا: الَّذِينَ آمَنُوا، فَيَسْأَلُ النَّاسَ مِنْهَا غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ نَسَاؤُكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ ﴿تُخْبِرُونَ﴾ تَسْرُونَ سُرُوراً بِحَيْثُ يَظْهَرُ حَبَارُهُ - أَيْ: أَثَرُهُ - عَلَى وَجُوهِهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿تَسْفِرُ فِي وَجُوهِهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ﴾^(١). أَوْ تَزَيَّنُونَ، مِنَ الْحَبَرِ، وَهُوَ حَسَنُ الْهَيْئَةِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: تَكْرُمُونَ إِكْرَاماً يَبَالِغُ فِيهِ. وَالْحَبْرَةُ الْمُبَالَغَةُ فِيهِمَا وَصَفٌ بِجَمِيلٍ.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِخَافٍ﴾ بِقِصَاعٍ - جَمْعُ صَحْفَةٍ - مَأْخُوذَةٍ ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ فِيهَا أَلْوَانُ الْأَطْعَمَةِ ﴿وَأَخْوَاطٍ﴾ كِزَانٌ لَا عَرَى لَهَا. جَمْعُ كُوبٍ. وَهُوَ كُوزٌ لَا عَرَوَةَ لَهُ. ﴿وَفِيهَا﴾ وَفِي الْجَنَّةِ ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ الْمَشْرُوبَةِ

والمطعمومة والمشمومة والملبوسة وغيرها. وقرأ نافع وابن عامر وحفص: تشتيه على الأصل.

﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ما تلذّه العيون بالنظر إليه. وإنّما أضاف الالتذاذ إلى الأعين، وإنّما المتلذذ في الحقيقة هو الإنسان، لأنّ المناظر الحسنة سبب من أسباب اللذة، فإضافة اللذة إلى الموضع الذي يلتذّ الإنسان به أحسن، لما في ذلك من البيان مع الإيجاز. وقد جمع الله تعالى بهاتين اللفظتين ما لو اجتمع الخلاق كلّهم على أن يصفوا ما في الجنّة من أنواع النعم لم يزيدوا على ما انتظمته.

﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فَإِنَّ كُلَّ نَعِيمٍ زَائِلٌ مُوجِبٌ لِكُلْفَةِ الْحِفْظِ وَخَوْفِ الزَّوَالِ، وَمُسْتَعْقِبٌ لِلتَّحَسُّرِ فِي ثَانِي الْحَالِ.

﴿وَتِلْكَ﴾ الإشارة إلى الجنّة المذكورة وقعت مبتدأ، خبره ﴿الْجَنَّةُ﴾. وقوله: ﴿الَّتِي أَوْرِثْتُمُوهَا﴾ صفتها. أو «الجنّة» صفة «تلك» و«التي» خبرها، أو صفة «الجنّة» والخبر ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وعلى هذا تتعلّق الباء بمحذوف لا به «أورثتموها» كما في الظروف التي تقع أخباراً، تقديره: حاصلة بما كنتم. وعلى الوجه الأوّل تتعلّق به «أورثتموها». وشبّهت الجنّة في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة. وعن ابن عباس: الكافر يرث نار المؤمن، والمؤمن يرث جنّة الكافر. وهذا كقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾^(١).

﴿نَكُمُ فِيهَا فَاجِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا﴾ بعضها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ لكثرتها ودوام نوعها. ولعلّ تخصيص التنعّم بالمطاعم والملابس، وتكريره في القرآن، وهو حقير بالإضافة إلى سائر نعائم الجنّة، لما كان بهم من الشدّة والفاقة في الدنيا. وعن النبي ﷺ: «لا ينزع رجل في الجنّة من ثمرها إلّا نبت مكانها مثلاًها».

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَمْرُؤَا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفِبُونَ ﴿٨٠﴾

ثم أخبر سبحانه عن أحوال أهل النار، فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكاملين في الإجماع. وهم الكفار، لأنه جعل قسم المؤمنين بالآيات، وحكى عنهم ما يخص بالكفار، وهو قوله: ﴿فِي عَذَابٍ خَالِدُونَ﴾. خبر «إِنَّ». أو «خالدون» خبر، والظرف متعلق به.

﴿لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ﴾ لا يخفف. من: فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً. والتركيب للضعف. ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من النجاة. وعن الضحاك: يجعل المجرم في تابوت من نار، ثم يردم عليه، فيبقى فيه خالداً لا يرى ولا يرى.

ولما بين سبحانه ما يفعله بالمجرمين، بين أنه لم يظلمهم بذلك، فقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بما جنوا عليها من العذاب. مر مثله غير مرة. و«هم» فصل عند البصريين، عماد عند الكوفيين.

﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ﴾ هو خازن جهنم ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: سل ربك أن يقضي علينا، أي: يمتينا حتى نتخلص من هذا العذاب. مأخوذ من: قضى عليه إذا

أما ته. ومنه قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾^(١). وهو لا ينافي إبلاسهم. لأنهم معذبون أزمنة متطاولة وأحقاباً ممتدة. فتختلف بهم الأحوال. فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس عليهم. وعلمهم أنه لا فرج لهم. ويفوثون^(٢) أوقاتاً لشدة ما بهم. وعن النبي ﷺ: «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب. فيقولون: ادعوا مالكم. فيدعون: يا مالك ليقض علينا ربك». ﴿قَالَ﴾ أي: قال الله. أو مالك ﴿إِنْكُمْ مَا يَحْتُونُ﴾ لا خلاص لكم بموت ولا غيره.

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ بالإرسال والإنزال. وهو تمتة الجواب إن كان في «قال» ضمير الله. وإلا فجواب منه. فكأنه تعالى تولى جوابهم بعد جواب مالك. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ﴾ معاشر الخلق ﴿يَلْحَقُ كَارِهِونَ﴾ لما في اتّباعه من إتعاب النفس وإدآب^(٣) الجوارح. ولألتكم بالباطل فكرهتم مفارقتة. عن ابن عباس: إنما يجيبهم بهذا الجواب بعد ألف سنة.

﴿أَمْ أَمْرُؤَا﴾ إضراب عن الكلام السابق، أي: ما سمعوا هذا القول بسمع القبول، بل أحكموا ﴿أَفْرَأَ﴾ من كيدهم ومكرهم بالرسول. ولم يقتصروا على كراهة الحق ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدنا بهم في مجازاة ما أبرموا من كيدهم. كقوله: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾^(٤).

﴿أَمْ يَخْشَوْنَ﴾ بل أظن هؤلاء الكفار ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ حديث أنفسهم بذلك. أو تحديتهم غيرهم في مكان خالٍ ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وتناجيهم، أي: ما تكلموا به فيما بينهم ﴿بَلَى﴾ نسمعهما ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلَنَا﴾ والحفظة مع ذلك

(١) القصص: ١٥.

(٢) أي: يقولون: واغوثاه.

(٣) أدآب إدآباً: أتعب.

(٤) الطور: ٤٢.

﴿لَذَيْنِهِمْ﴾ ملازمة لهم ﴿يَكْتُمُونَ﴾ ذلك.

وعن يحيى بن معاذ الرازي: من ستر من الناس ذنوبه، وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السماوات، فقد جعله أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا
حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي
الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ
الَّذِينَ يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾
وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ يَارَبِّ إِنَّ
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ أي: صحَّ ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه،
وحجة واضحة تدلون بها ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: أنا أول من يعظم ذلك الولد،
وأسبقكم إلى طاعته والانتقياد له، كما يعظم الرجل ولد الملك، فإن النبي يكون أعلم
بالله.

وهذا كلام وارد على سبيل القرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفي الولد على أبلغ الوجوه. وذلك أنه علّق العبادة بكيونة الولد، وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها. فهو في صورة إثبات كيونة الولد والعبادة، وفي معنى نفيهما، على أبلغ الوجوه وأقواها. ونظيره أن يقول العدليّ للمجبر: إن كان الله خالقاً للكفر في القلوب، ومعذباً عليه عذاباً سرمداً، فأنا أول من يقول: هو شيطان وليس بآله.

فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه: نفي أن يكون الله خالقاً للكفر، وتنزيهه عن ذلك وتقديسه، على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا. مع الدلالة على سماجة المذهب وضلاله الذاهب إليه، والشهادة القاطعة بإحاطته، والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه، وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه.

وقد تمحلّ الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف، المليء بالنكت والفوائد المستقلة بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه. فقيل: إن كان للرحمن ولد في زعمكم، فأنا أول الأنفين من أن يكون له ولد. من: عِدَّ يَعْبُدُ إذا اشتدَّ أنفه، فهو عبد وعابد.

وقيل: «إن» نافية، أي: ما كان للرحمن ولد، فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد.

وقرأ حمزة والكسائي: وُلِدَ، بالضمّ وسكون اللام.

ثم نزه سبحانه نفسه عن ذلك فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عن كونه ذا ولد، فإنّ هذه الأجسام لكونها أصولاً ذات استمرار تبرأت عمّا يَصِفُ به سائر الأجسام من توليد المثل، فما ظنك بمبدعها وخالقها؟!

ثم خاطب نبيّه على وجه التهديد للكفار، فقال: ﴿فَقَدْ هُم بِخَوْضُوا﴾ في

باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ وهو دلالة على أن قولهم هذا جهل واتباع هوى، وأنهم مطبوع على قلوبهم خذلاناً وتخلية، كقوله: ﴿اغْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾^(١). وإيعاد بالشقاء الأبدي في العاقبة.

ولمَّا بَيَّنَّ سبحانه وحدانيته عقبه تأكيداً لها قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أي: مستحق لأن يعبد فيهما، والظرف متعلق به، لأنه بمعنى المعبود، أو متضمن معناه، كقولك: هو حاتم في البلد، على تضمين معنى الجواد الذي شهر به، كأنك قلت: هو جواد في البلد.

والراجع إلى الموصول مبتدأ محذوف، لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه. ويجوز أن يكون «في السماء» صلة «الذي» و«إله» خبر مبتدأ محذوف، على أن الجملة بيان للصلة، وأن كونه في السماء على سبيل الإلهية والربوبية، لا على معنى الاستقرار. وفيه نفي الآلهة السماوية والأرضية، واختصاصه باستحقاق الألوهية.

وكرر لفظ «إله» لأمرين، أحدهما: التأكيد، ليتمكن المعنى في النفس. والثاني: لأن المعنى: هو إله في السماء يجب على الملائكة عبادته، وإله في الأرض يجب على الإنس والجن عبادته.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده. وهذا كالدليل على وحدانيته في الألوهية.

ثم نزه ذاته عن الشراكة بقوله: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواء، أي: جلّ عن أن يكون له ولد أو شبيه من له التصرف في السماوات والأرض وفيما بينهما، بلا دافع ولا منازع. أو دامت بركته. ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ العلم بالساعة التي تقوم القيامة فيها، لأنه لا يعلم وقته على التعيين غيره

﴿وَالَّذِينَ تَزَجَّعُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازي كلًّا على قدر عمله. وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم بالتاء، على الالتفات للتهديد.

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله. وهي مسألة الطالب العفو عن غيره وإسقاط العقاب عنه. ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ وهو توحيد الله ﴿وَهُمْ يَغْلَبُونَ﴾ وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإخلاص. وتوحيد الضمير ثم جمعه باعتبار اللفظ والمعنى. والاستثناء متصل إن أريد بالوصول كل ما عبد من دون الله، لاندراج الملائكة والمسيح فيه. ومنفصل إن خص بالأصنام.

روي: أَنَّ النضر بن الحارث ونفراً من قريش قالوا: إن كان ما يقوله محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة، وهم أحقّ بالشفاعة لنا منه. فنزلت الآية. فالمعنى: أنهم يشفعون للمؤمنين بإذن الله. وفيه دلالة على أَنَّ حقيقة الإيمان هو الاعتقاد بالقلب والمعرفة.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ﴾ سألت العابدين، أو المعبودين ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ من أخرجهم من العدم إلى الوجود ﴿نَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره ﴿فَأَنسَى يُؤْفِكُونَ﴾ فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟!

﴿وَقِيلَ﴾ وقول الرسول. عن الأخفش: أَنَّ نصبه للمعطف على ﴿سَرَّهُمْ﴾^(١) أي: أم يحسبون أننا لا نسمع قوله. وعنه أيضاً: أَنَّهُ منصوب بإضمار فعله، أي: وقال قيله. وعن الزجاج: أَنَّهُ معطوف على محلّ «السَّاعَةِ»^(٢) كما تقول: عجبت من ضرب زيد وعمراً. وجزه عاصم وحزمة عطفاً على لفظ «السَّاعَةِ». ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قال صاحب الكشف بعد نقل هذه الأقوال: «والذي قالوه ليس بقويّ في

المعنى، مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضاً، ومع تناثر النظم. وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه. ويكون قوله: «إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ» جواب القسم. كأنه قيل: وأقسم ببقيله يا ربِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ وإقسام الله ببقيله رفع منه، وتعظيم لدعائه والتجائه إليه»^(١).

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن دعوتهم آيساً عن إيمانهم، وودّعهم^(٢) وتاركهم ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ تسلّم^(٣) منكم ومتاركة. وقيل: معناه: قل ما تسلّم به من شرّهم وأذاهم. ﴿فَسَوْفَ يَغْلَبُونَ﴾ وعيد من الله لهم، وتسليّة للرسول. وقرأ نافع وابن عامر بالتاء، على أنّه من المأمور بقوله.

وهذه الآية منسوخة بآية السيف^(٤). وقيل: معناه: فاصفح عن سفههم، ولا تقابلهم بمثله. فلا يكون منسوخاً.

(١) الكشف ٤: ٢٦٨.

(٢) ودّع فلاتاً: هجره.

(٣) تسلّم منه: تبرأ.

(٤) التوبة: ٥ و ٢٩.



سورة الدخان

مَكِّيَّة. وهي تسع وخمسون آية.

أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الدخان في ليلة الجمعة غفر له».

أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «من قرأ حم الدخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك».

وعنه عن النبي ﷺ قال: «من قرأها في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له».

أبو أمامة عن النبي ﷺ قال: «من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة ويوم الجمعة، بنى الله له بيتاً في الجنة».

وروى أبو حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ سورة الدخان في فرائضه ونوافله، بعثه الله من الأمنين يوم القيامة، وأظله تحت ظلّ عرشه، وحاسبه حساباً يسيراً، وأعطى كتابه يمينه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا

مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا

مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي
السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا
اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ
مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ
قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

ولما ختم الله سبحانه سورة الزخرف بالوعيد والتهديد، افتتح هذه السورة
أيضاً بمثل ذلك في الانذار بالعذاب الشديد، فقال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّخِيفِ الرَّحِيمِ حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ القرآن. والواو للقسم إن
جعلت «حم» تعديداً للحروف، أو اسماً للسورة، مرفوعاً على خبر الابتداء
المحذوف. وللعطف إن كانت «حم» مقسماً بها. والجواب قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ
مُبَارَكَةٍ﴾ أي: في ليلة القدر. وقيل: هي ليلة النصف من شعبان. ولها أربعة أسماء:
الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصلوة، وليلة الرحمة. وقيل: في تسميتها بها: إن
البندار - أي: من في يده الخراج - إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة.
كذلك الله ﷻ يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة.

ومعنى إنزال القرآن فيها: أن الله سبحانه ابتدأ فيها إنزاله، أو أنزل فيها جملة

إلى السماء الدنيا من اللوح الذي يكون في السماء السابعة، ثم أنزله على رسول الله نجوماً نجوماً.

ومعنى المباركة: الكثيرة الخير. ومن بركتها إنزال القرآن فيها، فإن نزوله سبب للمنافع الدينية والدنيوية. ولو لم يوجد فيها إلا إنزاله لكفى به بركة. قيل: بدأ في استنساخ القرآن من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة، ووقع الفراغ في ليلة القدر. ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ استئناف يبين المقتضي للإنزال. وكذا قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فإن كونها مفرق الأمور المحكمة أو الملتبسة بالحكمة، يستدعي أن ينزل فيها القرآن الذي هو من عظائمها. ويجوز أن يكون صفة «ليلة مباركة» وما بينهما اعتراض.

وقيل: في ليلة القدر تدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبرائيل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب الدنيا، وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت. وقيل: يعطى كل عامل بركات أعماله، فيلقى على السنة الخلق مدحه، وعلى القلوب هيبته.

وقيل: بركة هذه الليلة في أنها مختصة بخمس خصال:
تفريق كل أمر حكيم.

وفضيلة العبادة فيها. قال رسول الله ﷺ: «من صلى في هذه الليلة مائة ركعة، أرسل الله إليه مائة ملك: ثلاثون يمشرونه بالجنة، وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار، وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا، وعشرة يدفعون عنه مكائد الشيطان».

ونزول الرحمة. قال ﷺ: «إن الله يرحم أمتي في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب».

وحصول المغفرة. قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، إِلَّا لَكَاهِنٍ، أَوْ سَاحِرٍ، أَوْ مُشَاحِنٍ^(١)، أَوْ مَدْمَنٍ خَمْرٍ، أَوْ عَاقٍ لِلْوَالِدَيْنِ، أَوْ مُصَرٍّ عَلَى الزَّنا».

وما أعطي فيها رسول الله ﷺ من تمام الشفاعة. وذلك أَنَّهُ سَأَلَ لَيْلَةَ الثَّالِثِ عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ فِي أُمَّتِهِ، فَأُعْطِيَ الثَّلَاثَ مِنْهَا. ثُمَّ سَأَلَ لَيْلَةَ الرَّابِعِ عَشَرَ، فَأُعْطِيَ الثَّلَاثِينَ. ثُمَّ سَأَلَ لَيْلَةَ الْخَامِسِ عَشَرَ، فَأُعْطِيَ الْجَمِيعَ، إِلَّا مَنْ شَرَّدَ عَنْ اللَّهِ شَرَادَ الْبَعِيرِ. وَمِنْ عَادَةِ اللَّهِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَنْ يَزِيدَ مَاءَ زَمْزَمَ زِيَادَةً ظَاهِرَةً.

والقول الأكثر أَنَّ المراد باللييلة المباركة ليلة القدر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٢). ولمطابقة قوله: «فِيهَا يَفْرُقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» لقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾^(٣). وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(٤). وليلة القدر في أكثر الأقوال في شهر رمضان.

وهذا أصحُّ القولين، لَأَنَّهُ مَنْقُولٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ وَابْنِ زَيْدٍ، وَمَرْوِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا﴾ نصب على الاختصاص، أي: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتنا. وهو مزيد تفخيم للأمر. ويجوز أن يكون حالاً من «كُلِّ»، أو «أمر»، أو من ضميره المستكن في «حكيم»، لَأَنَّهُ مَوْصُوفٌ. أو حالاً من أحد ضميري «أنزلناه»، يعني: أمرين أو مأموراً. وأن يراد به ما يقابل النهي، وقع مصدراً لـ «يفرق»، لَأَنَّ الْأَمْرَ وَالْفَرْقَانَ وَاحِدٌ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ إِذَا حُكِمَ بِالشَّيْءِ وَكُتِبَ فَقَدْ أَمَرَ بِهِ وَأَوْجِبَهُ. أو مصدر لفعله مضمرأ. من حيث إِنَّ الْفَرْقَ بِهِ، أي: أمرنا أمراً

(١) المشاحن: المبالغض الشديد العداوة.

(٢) (٣) القدر: ١ و ٤.

(٤) البقرة: ١٨٥.

من لدنّا.

﴿إِنَّا كُنَّا مُزْسِلِينَ﴾ بدل من «إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» أي: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ لِأَنَّ مِنْ عَادَتِنَا إِرْسَالَ الرِّسْلِ بِالْكِتَابِ إِلَى عِبَادِنَا.

﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ لأجل الرحمة عليهم. ووضع الربّ موضع الضمير، إشعاراً بأنّ الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، فإنّه أعظم أنواع التربية. أو علّة لا «يفرق» أو «أمرأ». و«رحمة» مفعول به. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ يسمع أقوال العباد ﴿الْعَلِيمُ﴾ ويعلم أحوالهم. وهو بما بعده تحقيق لربوبيته، وإيدان بأنّها لا تحقّق إلّا لمن هذه صفاته.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خبر آخر، أو استئناف. وقرأ الكوفيون بالجرّ بدلاً من «ربك». ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي: إِنْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِيقَانِ فِي الْعُلُومِ. أو كنتم موقنين في إقراركم إذا سلّتم من خلقها؟ فقلتم: الله، علمتم أنّ الأمر كما قلنا، كما تقول: إنّ هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه واشتهر وإسخاؤه، إن بلغك حديثه وحدثت بقصّته. وفائدة الشرطيّة التنبيه للمخاطب بأنّ من حقّق أن تكون عالماً به، ولا تكون غافلاً عن مثله. أو إِنْ كُنْتُمْ مُرِيدِينَ الْيَقِينَ فَاعْلَمُوا ذَلِكَ. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا يستحقّ العبادة غيره، إذ لا خالق سواه ﴿يُخَيِّي وَيُنَيمِ﴾

كما تشاهدون ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

ثم ردّ أن يكونوا موقنين بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: إقرارهم غير صادر عن علم وتيقّن، ولا عن جدّ وحقيقة، بل قول مخلوط بهزء ولعب.

﴿فَازْتَفَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ فانتظرهم في هذا اليوم. ويجوز أنّه منصوب بأنّه مفعول به. يقال: رقبته وارتقبته، نحو: نظرتّه وانتظرتّه، أي: انتظر يوم تأتي السماء ﴿بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: يوم شدّة ومجاعة، فإنّ الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان من ضعف بصره. أو لأنّ الهواء يظلم عام القحط، لقلة الأمطار وكثرة

الغبار. أو لأنَّ العرب تسمي الشرَّ الغالب دخاناً، وقد قحطوا حتَّى أكلوا جيف الكلاب وعظامها.

ويروى أنَّه قيل لابن مسعود: إنَّ قاصّاً عند أبواب كندة يقول: إنَّه دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأنفاس الخلق. فقال: من علم علماً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنَّ من علم الرجل أن يقول لشيء لا يعلمه: الله أعلم. ثم قال: ألا وسأحدثكم أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم فقال: اللَّهُمَّ اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف. فأصابهم الجهد حتَّى أكلوا الجيف والعلهز^(١). وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان، وكان يحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان، فمضى إليه أبو سفيان ونفر معه، وناشده الله والرحم، ووعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا، فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم.

وإسناد الإتيان إلى السماء لأنَّها تكفُّ الأمطار التي هي سبب الغبار الذي يشبهه الدخان. أو المراد يوم ظهور الدخان المعداد في أشرط الساعة، لما روي أنَّه ﷺ لما قال: «أَوَّلُ الآيات الدخان، ونزول عيسى، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر». قال حذيفة: ما الدخان يا رسول الله؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية وقال: «يملاً ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة. أمَّا المؤمن فيصبيه كهيئة الزكام. وأمَّا الكافر فهو كالسكران، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره».

وروي أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنَّه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة، يدخل في أسماع الكفرة، حتَّى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيز^(٢).

(١) العلهز: طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في زمن المجاعة.

(٢) الحنيز: المشوي.

ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام. وتكون الأرض كلها كبيت أو قد فيه خصاص»^(١).
﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يحيط بهم. في محلّ الجرّ على أنّه صفة للدخان. وقوله:
﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: قائلين ذلك ﴿وَبَيْنَا أَكْثِيفٌ غَنَّا الْعَذَابَ﴾ منصوب المحلّ بفعل
مضمر، وهو: يقولون. و«يقولون» منصوب على الحال. ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وعد
بالإيمان إن كشف العذاب عنهم.

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ من أين لهم وكيف يتذكّرون بهذه الحالة ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ بين لهم ما هو أعظم من كشف الدخان، وهو ما ظهر على رسول الله
من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ فلم يذكّروا ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ فقال بعضهم: يعلمه
عداس، غلام أعجمي لبعض ثقيف. وقال آخرون: إنه مجنون.

﴿إِنَّا نَحْشِبُهُوَ الْعَذَابَ﴾ بدعاء النبي ﷺ، فإنه لما دعا رفع القحط ﴿قَلِيلًا﴾
كشفاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، وهو ما بقي من أعمارهم ﴿إِنكُمْ عَائِدُونَ﴾ إلى الكفر
غيب الكشف. ومن فسر الدخان بما هو من الأشرار قال: إذا جاء الدخان غوث^(٢)
الكفار بالدعاء، فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوماً، فريشما يكشفه عنهم يرتدون لا
يتمهلون. ومن فسره بما في يوم القيامة أوله بالشرط. والتقدير: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ
الْبَاطِلَةَ الْكَافِرِينَ﴾ يوم القيامة، أو يوم بدر. ظرف لفعل دلّ عليه ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ لا
«منتقمون» فإن «إن» تحجزه عنه. أو بدل من «يوم تأتي». والبطش هو شدة الألم.

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذْوَإِلَيَّ
عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَغْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمُ

(١) الخصاص: الفرج في البناء وما شاكله.

(٢) أي: قالوا: واغوثاه.

بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ
تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾
فَأَسْرِعْ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَ إِيَّاهُمْ جُنْدٌ
مُفْرَقُونَ ﴿٢٤﴾

ثم شبه حالهم بحال المعاندين الذين كانوا من قبلهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ
قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ امتحناهم بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم، ليشكروا على ما أنعمنا
عليهم ويطيعونا، فبدلوا الشكر بالكفران، وعصوا أمرنا بالثبات على الكفر
﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ حَرِيمٌ﴾ على الله، أو على المؤمنين، أو في نفسه، لشرف نسبه
وفضل حسبه، لأن الله لم يبعث نبياً إلا من سراة قومه وكرامهم.

﴿أَنْ أَدَّأ إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ بأن أدوهم إليّ، وأرسلوهم معي. وهم بنو إسرائيل،
كقوله تعالى: ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١). ولا تعذبهم. أو بأن أدوا إليّ حق الله،
من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله. ويجوز أن تكون «أن» مخففة، أي: وجاءهم
بأن الشأن أدوا إليّ. أو مفسرة، لأن مجيء الرسول متضمن لمعنى القول، لأنه لا
يجيئهم إلا مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ غير متهم، لدلالة
المعجزات على صدقه، أو لاثمان الله إياه على وحيه. وهو علّة الأمر.

﴿وَأَنْ لَا تَغْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تتكبروا عليه. بالاستهانة بوحيه ورسوله.
و«أن» كالأولى في وجهها. ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِشُعْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بحجة واضحة يظهر
الحق معها. وهذا علّة للنهي. ولذكر الأمين مع الأداء، والسلطان المبين مع العلاء،

شأن لا يخفى.

فلما قال ذلك توعدوه بالقتل والرجم، فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾
التجأت إليه توكلًا عليه ﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أن تؤذوني ضرباً أو شتماً، أو تقتلوني.
وقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي: عَثُّ بِالْإِدْغَامِ^(١).

﴿وَأَنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاغْتِزِلُونِ﴾ فكونوا بمعزل مني، واقطعوا أسباب الوصلة
عني. أو فخلّوني واتركوني لا علي ولا لي، ولا تتعرضوا لي بسوء، فإنه ليس جزاء
من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ بعدما كذّبوه ويُس من أن يؤمنوا به ﴿أَنْ هُوَ لَا﴾ بأن هؤلاء
﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ وهو تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما استوجبوه به، ولذلك سمّاه
دعاءً.

قيل: كان دعاؤه: اللَّهُمَّ عَجِّلْ لَهُمْ ما يستحقّونه بإجرامهم. وقيل. هو قوله:
﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢). وما دعا عليهم إلّا بعد أن أذن له في ذلك.
﴿فَأَسْرِبْ بَعْبادِي لَيْلًا﴾ أي: فقال: أسر. أو قال: إن كان الأمر كذلك فأسر
بيني إسرائيل. وقرأ ابن كثير ونافع بوصل الهمزة، من: سرى. ﴿إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾
يتّبعكم فرعون وجنوده إذا علموا بخروجكم.

﴿وَأَتْرَكَ النَّبْخَ رَهْوًا﴾ مفتوحاً ذا فجوة واسعة. أو ساكناً على هيئته، قارّاً
على حاله، من انتصاب الماء، وكون الطريق يسباً بعدما جاوزته، ولا تضربه
بعصاك، ولا تغيّر منه شيئاً ليدخله القبط، ويطمع فرعون في دخوله. فقد روي: أَنَّ
موسى ﷺ لما جاوز البحر أراد أن يضربه بعصا فينطبق كما ضربه فانفلق، فقال
سبحانه: اتركه يا موسى. ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي: سيغرقهم الله.

(١) أي: بإدغام الذال في التاء.

(٢) يونس: ٨٥.

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنِعْمَةً
كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ
عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾

ثم أخبر سبحانه عن حالهم بعد إهلاكهم، فقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ كثيراً تركوا
﴿مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ محافل مزينة ومنازل حسنة. وعن ابن
عباس: منابر الخطباء. ﴿وَنِعْمَةً﴾ أي: تنعم ﴿كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ﴾ مستنعمين كما
يتنعم الآكل بأنواع الفواكه.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها. أو الأمر كذلك. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾
عطف على الفعل المقدر، أو على «تركوا». وإيراث النعمة تصيرها إلى الثاني بعد
الأول بغير مشقة، كما يصير الميراث إلى أهله على تلك الصفة. فلما كانت نعمة قوم
فرعون وصلت بعد هلاكهم إلى غيرهم، كان ذلك إيراًناً من الله لهم. ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾
لبسوا منهم في شيء من قرابة ولادين ولا ولاء. وهم بنو إسرائيل، كانوا متسخرين
مستعبدين في أيديهم، فأهلكهم الله على أيديهم، وأورثهم ملكهم وديارهم. وقيل:
غيرهم، لأنهم لم يهودوا إلى مصر.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ مجاز عن عدم المبالاة بهلاكهم، وعدم
الاعتداد بوجودهم، كما قالت العرب على سبيل التمثيل والتخييل، مبالغة في
وجوب البكاء والجزع على موت رجل خطير وتعظيم مهلكه: بكى عليه السماء
والأرض، وبكىه الريح وأظلمت له الشمس، في نقيض ذلك. ومنه ما روي عن
رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه، إلا بكى عليه

السماء والأرض». وكذلك يروى عن ابن عباس: أَنَّ الْمُؤْمِنَ لِيُكَيِّ عَلَيْهِ مَصْلَاهُ، وموضع عبادته، ومصعد عمله، ومهبط رزقه.

وعن السَّدي: لَمَّا قَتَلَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَكَتِ السَّمَاءُ عَلَيْهِ، وَبَكَأُوها حَمْرَةً أَطْرَافُهَا.

وروى زرارة بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «بَكَتِ السَّمَاءُ عَلَى يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا وَعَلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَلَمْ تَبْكْ إِلَّا عَلَيْهِمَا. قُلْتُ: فَمَا بَكَأُوها؟ قَالَ: كَانَتْ تَطْلُعُ حَمْرَاءَ وَتَغِيبُ حَمْرَاءَ».

وقيل: تقديره: فما بكَّت عليهم أهل السماء والأرض، بل كانوا بهلاكهم

مسرورين.

﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ مهلين إلى وقت آخر، بل عوجلوا بالعقوبة.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ آخَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَأَيَّدْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَاتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ

الْفَصْلُ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ من استعباد فرعون وقتله أبناءهم ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من «العذاب» على حذف المضاف، أي: عذاب فرعون. أو على جعل فرعون نفس العذاب، لإفراطه في التعذيب. أو حال من «المهين» يعني: واقعاً من جهته. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾ متكبراً متغلباً ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في العتو والشرارة. وهو خبر ثانٍ، أي: كان متكبراً مسرفاً. أو حال من الضمير في «علياً» أي: كان رفيع الطبقة في الإسراف حال كونه من بينهم. ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ﴾ اخترنا بني إسرائيل بالنجاة عن الفرق، وإعطاء التوراة، وكثرة الأنبياء منهم ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ عالمين بأنهم أحقاء بذلك. أو مع علم منا بأنهم يزيغون في بعض الأحوال. ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ نعمة جليلة، أو اختبار ظاهر.

﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: كفار قريش، لأنَّ الكلام فيهم. وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنَّهم مثلهم في الإصرار على الضلالة، والإنذار عن مثل ما حلَّ بهم. ﴿لَيَقُولُنَّ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى﴾ أي: إذا قيل لهم: إنكم تموتون مorte يتعقبها حياة، كما تقدمتكم مorte قد تعقبها حياة، قالوا: إن هي إلا موتتنا الأولى، أي: ما المorte التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا المorte الأولى للحياة الدنيوية دون المorte الثانية ﴿وَمَا فَخْرٌ بِمُنْشَرِينِ﴾ بمبعوثين. يقال: أنشر الله الموتى ونشرهم إذا بعثهم.

﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول والمؤمنين، أي:

فمَجَلُّوا لَنَا إِحْيَاءَ مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِنَا بِسُؤَالِكُمْ رَبِّكُمْ ذَلِكَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي وَعْدِكُمْ، لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ مَا تَعْدُونَهُ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ وَبَعْثِ الْمَوْتَى حَقٌّ.

وَقِيلَ: كَانُوا يَطْلُبُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْعُوا اللَّهَ فَيَنْشُرَ لَهُمْ قَصِيَّ بْنِ كَلَابٍ لِيُشَاوِرُوهُ، فَإِنَّهُ كَانَ كَبِيرَهُمْ وَمُشَاوِرَهُمْ فِي النَّوَازِلِ وَمَعَاضِمِ الشُّؤْنِ.

وَلَمَّا تَرَكُوا الْحَجَّةَ، وَعَدَلُوا إِلَى الشَّبْهَةِ جَهْلًا، عَدَلَ سَبْحَانَهُ فِي إِجَابَتِهِمْ إِلَى الْوَعِيدِ وَالْوَعْظِ، فَقَالَ:

﴿أَهْمُ خَيْرٌ﴾ أَمْسَرُكُمْ قَرِيشَ خَيْرٍ فِي الْقُوَّةِ وَالْمَنْعَةِ وَالْعَدَدِ وَالْعُدَدِ ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هُوَ تَبَعَ الْحَمِيرِيِّ. وَكَانَ مُؤْمِنًا وَقَوْمُهُ كَافِرِينَ، وَلِذَلِكَ ذَمَّهُمْ دُونَهُ. وَعَنْهُ عليه السلام: «مَا أَدْرِي أَكَانَ تَبَعَ نَبِيًّا أَوْ غَيْرِ نَبِيٍّ». وَعَنْهُ عليه السلام: «لَا تَسْبُوا تَبْعًا، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ».

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ نَبِيًّا. وَقِيلَ: نَظَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِلَى قَبْرَيْنِ بِنَاحِيَةِ حَمِيرٍ فَقَالَ: هَذَا قَبْرُ رَضْوَى، وَقَبْرُ حَبِيٍّ بِنْتِ تَبَعَ، وَلَا تَشْرُكَانَ بِاللَّهِ شَيْئًا. وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي كَسَا الْبَيْتَ.

وَعَنْ الصَّادِقِ عليه السلام: «إِنَّ تَبَعَ قَالَ لِلْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، كُونُوا هَاهُنَا حَتَّى يَخْرُجَ هَذَا النَّبِيُّ. أَمَا أَنَا فَلَوْ أَدْرَكْتَهُ لَخَدَمْتُهُ وَخَرَجْتُ مَعَهُ».

وَهُوَ الَّذِي سَارَ بِالْجِيُوشِ، وَحَيَّرَ الْحَيْرَةَ، وَبَنَى سَمَرْقَنْدَ. وَقِيلَ: هَدَمَهَا ثُمَّ بَنَاهَا. وَكَانَ إِذَا كَتَبَ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ بَرًّا وَبَحْرًا، وَضَحًّا^(١) وَرِيحًا. وَسَمَّى تَبْعًا لَكَثْرَةِ أَتْبَاعِهِ مِنَ النَّاسِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ تَبَعَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ مَلُوكِ الْيَمَنِ. وَاسْمُهُ أَسْعَدُ أَبُو كَرْبٍ. وَقِيلَ لِمَلُوكِ الْيَمَنِ: التَّابَعَةُ، كَمَا قِيلَ: الْأَقْيَالُ، لِأَنَّهُمْ يَتَقَيَّلُونَ، أَيْ: يَتَبَعُونَ. وَسَمَّى الظَّلَّ تَبْعًا، لِأَنَّهُ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كَعَادَ وَثَمُودَ ﴿أَهْلُكُنَاهُمْ﴾ اسْتَنْتَافَ بِمَالَ قَوْمِ تَبَعَ

والَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، هَدَّدَ بِهِ كَفَّارَ قَرِيشٍ. أو حال بإضمار «قد». أو خبر من الموصول إن استؤنف به. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ كافرين. فليحذر هؤلاء أن ينالهم مثل ما نال أولئك. وهذا بيان للجامع المقتضي للإهلاك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وما بين الجنسين ﴿لَاعِبِينَ﴾ لاهين، بل خلقناهما لغرض حكيم، وهو أن ننفع المكلفين بذلك ونعرضهم للثواب. وهو دليل على صحة الحشر، كما مرَّ في سورة الأنبياء^(١) وغيرها.

﴿وَمَا خَلَقْنَا هُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلّا بسبب الحقِّ الذي اقتضاه الدليل، من الإيمان والطاعة، أو البعث والجزاء. أو بالأمر والنهي، والتمييز بين المحسن والمسيء. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صحة ما قلناه، لعدولهم عن النظر فيه والاستدلال على صحته.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ﴾ فصل الحقِّ عن الباطل. أو المحقِّ عن المبطل بالجزاء. أو فصل الرجل عن أقاربه وأحبابه. ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ وقت مواعدهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وهو يوم القيامة.

ولمَّا ذكر سبحانه أنَّ يوم الفصل مِقات الخلق يحشرهم فيه، بيَّن أيَّ يوم هو، فقال:

﴿يَوْمٌ لَا يُغْنِي﴾ بدل من «يوم الفصل» أو صفة لـ«مِقاتهم». أو ظرف لما دلَّ عليه «الفصل» لا له، للفصل. تقديره: يفصل الحقِّ من الباطل يوم لا يدفع عذاب الله. ﴿مَوْلَى﴾ هو الصاحب الذي من شأنه أن يتولَّى معونة صاحبه على أموره. من قريب وحليف وغيرهما ممَّن هذه صفته ﴿عَنْ مَوْلَى﴾ أيَّ مولى كان ﴿شَفِيفًا﴾ من الإغناء، أي: قليلاً منه ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير لـ«مولى» الأوَّل باعتبار المعنى، لأنَّه في المعنى كثير، لتناول اللفظ على الإيهام والشياخ كلِّ مولى.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ رحمة بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه، من فساق أهل الإيمان. وشفعائهم الأنبياء والأوصياء وصلحاء المؤمنين. ومحله الرفع على البدل من الواو، أي: لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله. أو النصب على الاستثناء. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ لا ينصر منه من أراد تعذيبه ﴿الزَّجِيمُ﴾ لمن أراد أن يرحمه.

إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْإِثِمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَاغْلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

ثم وصف سبحانه ما يفصل به بين الفريقين، فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ﴾ قد سبق تفسيره في سورة الصافات^(١). وقد مر فيها أيضاً أن ابن الزبعرى قال: إن أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر التزقم، فدعا أبو جهل بتمر وزبد وقال: تزقموا، فإن هذا هو الذي يخوفكم به محمد. فنزلت: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ﴾. ﴿طَعَامُ الْإِثِمِ﴾ الفاجر الكثير الآثام. والمراد به الكافر، لدلالة ما قبله وما بعده عليه.

﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو ما يهمل في النار حتى يذوب، من النحاس أو الرصاص أو الذهب أو الفضة. وقيل: دردي^(٢) الزيت. ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ إذا حصلت في أجواف أهل النار. وقرأ ابن كثير وحفص ورويس بالياء، على أن الضمير للطعام أو الزقوم لا للمهل، إذ أظهر أن الجملة حال من أحدهما، لأن المهل إنما ذكر للتشبيه

(١) راجع ج ٥ ص ٥٥٤ - ٥٥٥، ذيل الآية: ٦٢ من سورة الصافات.

(٢) الدردى من الزيت ونحوه: الكدر الراسب في أسفله.

به في الذوب ﴿كَفَلِيَ الْحَمِيمِ﴾ غلياناً مثل غلي الحميم. وهو الماء الحار الذي انتهى غليانه.

ثم يقال للزبانية: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ فجرّوه. والعتل: الأخذ بمجامع الشيء. وجرّه بقهر. وعن مجاهد: جرّوه على وجهه. وقرأ العجّازيان وابن عامر ويعقوب بالضم. وهما لفتان. ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسطه. سمّي وسط الشيء سواءً، لاستواء المسافة بينه وبين أطرافه المحيطة به. والسواء العدل.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ كان أصله: يصب من فوق رؤوسهم الحميم، لأن الحميم حقيقة هو المصبوب لا عذابه. فقل استعارة: يصب من فوق رؤوسهم عذاب هو الحميم للمبالغة. ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف. وزيد «من» للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع، فيكون أهول وأهيب.

وعن مقاتل: إنّ خازن النار يمرّ به على رأسه، فيذهب رأسه عن دماغه، ويقول له استهزاء وتقريعاً على ما كان عليه من التعزّز والتكرم على قومه: ﴿ذُقْ﴾ أي: ذق هذا العذاب الشديد ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ على قومك، أو على زعمك. وروي: أنّ أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جبلية - يعني: جبلي أبي قبيس وثور - أعز ولا أكرم منّي، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً. وقيل: إنّك أنت الذليل المهين، إلّا أنّه قيل على هذا الوجه للاستخفاف به. وقرأ الكسائي: أنّك بالفتح، أي: ذق لأنك، أو عذاب أنّك. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أنّه قرأ بفتح «أنك» على المنبر.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ
مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى
وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلًّا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَبْ لَهُمْ مَرْثَبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: إن هذا العذاب ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَفْتَرُونَ﴾ تشكون وتमारون فيه.
وبعد ذكر وعيد الكافرين المعاندين، وعد المؤمنين المطيعين، فقال: ﴿إِنْ
الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ في موضع القيام. والمراد المكان. وهو من الخاص الذي وقع
مستعملاً في معنى العموم، أي: في جميع الأمكنة وإن لم يكن ثمة قيام. وقرأ نافع
وابن عامر بضم الميم. وهو موضع الإقامة. ﴿أمين﴾ يأمن صاحبه عن الآفة
والانتقال. من قولك: أمن الرجل أمانة فهو أمين. وهو ضد الخائن. فوصف به
المكان استعارة، لأن المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقي فيه من المكاره.
﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من «مقام» جيء به للدلالة على نزاهته، واشتماله
على ما يستلذ به من المآكل والمشارب.

﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبر ثانٍ. أو حال من الضمير في الجار
والمجرور. أو استئناف. والسندس ما رق من الحرير. والاستبرق ما غلظ منه. وهو
تعريب استبر. وإذا عَرَب خرج من أن يكون عجمياً، لأن معنى التعريب أن يجعل
عريباً بالتصرف فيه، وتغييره عن منهجه، وإجرائه على أوجه الإعراب، فلا يلزم
أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ أعجمي. وقيل: هو مشتق من البراقة. فعربي
محض. ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ في مجالسهم، ليستأنس بعضهم ببعض. وقيل: متقابلين
بالمحبة، لا متدابرين بالبغضة.

﴿كَذَلِكَ﴾ الأمر كذلك. أو آتيناهم مثل ذلك. ﴿وَرَوْضَاتٍ مَخُورٍ عَيْنٍ﴾

قرنأهم بهنّ. ولذلك عدّي بالباء. والحدور جمع الحدراء، بمعنى البضاء. والعين جمع العنساء، بمعنى عظيمة العينين. واختلف في أنهنّ نساء الدنيا أو غيرهنّ.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه، لا يتخصّص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿آمِينَ﴾ من نفادها ومضرتها. ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ بل يحيون فيها دائماً. والاستثناء منقطع أو متصل. والضمير للآخرة. والموت أول أحوالها. أو الجنة، والمؤمن يشاهدها عنده، فكأنه فيها. أو الاستثناء للمبالغة في تعميم النفي وامتناع الموت، فكأنه قال: لا يذوقون فيها الموت إلا إذا أمكن ذوق الموتة الأولى في المستقبل. فهو من باب التعليق بالمحال. وشبه الموت بالطعام الذي يذاق ويتكرّره عند المذاق، ثم نفى أن يكون ذلك في الجنة.

وإنما خصّهم بأنهم لا يذوقون الموت، مع أن جميع أهل الآخرة لا يذوقون الموت، لما في ذلك من البشارة لهم بالحياة الهنيئة في الجنة، فأما من يكون فيما هو كالموت في الشدة، فإنه لا يطلق له هذه الصفة، لأنّه يموت وموتات كثيرة بما يقاسيه من العقوبة.

﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وصرف عنهم عذاب النار. وهذه الآية مختصة بمن لا يستحقّ دخول النار فلا يدخلها، أو بمن استحقّ النار ففضل الله عليه بالعفو فلم يدخلها. ويجوز أن يكون المراد: ووقاهم عذاب الجحيم على وجه التأييد، أو على الوجه الذي يعذب عليه الكفار. وعلى أحد هذه الوجوه؛ ليس للمعتزلة أن يتمسكوا بها على أن الفاسق الملّي لا يخرج من النار، لأنّه يكون قد وقى النار. ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أعطوا كلّ ذلك عطاءً وتفضلاً منه ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنّه خلاص عن المكروه، وفوز بالمطالب.

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْفَاهُ بِبِسَاتِكَ﴾ سهّلناه حيث أنزلناه بلغتك. وهو فذلكة للسورة. ومعناها: ذكرهم بالكتاب المبين. ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَكُرُونَ﴾ إرادة أن يفهمه قومك. فيتذكروا ما فيه من الأمر والنهي والوعد والوعيد. فلما لم يتذكروا به ﴿فَازْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحلّ بهم من عذاب الله ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون ما يحلّ بك، متربصون بك الدوائر.

1. The first part of the paper is devoted to the study of the

2. The second part of the paper is devoted to the study of the

3. The third part of the paper is devoted to the study of the

4. The fourth part of the paper is devoted to the study of the

5. The fifth part of the paper is devoted to the study of the

6. The sixth part of the paper is devoted to the study of the

7. The seventh part of the paper is devoted to the study of the

8. The eighth part of the paper is devoted to the study of the

9. The ninth part of the paper is devoted to the study of the

10. The tenth part of the paper is devoted to the study of the

11. The eleventh part of the paper is devoted to the study of the

12. The twelfth part of the paper is devoted to the study of the

13. The thirteenth part of the paper is devoted to the study of the

14. The fourteenth part of the paper is devoted to the study of the

15. The fifteenth part of the paper is devoted to the study of the

16. The sixteenth part of the paper is devoted to the study of the

17. The seventeenth part of the paper is devoted to the study of the

18. The eighteenth part of the paper is devoted to the study of the

19. The nineteenth part of the paper is devoted to the study of the

20. The twentieth part of the paper is devoted to the study of the

سورة الجاثية

وتسمى أيضاً سورة الشريعة، لقوله فيها: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾^(١).

وهي مكيّة. وآيها سبع وثلاثون آية، كوفي.
أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ حم الجاثية ستر الله عورته، وسكّن روعته عند الحساب».
وروى أبو بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ سورة الجاثية كان ثوابها أن لا يرى النار أبداً، ولا يسمع زفير جهنّم ولا شهيقها، وهو مع محمّد ﷺ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رَّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

ولمّا ختم الله سبحانه سورة الدخان بذكر القرآن، افتتح هذه السورة أيضاً بذكره، فقال:

﴿يَسْمِ اللّٰهُ الرَّحْمٰنَ الرَّحِيْمَ حَم﴾ إن جعلتها اسماً مبتدأ، وخبرها ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ احتجت إلى إضمار مثل: تنزيل حم. وإن جعلتها تعديداً للحروف، كان «تنزيل» مبتدأ خبره ﴿مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيْزِ﴾ القادر الذي لا يغالب ﴿الْحَكِيْمِ﴾ العالم الذي أفعاله كلّها حكمة وصواب. وعلى الأول الجارّ صلة للتنزيل.

وقيل: «حم» مقسم به، و«تنزيل الكتاب» صفته، وجواب القسم ﴿إِنْ فِي السَّمٰوٰتِ﴾ وهو يحتمل أن يكون على ظاهره الذوات. وأن يكون المعنى: إن في خلق السماوات ﴿وَالْاَرْضِ لَاٰيٰتٍ﴾ لدلالات واضحات على أن لهما مديراً صانعاً قادراً عالماً ﴿لِلْمُؤْمِنِيْنَ﴾ المستفيعين بالآيات.

ويؤيد الاحتمال الثاني قوله: ﴿وَفِيْ خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ عطف على «خلقكم». ولا يحسن عطفه على الضمير المجرور، لأنهم استقبحوا أن يقال: مررت بك وزيد، وهذا أبوك وعمرو.

ولا شبهة أن في بثّ الدوابّ وتنوعها ومنافعها، والمقاصد المطلوبة منها في المعاش ﴿آيٰتٍ﴾ دلائل على وجود الصانع المختار ﴿يَقُوْمُ يُّوْقِنُوْنَ﴾ يطلبون علم اليقين بالتفكر والتدبر. ورفع محمول على محلّ «إن» واسمها.

وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بالنصب حملاً على الاسم، كقولك: إن زيداً في الدار وعمراً في السوق، أو عمرو في السوق.

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وفي ذهاب الليل والنهار ومجيئهما على وتيرة واحدة. أو في اختلاف حالهما من الطول والقصر. أو في اختلافهما في أن أحدهما نور والآخر ظلمة.

﴿وَمَا اَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ من مطر. وسماه رزقاً لأنه سببه. ﴿فَاَخْبَا بِهِنَّ الْاَرْضُ بِغَدٍ مَّوْتِهَا﴾ ييسها.

﴿وَتَضْرِيْفِ الرِّيَّاحِ﴾ باختلاف جهاتها وأحوالها. وقرأ حمزة والكسائي:

وتصريف الريح. ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيه القراءتان. ويلزمهما العطف على عاملين مختلفين، وهما: «في» والابتداء، أو «إن». وهذا على مذهب الأخفش شديد لا مقال فيه. وقد أباه سيبويه. فتوجيه الآية عنده أن يكون على إضمار: في، أو ينصب «آيات» على الاختصاص، أو يرفع بإضمار: هي.

ولعل اختلاف الفواصل لاختلاف الآيات في الدقة والظهور، فإن معنى الآيات الثلاث أن المنصفين من العباد إذا نظروا في السماوات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة، وأنه لا بد لها من صانع، فآمنوا بالله وأقروا، فإذا نظروا في خلق أنفسهم، وتنقلها من حال إلى حال، وهيئة إلى هيئة، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان، ازدادوا إيماناً وأيقنوا، وانتفى عنهم اللبس. فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت، كاختلاف الليل والنهار، ونزول الأمطار، وحياة الأرض بها بعد موتها، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً، وقبولاً ودبوراً، عقلوا واستحكم علمهم، وخلص يقينهم.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَلَّوْهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيَلْ لَّكُلِّ أَفَّاكَ أَيْمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ إِلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ إِلِيمٍ ﴿١١﴾

ولما قدّم سبحانه ذكر الأدلّة، عقّب ذلك بالوعيد لمن أعرّض عنها ولم يتفكّر فيها، فقال:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي: تلك الآيات دلّلتها التي نصيبها للمكلفين ﴿فَتَقْتُلُوهَا عَلَيْهِ﴾ حال، وعاملها معنى الإشارة ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبسين به، أو ملتبسة به ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بعد آياته. وتقديم اسم «الله» للمبالغة والتعظيم، كما في قولك: أعجبنى زيد وكرمه، تريد: أعجبنى كرم زيد. أو بعد حديث الله، وهو القرآن، كقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾^(١). وآياته دلّلتها المتلوة، أو القرآن. والعطف لتغاير الوصفين، فإنّ الحديث قصص يستخرج منه عبر تبيّن الحقّ من الباطل، والآيات هي الأدلّة الفاصلة بين الصحيح والفاقد. وقرأ الحجازيان وحفص وأبو عمرو وروح: يؤمنون بالياء، ليوافق ما قبله.

﴿وَيَلِّقْ﴾ كلمة وعيد يتلقّى بها الكفّار ومستحقّوا العذاب. وقيل: هو وادّ سائل من صديد جهنّم. ﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب. ويطلق ذلك على من يكتر كذبه، أو يعظم كذبه، وإن كان في خبر واحد، ككذب مسيلمة في ادّعاء النبوة ﴿إِثِيمٍ﴾ كثير الآثام. ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ﴾ آيات القرآن التي فيها الحجّة ﴿تُثَقِّلُ عَلَيْهِ ثَمًّا يَصِيرُ﴾ يقيم على كفره ﴿مُتَّخِظِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات، مزدرياً لها، معجباً بما عنده. و«ثمّ» للاستبعاد والاصرار بعد سماع الآيات، كقوله: يرى غمرات الموت ثم يزورها^(٢). وذلك أنّ غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها، وأمّا

(١) الزمر: ٢٣.

(٢) لجعفر بن علية الحارثي. وصدّره:

لا يكشف الغمّاء إلّا ابن حرّة يرى غمرات

وابن حرّة كناية عن الكريم. والغمّاء: الداهية. وغمرات الموت: شدائده، كأحوال المعركة الشديدة. وعطف «ثمّ» لما في لقاء الأحوال والغمرات وزيارتها بعد رؤيتها من الاستبعاد.

زيارتها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد. فمعنى «ثم» الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعد ما رآها وعانيتها شيء يستبعد في العادات والطباع. وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق، من تليت عليه وسمعها، كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها، واستكباره عن الإيمان بها.

﴿كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنه، فحُفَّت وحذف ضمير الشأن. والجملة في موضع الحال، أي: يصّر مثل غير السامع. ﴿فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره. والبشارة للتهكم، أو على الأصل، فإنها ما يظهر أثره على البشارة مهما كان، وإن غلب استعماله في السرور.

قيل: نزلت في النضر بن الحارث، وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم، ويشغل الناس بها عن استماع القرآن. والآية عامة في كل من كان مضاراً لدين الله. ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ وإذا بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ لذلك العلم، من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزء، وليري العوام أنه لا حقيقة لها، كما فعله أبو جهل حين سمع قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْإِيمِ﴾^(١). أو كما فعله النضر بن الحارث حين كان يقابل القرآن بأحاديث الفرس. والضمير لـ«آياتنا». ولم يقل: اتَّخَذَهُ راجعاً إلى «شيئاً» - كما هو مقتضى الظاهر - إشعاراً بأنه إذا سمع كلاماً وعلم أنه من الآيات، بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلها، ولم يقتصر على ما سمعه، لفرط العناد والتوغل في اللجاج. أو الضمير راجع إلى «شيئاً» وتأنيسه لأنه بمعنى الآية.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ من قدامهم، لأنهم متوجهون إليها. أو من خلفهم، لأنها بعد آجالهم، فإنَّ الوراء اسم للجهة التي يوارىها الشخص من خلف أو قدام. ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ ولا يدفع ﴿عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ من الأموال والأولاد

﴿سَنُفَنِّئُكُمْ﴾ من عذاب الله ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثِيَاءَ﴾ أي: الأصنام ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يتحملونه.

﴿هَذَا هُدًى﴾ الإشارة إلى القرآن، أي: هذا القرآن كامل في الهداية، كما تقول: زيد رجل، تريد: كامل في الرجولية. ويدل عليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: القرآن ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾. وقرأ ابن كثير ويعقوب وحفص برفع «أليم»، والرجز أشد العذاب.

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَّ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْكُرُونَ ﴿١٣﴾

ثم نبّه سبحانه خلقه على وجه الدلالة على توحيده، فقال:

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ بأن جعله أملس السطح، يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب، ولا يمنع الغوص فيه ﴿لِتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بتسخيره وأنتم راكبوها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولتطلبوا بركوبها في أسفاركم من الأرباح، بالتجارة وغوص اللآلئ والجواهر وصيد اللحم الطري، وغير ذلك من المنافع ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الشمس، والقمر، والنجوم، والمطر، والثلج، والبرد، وغير ذلك ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الجمادات، والنباتات، والحيوانات ﴿جَمِيعًا﴾ خلقها جميعاً لاتنتفعنا بها، فهي مسخرة لنا من حيث إننا ننتفع بها على الوجه الذي نريده ﴿مِنْهُ﴾ حال من «ما» أي: كائنة منه، حاصلة من

عنده. يعني: أنه مكوّنها وموجدّها بقدرته وحكمته، ثمّ مسخّرها لخلقها. ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أي: هي جميعاً منه. أو خبر لـ «ما في السموات»، و«سخّر لكم» تكرير للتأكيد. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنائعه.

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

ولمّا بين وحدانيّته وعلمه وحكمته، خاطب نبيّه ﷺ، فقال:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ حذف المقول لدلالة الجواب عليه. والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا، أي: يصفحوا. ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لا يتوقّعون وقائعه بأعدائه. من قولهم: أيام العرب لوقائعهم. أو لا يأملون الأوقات التي وقّتها الله لنصر المؤمنين وثوابهم ووعدهم بها. قيل: إنّها منسوخة بآية القتال^(١). ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ علّة للأمر. والقوم هم المؤمنون، أو الكافرون، أو كلاهما. فيكون التنكير للتعظيم، أو التحقير، أو الشيع. والكسب: المغفرة، أو الإساءة، أو ما يعمّهما. وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي: لنجزى بالنون.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ طاعة وبرّاً ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ إذ ثواب ذلك العمل عائِد إليه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ إذ وبال إساءته وعقابه عليه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة إلى حيث لا يملك أحد النفع والضّرّ والنهي والأمر غيره سبحانه، فيجازيكم على قدر أعمالكم.

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا أَخْلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيَا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

ولما تقدّم ذكر النعم ومقابلتهم إياها بالكفران والظنّان، بيّن عقيب ذلك ذكر ما كان من بني إسرائيل أيضاً في مقابلة النعم بالكفران، فقال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ والحكمة النظرية والعملية في الدين. أو فصل الخصومات. ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ إذ كثر فيهم الأنبياء ما لم يكثروا في غيرهم. وقد روي أنّه كان فيهم ألف نبي. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ما أحلّ الله لهم من أنواع الأرزاق ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم، حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم.

وقيل: فضّلناهم في كثرة الأنبياء منهم على سائر الأمم. وإن كان أمة محمّد ﷺ أفضل منهم في كثرة المطيعين المخبّتين الأخيار من آله، وكثرة المطيعين لله والمجتهدين العلماء فيهم. وهذا كما يقال: هذا أفضل في علم النحو،

وذاك في علم الفقه. والفضل الخير الزائد على غيره. فأمة محمد ﷺ أفضل بفضل محمد وآله، وكثرة العلماء الراسخين منهم.

﴿وَأَتَيْنَاهُمُ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أدلة في أمر الدين. ويندرج فيها المعجزات. وقيل: آيات من أمر النبي ﷺ، بيّنات لصدقه ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في ذلك الأمر ﴿إِلَّا مَن بَغَىٰ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ ما هو موجب لزوال الخلاف. وهو العلم بحقيقة الحال. ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ عداوة وحسداً، وطلباً للرئاسة، وأنفة من الإذعان للحق ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمواخذة والمجازاة له.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ على طريقة ومنهاج من أمر الدين بعد موسى وقومه، فإن الشريعة الستة التي من سلك طريقها أدته إلى البغية، كالشريعة التي هي طريق إلى الماء. فهي علامة منصوبة على الطريق - من الأمر والنهي - يؤدي إلى الجنة، كما يؤدي ذلك إلى الوصول إلى الماء.

﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج، واعمل بها ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ آراء الجهال التابعة للشهوات، من أهل الكتاب الذين غيروا التوراة اتباعاً لهواهم، وحباً للرئاسة، واستباعاً للعوام.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْنُؤُوا﴾ لن يدفعوا ﴿عَنكَ مِّنَ اللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْئًا﴾ ممّا أراد بك إن اتبعت أهواءهم ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَغْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَغْضٍ﴾ إذ الجنسية علّة الضمّ، فلا توالهم باتباع أهوائهم ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ناصرهم وحافظهم. فلا تشغل قلبك بتناصرهم وتعاديدهم عليك، فإن الله ينصرك ويحفظك. فواله بالتقى واتباع الشريعة.

﴿هَذَا﴾ أي: القرآن، أو اتباع الشريعة ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ بيّنات تبصّرهم أمور دينهم. جعل سبحانه ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب، كما جعله روحاً وحياة ﴿وَهْدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة من الله ﴿يَقُومُ يُوقِنُونَ﴾ يطلبون اليقين، لأنهم هم المتفعلون به.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاءً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

ثم قال سبحانه للكفار على سبيل التوبيخ لهم: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ «أم» منقطعة. ومعنى الهزلة فيها إنكار الحساب. والاجتراح: الاكتساب. ومنه: الجوارح. وفلان جارحة أهله، أي: كاسبهم. ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ أن نصيرهم ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: مثلهم. وهو ثاني مفعولي «نجعل». والجملة التي هي قوله: ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدل من الكاف، لأن الجملة تقع مفعولاً ثانياً، فكانت في حكم المفرد. ألا ترى لو قلت: أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم، كان سديداً، كما تقول: ظننت زيدا أبوه منطلق.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص: سواء بالنصب - بمعنى: مستوياً - على البدل، ومحياهم ومماتهم على الفاعلية. فكان مفرداً غير جملة. أو على الحال من الضمير في الكاف، أو المفعولية، والكاف حال.

والمعنى: إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محياً، وأن يستووا مماتاً، لافتراق أحوالهم أحياء، حيث ينصر الله المؤمنين في الدنيا، ويمكنهم من المشركين، ولا ينصر الكافرين، ولا يمكنهم من المسلمين، وينزل الملائكة عند

الموت على المؤمنين بالبشرى، وعلى الكافرين بضرب وجوههم وأدبارهم. أو حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على ركوب المعاصي، ومات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعد لهم.

وقيل: معناه إنكار أن يستوا في الممات كما استوا في الحياة، لأنّ المسيئين والمحسنين مستوٍ محياهم في الرزق والصحة، وإنّما يفرقون في الممات. وقيل: سواء محياهم ومماتهم كلام مستأنف، على معنى: أنّ محيا المسيئين ومماتهم سواء، وكذلك محيا المحسنين ومماتهم، فإنّ كلّاً يموت على حسب ما عاش عليه، فلا يكون حال هؤلاء مساوية لهؤلاء.

وقيل: الضمير للكفار. والمعنى: أنهم يتساوون محياً ومماتاً، لأنّ الحيّ متى لم يفعل الطاعة فهو بمنزلة الميت.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ساء حكمهم هذا. أو بشس شيئاً حكموا به ذلك. وعن تميم الداري: أنّه كان يصلي ذات ليلة عند المقام، فبلغ هذه الآية، فجعل يبكي ويردّها إلى الصباح.

وعن الفضيل: أنّه بلغها فجعل يردّها ويبكي ويقول: يا فضيل، ليت شعري من أيّ الفريقين أنت.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقهما عبثاً، وإنّما خلقهما لنفع خلقه، بأن يكلفهم ويعرّضهم للثواب الجزيل. وهذا كالدليل على الحكم السابق، من حيث إنّ خلق ذلك بالحقّ المقتضي للعدل يستدعي انتصار المظلوم من الظالم، والتفاوت بين المسيء والمحسن في المحيا وبعد الممات.

﴿وَيُخْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطف على «بالحقّ» لأنّه في معنى العلة. أو على علة محذوفة، مثل: ليدلّ بها على قدرته. أو ليعدلّ ولتجزى. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ بأن يكون مطواعاً لهوى النفس، يتبع كل ما تدعوه إليه، فيترك متابعة الهدى رأساً إلى مطاوعة الهوى، فلا يهوى شيئاً إلا ركه، فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ وخذله وخلاه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالماً بأنّ اللطف لا يجديه، ويستحقّ التخلية والخذلان. أو مع علمه بوجوه الهداية، وإحاطته بأنواع الألفاظ المحصلة والمقرّبة.

﴿وُخِّتُمْ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ خذلاناً. فلا يبالي بالمواعظ، ولا يتفكّر في الآيات. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ تخلية. فلا ينظر بعين الاستبصار والاعتبار. ومرّ تفسير^(١) الطبع والختم والإضلال والغشاوة غير مرّة. وقرأ حمزة والكسائي: غشوة.

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ من بعد إضلاله ومنع أطافه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتعظون بهذه المواعظ؟ وهذا استبطاء بالتذكّر منهم.

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّوَّابَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

ثم أخبر سبحانه عن منكري البعث فقال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ﴾ ما الحياة أو الحال ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: نكون أمواتاً نظماً وما قبلها، ونحيا بعد ذلك. أو نموت بأنفسنا، ونحيا ببقاء أولادنا. أو يموت بعضنا، ويحيا بعضنا. أو يصيبنا الموت والحياة فيها، وليس وراء ذلك حياة. ويحتمل أنهم أرادوا به التناسخ، فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ إلا مرور الزمان. وهو في الأصل مدة بقاء العالم،

من: دهره إذا غلبه.

والمعنى: أنهم قالوا: المؤثر في هلاك أنفسنا ليس إلا مرور الزمان، وكرور الليالي والأيام. فيفكرون ملك الموت، وقبضه الأرواح بأمر الله. وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان. وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان. ومنه قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر، فإن الدهر هو الله». أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر.

﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ بنسبة الحوادث إلى حركات الأفلاك وما يتعلق بها ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما يقولون ذلك عن علم، ولكن عن ظنّ وتخمين ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ إذ لا دليل لهم عليه، وإنما قالوه بناءً على التقليد.

﴿وَإِذَا تُلَاقَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على ما يخالف معتقدهم. أو مبينات له. ﴿مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ﴾ ما كان لهم ما يتمسك به في مقابلتها ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوا بِآبَائِنَا﴾ أي: أحيوهم حتى نعلم أن الله قادر على بعثنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وإنما سمّاه حجة وليس بحجة، لأنه في حسابناهم حجة، فساقه مساقها. أو لأنه في أسلوب قوله: تحية بينهم ضرب وجيع^(١). كأنه قيل: إلا ما ليس بحجة.

(١) لمعروبن معديكرب. وصدرة: وخيل قد دلفت لها بخيل.

والمراد نفي أن يكون لهم حجة البتة. فسميت حجة على سبيل التهكم.
 وإنما لم يجبهم الله إلى ذلك، لأنهم إنما قالوا ذلك متعنتين مقترحين، لا
 طالبين الرشد. ولهذا خاطب سبحانه نبيه ﷺ راداً عليهم قولهم بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ
 يُخَيِّبُكُمْ﴾ في دار الدنيا، لأنه لا يقدر على الإحياء أحد سواه ﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ عند
 انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بأن يبعثكم ويعيدكم أحياء ﴿لَا زَيْتَ
 فِيهِ﴾ لقيام الحجة على أن من قدر على فعل الحياة في وقت، قدر على فعلها في
 كل وقت. فلما كان يقدر على الإيداء، فلا ريب أنه يقدر على الإعادة، بل كانت
 أهون عليه من الإيداء. وأيضاً الحكمة اقتضت الجمع للمجازاة على ما مرّ مراراً،
 والوعد المصدق بالآيات دلّ على وقوعها، وإذا كان كذلك أمكن الإتيان بآبائهم،
 لكن الحكمة اقتضت أن يعادوا يوم الجمع للجزاء.
 ﴿وَلَكِنْ أَخْخَرْنَا النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقلة تفكيرهم، وقصور نظرهم على ما
 يحسونه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ
 ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ
 ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُلَى عَلَيْكُمْ
 فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ

لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَذِرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُصْبِقِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَقُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تعميم المقدره بعد تخصيصها ﴿وَالْيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يَخْسَرُ الْمُضِلُّونَ﴾ أي: ويخسر العادلون عن الحق الفاعلون للباطل يوم تقوم الساعة. و«يومئذٍ» بدل منه.

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ مجتمعة. من الجثوة، وهي الجماعة. وجمعها: جُثَيٌّ. وفي الحديث: «من جُثِيَ جهنم»^(١). أو باركة مستوفزة^(٢) على الركب. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ صحائف أعمالها. فاكتمى باسم الجنس، كقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ

(١) هذه قطعة من حديث الحرث بن الحرث الأشعري قال: «قال رسول الله ﷺ: من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جُثِيَ جهنم...»: وجُثِيَ جمع الجثوة، وهي: الحجارة المجموعة. انظر مسند أحمد ٤: ١٣٠.

(٢) استوفز في قعدته: قعد غير مطمئن، كأنه يتهيأ للوثوب.

فَقَرَأَ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ»^(١). وقرأ يعقوب: كُلٌّ، على أنه بدل الأولى. و«تُدعى» صفة، أو مفعول ثانٍ. «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» محمول على القول، تقديره: يقال لهم هذا القول. وإضافة الكتاب إليهم للملابسة، فإن أعمالهم مثبتة فيه. وقيل: المراد كتابها المنزل على رسولها ليسألوا عما عملوا به.

«هَذَا كِتَابُنَا» أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه، لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم «يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ» يشهد عليكم بما علمتم بلا زيادة ولا نقصان «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ» نستكتب الملائكة «مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أعمالكم.

وعن ابن عباس: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، يشهد بما قضي فيه من خير وشر. وعلى هذا: فيكون معنى «نستنسخ»: أن الحفظة تستنسخ الخزنة ما هو مدون عنده من أحوال العباد، من الكافرين والمؤمنين.

«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ» في جنته «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ» الفلاح الظاهر، لخلوصه عن الشوائب.

«وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي» أي: فيقال لهم: ألم يأتكم رسلي، فلم تكن آياتي «تُنْتَلَى عَلَيْكُمْ» فحذف القول والمعطوف عليه، اكتفاءً بالمقصود، واستغناءً بالقرينة «فَأَسْتَكْبِرْتُمْ» عن الإيمان بها، وتعظمت عن قبولها «وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ» أي: كافرين، كما قال: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ»^(٢).

«وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ» يحتمل الموعود به، أي: ما وعد الله به من الثواب والعقاب، أو المصدر. «حَقٌّ» كائن هو أو متعلق لا محالة «وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا» في حصولها. أفراد للمقصود، عطفاً على محل «إِنْ» واسمها. وقرأ حمزة بالنصب، عطفاً على اسمها.

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) القلم: ٣٥.

﴿قُلْتُمْ مَا نَنْذِرُ مَا لَنَا بِالسَّاعَةِ﴾ أي شيء الساعة؟ استغرباً لها ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾
أصله: نظنّ ظناً، فأدخل حرفاً النفي والاستثناء لإثبات الظنّ ونفي ما عداه، كأنه
قال: ما نحن إلا نظنّ ظناً، أو لنفي ظنهم فيما سوى ذلك مبالغة. ثم أكدّه بقوله:
﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ أي: لا مكانه.

﴿وَبَدَأْتُمْ﴾ ظهر لهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ على ما كانت عليه، بأن عرفوا
قبحها، وعانوا وخامه عاقبتها، أو جزاؤها. وتسميته بها من قبيل ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ
سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾^(١). ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: جزاء استهزائهم.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنفَاكُمُ﴾ نترككم في العذاب ترك ما ينسى ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ كما تركتم مقتضى عدته، ولم تبالوا به. وإضافة اللقاء إلى اليوم إضافة
المصدر إلى ظرفه، كمعنى إضافة المكر في قوله: ﴿مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾^(٢) أي:
نسيتم لقاء الله في يومكم هذا. ﴿وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ﴾
يخلصونكم منها، ويدفعونها عنكم.

﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ استهزأتم بها، ولم تتفكروا فيها
﴿وَعَزَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بحسنها وزينتها، فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿فَالْيَوْمَ لَا
يُخْرِجُونَ مِنْهَا﴾ وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وضّمّ الراء. ﴿وَلَا هُمْ يُسْقَتُونَ﴾
ولا يطلب منهم أن يعتبروا ربهم - أي: يرضوه - لفوات أوانه. يقال: أعتبني فلان، إذا
عاد إلى مسرتي راجعاً عن الإساءة.

﴿فَبِهِ الْخَفْذُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إذ الكلّ نعمة منه، ودالّ
على كمال قدرته. فاحمدوه، فإنّ مثل هذه الربوبية العامّة يوجب الحمد والثناء على
كلّ مربوب.

(١) الشورى: ٤٠.

(٢) سبأ: ٣٣.

﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إذ ظهر فيها آثار كبريائه وعظمته. فكبروه، فإنَّ حقَّ مثله أن يكبر ويعظم. وفي الحديث: «يقول الله سبحانه: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدة منهما ألقىته في جهنم». ﴿وَفُو الْغَزِيرِ﴾ الذي لا يغلب ﴿الْحَكِيمِ﴾ فيما قدَّر وقضى. فاحمدوه، وكبروه، وأطيعوا له.

سورة الأحقاف

مَكِّيَّة. قال ابن عباس وقتادة: **إِلَّا آيَةٌ مِنْهَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾** ^(١) في عبدالله بن سلام. وهي خمس وثلاثون آية.

أَبِي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الأحقاف، أُعطي من الأجر بعدد كلِّ رمل في الدنيا عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات».

وعن عبدالله بن أبي يعفور، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من قرأ كلَّ ليلة أو كلَّ جمعة سورة الأحقاف، لم يصبه الله بروعة في الدنيا، وآمنه من فزعه يوم القيامة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا

مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اتَّوْنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَلَىٰ بِهِ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾

ولما ختم الله سورة الجاثية بذكر التوحيد، وذم أهل الشرك والوعيد، افتتح هذه السورة أيضاً بالتوحيد، ثم بالتوبيخ لأهل الكفر من العبيد، فقال:

﴿يَسْمِ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ حَمَّ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ قد مر^(١) تفسيره ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق. وهو ما تقتضيه الحكمة والمعدلة. وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم، والبعث للمجازاة، على ما قرّناه مراراً. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وبتقدير أجل مسمى ينتهي إليه الكل. وهو يوم القيامة. أو أجل كل واحد. وهو آخر مدة بقائه المقدرة له. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا﴾ أنذروه من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه. ويجوز أن تكون «ما» مضدرية. أي: عن إنذارهم ذلك اليوم.

﴿مُغْرَضُونَ﴾ عادلون عن أن يتفكروا فيه، ويستعدّوا لحلوله.

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الكفرة ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْآرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: أخبروني عن حال آلهتكم بعد التأمل فيها، هل يعقل أن يكون لها في أنفسها مدخل في خلق شيء من أجزاء العالم، فتستحقّ به العبادة؟ وتخصيص الشرك بالسموات احتراز عما يتوهم أن للوسائط شركة في إيجاد الحوادث السفليّة.

﴿إِنِّي أَنذِرُكُمْ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ من قبل هذا الكتاب، يعني: القرآن، فإنّه ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك، فإنّه ما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلّا وهو ناطق بمثل ذلك، فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله.

﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين. هل فيها ما يدلّ على استحقاقهم للعبادة؟ من قولهم: سمعت الناقاة على أثارة من شحم، أي: على بقية شحم كانت بها. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم، أي: هاتوا إحدى هذه الحجج الثلاث. أولاها: دليل العقل. والثانية: الكتاب. والثالثة: الخبر المتواتر. فإذا لم يمكنكم شيء من ذلك فقد وضع بطلان دعواكم.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الجنّ والإنس والأوثان. ومعنى الاستفهام فيه: إنكار أن يكون أحد أضلّ من المشركين، حيث تركوا عبادة السميع المجيب الخبير، القادر على تحصيل كلّ بغية ومرام، إلى عبادة ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ دعاءه، فضلاً أن يعلم سرائره، ويراعي مصالحه ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أبداً ما دامت الدنيا ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ لأنهم إمّا جمادات، وإمّا عباد مشغولون بأحوالهم.

﴿وَإِذَا خُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يضرّونهم ولا ينفعونهم، كقوله تعالى:

﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾^(١) ﴿وَكَانُوا﴾ وكانت آلهتهم ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ بعبادة عبدتهم ﴿كَافِرِينَ﴾ مكذِّبين بلسان الحال أو المقال. وقيل: الضمير للعابدين. وهو كقوله: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(٢). وعلى الأول كُتِبَ عن الآلهة بالواو والنون، لأنه أضيف إليها ما يكون للعقلاء، كقوله: ﴿زَانِيَتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٣).

﴿وَإِذَا تَنَتَّلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ حجاج وشواهد من القرآن، وسائر المعجزات التي ظهرت على يد النبي ﷺ ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات، أو مبيِّنات ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِنُحِقُّ﴾ لأجله وفي شأنه. فاللام فيه كما في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾^(٤). والمراد بالحق الآيات، وبالأذين كفروا المتلو عليهم. فوضع الظاهران موضع الضميرين، للتسجيل عليها بالحق، وعليهم بالكفر والانهماك في الضلالة ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: بادره بالبحود ساعة أتاهم وأول ما سمعوه، من غير نظر وتأمل، عناداً ولجاجاً ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر بطلانه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم إياه سحراً إلى ذكر ما هو أشنع منه، وهو إسناد الافتراء إلى محمد ﷺ. ومعنى الهمة الإنكار والتعجب. كأنه قيل: دع هذا واسمع قولهم المستنكر الموجب للتعجب. وذلك أن محمداً كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتره على الله، وذلك باطل، لأنه قدر عليه دون أمة العرب، فكانت قدرته عليه معجزة، لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة كانت تصديقاً من الله له، والحكيم لا يصدّق الكاذب، فلا يكون مفترياً.

﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾ على الفرض ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: إن

(١) مريم: ٨٢.

(٢) الأنعام: ٢٣.

(٣) يوسف: ٤.

(٤) الأحقاف: ١١.

عاجلني الله بمقوبة الافتراء، فلا تقدرون على دفع شيء منها، فكيف أجتريء عليه، وأعرض نفسي للعقاب، من غير توقع نفع ولا دفع ضرر من قبلكم؟!

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تندفعون فيه من القدح في آياته، بتسميتها سحراً تارة وافتراءً أخرى ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالكذب والإنكار. وهو وعيد بجزاء إفاضةهم. ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن، وإشعار بحلم الله عنهم مع عظم جرأتهم.

قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنِ اتَّبِعُوا إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

روي: أنهم كانوا يقترحون عليه الآيات، ويسألونه عما لم يوح به إليه من الغيوب، فنزلت:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ البدع بمعنى البديع، كالخف بمعنى الخفيف. والمعنى: ما كنت بديعاً - أي: لست بأول رسول بعث - فأتيكم بكل ما تقترحونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغيبات، فإن الرسل لم يكونوا يأتون إلا بما آتاهم الله من آياته، ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم، ولم يقدرُوا على المقترحات إلا بمشيئة الله، فكيف أقدر على مقترحاتكم؟!

﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا. فلا أدري أأموت أم أقتل؟ ولا أدري أيها المكذبون أترمون بالحجارة من السماء أم يخسف بكم؟ أو غير ذلك من أنواع العقاب على الأمم المكذبة في الدنيا، إذ لا علم لي بالغيب. وأما في الآخرة؛ فإنه قد علم أنه في الجنة، وأن من كذبه في النار. وهذا الوجه منقول عن الحسن والسدي.

وعن الكلبي: قال لرسول الله ﷺ أصحابه - وقد ضجروا من أذى المشركين - : حتّى متى نكون على هذا؟ فقال: «ما أدري ما يفعل بي ولا بكم، أأترك بمكة، أم أؤمر بالمهاجرة عنها إلى بلد آخر؟».

وعن ابن عباس معناه: لا أعلم ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة. ثم قال: هي منسوخة بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(١).

ويجوز أن يكون نفيًا للدراية المفصلة، أي: لا أدري ما يصنع بي وبكم على التفصيل؟ لأنّه عالم بحاله وحالهم على الاجمال.

واعلم أنّ لفظة «لا» مزيدة لتأكيد النفي المشتمل على «ما يفعل بي». و«ما» إمّا موصولة منصوبة، أو استفهاميّة مرفوعة.

﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ لا أتجاوزه. وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار عمّا لم يوح إليه من الغيوب، أو استعجال المسلمين أن يتخلّصوا من أذى المشركين. ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من عقاب الله ﴿مُبِينٌ﴾ بين الإنذار بالشواهد المبيّنة والمعجزات المصدّقة.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمْنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾

روي: أنّ النبي ﷺ لما قدم من مكة إلى المدينة، نظر ابن سلام إلى وجهه، فعلم أنّه ليس بوجه كذاب. وتأمله فتحقّق أنّه هو النبيّ المنتظر. وقال له: إنّي سائلك عن ثلاث لا يعلمهنّ إلّا نبيّ. ما أوّل أشرط الساعة؟ وما أوّل طعام يأكله أهل الجنّة؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمّه؟

فقال ﷺ: **أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ** فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب .
وأما أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فزيادة كبد حوت . وأما الولد ؛ فإذا سبق ماء الرجل
نزعه ، وإن سبق ماء المرأة نزعته .

فقال : أشهد أنك رسول الله حقاً . ثم قال : يا رسول الله إن اليهود قوم بُهت^(١) ،
فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك .

فجاءت اليهود ، فقال لهم النبي ﷺ : أي رجل عبد الله فيكم ؟
قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيّدنا وابن سيّدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا .

قال : أرايتم إن أسلم عبد الله ؟

قالوا : أعاذه الله من ذلك .

فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً
رسول الله .

فقالوا : شرّنا وابن شرّنا ، وانتقصوه .

قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر .

قال سعد بن أبي وقاص : ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على
الأرض : إنّه من أهل الجنة ، إلا لعبد الله بن سلام . وفيه نزلت :

﴿ قُلْ أَزَايِنُكُمْ ﴾ أخبروني ، أي : ماذا تقولون ﴿ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي : القرآن
﴿ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ وقد كفرتم به . ويجوز أن تكون الواو عاطفة على الشرط . وكذا الواو
في قوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ إلا أنّها تعطفه بما عطف عليه - وهو
قوله : « فآمن واستكبرتم » - على جملة ما قبله ، وهو قوله : « كان من عند الله » .

والشاهد عبد الله بن سلام . وعن مسروق : هو موسى . وشهادته : ما في التوراة
من نعت الرسول .

(١) بُهت جمع بهات وبهوت ، وهو الذي يبهت السامع بما يفترى عليه من الكذب .

﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ مثل القرآن. وهو ما في التوراة من المعاني المصدقة للقرآن المطابقة له، من التوحيد والوعد والوعيد، وغير ذلك. ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾^(١). ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾^(٢). ﴿كَذَّبَكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَآلِيَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾^(٣).

ويجوز أن يكون المعنى: إن كان من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد على نحو ذلك. يعني: كونه من عند الله. ﴿فَأَمَّنَ﴾ فآمن الشاهد بالقرآن لما رآه من جنس الوحي مطابقاً للحقّ ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان. وجواب الشرط محذوف، تقديره: ألستم ظالمين؟ ويدلّ على حذفه قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه استئناف مشعر بأن كفرهم به لضلّالهم المسبّب عن ظلمهم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا أَفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

ثم أخبر سبحانه عن الكفار الذين جحدوا وحدانيته، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لأجلهم وفي حقهم ﴿لَوْ كَانَ﴾ الإيمان، أو ما أتى به محمد ﷺ ﴿خَيْرًا﴾ نفعاً عاجلاً ﴿مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ يعني:

(١) الشعراء: ١٩٦.

(٢) الأعلى: ١٨.

(٣) الشورى: ٣.

قالت كفّار مكة في حقّ من يتّبع محدّثاً من الفقراء والموالي والرعاة - مثل : عمّار، وصهيب، وابن مسعود، وأمثالهم من السقاط - : لو كان ما جاء به خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الفقراء الأذلاء.

وقيل : لمّا أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار، قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع : لو كان خيراً ما سبقنا إليه رُعاء البهّم^(١).

وقيل : هذا قول اليهود حين أسلم ابن سلام وأصحابه.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ بالقرآن حيث لم يتدبّروا فيه. والظرف متعلّق بمحذوف تقديره : وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم. وقوله : ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾ مسبّب عنه. وهذا كقولهم : أساطير الأولين.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ ومن قبل القرآن. وهو خبر لقوله : ﴿كِتَابٌ مُوسَى﴾ ناصب لقوله : ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ على الحال، كقولك : في الدار زيد قائماً. والمعنى : قدوة يؤتمّ به في دين الله وشرائعه، كما يؤتمّ بالامام. ورحمة لمن آمن به وعمل بما فيه. ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى، أو لما بين يديه ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير «كتاب» في «مصدّق». أو «كتاب» لتخصّصه بالصفة. وعاملها معنى الإشارة. وذكر اللسان تأكيد، كما تقول : جاءني زيد رجلاً صالحاً، فتذكر «رجلاً» تأكيداً. وفائدة هذه الحال الإشعار بالدلالة على أنّه مع كونه مصدّقاً للتوراة، مفهوم المراد لكفّار قريش، لأنّه نزل بلغتهم على أفصح الكلام وأبلغ البيان.

وقيل : مفعول «مصدّق». والمعنى : يصدّق ذا لسان عربيّ بإعجازه، وهو الرسول.

﴿يُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ علّة «مصدّق». وفيه ضمير الكتاب، أو الله، أو الرسول. ويؤيد الأخير قراءة نافع وابن عامر واليزي بخلاف عنه ويعقوب بالتاء. ﴿وَيُنشِزُ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ عطف على محلّ «لينذر» لأنّه مفعول له.

(١) رُعاء جمع راعي. والبّهّم : أولاد البقر والمعز والضأن. والواحد : البهّمة.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي: جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في الأمور التي هي منتهى العمل. و«ثم» للدلالة على تأخر رتبة العمل، وتوقف اعتباره على التوحيد. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فوات محبوب. والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ المنعمون فيها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من المستكن في «أصحاب» ﴿جَزَاءً﴾ مصدر لفعل دلّ عليه الكلام، أي: جوزوا جزاء ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من اكتساب الفضائل العلمية والعملية.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُثْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ افْكِكُمَا

أَتَعِدَّانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَبِئْسَ
 آمِنِينَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا
 خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ
 ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذُهِبَ طَبِيبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ
 الدُّنْيَا وَأَسْنَمْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي
 الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

﴿وَوَضِينَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ وقرأ الكوفيون: إحساناً ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ
 كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ انتصابهما على الحال أو على المصدر، أي: ذات كره، أو
 حملاً ووضعا ذا كره. والكره هو المشقة، فإن الحمل موجب لشغل الولد عليها،
 والوضع موجب لشدة الطلق. وقرأ الحجازيان وأبو عمرو وهشام بالفتح. وهما
 لغتان، كالفقر والفقر.

﴿وَحَمَلَتْهُ وَفِصَالُهُ﴾ أي: مديتهما ﴿فَلَالُؤُنْ شَهْرًا﴾ وقرأ يعقوب: وَفَضْلُهُ،
 كالْفِطَامِ وَالْفِطَمِ، بناءً ومعنى. والمراد بالفصال الرضاع، فإنه لما كان الرضاع يليه
 الفصال ويلابسه، لأنه ينتهي به ويتم، سمي فصالاً. وقائدة تسمية الرضاع به الدلالة
 على الرضاع التام المنتهي بالفصال. وكل ذلك بيان لما تكابده الأم في تربية الولد،
 مبالغة في التوصية بها.

وفيه دليل على أَنَّ أَقْلَ مَدَّةِ الحمل سِتَّةَ أشهر، لآَنِهِ إِذَا حَطَّ مِنْهُ لِلْفَصَالِ حَوْلَانٍ - لقوله: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَتِّمَ الرُّضَاعَةَ﴾^(١) - بقي سِتَّةَ أشهر. وبه قال الأطباء. ولعلَّ تخصيص أَقْلِ الحمل وأكثر الرضاع لانضباطهما، وتحقق ارتباط حكم النسب والرضاع بهما.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ إِذَا اكْتَهَلَ^(٢) واستوفى السنَّ الَّتِي تستحكم فيها قُوَّتُهُ وعقله وتمييزه، وذلك إِذَا أَنَافَ^(٣) على الثلاثين وناطح الأربعين. وعن ابن عباس وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة. ووجهه: أَن يكون ذلك أَوَّلَ الأَشُدِّ، وغايته الأربعين. ولهذا عطف عليه عطفًا تفسيريًّا فقال: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فَإِنَّهُ بَيَّنَ لِرِمَانِ كَمَالِ الأَشُدِّ. وقيل: لم يبعث نبيٌّ إلَّا بعد الأربعين.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أَلْهَمْنِي. وَأَصْلُهُ: أَوْلَعْنِي، مِنْ: أَوْزَعْتَهُ بِكَذَا. ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ يعني: نعمة الاسلام، أو ما يعمُّها وغيرها. وجمع بين شكرِي النعمة عليه وعلى والديه، لَأَنَّ النعمة عليهما نعمة عليه.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ نَكَرَهُ لِلتَّعْظِيمِ، أو لآَنِهِ أَرَادَ نَوْعًا مِنَ الْجِنْسِ يستجلب رضا الله ﷻ. وقيل: هو الصلوات الخمس.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ واجعل لي الصلاح واقعًا ساريًا في ذُرِّيَّتِي راسخًا فيهم ﴿إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ﴾ عَمَّا لَا تَرْضَاهُ، أو يشغل عنك ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لأَمْرِكَ، المخلصين لك.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعني: طاعاتهم الواجبة والمندوبة بإيجاب الثواب لهم، فَإِنَّ الْمَبَاحَ حَسَنٌ وَلَا يَثَابُ عَلَيْهِ ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَنْ

(١) البقرة: ٢٣٣.

(٢) أي: صار كهلاً. والكَهْلُ: مَنْ كَانَتْ سِنُو عَمْرِهِ بَيْنَ الثَّلَاثِينَ وَالْخَمْسِينَ تَقْرِيْبًا.

(٣) أي: زَادَ. وناطح كناية عن الوصول، مِنْ: نَطَحَ الثَّوْرَ إِذَا أَصَابَ بَقْرَتَهُ.

سَيِّئَاتِهِمْ» لتوبتهم، أو تفضلاً عليهم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالنون فيهما. ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ في محلّ النصب على الحال، أي: كائنين في عدادهم، أو مثابين، أو معدودين فيهم ﴿وَعَذَابُ الصَّدَقِ﴾ مصدر مؤكّد لنفسه، فإنّ قوله: «تتقبّل» و«تجاوز» وعد من الله لهم بالتقبّل والتجاوز ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي: في الدنيا، بأن يتقبّل من محسنهم ويتجاوز عن سيئهم إذا تابوا، أو إذا شاء أن يتفضّل عليهم. ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْ﴾ مبتدأ خبره «وأولئك» الآتي، فإنّ المراد بالموصول الجنس. والأفّ صوت إذا صوّت به الانسان علم أنّه متضجّر. فهي كلمة تبرّم يقصد بها إظهار التسخط. واللام للبيان. ومعناه: بعداً لكما. وقيل: معناه: تنناً وقدرّاً لكما، كما يقال عند شمّ الرائحة الكريهة. ووجوه قراءاته قد مرّت في سورة بني إسرائيل^(١). ﴿أَتَعِدَّائِنِي أَنْ أُخْرِجَ﴾ أبعث حيّاً. وقرأ هشام: أتعداّسي، بنون واحدة مشدّدة. ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فما أخرجوا، ولم يرجع أحد منهم. ﴿وَهُمَا يَسْتَغْفِيَانِ اللَّهَ﴾ يطلبان منه الغوث ويقولان: الغياث بالله منك. أو يسألانه أن يغفّيه بالتوفيق للإيمان. ﴿وَيْلَكَ آمِينَ﴾ أي: يقولان له: ويلك. وهو دعاء عليه بالثبور. والمراد به الحثّ على ما يخاف على تركه من الايمان، لا حقيقة الهلاك. ﴿إِنْ وَعَدَ اللَّهُ﴾ بالبعث والنشور والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ ثابت واقع. ﴿فَيَقُولُ﴾ هو في جوابهما ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أباطيلهم الّتي سطرّوها، وليس لها حقيقة.

وقيل: إنّ الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، قال له أبواه: أسلم، وألحّا عليه. فقال: أحيوا لي عبدالله بن جدعان ومشايخ قريش حتّى أسألهم عمّا تقولون. وروي: أنّ معاوية حين كتب إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد، قال عبد الرحمن: لقد جئتكم بها هرقلية، أتبايعون لأبنائكم؟ فقال مروان: يا أيّها الناس

(١) راجع ج ٤ ص ٢٣، ذيل الآية ٢٣ من سورة بني إسرائيل.

هو الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: «وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدِيهِ أَفَّ لَكُمَا». فسمعت عائشة فغضبت وقالت: والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه لسميته، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فضض^(١) من لعنة الله.

والأصح: أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ كَافِرٍ عَائٍ لَوَالِدِيهِ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: كلمة العذاب بأنهم أهل النار ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كقوله: «في أصحاب الجنة» ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ بيان للأمم. والمعنى: حالهم على مثل حال أولئك، واعتقادهم كاعتقادهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ لأنفسهم. تعليل للحكم على الاستئناف.

﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الفريقين، أعني: المؤمنين البررة، والكافرين الفجرة ﴿دَرَجَاتٍ﴾ مراتب عالية ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ من جزاء ما عملوا من الخير والشر. أو من أجل ما عملوا منهما. والدرجات غالبية في المثوبة، وهاهنا جاءت على التخليب. وحقيقة المعنى: قَدَّرَ جزاءهم على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات، والعقاب دركات. ﴿وَلِيُوقِنَ أَنَّ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بعقاب لا يستحقونه، أو بمنع ثواب يستحقونه. وقرأ نافع وحزمة والكسائي وابن ذكوان بالنون.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يعذبون بها، كما يقال: عرض بنو فلان على السيف، إذا قتلوا به. ومنه قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾^(٢). أو يكون المعنى: عرضت النار عليهم قبل أن يدخلوها ليروا أهوالها.

﴿أَذْمُتُمْ﴾ أي: يقال لهم: أذهبتم. وهو ناصب اليوم. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالاستفهام، غير أن ابن كثير يقرأ بهجزة ممدودة، وهما يقرآن بها وبهزتين محققتين. ﴿طَيِّبَاتِكُمْ﴾ لذائذكم ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ باستيفائها

(١) الْفَضْضُ: كُلُّ مَتَرَفَّقٍ وَمُنْتَشِرٍ. أي: أنت حصيد تلك اللعنة، فضضت وتفرقت منها.

(٢) غافر: ٤٦.

﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ انتفعتُم بها، فما بقي لكم منها شيء.

والمعنى: ما كتب لكم حظًا من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم، وقد ذهبتُم به وأخذتموه، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها.

وقيل: معناه: أنفقتُم طيبات ما رزقتُم في شهواتكم وفي ملاذ الدنيا، ولم تنفقوها في مرضات الله ﷻ.

﴿فَالْيَوْمَ تَجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الهوان ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ بسبب الاستكبار الباطل، والفسوق عن طاعة الله.

واعلم أن الله سبحانه لما وبَّخ الكفار بالتمتع بالطيبات واللذات في هذه الدار، أثر النبي ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ الزهد والتعفف، واجتناب الترفه والنعمة. وقد ورد في الحديث أن عمر بن الخطاب قال: استأذنت على رسول الله ﷺ، فدخلت عليه في مشربة أم إبراهيم، وإنه لمضطجع على خَصَفَةٍ^(١)، وإنَّ بعضه لعلی التراب، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً. فسلمت ثم جلست فقلت: يا رسول الله أنت نبي الله وصفوته وخيرته من خلقه، وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير. فقال رسول الله ﷺ: «أولئك قوم عجَّلَت طيِّباتهم، وهي وشيكة الانقطاع، وإنما أخرت لنا طيِّباتنا».

وقال علي بن أبي طالب ﷺ في بعض خطبه: «والله لقد رقت مدرعتي^(٢) هذه حتَّى استحييت من راقعها. ولقد قال لي قائل: الا تنبذها؟ فقلت: أعزب^(٣) عني، فعند الصباح يحمد القوم السرى».

وروى محمد بن قيس عن أبي جعفر ﷺ أنه قال: «والله كان علياً ﷺ ليأكل

(١) الخَصَفَة: الثوب الغليظ، أو جِلَّة تعمل من الخوص.

(٢) المِدْرَعَة: جَبَّة مشقوقة المقدَّم.

(٣) أي: ابتعد عني.

أكله العبد، ويجلس جلسة العبد. وإن كان ليشتري القميصين فيختر غلامه خيرهما، ثم يلبس الآخر، فإذا جاز أصابعه قطعه، وإذا جاز كعبه حذفه. ولقد ولي خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا أورث بيضاء ولا حمراء. وكان يطعم الناس خبز البرّ واللحم، وينصرف إلى منزله فيأكل خبز الشعير والزيت والخلّ. وما ورد عليه أمران كلاهما لله ﷻ فيه رضا، إلا أخذ بأشدهما على بدنه. ولقد أعتق ألف مملوك من كدّ يمينه، تربت منه يداه، وعرق فيه وجهه. وما أطاق عمله أحد من الناس بعده.

ثم إنه قد اشتهر في الرواية أنه ﷺ لما دخل على العلاء بن زياد بالبصرة يعوده قال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، لبس العباءة وتخلّى من الدنيا.

فقال ﷺ: عليّ به. فلما جاء به قال: يا عدي^(١) نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك. أترى الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟! أنت أهون على الله من ذلك.

قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك، وجشوبة^(٢) ماأكلك! قال: ويحك! إني لست كأنت، إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدّروا أنفسهم بضعة الناس، كيلا يتبيخ^(٣) بالفقير فقره.

روي: أن النبي ﷺ دخل على أهل الصفة^(٤) وهم يرقعون ثيابهم

(١) أي: مبغض نفسه. من: عدي لفلان: أبغضه. فهو على زنة: وفي. واستهام بك الخبيث أي: وسوس فيك الشيطان، فذهب فؤادك، وسلب عقلك. من: أستهم فؤاده أي: ذهب فؤاده وسلب عقله من الحب أو غيره.

(٢) جَشَبَ الطعامُ: غلظ. فهو جَشِب. وهو جَشِب.

(٣) أي: يهيج ويثور. من: باغ الدم أي: هاج وثار.

(٤) أهل الصفة: فقراء كانوا يجلسون في صفة مسجد النبي ﷺ. وصفة المسجد: مقعد بالقرب منه مظلل.

بالأدم^(١)، ما يجدون لها رقاعاً، فقال: «أأنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلة^(٢) ويروح في أخرى، ويغدى عليه بجفنة^(٣) ويراح عليه بأخرى، ويستر بيته كما تستر الكعبة؟ قالوا: نحن يومئذٍ خير. قال: بل أنتم اليوم خير».

وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لَتُفَكِّكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمَرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِيهِمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ

(١) الأدم جمع الأديم. وهو: الجلد المدبوغ.

(٢) الحلة: كل ثوب جديد، أو الثوب الساتر لجميع البدن.

(٣) الجفنة: القصة الكبيرة، أي: أنية الطعام.

بآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا هُوَ خَوْلَكُمْ
مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

ثم خوف سبحانه كفار مكة بما وقع على قوم هود لعنادهم، فقال:

﴿وَأَذْكُرُ﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿أَخَا عَادٍ﴾ يعني: هوداً ﴿إِذْ أَنْذَرْتُ قَوْمَهُ﴾
خوفهم بالله تعالى ﴿بِالْأَخْقَافِ﴾ جمع حقف. وهو رمل مستطيل مرتفع، فيه انحناء.
من: احقوقف الشيء إذا اعوج. وكانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بأرض
يقال لها: الشحر، من بلاد اليمن. وقيل: بين عمان ومهرة.

﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ﴾ جمع نذير بمعنى المنذر، أي: الرسل المنذرون ﴿مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ قبل هود وبعده. يعني: الرسل الذين بعثوا قبل هود والذين بعثوا
بعده. والجملة حال، أو اعتراض بين قوله: «أُنذِر قومه» و﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ «أَنْ»
مفسرة للإنذار. والمعنى: أَنْ هوداً ﷺ قد أُنذِرهم فقال لهم: لا تعبدوا إلا الله، فَإِنَّ
النهي عن الشيء إنذار من مضرته ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هائل بسبب
شرككم.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ﴾ لتصرفنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ عن عبادته. يقال: أفكه عن
رأيه إذا صرفه عنه ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من معاملة العذاب على الشرك ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ
الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك.

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا علم لي بوقت عذابكم، ولا مدخل لي فيه
فأستعجل به، وإِنَّمَا علمه عند الله، فإيتيكم به في وقته المقدر له ﴿وَأَبْلَغُكُمْ مَا
أَزْسِلْتُمْ بِهِ﴾ وما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَلِكِنِّي أُرَاقِمُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ لا تعلمون

أَنَّ الرسل بعثوا مبليّنين منذرين، لا معذّبين مقترحين غير ما أذن لهم فيه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ رأوا ما يوعدون. والهاء تعود إلى «ما تعدنا». ﴿عَارِضًا﴾ سحاباً عارض في أفق السماء ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ متوجّه أوديتهم. والإضافة فيه لفظيّة. وكذا في قوله: ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِيرٌنَا﴾ أي: يأتينا بالمطر.

روي: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أيّاماً، فساق الله إليهم سحابة سوداء خرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له: المغيث، فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم استبشروا وقالوا: هذا سحاب عارض ممطرنا. فقال هود: ليس الأمر كما زعمتم ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من العذاب ﴿رِيحٌ﴾ هي ريح. ويجوز أن يكون بدل «ما» ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفتها. وكذا قوله: ﴿تُدْمِرُ﴾ تهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من نفوسهم وأموالهم ﴿بِإَمْرِ رَبِّهَا﴾. وإضافة الربّ إلى الريح دلالة على أنّ الريح وتصريف أعنتها ممّا يشهد لعظم قدرته، لأنّها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده. وذكر الأمر، وكونها مأمورة من جهته عزّ وعلا، يعضد ذلك ويقوّيه.

﴿فَاضْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ﴾ أي: فجاءتهم الريح فدمرتهم، فأصبحوا بحيث لو حضرت بلادهم لما ترى إلّا مساكنهم. وقرأ عاصم وحمة: لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ، بالياء المضمومة، ورفع مساكنهم.

روي: أَنَّ الرّيح كانت تحمل الفسّاط والظّمينّة^(١) فترفعها في الجوّ حتّى ترى كأنّها جرادّة.

وقيل: أوّل من أبصر العذاب امرأة منهم قالت: رأيت ريحاً فيها كشهب النار. وروي: أوّل ما عرفوا به أنّه عذاب: رأوا ما كان في الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم وغلّقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، وأمال الله عليهم الأحقاف، فكانوا تحتها سبع ليال

وثمانية أيام لهم أنين، ثم كشفت الريح عنهم، فاحتملتهم فطرحتهم في البحر.
وروي: أن هوداً لما أحس بالريح خطاً على نفسه وعلى المؤمنين خطاً إلى جنب عين تتبع.

وعن ابن عباس: اعتزل هود ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين على الجلود وتلذه الأنفس، وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة.

وعن النبي ﷺ أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال: اللهم إني أسألك خيراً وخيراً أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به. وإذا رأى مخيلاً^(١) قام وقعد، وجاء وذهب، وتغير لونه. فيقال له: يا رسول الله ما تخاف؟ فيقول: إني أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا: «هذا عارض مطرنا».

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ما أهلكنا أهل الأحقاف، وجازيناهم بالعذاب ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين الذين يسلكون مسالكهم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ «إن» نافية. وهي أحسن من «ما» في اللفظ، لما في مجامعة «ما» مثلها من التكرير المستبشع، ومثله مجتنب. ألا ترى أن الأصل في «مهما»: ماما، فلبشاعة التكرير قلبوا الألف هاءً. أو شرطية محذوفة انجواب. والتقدير: ولقد مكنّاهم في الذي أو في شيء إن مكنّاكم فيه كان بغيكم أكثر.

وقيل: زائدة، مثلها فيما أنشده الأخفش:

يرجّي المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب
والمعنى: مكنّاهم من الطاعات، وجعلناهم قادرين متمكّنين بنصب الأدلة على التوحيد، والتمكين من النظر فيها، والترغيب والترهيب، وإزاحة العلل في

(١) المَخِيلَةُ: السحابة التي تحسبها ماطرة.

جميع ذلك ، كما مكّناكم بها .

والأوّل أظهر وأوفق ، لقوله : ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِثِيًا ﴾ ^(١) . ﴿ كَانُوا أَخْتَرُ مِنْهُمْ وَاشْدُّ قُوَّةً وَأَثَارًا ﴾ ^(٢) . وهو أبلغ في التوبيخ ، وأدخل في الحثّ على الاعتبار .
فمعنى الآية : ولقد مكّناهم في الشيء الذي لم نمكّنكم فيه ، من قوّة الأبدان ، وبسطة الأجسام ، وطول العمر ، وكثرة المال .

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ ليعرفوا بذلك النعم ، ويستدلّوا بها على واهبها ، ويواظبوا على شكرها ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا ابْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من الإغناء . وهو القليل منه ، إذ لم يستعملوا هذه القوى في النظر والتفكير فيما يدلّهم على التوحيد ، فلم ينفعهم جميع ذلك .

﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ صلبة لـ « ما أغنى » . وهو ظرف جرى مجرى التعليل . وكذلك « حيث » . وذلك لاستواء التعليل والظرف في قولك : ضربته لإساءته ، وضربته إذا أساء ، لأنك إذا ضربته في وقت إساءته ، فإنّما ضربته فيه لوجود إساءته فيه ، إلّا أنّ « إذ » و « حيث » غلبتا - دون سائر الظروف - في ذلك .
﴿ وَخَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا ﴾ جزاء ما كانوا ﴿ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ من العذاب .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ ﴾ يا أهل مكّة ﴿ مِنَ الْقَرْيِ ﴾ أي : من أهل القرى . وهم : قوم هود كانوا باليمن ، وقوم صالح بالحجر ، وقوم لوط على طريقهم إلى الشام . ﴿ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ ﴾ أي : نكّرناها تارة في الإعجاز ، وتارة في الإهلاك ، وتارة في التذكير بالنعم ، وتارة في التذكير بالنقم ، وتارة في وصف الأبرار ليقنّدى بهم ، وتارة في وصف الفجّار ليجتنّب مثل فعلهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لكي يرجعوا عن كفرهم .

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ فهلأ منعهم من الهلاك آلهتهم الذين يتقربون بهم إلى الله. حيث قالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١). والقربان ما يتقرب به إلى الله. وأول مفعولي «اتخذوا» الراجع إلى الموصول محذوف. وثانيهما «قرباناً». و«آلهة» بدل، أو عطف بيان. أو المفعول الثاني «آلهة» و«قرباناً» حال، أو مفعول له، على أنه بمعنى التقرب.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ غابوا عن نصرهم، فلم تنفعهم عند نزول العذاب بهم، وامتنع أن يستمدوا بهم امتناع الاستمداد بالضالّ ﴿وَذَلِكَ﴾ الاتخاذ الذي هذا أثره ﴿إِفْكُهُمْ﴾ صرفهم عن الحق ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ وافترأهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء..

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾

ثم بين سبحانه أن في الجنّ مؤمنين وكافرين كما في الإنس، فقال: ﴿وَإِذْ

صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ أَملناهم إليك، وأقبلنا بهم نحوك. والنفر دون العشرة. وجمعه أنفار. ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ حال محمولة على المعنى ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: القرآن، أي: فلما كان بمسمع منهم. أو الرسول. ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ قال بعضهم لبعض: اسكتوا لنسمعه ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أتمّ وفرغ من قراءته، على بناء الفاعل، وهو ضمير الرسول ﴿وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي: منذرين إياهم بما يسمعون.

عن سعيد بن جبير والزهري وجماعة: أنه لما توفي أبو طالب اشتدّ البلاء على رسول الله ﷺ، فعمد ليقف بالطائف رجاء أن يؤووه، فوجد ثلاثة نفر منهم، هم سادة، وهم إخوة: عبدياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو. فعرض عليهم نفسه. فقال أحدهم: أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قطّ. وقال الآخر: أعجز على الله أن يرسل غيرك.

وقال الآخر: والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا أبداً. فلئن كنت رسولاً كما تقول، فأنت أعظم خطراً من أن يردّ عليك الكلام. وإن كنت تكذب على الله، فما ينبغي لي أن أكلمك بعد.

وتهزّؤا به، وأفشوا في قومه ما راجعوه به. ففقدوا له صفين على طريقه، فلما مرّ رسول الله ﷺ بين صفّيهما جعلوا لا يرفع رجله ولا يضعهما إلاّ رضخوهما بالحجارة، حتّى أدموا رجله، فخلص منهم وهما تسيلان دماً.

فعمد إلى حائط من حوائطهم، واستظلّ في ظلّ نخلة منه، وهو مكروب موجع، تسيل رجلاه دماً، فإذا في الحائط عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، فلما رأهما كره مكانهما، لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله. فلما رآياه أرسلا إليه غلاماً لهما يدعى عداس، معه عنب، وهو نصرانيّ من أهل نينوى. فلما جاءه قال له رسول الله ﷺ: من أيّ أرض أنت؟

قال: من أهل نينوى.

قال ﷺ : من مدينة العبد الصالح يونس بن متى ؟

فقال له عداس : وما يدريك من يونس بن متى ؟

قال : أنا رسول الله ، والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى . فلما أخبره بما أوحى الله إليه من شأن يونس ، خرّ عداس ساجداً لله ولرسوله ﷺ ، وجعل يقبل قدميه ، وهما يسيلان الدم .

فلما أبصر عتبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكتا . فلما أتاهما قالا : ما شأنك سجدت لمحمد ، وقبّلت قدميه ، ولم نرك فعلت ذلك بأحد منا .

قال : هذا رجل صالح أخبرني بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا ، يدعى : يونس بن متى .

فضحكا وقالوا : لا يفتنّك عن نصرانيتك ، فإنه رجل خداع .

فرجع رسول الله ﷺ إلى مكة ، حتّى إذا كان بنخلة قام في جوف الليل يصلي ، فمرّ به نفر من جنّ أهل نصيبين - وقيل : من اليمن - فوجدوه يصلي صلاة الغداة ويتلو القرآن ، فاستمعوا له .

وروي : أنّ الجنّ كانت تسترق السمع ، فلما حرس السماء ورجموا بالشهب قالوا : ما هذا إلّا لنبا حدث . فنهض سبعة أو تسعة من أشرف جنّ نصيبين أو نينوى - منهم زوبعة - فضربوا حتّى بلغوا تهامة ، ثمّ اندفعوا إلى وادي نخلة ، فوافوا رسول الله وهو قائم في جوف الليل يصلي ، أو في صلاة الفجر ، فاستمعوا لقراءته .

وقال آخرون : أمر رسول الله أن ينذر الجنّ ويدعوهم إلى الله ، ويقرأ عليهم القرآن . فصرف الله إليهم نفراً من الجنّ من نينوى . فقال ﷺ : إني أمرت أن أقرأ على الجنّ الليلة ، فأياكم يتبعني ؟ قالها ثلاثاً . فأطرقوا إلّا عبدالله بن مسعود .

قال : ولم يحضر معه أحد غيري ، فانطلقنا حتّى إذا كنّا بأعلى مكة ، ودخل نبي الله شعباً يقال له شعب الحجون ، فخطّ لي خطاً ثمّ أمرني أن أجلس فيه ، وقال :

لا تخرج منه حتى أعود إليك. ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى لم أسمع صوته. ثم انطلقوا وطفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين.

فقال لي رسول الله: هل رأيت شيئاً؟

فقلت: نعم، رأيت رجالاً سوداً مستغفري^(١) ثياب بيض.

قال: أولئك جنّ نصيبين. وكانوا اثني عشر ألفاً. والسورة التي قرأها عليهم «اقرأ باسم ربك».

وروى علقمة عن عبد الله قال: لم أكن مع النبي ﷺ ليلة الجنّ، ووددت أنني كنت معه.

وروي عن ابن عباس: أنهم كانوا سبعة نفر من جنّ نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم.

وقال زرّ بن حبیش: كانوا تسعة نفر، منهم زوبعة.

وروى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: لما قرأ رسول الله ﷺ الرحمن على الناس سكتوا، فلم يقولوا شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «الجنّ كانوا أحسن جواباً منكم، لما قرأت عليهم: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب».

ثم بين سبحانه تمام خبر الجنّ، فقال حاكياً عنهم: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ يُعْنُوں الْقُرْآنَ. عَنْ عَطَاءٍ: إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَهُوداً. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لِأَنَّهُمْ مَا سَمِعُوا بِأَمْرِ عِيسَى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لَمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الْكُتُبِ ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ مِنْ أَصُولِ الْعَقَائِدِ الْحَقَّةِ ﴿وَالْإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ﴾ مِنْ فُرُوعِ الشَّرَائِعِ.

(١) الاستغفار: أن يدخل إزاره بين فخذه وملوياً، كما يفعل الكلب بذنبه.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ يعنون محمداً ﷺ، إذ دعاهم إلى توحيده وخلع الأنداد دونه ﴿وَأٰمِنُوا بِهِ﴾ بالله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ بعض ذنوبكم، وهو ما يكون في خالص حق الله، فإن المظالم لا تغفر بالإيمان. ونحوه قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾^(١). ﴿وَيُجْزِكُمْ﴾ ويخلصكم ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو معد للكفار.

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ فلا يعجز الله، إذ لا ينجي منه مهرب، ولا يسبق قضاءه سابق. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾^(٢). ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أنصار يمنعونه من الله، ويدفعون عنه العذاب ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني: الذين لا يجيبون داعي الله ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه.

واعلم أنه اختلف في أنه هل للجنّ ثواب كالإنس؟ فقال أبو حنيفة: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار، لقوله: ﴿وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣). والصحيح: أنهم في حكم بني آدم، لأنهم مكلفون مثلهم.

وعن علي بن إبراهيم قال: «فجاؤا إلى رسول الله ﷺ وآمنوا به، وعلمهم رسول الله ﷺ شرائع الاسلام، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ أَوْجِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾^(٤) إلى آخر السورة، وكانوا يعودون إلى رسول الله في كل وقت»^(٥). وفي هذا دلالة على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن، كما كان مبعوثاً إلى

(١) نوح: ٣-٤.

(٢) الجن: ١٢.

(٣) الأحقاف: ٣١.

(٤) الجن: ١.

(٥) تفسير علي بن إبراهيم ٢: ٢٩٩ - ٣٠٠.

الإنس. ولم يبعث الله نبياً إلى الإنس والجن قبله.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغِي بِخَلْقِهِنَّ
بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّبَ الْمُؤْتَى بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ
الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا
تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَعَلُ
يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

ولما صدر السورة بتحقيق المبدأ، أراد ختمها بإثبات المعاد، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغِي بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: لم يصبه في خلق ذلك إعياء ولا تعب، ولم يعجز عنه. يقال: فلان عي بأمرة، إذا لم يهتد له ولم يقدر عليه، أي: قدرته التامة ثابتة على حالها بعد خلق السماوات والأرض، ولا تنقص ولا تنقطع بإيجادهما.

﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّبَ الْمُؤْتَى﴾ في محلّ الرفع على أنه خبر «أَنَّ». ويدلّ عليه قراءة يعقوب: يقدر. وإثما دخلت الباء المزيّدة عليه، لاشتغال النفي في أول الآية على «أَنَّ» وما في حيزها، كأنه قال: أليس الله بقادر. ولذلك أجاب عنه بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ هو قادر عليه ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقريراً للقدرة على وجه عامّ يكون كالبرهان على المقصود، وهو قدرته على البعث.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ منصوب بقول مضمّر مقوله ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ والإشارة إلى العذاب، بدليل قوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفركم في الدنيا. ومعنى الأمر هو الإهانة بهم، والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده، وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾^(١).

﴿فَاضْبِذْ﴾ يا محمد على أذى هؤلاء الكفار، وعلى ترك إجابتهم لك ﴿كَفَا صَبْرًا أُولُوا الْأَعْزَمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أولوا الثبات والجِدّ منهم، فإنك من جعلتهم. و«من» للتبيين. وقيل: للتبعض. وأولوا العزم أصحاب الشرائع اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها، وصبروا على تحمّل مشاقها ومعاداة الطاعنين فيها. ومشاهيرهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ. وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليه السلام. ومروي أيضاً عن ابن عباس وقتادة.

وقيل: الصابرون على بلاء الله، كنوح صبر على أذى قومه، كانوا يضربونه حتّى يغشى عليه. وإبراهيم على النار، وذبح ولده. والذبيح على الذبح. ويعقوب على فقد الولد، وذهاب بصره. ويوسف على الحبّ والسجن. وأيّوب على الضر. وموسى قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُعَذِّبُونَكَ﴾^(٢). وداود بكى على ترك نذبه أربعين سنة. وعيسى لم يضع لبنة على لبنة. قال: إنها معبر، فاعبروها ولا تعمروها. وقال الله تعالى في آدم: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾^(٣). وفي يونس ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ﴾^(٤).

﴿وَلَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لكفار قريش بالعذاب، أي: لا تدع عليهم بتعجيله، فإنه

(١) الصافات: ٥٩.

(٢) الشعراء: ٦١ - ٦٢.

(٣) طه: ١١٥.

(٤) القلم: ٤٨.

نازل بهم لا محالة وإن تأخر ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الآخرة ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ أي: إذا عاينوا العذاب استقصروا من هوله مدّة لبثهم في الدنيا والبرزخ، حتّى يحسبوها ساعة من نهار.

﴿بَلَاغٌ﴾ هذا الذي وعظمت به أو هذه السورة بلاغ، أي: كفاية. أو هذا تبليغ من الرسول. وقيل: مبتدأ خبره «لهم»، وما بينهما اعتراض، أي: لهم وقت يبلغون إليه، كأنهم إذا بلغوه ورأوا ما فيه استقصروا مدّة عمرهم. ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ﴾ أي: لا يهلك. ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون من أمر الله، المتمردون في الفسق والمعاصي. وعن الزجاج: ما جاء في رجاء رحمة الله شيء أبلغ من هذه الآية.

سورة محمد ﷺ

وتسمى سورة القتال. وهي مدنية. وقال ابن عباس وقتادة: غير آية منها نزلت على النبي ﷺ وهو يريد التوجه إلى المدينة من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً عليه، فنزلت: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ﴾ الآية.

وهي ثمان وثلاثون آية.

أبي بن كعب قال: «قال النبي ﷺ: من قرأ سورة محمد ﷺ كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة».

وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأها لم يدخله شك في دينه أبداً، ولم يزل محفوظاً من الشرك والكفر أبداً حتى يموت، فإذا مات وكل الله به في قبره ألف ملك يصلون في قبره، ويكون ثواب صلواتهم له، ويشيعونه حتى يوقفوه موقف الأمن عند الله، ويكون في أمان الله وأمان محمد ﷺ».

وقال عليه السلام: «من أراد أن يعرف حالنا وحال أعدائنا فليقرأ سورة محمد ﷺ، فإنه يراها آية فينا وآية فيهم».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾

واعلم أن الله سبحانه لما ختم تلك السورة بوعيد الكفار، افتتح هذه السورة بمثلها، فقال:

﴿يَسْمِ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ امتنعوا عن الدخول في الاسلام وسلوك طريقه، أو منعوا الناس عنه. وهم المطعمون يوم بدر. وكانوا عشرة أنفس، أطعم كل واحد منهم الجند يوماً. وعن مقاتل: كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك، يصدّون الناس عن الاسلام. ويأمرونهم بالكفر. أو شياطين قريش. أو المصدّون من أهل الكتاب، صدّوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل في الاسلام. أو عامّة في جميع من كفر وصدّ.

﴿أَضَلُّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: جعل مكارمهم - كصلة الرحم، وفكّ الأسارى، وحفظ الجوار - ضالّة، أي: ضائعة محبطة بالكفر. أو جعلها ضالّة في كفرهم ومعاصيهم، كالضالّة من الإبل التي هي مضیعة لارب لها يحفظها ويعتني بأمرها. أو مغلوبة مغمورة في الكفر، كما يضلّ الماء في اللبن. أو ضلالاً، حيث لم يقصدوا به وجه الله. أو أبطل ما عملوه من الكيد لرسوله والصدّ عن سبيله، بنصر رسوله، وإظهار دينه على الدين كله.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعمّ المهاجرين والأنصار والذين آمنوا من أهل الكتاب وغيرهم ﴿وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ تخصيص للمنزل عليه ممّا

يجب الإيمان به تعظيماً له، وإشعاراً بأن الإيمان لا يتم بدونه، وأنه الأصل فيه. ولذلك أكدّه بالجملة الاعتراضية التي هي قوله: ﴿وَهُوَ﴾ أي: وما نزل على محمد ﷺ ﴿النَّحْقُ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وحقيقته بكونه ناسخاً لا ينسخ ﴿كَفَرُ عَنْهُمْ﴾ سيئاتهم، سترها، وغفر لهم بالإيمان وعلمهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي، لرجوعهم عنها وتوبتهم ﴿وَأَصْلَحَ بِأَلْفِهِمْ﴾ شأنهم وحالهم في الدين والدنيا، بالتوفيق واللفظ في أمور الدين، وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ من إضلال أعمال أحد الفريقين، وتكفير سيئات الثاني، والإصلاح. وهو مبتدأ خبره ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا النَّبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: ذلك كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل، واتباع هؤلاء الحق. وهذا تصريح بما أشعر به ما قبلها، ولذلك سمي تفسيراً.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ يبين لهم ﴿أَمْثَالَهُمْ﴾ أحوال الفريقين، أو أحوال الناس. أو يضرب أمثالهم، بأن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، والإضلال مثلاً لخبيثتهم، واتباع الحق مثلاً للمؤمنين، وتكفير السيئات مثلاً لفوزهم، لرجوعهم عنها وتوبتهم.

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْمَنُواهُمْ فَشُدُّوا
الْوَتَاقَ فَمَا مَثَاً بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ
اللَّهُ لَأَتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ
يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ

﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزَلَ اللَّهُ
فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

ثم أمر سبحانه بقتال الكفار، فقال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في المحاربة
﴿فَضْرِبَ الرِّقَابَ﴾ أصله: فاضربوا الرقاب ضرباً، فحذف الفعل، وقدم المصدر،
وأنيب منابه، مضافاً إلى المفعول. ففيه اختصار، مع معنى التوكيد. والتعبير به عن
القتل إشعار بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقبة حيث أمكن، إن اختاره الإمام عندنا.
وتصوير له بأشنع صورة، لأن في هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ
القتل، وهو حرّ العنق، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه^(١) وأوجه
أعضائه. ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا
مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾^(٢).

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه. من الثخين، وهو الغليظ.
أو أثقلتوهم بالقتل والجراح حتى أذهبتهم عنهم النهوض. ﴿فَقُشِدُوا الْوُثَاقَ﴾
فأسروهم واحفظوهم. والوثاق بالفتح والكسر اسم ما يوثق به. ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾
فإمّا تمنون ممّا ﴿وَأِمَّا فِدَاءً﴾ وإمّا تفدون فداءً.

والمراد التخيير بعد الأسر بين المنّ والإطلاق، وبين أخذ الفداء. وهو ثابت
عند الشافعية، فإن الذكر الحرّ المكلف إذا أسر تخيّر الامام بين القتل والمنّ والفداء

(١) علو الشيء: تقيض سفله وسفاليته.

(٢) الأنفال: ١٢.

والاسترقاق. وعند الحنفية يتخير بين القتل والاسترقاق. فعلى قولهم الآية منسوخة، أو مخصوصة بحرب بدر. وظاهر الآية قريب من مذهب الشافعية. وفي التحقيق الآية تمنع القتل بعد الإثخان والأسر، لتقييد المنّ والفداء بكونه بعد الأسر، ولم يذكر معهما القتل. وعلى التقادير؛ فالاسترقاق علم بالسنة. هذا، وقد قيل: إن الأسر كان محرماً بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾^(١). حتى نسخ بهذه الآية.

﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: يضع أهل الحرب آلاتها وأثقالها التي لا تقوم الحرب إلا بها، كالسلاح والخيول والركاب. أي: تنقضي الحرب ولم يبق إلا مسلم أو مسالم. وسميت أوزارها، لأنه لما لم يكن لها بد من جرّها فكانت تحملها وتستقلّ بها، فإذا انقضت فكانت وضعتها. وقيل: آثامها. والمعنى: حتى يضع أهل الحرب شركهم ومعاصيهم. وهو غاية للضرب، أو الشدّ، أو للمنّ والفداء، أو للمجموع. يعني: أن هذه الأحكام جارية فيهم حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم. وقيل: بنزول عيسى.

وقال الحسن: إن الإمام مخير بين المنّ والفداء والاسترقاق، وليس له القتل بعد الأسر. فكانه جعل في الآية تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها. ثم قال: حتى إذا أئختمهم فشدوا الوثاق فإمّا منّا وإمّا فداءً.

وقيل: حكم الآية منسوخ بآية السيف^(٢). وليس بشيء، لأصالة عدم النسخ. والتخصيص خير منه.

والمنقول عن أهل البيت عليه السلام: أن الأسير إن أخذ والحرب قائمة، كان الإمام

(١) الأنفال: ٦٧.

(٢) التوبة: ٥ و ٢٩.

مخيراً بين أن يقتله، أو يقطع يده ورجله من خلاف، ويتركه حتى ينزف ويموت. وإن أخذ بعد انقضاء الحرب تخير الامام بين المنّ والفداء والاسترقاق، ولا يجوز القتل. ولو حصل منه الاسلام في الحالين منع القتل خاصة. فعلى هذا يكون قول الحسن موافقاً لمذهبنا. ويقوى القول بالتقديم والتأخير، ولا حرج في ذلك.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو افعلوا بهم ذلك ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لانتقم منهم ببعض أسباب الهلكة، من خسف، أو رجفة، أو حاصب، أو غرق، أو موت مستأصل ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ ولكن أمركم بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين، بأن يجاهدوهم فيستوجبوا الثواب العظيم، والكافرين بالمؤمنين، بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض عذابهم كي يردع بعضهم عن الكفر.

﴿وَالَّذِينَ قَاتَلُوا﴾ جاهدوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قرأ البصريان وحفص: قتلوا، أي: استشهدوا ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فلن يضيعها ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى الثواب، أو سيثبت هدايتهم ﴿وَيُضِلِّحَ بَالَهُمْ﴾ بالرسوخ على العقيدة الحقّة ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ وقد عرفها لهم في الدنيا حتى اشتاقوا إليها، فعملوا ما استحقوها به. أو يبينها لهم بحيث يعلم كل واحد منزله ويهتدي إليه.

قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون، كأنهم كانوا سكاّنها منذ خلقوا.

وعن مقاتل: إن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه، فيعرفه كلّ شيء أعطاه الله.

أو طيّبها لهم، من العرف وهو طيب الرائحة. أو حدّدها لهم بحيث يكون لكلّ جنة مفرزة عن غيرها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: إن تنصروا دينه ورسوله ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على عدوّكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب، بالتشجيع وتقوية القلوب وتثبيتها. أو على محبّة الاسلام، والقيام بحقوقه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ فعثوراً وانحطاطاً وهلاكاً. وتقيضه: لعل له، أي: نجاة. وتقول للعائر: لعل لك، إذا دعوت بالانتعاش والثبات. وانتصابه بفعله الواجب إضماره سماعاً، تقديره: فقال: تعساً لهم، أو فقضى تعساً لهم، أو أتعسهم الله فتعسوا تعساً. والجملة خبر «الذين كفروا». ﴿وَأَضَلُّ أَعْمَالَهُمْ﴾ عطف عليه. وعن ابن عباس: يريد: في الدنيا القتل، وفي الآخرة التردّي في النار.

﴿ذَلِكَ﴾ التعس والإضلال ﴿يَأْتُهُمْ خَيْرُهُمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ القرآن، لما فيه من التوحيد والتكاليف المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم، من الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملذّات، فشقّ ذلك عليهم وتعاضمهم. وهذا تصريح بسببية الكفر بالقرآن للتعس والإضلال. ﴿فَأَخْبِطْ أَعْمَالَهُمْ﴾ كرّره إشعاراً بأن إحباط الأعمال يلزم الكفر، ولا ينفك عنه بحال.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾

ثم نبههم سبحانه على الاستدلال على صحّة ما دعاهم إليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله، فقال:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استأصل عليهم ما اختصّ بهم من أنفسهم وأهلهم وأموالهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ من وضع الظاهر موضع الضمير ﴿أَمْثَالُهَا﴾ أمثال تلك العاقبة المذكورة. أو العقوبة. أو الهلكة، لأنّ التدمير يدلّ عليها. أو السّنة، لقوله: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾^(١).

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾^(١).

﴿ذَلِكَ﴾ أي: الذي فعلناه في الفريقين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولتتبعهم وناصرهم على أعدائهم وحافظهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ينصرهم، فيدفع العذاب عنهم عاجلاً أو آجلاً. وهو لا يخالف قوله: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾^(٢) فَإِنَّ الْمَوْلَى فِيهِ بِمَعْنَى الْمَالِكِ.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَوْجِيءٌ لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوهُ أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾

(١) الأحزاب: ٣٨.

(٢) يونس: ٣٠.

ثم ذكر مآل حال الفريقين بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ من تحت أشجارها وأبنتها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ يتمتعون بمتاع الدنيا أياماً قلائل ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ في مسارحها ومعالفها، غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح. فهم أيضاً يكونون حريصين غافلين عن وخامة العاقبة، غير مفكرين فيها. ﴿وَالنَّارُ مَقْشُوءَةٌ لَهُمْ﴾ منزل ومقام لهم.

﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ﴾ على حذف المضاف وإجراء أحكامه على المضاف إليه. كأنه قال: وكم من قرية هم أشدُّ قُوَّةً من قومك الذين أخرجوك، أي: كانوا سبب خروجك. ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بأنواع العذاب ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يدفع عنهم العذاب. وهو كالحال المحكيَّة، كقولك: أهلكناهم فهم لا ينصرون.

ثم قال سبحانه على وجه التهجين والتوبيخ للكفار والمنافقين: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ حجة واضحة من عنده. وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات. أو ما يعتمه من الحجج العقلية للمؤمنين. ﴿كَفَنَ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَقَلِهِ﴾ من الشرك والمعاصي. وهم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ شهواتهم في ذلك، لا شبهة لهم عليه فضلاً عن حجة. وتوحيد الضمير أولاً وجمعه ثانياً على اللفظ والمعنى.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ صفة الجنة العجيبة الشأن فيما قصصنا عليك. وقيل: هو مبتدأ خبره «كمن هو خالد في النار» الآتي بعد.

وهذا كلام صورته الإثبات، ومعناه النفي والإنكار، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار، ودخوله في حيّزه، وانخراطه في سلكه. فهو كقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَفَنَ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾. فكأنه قيل: أمثل أهل الجنة

كمثل من هو خالد؟ أو أمثل الجنة كمثل جزء من هو خالد؟ وحذف ما حذف استغناءً بجري مثله.

وفي تعريته من حرف الإنكار زيادة تصوير لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبيتة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يسوي بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم. ونظيره: قول القائل:

أفرح أن أرزأ الكرام وأن أورث ذوداً^(١) شصائصاً نبلاً

فإنه كلام منكر للفرح برزية الكرام وورثة الذود، مع تعريه عن حرف الإنكار، لانطوائه تحت قول من قال: أفرح بموت أخيك وبورثة إبله؟ والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصور قبح ما أنهم به. فكأنه قال: نعم، مثلي يفرح بمرزأة الكرام، ويأن يستبدل منهم ذوداً يقل طائله. وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار.

وعلى الأول قوله: «كمن هو خالد» خبر محذوف، تقديره: أفمن هو خالد في هذه الجنة كمن هو خالد في النار؟ أو بدل من قوله: «كمن زين له سوء عمله». وما بينهما اعتراض لبيان ما يمتاز به من على بيتة في الآخرة، تقريراً لإنكار المساواة.

﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ استئناف لشرح المثل، كأن قائله قال: وما مثلها؟ فقيل: فيها أنهار. ويجوز أن يكون في موضع الحال، أي: مستقرة فيها أنهار. أو خبر لـ «مثل». و«آسن» من: أسن الماء بالفتح إذا تغير طعمه وريحه، أو بالكسر على معنى الحدوث. وقرأ ابن كثير: أسن بغير مد.

(١) الذود: الإبل لا يتجاوز عددها الثلاثين ولا يقل عن الثلاث. والشصائص جمع الشصوص: الناقة أو الشاة القليلة اللبن. والتبّل: الكبار من الإبل، والصغار منها، فهو من الأضداد.

﴿وَأَنهَازُ مِنْ لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ لم يصر قارصاً^(١) ولا حازراً، كما يكون في ألبان الدنيا.

﴿وَأَنهَازُ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ لذیذة لا يكون فيها غائلة مرارة وسكر وخمار وريح وصداع. وهي تأنيث لذ، وهو اللذيذ. أو مصدر نعت به بإضمار ذات، أي: ذات لذّة. أو تجوّز. والمعنى: ما هو إلاّ التلذّذ الخالص، ليس معه ذهاب عقل ولا خمار، ولا آفة من آفات الخمار.

﴿وَأَنهَازُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ لم يخالطه الشمع والرغوة، وسائر فضلات النحل وغيرها، كما في عسل الدنيا. والمعنى: فيها أنواع الأشربة التي تكون في الدنيا، مجردة عما ينقصها وينقصها، موصوفة بغاية الالتذاذ. وفي الأنهار دلالة على غزارة أنواع الأشربة واستمرارها.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: لهم فيها صنف من الثمرات لا يعرفون اسمها، وصنف منها يعرفون اسمها، كلّها مبرّاة من كلّ مكروه يكون لثمرات الدنيا ﴿وَمَغْفِرَةً مِنْ رَبِّهِمْ﴾ عطف على الصنف المحذوف. أو مبتدأ خبره محذوف، أي: لهم مغفرة. ﴿كَفَنٌ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ شديد الحرارة، مكان تلك الأشربة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ من فرط الحرارة.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنَا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾
وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ

أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾
فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
مُقَبَّلَكُمْ وَمُؤَاكُمُ ﴿١٩﴾

ثم بين سبحانه حال المنافقين، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يسمعون كلامك ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِزِّكَ﴾ من مجلسك. وتوحيد الضمير وجمعه ثانياً نظراً إلى لفظ «من» ومعناه. ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا النِّعَمَ﴾ أي: لعلماء الأصحاب. وقيل: قالوه لعبد الله بن مسعود. وعن ابن عباس: أنا منهم.

وعن الأصمغ بن نباتة، عن علي رضي الله عنه قال: إنا كنا عند رسول الله ﷺ فيخبرنا بالوحي، فأعيه أنا ومن يعيه، فإذا خرجنا قالوا لنا: ﴿مَاذَا قَالَ آتِفَاكُ﴾ ما الذي قال الساعة؟ استهزاءً، أو إظهار أننا لم نشتغل بوعيه وفهمه، أو استعلاماً، إذ لم يلقوا له أذانهم تهاوناً به. وقيل: كان يخطب فإذا غاب المنافقين خرجوا فقالوا ذلك للعلماء. و«آتفاً» من قولهم: أنف الشيء لما تقدم منه. مستعار من الجارحة. ومنه: استأنفت الشيء إذا ابتدأته. ونصبه على الظرف، بمعنى: في أول وقت يقرب منا. أو حال من الضمير في «قال». وقرأ ابن كثير: أنفاً.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ تخلية بينهم وبين اختيارهم وخذلاناً. أو وسماً عليها بسمه الكفر، لتكون دالة عليه، فلعبتهم الملائكة لذلك. ﴿وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ شهوات نفوسهم، وما مالت إليه طباعهم. فلذلك استهزؤا بكلام الله، وتهاونوا به.

ثم وصف سبحانه المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي: زادهم الله بالتوفيق والإلهام. وقيل: الضمير لقول الرسول، أو لاستهزاء المنافقين. ﴿وَاتَّاهَمُوا

تَقْوَاهُمْ﴾ بَيْنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ، أَوْ أَعَانَهُمْ عَلَى تَقْوَاهُمْ، أَوْ أَعْطَاهُمْ جَزَاءَهَا.

﴿فَقُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ فليسوا ينتظرون إِلَّا القيامة ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ بدل اشتغال من الساعة، نحو: ﴿أَنْ تَطُوهُمْ﴾ في قوله: ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطُوهُمْ﴾^(١). ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ علاماتها، كبعث خاتم الأنبياء، وانشقاق القمر. وهو مُتَّصِلٌ بِأَتْيَانِ السَّاعَةِ اتِّصَالُ الْعِلَّةِ بِالْمَعْلُولِ. ﴿فَأَنسَى لَهُمْ﴾ هذا جواب الشرط، وهو قوله: ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾. والمعنى: فكيف لهم ذكراهم - أي: تذكّرهم - إذا جاءتهم الساعة، وحينئذٍ لا تنفعهم الذكرى؟

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: إذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ لترك ندبك، بالإقدام على ما هو أولى فعله، والثبات على الذي هو موجب لكمال النفس، وعلى إصلاح أحوالها، وهضمها وتواضعها وانقطاعها إلى الله، فَإِنَّ تَكْمِيلَ النَّفْسِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِذَلِكَ. ولا يجوز إطلاق الكلام على ظاهره، لَأَنَّ اسْتِغْفَارَ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلذَّنُوبِ، لِأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ عَنْهَا صَغِيرًا وَكَبِيرًا.

﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ واستغفر لذنوبهم بالدعاء لهم، والتحريض على ما يستدعي غفرانهم. وفي إعادة الجارّ، وحذف المضاف، إشعار بالفرق بين استغفاره له واستغفاره للمؤمنين والمؤمنات.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا، فَإِنَّ لِلْعَبْدِ مَرَاتِبَ وَمَرَاهِلَ، يَنْقَلِبُ فِيهَا مِنْ أَوَّلِ خَلْقِهِ إِلَى آخِرِ عَمَرِهِ ﴿وَمُنَوَّاتَكُمْ﴾ في العقبى، فَإِنَّهَا دَارُ إِقَامَتِكُمْ.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنْ

الْمَوْتَ فَأُولَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا
اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ قَهْلُ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ
﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾

روي: أَنَّ ضعفاء المؤمنين أو المنافقين كانوا يَدْعُونَ الحرص على الجهاد،
وَيَتَمَنُّونَهُ بِالسُّتْهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ فِي الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ شَقَّ عَلَيْهِمْ وَكَرِهُوا مِنْهُ،
فَنَزَلَتْ:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا نُوَلَّيْ هَلَا﴾ ﴿نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ في أمر الجهاد ﴿فَإِذَا أَنْزِلَتْ
سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ مَبَيَّنَةٌ لَا تَشَابَهَ فِيهَا ﴿وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ﴾ أَي: الْأَمْرُ بِهِ. وَعَنْ قَتَادَةَ:
كُلُّ سُورَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْقِتَالِ فَهِيَ مُحْكَمَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ، وَهِيَ أَشَدُّ الْقُرْآنِ عَلَى
الْمُنَافِقِينَ.

﴿زَانِتِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضَعْفُ فِي الدِّينِ، غَيْرُ ثَابِتِي الْأَقْدَامِ. وَقِيلَ:
نِفَاقٌ. وَوَضَعَ الظَّاهِرُ فِي مَوْضِعِ الضَّمِيرِ لِبَيَانِ عِلَّةِ التَّقَاعِدِ عَنِ الْحَرْبِ وَالْكَرَاهَةِ مِنْهُ.
وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالَّذِينَ آمَنُوا الْمُؤْمِنِينَ الْخُلَصَّ الثَّابِتِينَ، وَأَنَّهُمْ يَتَشَوَّقُونَ إِلَى الْوَحْيِ
إِذَا أَبْطَأَ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَنْزِلَتْ سُورَةٌ فِي مَعْنَى الْجِهَادِ تَضَجَّرُ الْمُنَافِقُونَ مِنْهَا. ﴿يَنْفُذُونَ
إِلَيْكَ نَظَرَ الْغَشْيَةِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أَي: تَشْخَصُ أَبْصَارُهُمْ جَبْنًا وَمُخَالَفَةً، كَمَا يَنْظُرُ
مَنْ أَصَابَتْهُ الْغَشْيَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ.

﴿فَأُولَىٰ لَهُمْ﴾ قَوْلٌ لِمَنْ. أَفْعَلُ مِنَ الْوَلِيِّ، وَهُوَ الْقَرَبُ. وَمَعْنَاهُ: الدَّعَاءُ
عَلَيْهِمْ، أَي: أَقْرَبُ لَهُمُ الْمَكْرُوهُ. أَوْ فَعْلَى، مِنْ: آل، أَي: يُؤُولُ الْمَكْرُوهَ إِلَيْهِمْ.

﴿طَاعَةً وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ استئناف، أي: أمرهم طاعة وقول معروف، أو طاعة وقول معروف خير لهم. أو حكاية قولهم، أي: قالوا: أمرنا طاعة وقول معروف. وقيل: «أولى» مبتدأ، وهذا خبره، أي: أولى وأحرى لهم طاعة الله ورسوله وقول معروف بالإجابة، أي: لو أطاعوا وأجابوا كانت الطاعة والإجابة أولى لهم. وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، واختيار الكسائي.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جد ولزم أمر القتال. والعزم الجِدُّ حقيقة لأصحاب الأمر، وإسناده إليه مجاز. ومنه قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١). وقولهم: إِنَّ الأمر معزوم لا عازم. وعامل الظرف محذوف، وهو: أذكر. وجواب «إذا» محذوف تقديره: فإذا عزم الأمر نكلوا وكذبوا فيما وعدوا من أنفسهم. ويدل على حذفه قوله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد أو الإيمان. أو فلو صدقوا في إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألتستهم ﴿لَكَانَ﴾ الصدق ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ في دينهم ودنياهم من نفاقهم.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ فهل يتوقع منكم؟ وقرأ نافع بكسر السين. وهو غريب. ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمور الناس وتأمرتم عليهم، أو أعرضتم وتولَّيتم عن الاسلام ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ تناحراً على الولاية وتجادباً لها، أو رجوعاً إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من التغاور ومقاتلة الأقارب.

والمعنى: أنهم لضعفهم في الدين وحرصهم على الدنيا، أحقّاء بأن يتوقع ذلك منهم من عرف حالهم في ضعف الإيمان ومرض النفاق، ويقول لهم: هل عسيتم. فنقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات، ليكون أبلغ في التوبيخ.

وإلحاق الضمير بـ«عسى» على لغة الحجاز. وأما بنو تميم فلا يلحقون

الضامائر، ويقولون: عسى أن تفعل، وعسى أن تفعلوا. وخبره «أن تفسدوا»، وإن توليتم» اعتراض. وعن يعقوب: تُولِيْتُمْ، وَتَقْطَعُوا من القطع، أي: إن تولّاكم ظلمة خرجتم معهم وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم.

﴿أَوَلَيْكَ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ لإفسادهم، وقطعهم الأرحام ﴿فَأَصْنَهُمْ﴾ عن استماع الحق ﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ أي: فمنعهم أطافه، وخذلهم حتّى صمّوا عن استماع الموعظة، وعموا عن إبصار طريق الهدى، فلا يهتدون سبيله.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ يتصفّحونه وما فيه من المواعظ والزواجر، حتّى لا يجسروا على المعاصي. وعن قتادة: والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبّروه، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا. ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ لا يصل إليها ذكر، ولا ينكشف لها أمر. وقيل: «أم» منقطعة. ومعنى الهمزة فيها التقرير. وتنكير القلوب لأنّ المراد قلوب بعض منهم. أو للإشعار بأنّها لا يهّام أمرها في القساوة، أو لفرط جهالتها ونكرها، كأنّها مبهمّة منكورة. وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أقفال مناسبة لها مختصّة بها، لا تجانس الأقفال المعهودة. وهي أقفال الكفر الّتي استغلقت، فلا تنفتح.

إِنَّ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ عَلَىٰ ذِكْرِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ

وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
 أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفَهُمْ بِسِيمَاهُمْ
 وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ
 الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَبَلِّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ
 شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ
 وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكُمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أُنْفُسِهِمْ﴾ أي: رجعوا عن الإيمان إلى ما كانوا عليه
 من الكفر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ بالدلائل الواضحة، والمعجزات الظاهرة.
 وهم المنافقون.

وعن ابن عباس والسدي والضحاك: كانوا يؤمنون عند النبي ﷺ ثم
 يظهرون الكفر فيما بينهم، فتلك ردة منهم.

وعن قتادة: هم كفار أهل الكتاب كفروا بمحمد ﷺ، وقد عرفوه ووجدوا

نعته مكتوباً عندهم .

وليس في هذا دلالة على أَنَّ المؤمن قد يكفر ، لأنَّه لا يمتنع أن يكون المراد من رجع في باطنه عن الإيمان بعد أن أظهره وقامت الحجَّة عنده بصحَّته .

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سهَّل لهم اقتراف الكبائر وركوب العظائم . من السؤل ، وهو الاسترخاء . وقيل : حملهم على الشهوات . من السؤل ، وهو التمني . وفيه : إن السؤل مهموز ، قلبت همزته واواً لضمِّ ما قبلها . ويمكن ردُّه بقولهم : هما يتساولان . ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ ومدَّ لهم في الآمال والأمانى .

وقرأ أبو عمرو : أُمْلِي لَهُمْ ، على البناء للمفعول . وهو ضمير الشيطان أو أولهم ، أي : أمهلوا ومدَّ في عمرهم . وقرأ يعقوب : أُمْلِي لَهُمْ . والمعنى : أَنَّ الشيطان يغوهم وأنا أُملي لهم وأنظرهم وأمهلهم ، ولم أعاجلهم بالعقوبة . فتكون الواو للسحال ، أو الاستئناف .

ثم بيَّن سبحانه سبب استيلاء الشيطان عليهم ، فقال : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي : قال اليهود الَّذِينَ كفروا بالنبي بعدما تبَيَّن لهم نعته في التوراة للمنافقين . أو المنافقون لقريظة والنضير ، حيث قالوا لهم : لئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم . أو أحد الفريقين للمشركين . والمروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أَنَّهُم بنو أمية ، كرهوا ما نزل الله في ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام .

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ في بعض الأمر الذي يهْمُكم . وهو التكذيب برسول الله ، أو بلا إله إلا الله . أو في بعض ما تأمرون به ، كالقعود عن الجهاد ، والموافقة في الخروج معهم ، والتظاهر على عداوة الرسول . ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ما أسرَّه بعضهم إلى بعض من القول ، وما أسرَّه في أنفسهم من الاعتقاد .

﴿فَتَكْنِفُ﴾ يعملون وما حيلتهم ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ إذا قبضت الملائكة أرواحهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنْبَارَهُمْ﴾ تصوير لتوفيهم بما يخافون منه

ويجتنبون عن القتال له. وعن ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى التوفى الموصوف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ﴾ من الكفر، وكتمان نعت الرسول، وعصيان الأمر ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ ما يرضاه، من الإيمان برسول الله، والجهاد، وغيرهما من الطاعات ﴿فَاخْبِطْ أَعْمَالَهُمْ﴾ ولم يتقبل لذلك.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ﴾ لن يظهر الله لرسوله والمؤمنين ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾ أحقادهم على المؤمنين، ولا يبدي خفاياهم للنبي ﷺ. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ لمريناكهم بدلائل حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلاماتهم التي يسمهم الله بها.

وعن أنس: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين، بل كان يعرفهم بسيماهم. ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس، فناموا ذات ليلة، وأصبحوا وعلى جهة كل واحد منهم مكتوب: هذا منافق.

واللام لام جواب «لو» كررت في المعطوف.

﴿وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ جواب قسم محذوف. ولحن القول: أسلوبه. وعن ابن عباس: هو قولهم: ما لنا إن أطعنا من الثواب، ولا يقولون: ما علينا إن عصينا من العقاب.

وقيل: اللحن أن تلحن بكلامك، أي: تميله إلى نحو من الانحاء ليفطن له صاحبك. ومنه قيل للمخطيء: لاحن، لأنه يعدل بالكلام عن الصواب.

وعن أبي سعيد الخدري قال: لحن القول بغضهم علي بن أبي طالب ﷺ. قال: وكنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ ببغضهم علي بن أبي طالب ﷺ.

وروي مثل ذلك عن جابر بن عبد الله الأنصاري، وعن عبادة بن الصامت قال: كنّا بنور^(١) أولادنا بحبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فإذا رأينا أحدهم لا يحبّه علمنا أنّه لغير رشدة^(٢).

﴿وَاللّٰهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فيجازيكم على حسب قصدكم، إذ الأعمال بالنيات. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ونعاملكم معاملة المختبر، بالأمر بالجهاد وسائر التكاليف الشاقّة ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾ حتّى نميّزهم عن غيرهم ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ على مشاقّ المجاهدة عن غيرهم. أو حتّى نعلم جهادكم موجوداً، لأنّ الغرض أن تفعلوا الجهاد فتشبيكم على ذلك، أو يعلم أولياؤنا، والإضافة إلى ذاته تعظيماً لهم. ﴿وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ فنختبر ما يخبر به عن أعمالكم، فيظهر به حسنها وقبحها، لأنّ الخبر على حسب المخبر عنه، إن حسناً فحسن، وإن قبيحاً فقبيح. أو أخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم المؤمنين في صدقها وكذبها.

وقرأ أبو بكر الأفعال الثلاثة بالياء لتوافق ما قبلها، وعن يعقوب: وَنَبْلُوا بسكون الواو، على تقدير: ونحن نبلو.

وعن الفضيل: أنّه كان إذا قرأها بكى، وقال: اللَّهُمَّ لا تبلنا، فإنّك إن تبلونا فضحتنا، وهتكت أستارنا، وعدّبتنا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَضَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ امتنعوا عن اتّباع دين الله، ومنعوا غيرهم عن اتّباعه بالتهر والإغواء ﴿وَشَاقُوا الرَّسُولَ﴾ عاندوه وعادوه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ من بعد ما ظهر لهم أن محمداً رسول الله. وهم قريظة والنضير، أو المطعمون يوم بدر. ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بكفرهم وصدّهم. أو لن يضرّوا رسول الله بمشاقّته. وحذف المضاف لتعظيمه، وتفظيح شاقّته. ﴿وَسَيُخِطُّ أَعْمَالَهُمْ﴾

(١) بار الرجل يبور: جرّبه واختبره.

(٢) الرّشدة والرّشدة: ضدّ الزّنية. يقال: ولد لرشدة، أي: شرعيّ وليس من زنا.

وسيبطل ثواب حسنات أعمالهم التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب، لكفرهم برسول الله. أو مكايدهم التي نصبوها في مشاقته، فلا يصلون بها إلى مقاصدهم، ولا تثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ بتوحيده ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بتصديقه ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بما أبطل به هؤلاء، كالكفر والنفاق والشك والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها. وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر، كما قال أبو حنيفة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: أصرّوا على الكفر حتّى ماتوا على كفرهم ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أبداً، لأن «لن» للتأييد. وهذا عام في كلّ من مات على كفره، وإن صحّ نزوله في قتلى القلب، وهو برّ في بدر.

﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ فلا تضعفوا، ولا تذللوا للعدوّ ﴿وَتَذَعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ ولا تدعوا إلى السلم تذلاً وضعفاً. ويجوز نصبه بإضمار «أن». وقرأ أبو بكر وحمة بكسر السين، ﴿وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ﴾ الأغلبون. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَغْلَى﴾^(١).

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بالنصرة على عدوّكم ﴿وَلَنْ يَبْرَحَ أَعْمَالُكُمْ﴾ ولن يضيع أعمالكم، بل يشيكم عليها. من: وترت الرجل إذا قتلت له قتيلاً، من ولد وأخ أو حميم. وحقيقته: أفردته من قريبه أو ماله. من الوتر، وهو الفرد. فشبهه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الوتر. وهو من فصيح الكلام. ومنه قوله ﷺ: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»، أي: أفرد عنهما قتلاً ونهباً.

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلُكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ

﴿ ٣٧ ﴾ هَآأَتُمْ هَؤَلَاءَ تُدْعُونَ لِنُفْعِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿ ٣٨ ﴾

ثم حضَّ سبحانه على طلب الآخرة بقوله: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ﴾ لا ثبات لها ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا ﴾ بالله ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ معاصيه ﴿ يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ ﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ جميع أموالكم، بل يقتصر على جزء يسير - كربع العشر والعشر - في الزكاة الواجبة في بعض أموالكم.

﴿ إِنْ يَسْأَلُكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ ﴾ فيجهدكم بطلب الكلّ. والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية. يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح. وأحفى شاربه إذا استأصله. ﴿ تَبَخَّلُوا ﴾ فلا تعطوا ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ ويظهر بغضكم وعداوتكم، فتضطغنوا على رسول الله ﷺ. والضمير في «يخرج» لله تعالى، أو البخل، لأنّه سبب الاضطغان.

﴿ هَآ أَنْتُمْ هَؤَلَاءِ ﴾ أي: أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون. ثم استأنف وصفهم. كأنهم قالوا: وما صفنا؟ ف قيل: ﴿ تُدْعُونَ لِنُفْعِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ويجوز أن يكون صلة لـ «هؤلاء»، على أنّه بمعنى: الذين. وهو يعمّ نفقة الفزو والزكاة وغيرهما. ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ ﴾ ناس يبخلون به. ثم قال: ﴿ وَمَنْ يَبْخُلْ ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة ﴿ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ ﴾ فلا يتعداه ضرر بخله، بل إنّما هو راجع إلى نفسه، لأنّه يحرمها مثوبة جسيمة، ويلزمها عقوبة عظيمة. يقال: بخلت عليه وعنه. وكذلك: ضننت عليه وعنه. وفيه إشارة إلى أنّ معطي المال أحوج إليه من الفقير الآخذ.

ثم أخبر أنه لا يأمر بذلك ولا يدعو إليه لحاجته إليه، فقال: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾
الذي تستحيل عليه الحاجات ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ إلى ما عند الله من الخير. فما
يأمركم به فهو لاحتياجكم وفقركم إلى الثواب. فإن امتثلتم فلکم، وإن توليتم
فعليكم.

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ وإن تعرضوا عن طاعته. وهو عطف على «وإن تؤمنوا».
﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلق قوماً سواكم على خلاف صفتكم فيقوموا مكانكم،
كقوله: ﴿وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(١). ﴿فَمَنْ لَا يَكُونُوا أُمَّةً لَكُمْ﴾ في التولي عن الإيمان،
والزهد في التقوى. وهم الفرس، لأنه ﷺ سئل عنه، وكان سلمان إلى جنبه،
فضرب فخذه وقال: «هذا وقومه. والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا
لتناوله رجال من فارس». أو الانتصار، أو الملائكة.

وروى أبو بصير عن أبي جعفر ﷺ قال: «إن تتولوا يا معشر العرب يستبدل
قوماً غيركم». يعني: الموالي.

وعن أبي عبد الله ﷺ قال: «قد والله أبدل بهم خيراً منهم». يعني: الموالي.



سورة الفتح

مدنيّة. وهي تسع وعشرون آية.

أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأها فكأنما شهد مع محمد ﷺ فتح مكة». وفي رواية أخرى: «فكأنما كان مع من بايع محمداً تحت الشجرة». وأورد البخاري في الصحيح عن عمر بن الخطاب قال: «كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقال: نزلت عليّ البارحة سورة عظيمة هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا - إِلَى قَوْلِهِ - وَمَا تَأَخَّرَ﴾»^(١).

وعن قتادة عن أنس قال: «لما رجعنا من غزوة الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا، فنحن بين الحزن والكآبة إذ أنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ فقال رسول الله ﷺ: لقد أنزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدنيا كلّها».

عن عبد الله بن مسعود قال: «أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية فجعلت ناقته تثقل، فتقدّمنا فأنزل عليه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾، فأدركنا رسول الله ﷺ وبه من السرور ما شاء الله، فأخبر أنّها أنزلت عليه».

عبد الله بن بكير، عن أبيه قال: قال أبو عبد الله ﷺ: «حصّنوا أموالكم ونساءكم وما ملكت أيمانكم من التلف بقراءة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾، فإنّه إذا كان ممّن يدمن قراءتها ناداه مناد يوم القيامة حتّى يسمع الخلائق: أنت من عبادي المخلصين، ألحقوه بالصالحين من عبادي، فأسكنوه جنّات النعيم، واسقوه الرحيق المختوم بمزاج الكافور».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا
تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا
عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ
إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

ولما ختم الله سبحانه سورة محمد ﷺ بقوله: ﴿والله الغني﴾، افتتح هذه
السورة بأنه فتح لنبيه ﷺ ما احتاج إليه في دينه ودنياه، ليشعر على غناه المطلق،
وكمال جبروته وغالبته، وافتقار العباد إليه، فقال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ وعد بفتح مكة، والتعبير
عنه بالماضي لتحققه وتيقنه بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة
على علو شأن المخبر ما لا يخفى.

وقيل: هذا إخبار عن صلح الحديبية. وإنما سمّاه فتحاً، لأنه كان بعد ظهوره على المشركين حتى سألوا الصلح، وتسبّب لفتح مكّة. وأدخل في الاسلام خلقاً عظيماً. وظهر له في الحديبية آية عظيمة، وهي أنه نزع ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة. فتمضمض رسول الله ﷺ ثم مَجّه فيها، فدرّت بالماء حتى شرب جميع من كان معه. وقيل: فجاش الماء حتى امتلأت، ولم ينفد ماؤها بعد.

وعن عروة - وقد ذكر خروج النبي ﷺ عام الحديبية - قال: وخرجت قريش من مكّة، فسبقوه إلى بلدح^(١) وإلى الماء، فنزلوا عليه. فلما رأى رسول الله ﷺ أنه قد سبق نزل على الحديبية، وذلك في حرّ شديد ليس فيها إلا بشر واحدة، فأشفق القوم من الظمأ، والقوم كثير، فنزل فيها رجال يمتحنونها. ودعا رسول الله ﷺ بدلو من ماء، فتوضأ من الدلو، ومضمض فاه ثم مَجّ فيه، وأمر أن يصبّ في البئر. ونزع سهماً من كنانته وألقاه في البئر، فدعا الله تعالى ففارت بالماء، حتى جعلوا يغترفون بأيديهم منها وهم جلوس على شفثها.

وروى سالم بن أبي الجعد قال: قلت لجابر: كم كنتم يوم الشجرة؟ قال: كنّا ألفاً وخمسائة. وذكر عطشاً أصابهم. قال: فأتى رسول الله ﷺ بماء في تور^(٢)، فوضع يده فيه، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، فشربنا ووسعنا وكفانا.

وعن موسى بن عقبة: أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعاً، فقال رجل من أصحابه: «ما هذا بفتح، لقد صدّونا عن البيت، وصدّ هدينا. فبلغ النبي ﷺ فقال: «بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح^(٣)، ويسألوكم القضية - أي: رجوعكم عنهم - ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا».

(١) بلدح: وادٍ قبيل مكّة من جهة المغرب.

(٢) التور: إناء يشرب فيه.

(٣) الراح: الخمر. والراح جمع راحة، وهي: الكفّ. والراح: الارتياح والنشاط. ولعلّ الظاهر هنا المعنى الثالث.

وعن الشعبي: نزلت هذه السورة بالحديبية، وأصاب رسول الله ﷺ في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة. أصاب: أن يبيع ببيعة الرضوان، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وظهرت الروم على فارس، وبلغ الهدي محله بعد الصلح، وأطعموا نخل خيبر.

وعن جابر: ما كنا نعلم فتح مكة إلا يوم الحديبية.

وقيل: المراد فتح خيبر. وقيل: فتح الروم. وقيل: الفتح القضاء، من الفتاحة، وهي الحكومة، أي: قضينا لك أن تدخل مكة من قابل.

﴿يَغْفِرُ لَكَ اللَّهُ﴾ علة للفتح من حيث إنه مسبب عن جهاد الكفار، والسعي في إزالة الشرك، وإعلاء الدين، وتكميل النفوس الناقصة قهراً، ليصير ذلك التكميل بالتدريج اختياراً، وتخليص الضعفة عن أيدي الظلمة ﴿مَا تَقْدَمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرُ﴾. قد قيل فيه أقوال، كلها غير موافق لما يذهب إليه أصحابنا أن الأنبياء معصومون من الذنوب كلها، صغيرها وكبيرها، قبل النبوة وبعدها.

فمنها: أنهم قالوا: معناه: ما تقدم من معاصيك قبل النبوة، وما تأخر عنها.

ومنها: قولهم: ما تقدم الفتح، وما تأخر عنه.

ومنها: قولهم: ما وقع وما لم يقع، على الوعد بأنه يغفر له إذا وقع.

ومنها: قولهم ما تقدم من ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك، وما تأخر من ذنوب أمتك بدعوتك.

والكلام في ذنب آدم كالكلام في ذنب نبيينا ﷺ ومن حمل ذلك على الصغائر التي تقع محبطة عندهم، فالذي يبطل قولهم أن الصغائر إذا سقط عقابها وقعت مكفرة، فكيف يجوز أن يمن الله سبحانه على نبيه بأن يغفرها له؟ وإنما يصح الامتنان والتفضل منه سبحانه بما يكون له المؤاخدة به، لا بما لو عاقب به لكان ظالماً عندهم. فوضح فساد قولهم.

ولأصحابنا فيه وجهان من التأويل: أحدهما: أن المراد: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنب أمتك وما تأخر بشفاعتك. وأراد بذكر التقدم والتأخر ما تقدم زمانه وما تأخر، كما يقول القائل لغيره: صفحت عن السالف والآنف من ذنوبك. وحسنت إضافة ذنوب أمته إليه، للاتصال والسبب بينه وبين أمته.

ويؤيد هذا الجواب ما رواه المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال: «سأله

رجل عن هذه الآية، فقال: والله ما كان له ذنب، ولكن الله سبحانه ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام، ما تقدم من ذنبهم وما تأخر».

وروى عمر بن يزيد قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله سبحانه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. قال: ما كان له ذنب ولا همّ بذنب، ولكن الله حمّله ذنوب شيعة ثم غفرها له».

والثاني: ما ذكره المرتضى عليه السلام: أن الذنب مصدر، والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول معاً، فيكون هنا مضافاً إلى المفعول. والمراد: ما تقدم من ذنبهم إليك في منعهم إياك عن مكة، وصدّهم لك عن المسجد الحرام. ويكون معنى المغفرة على هذا التأويل: الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين عليه، أي: يزيل الله تعالى ذلك عنك، ويستر عليك تلك الوصمة بما يفتح الله لك من مكة، فستدخلها فيما بعد. ولذلك جعله جزاء على جهاده، وغرضاً في الفتح، ووجهاً له.

قال: ولو أنه أراد مغفرة ذنوبه لم يكن لقوله: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله» معنى معقول، لأن المغفرة للذنوب لا تعلق لها بالفتح، فلا يكون غرضاً فيه. وأما قوله: «ما تقدم وما تأخر» فلا يمتنع أن يريد به ما تقدم زمانه من فعلهم القبيح بك وبقومك.

وقيل أيضاً في ذلك وجوه أخرى:

منها: أن معناه: لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك.

ومنها: أن المراد بالذنب هنا ترك المندوب. وحسن ذلك لأن من المعلوم

أنه عليه السلام ممن لا يخالف الأوامر الواجبة، فجاز أن يسمى ذنباً منه ما لو وقع من غيره لم يسم ذنباً، لعل قدره ورفعة شأنه.

ومنها: أن القول خرج مخرج التعظيم وحسن الخطاب، كما قيل في قوله:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾^(١).

وهذا ضعيف، لأنَّ العادة جرت في مثل هذا أن يكون على لفظ الدعاء.

﴿وَيَتِمُّ بِعَفْوِهِ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء دينك على سائر الأديان، وبقاء شرعك، وضمَّ الملك إلى النبوة. وقيل بفتح خبير ومكَّة والطائف. ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرئاسة. أو تثبيتك على صراط يؤدِّي بسالكه إلى الجنة.

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: نصرًا فيه عزٌّ ومنعة. أو يعزُّ به المنصور. فهو وصف بصفة المنصور مبالغة إسناداً مجازياً. أو عزيزاً صاحبه. وقد فعل ذلك نبيُّه ﷺ، إذ صير دينه أعزَّ الأدِلن، وسلطانه أعظم السلطان.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ هي اسم السكون، كالبهية للبهتان، أي: أنزل الثبات والطمأنينة ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يفعل بهم اللطف الذي يحصل لهم عنده، من البصيرة بالحق ما تسكن إليه نفوسهم. وذلك بكثرة ما ينصب لهم من الأدلة الهادية إليه، ومن جملة ما هاهنا أن يقع الصلح بينهم وبين المعاندين، ويأمنوا منهم لذلك، بعد أن قلقَت نفوسهم، ودحضت أقدامهم، لفرط الدهشة والخوف، ويروا من الفتوح وعلو كلمة الاسلام على وفق ما وعدوا.

﴿لِيَزِدَّادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ يقيناً مع يقينهم، بمزجة رسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها، لمشاهدتهم وعرفانهم. أو أنزل فيها السكون إلى ما جاء به الرسول من الشرائع، ليزدادوا بها إيماناً مقروناً إلى إيمانهم بالله واليوم الآخر.

وعن ابن عباس: إنَّ أول ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد، فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة والزكاة، ثم الحجَّ، ثم الجهاد، فازدادوا إيماناً إلى إيمانهم.

أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله ولرسوله، ليزدادوا باعتقاد ذلك إيماناً إلى

إيمانهم. يعني: يزدادوا معارف على المعرفة الحاصلة عندهم.

وقيل: أنزل فيها الرحمة ليراحموا، فيزداد إيمانهم.

﴿وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبر أمرها، فيسلط بعضها على بعض تارة،

ويوقع فيما بينهم السلم أخرى، كما تقتضيه حكمته.

وقيل: معناه: أن الله تعالى لو شاء لأعانكم بجنوده الذين هم الملائكة والجن

والإنس.

وفيه بيان أنه لو شاء لأهلك المشركين، لكنه عالم بهم وبما يخرج من

أصلاهم، فأهلهم لعلمه وحكمته، ولم يأمر بالقتال عن عجز واحتياج، ولكن

ليعرض المجاهدين لجزيل الثواب.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَلِيماً﴾ بالمصالح ﴿حَكِيماً﴾ فيما يقدر ويدبر، فدبر ما دبر من

تسليط المؤمنين.

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾

فهذا مع ما بعده علّة لما دلّ عليه قوله: «والله جنود السموات والأرض» من معنى

التدبير. فكأنه قال: سلط المؤمنين على الكافرين ليعرفوا نعمة الله فيه ويشكروها،

فيدخل المؤمنين الجنة، ويعذب الكفار والمنافقين لما غاضهم من ذلك. وقيل: علّة

لقوله: فتحنا، أو أنزل، أو جميع ذلك، أو ليزدادوا. وقيل: إنه بدل منه بدل

الاشتمال.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يغطيها ولا يظهرها. والمعنى: لم يعذبهم بها.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي: الإدخال والتكفير ﴿عِنْدَ اللَّهِ قَوْزاً عَظِيماً﴾ لأنه منتهى ما يطلب

من جلب نفع أو دفع ضرر. و«عند» حال من الفوز.

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ عطف على

«يدخل»، إلا إذا جعلته بدلاً، فيكون عطفاً على المبدل منه، لا البدل، لفساد المعنى

﴿الظَّالِمِينَ بِإِلَهِ ظَنِّ السَّوْءِ﴾ ظَنُّ الأمرِ السَّوْءِ، وهو أن لا ينصر رسوله والمؤمنين
 ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ ما يظنون به ويترصونه بالمؤمنين، من الذلِّ والهلاك وغنيمة
 الأموال.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: دَائِرَةُ السَّوْءِ. وهما لغتان، غير أن المفتوح غلب
 في أن يضاف إليه ما يراد ذمّه، ولذلك أضيف الظنُّ إليه، لكونه مذموماً. والمضموم
 جرى مجرى الشرِّ، وهو مطلق المكروه والشدة. وكلاهما في الأصل مصدر، من:
 ساء، كالكره والكره، والضعف والضعف.

﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطف لما استحقَّوه في الآخرة
 على ما استوجبوه في الدنيا. والواو في الأخيرين، والموضع موضع الفاء - إذ اللعن
 سبب للإعداد، والغضب سبب له - لاستقلال الكلِّ في الوعيد بلا اعتبار السببية.
 ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنّم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيْرًا﴾ في قهره وانتقامه من أعدائه
 ﴿حَكِيمًا﴾ في فعله وقضائه. كرّره للتأكيد. أو الأول متّصل بذكر المؤمنين، أي: فله
 الجنود التي يقدر أن يعينكم بها. والثاني متّصل بذكر الكافرين، أي: فله الجنود التي
 يقدر على الانتقام منهم بها.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 وَتُعْزِزُوهُ وَتُقَرِّبُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
 يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى
 بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ تشهد على ما عملت أمتك، كقوله: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(١). ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ على الطاعة والمعصية.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطاب للنبي والأمة ﴿وَتَعَزَّزُوا﴾ وتقوّوه بتقوية دينه ورسوله ﴿وَتَوْقَرُوا﴾ وتعظّموه ﴿وَتُسَبِّحُوا﴾ وتزّهوه، أو تصلّوا له ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غداة وعشيّاً، أو دائماً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الأفعال الأربعة بالياء، والضمير للناس.

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب أهل الجبر أن الله يريد من الكفّار الكفر، لأنّه صرّح هنا أنّه يريد من جميع المكلفين الإيمان والطاعة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ لأنّه المقصود ببيعته ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ حال، أو استئناف مؤكّد له على سبيل التخييل. يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين في حكم يد الله في هذه البيعة. ولما كان الله تعالى منزهاً عن الجوارح وعن سائر صفات الأجسام، فالغرض تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما، كقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٢).

وقيل: معناه: قوّة الله في نصرته نبيّه فوق نصرتهم إياه، أي: ثق بنصرة الله لك، لا بنصرتهم وإن بايعوك.

وقيل: نعمة الله عليهم بنبيّه فوق أيديهم بالطاعة والمبايعة.

﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ نقض العهد ﴿فَبِمَا نَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلّا عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَى﴾ ومن ثبت على الوفاء ﴿بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ أي: أوفى بمبايعته. يقال: وفيت بالعهد وأوفيت به. وهي لغة تهامة. ومنها: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(٣) ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾^(٤). ﴿فَسَيُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنة.

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) النساء: ٨٠.

(٣) المائدة: ١.

(٤) البقرة: ١٧٧.

وقرأ حفص: عَلَيْهِ بَضْمُ الهاء.. وابن كثير ونافع وابن عامر وروح: فَسَنُوتِيهِ بالنون.

والآية نزلت في بيعة الحديبية. وهي بيعة الرضوان. سَمَّيتَ بِهَا لِأَنَّهُمْ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْجَنَّةِ، بِسَبَبِ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى مُحَارَبَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَنَصْرَةِ دِينِهِ، وَرَضِيَ لَهُمْ تِلْكَ الْبَيْعَةُ.

قال جابر بن عبد الله: بايعنا رسول الله تحت الشجرة على الموت، وعلى أن لا نفرّ، فما نكث أحد منا البيعة إلا جدد بن قيس، وكان منافقاً اختبأ تحت إبط بعيره، ولم يسر مع القوم.

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾

روي: أَنَّهُ ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً، وكان في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، استنفر من حول المدينة من أسلم وجهيته ومزينة وأشجع وغفار، ليخرجوا معه، حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو

يصدّوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ، وساق معه الهدى، ليعلم أنّه لا يريد حرباً. فتشاقل كثير من الأعراب وقالوا: يذهب محمد إلى قوم قد غزوه في عقر داره - أي: أصلها - بالمدينة وقتلوا أصحابه، فيقاتلهم. وظنّوا أنّه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة. واعتلّوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم، وأنّه ليس لهم من يقوم بأشغالهم. فأخبر الله عن تخلفهم قبل وقوع ذلك، فقال:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ عن الخروج معك، إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالنا. والأهلون جمع أهل. ويقال: أهلات على تقدير تاء التانيث، فإنّه قد جاء أهلة، كأرض وأرضين وأرضة وأرضات. وأمّا أهال فاسم جمع. ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ من الله على التخلف.

فكذّبهم الله في الاعتذار والاستغفار بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِالنِّسْبَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: الذي خلّفهم ليس بما يقولون، وإنّما هو الشك في الله والنفاق. وطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادق عن حقيقة.

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ فمن يمنعكم من مشيئته وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضُرّاً﴾ ما يضركم، قتل أو هزيمة أو خلل في المال والأهل، عقوبة على التخلف. وقرأ حمزة والكسائي بالضم. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ ما يصاد ذلك من ظفر وغنيمة. وهذا تعريض بردّ قولهم. ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ فيعلم تخلفكم وقصدكم فيه.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً﴾ لا يرجعون إلى من خلّفوا بالمدينة من الأهل والمال، لظنكم أن المشركين يستأصلونهم ﴿وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: زين الشيطان ذلك الظنّ المتمكّن في قلوبكم ﴿وَوَدَّعْتُمْ أَنْتُمْ الظَّنَّ السَّوْءَ﴾ الظنّ المذكور، وهو التسجيل عليه بالسوء. أو هو - وسائر ما يظنون بالله ورسوله من الأمور الزائفة. ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين مستوجبين لسخطه وعقابه

عند الله ، لفساد عقيدتكم، وسوء نيتكم. من: بار، كالهلك من: هلك، بناءً ومعنى. ولذلك وصف به الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث. ويجوز أن يكون جمع بائر، كعائد وعوذ.

وقيل: معناه: فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم، لا خير فيكم. وكان ذلك من الغيب الذي لا يطلع عليه أحد إلا الله، وصار معجزاً لنبينا ﷺ.

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ وضع «الكافرين» موضع الضمير إيداناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر، وأنه مستوجب للسعير بكفره. وتكثير «سعيراً» للتهويل، أو لأنها نار مخصوصة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره كيف يشاء ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ مشيئته تابعة لحكمته، وحكمته المغفرة للتائب، وتعذيب المصر ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ رحمته سابقة لنضبه، حيث يكفر السيئات باجتناّب الكبائر، ويغفر الكبائر بالتوبة. وقد جاء في الحديث الإلهي: «سبقت رحمتي غضبي».

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِأَخْذُوهَا ذَرُونَا تَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ

يُطْعِمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَدْخُلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ﴾ أيها
المؤمنون ﴿إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني: مغنم خيبر، فإنه ﷺ رجع من الحديبية
في ذي الحجة من سنة ست، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم، ثم غزا خيبر بمن
شهد الحديبية، ففتحها وغنم أموالاً كثيرة، فخصّها بهم. وسيجيء تفصيل قصتها عن
قريب إن شاء الله.

﴿ذَرُونَا﴾ أتركونا ﴿نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يغيّروه.
وهو وعده لأهل الحديبية أن يعوّضهم من مغنم مكة مغنم خيبر، ولا يشركهم
فيها غيرهم. وهذا قول ابن عباس ومجاهد وابن إسحاق وغيرهم من
المفسرين.

وقال الجبائي: أراد بقوله: «يريدون أن يبدّلوا كلام الله» قوله: ﴿فَقُلْ لَنْ
تُخْرِجُوا مَعِيَ ابْدَأُ وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾^(١).

وقال صاحب المجمع: «وهذا غلط، لأنّ هذه السورة نزلت بعد الانصراف
من الحديبية في سنة ست من الهجرة، وتلك الآية نزلت في الذين تخلّفوا عن غزوة
تبوك، وهذه الغزوة بعد فتح مكة، وبعد غزوة حنين والطائف، ورجوع النبي ﷺ
منها إلى المدينة، ومقامه ما بين ذي الحجة إلى رجب، ثم تهياً في رجب للخروج
إلى تبوك. وكان منصرفه من تبوك في بقيّة رمضان من سنة تسع من الهجرة، ولم
يخرج ﷺ بعد ذلك لقتال ولا غزو إلى أن قبضه الله، فكيف تكون هذه الآية مرادة

ها هنا؟! (١).

والكلام اسم للتكليم، غلب في الجملة المفيدة. وقرأ حمزة والكسائي: كَلِمَ الله. وهو جمع كلمة.

﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ نفي في معنى النهي ﴿عَذَابُكُمْ قَالَ اللهُ﴾ في الحديبية ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل تَهَيَّئِهِمْ للخروج إلى خيبر ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أن نشارككم في الغنائم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا فهماً قليلاً، وهو فطنتهم لأمر الدنيا. ومعنى الإضراب الأول ردّ منهم أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم، وإثبات للحسد. والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أجلّ منه، وهو جهلهم بأمور الدين، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٢).

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كرّر ذكرهم بهذا الاسم مبالغة في الذمّ، وإشعاراً بشناعة التخلف ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بني حنيفة، أو قوم مسيلمة، أو غيرهم ممن ارتدّوا بعد رسول الله ﷺ في زمن أبي بكر، فإنه قال: ﴿تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا﴾ وفي زمانه لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف. وقيل: فارس والروم. ومعنى «يسلمون»: ينقادون، لأنّ الروم نصارى، وفارس مجوس، يقبل منهم إعطاء الجزية. وعن قتادة: أنّهم ثقيف وهوازن، وكان ذلك في عهد رسول الله ﷺ. وقيل: هم أصحاب معاوية.

وقال صاحب المجمع: «الصحيح: أنّ المراد بالداعي في قوله: «ستدعون» هو النبي ﷺ، لأنّه قد دعاهم بعد ذلك إلى غزوات كثيرة، وقتال أقوام ذوي نجدة وشدة، مثل أهل حنين والطائف ومؤتة وتبوك وغيرها، فلا معنى لحمل ذلك على ما

(١) مجمع البيان ٩: ١١٥.

(٢) الروم: ٧.

بعد وفاته»^(١).

﴿فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمة في الدنيا، والجَنَّة في الآخرة
﴿وَإِنْ تَنَوتُوا﴾ عن القتال ﴿كَفَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ عن الحديبية ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا
إِلِيمًا﴾ لتضاعف جرمكم.

ولما أوعد على التخلف نفى الحرج عن المعذورين، فقال:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ﴾ ضيق في ترك الخروج مع المؤمنين في الجهاد
﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ بهذه الآية عذر الله أهل الزمانة
والآفات الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية، ورخصهم في التخلف عن الغزو.
ثم فصل الوعد والوعيد بعد الإجمال مبالغة فيهما، لسبق رحمته للمطيعين،
وفرط عقابه على المتعذرين، فقال على سبيل التعميم:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأمر بالقتال وغيره ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَقُولُ﴾ عن أمر الله وأمر رسوله، فيقعد عن الجهاد وغيره من
أوامره ﴿يُعَذِّبُهُ عَذَابًا إِلِيمًا﴾. وقرأ نافع وابن عامر: نُدْخِلْهُ بالنون.

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي
قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً
يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا
فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ

صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾

روي عن ابن عباس أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خرج يريد مَكَّةَ، فَلَمَّا بَلَغَ
الحديبية وَقَفَتْ نَاقَتُهُ، فَزَجَرَهَا فَلَمْ تَنْزَجِرْ وَبَرَكَتْ. فَقَالَ أَصْحَابُهُ: خَلَّتْ ^(١) النَّاقَةُ.
فَقَالَ ﷺ: مَا هَذَا لَهَا عَادَةً، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ. وَدَعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ
لِيُرْسِلَهُ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، لِيَأْذَنُوا لَهُ بِأَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ، وَيَحِلَّ مِنْ عِمْرَتِهِ، وَيَنْحَرَ هَدِيَّةً.
فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لِي بِهَا حَمِيمٌ، وَإِنِّي أَخَافُ قَرِيشًا لَشِدَّةِ عِدَاوَتِي إِيَّاهَا،
وَلَكِنْ أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ هُوَ أَعَزُّ بِهَا مِنِّي: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ.

فَقَالَ: صَدَقْتَ. فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُثْمَانَ فَأَرْسَلَهُ إِلَى أَبِي سَفْيَانَ وَأَشْرَافِ
قُرَيْشٍ يَخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتْ لِحَرْبٍ، وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ، مَعْظَمًا لِحَرَمَتِهِ.
فَاحْتَبَسَتْهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا. فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ، فَقَالَ ﷺ:
لَا نَبْرَحُ حَتَّى نَنَاجِزَ الْقَوْمَ. وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الشَّجَرَةِ
وَكَانَتْ سَمُرَةً ^(٢) - فَاسْتَدَّ إِلَيْهَا، وَبَايَعَ النَّاسَ عَلَى أَنْ يَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ، وَلَا يَفْرُوا
عَنْهُمْ.

قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: لَوْ كُنْتُ أَبْصُرُ لَأَرَيْتُكُمْ مَكَانَهَا.
وَقِيلَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ، وَعَلَى ظَهْرِهِ غَصَنٌ مِنْ
أَغْصَانِهَا.
قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَغْفَلِ: وَكُنْتُ قَائِمًا عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ الْيَوْمَ،

(١) أَي: وَقَفَتْ وَلَزِمَتْ مَكَانَهَا وَلَمْ تَتَقَدَّ.

(٢) السَّمُرَةُ: شَجَرَةٌ مِنَ الْعِضَاءِ، وَلَيْسَ فِي الْعِضَاءِ أَجُودُ خَشَبًا مِنْهَا. وَالْعِضَاءُ: كُلُّ شَجَرٍ يَعْظُمُ
وَلَهُ شَوْكٌ.

ويدي غصن من الشجرة أذب عنه، رفعت الغصن عن ظهره، فبايعوه على الموت دونه، وعلى أن لا يفروا. فقال لهم رسول الله ﷺ: أنتم اليوم خير أهل الأرض. ولا شبهة أن هذا مشروط بعدم النكث والارتداد. وكان عدد المبايعين ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين. وقيل: ألفاً وأربعمائة. وقيل: ألفاً وثلاثمائة.

وروى الزهري وعروة بن الزبير والمسور بن مخزمة قالوا: خرج رسول الله ﷺ من الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، حتى إذا كانوا بذي الحليفة قلّد رسول الله ﷺ الهدى وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش. وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بغدير^(١) الأشطاط قريباً من عسفان أتاه عينه الخزاعي فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي وغيرهما قد جمعوا لك الأحابيش^(٢) وجمعوا جموعاً، وهم قاتلوك وصادوك عن البيت.

فقال ﷺ: روحوا. فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: إن خالد بن الوليد بالغميم^(٣) في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين. وسار ﷺ حتى إذا كان بالثنية^(٤) بركت راحلته، فقال ﷺ: ما خلأت القصواء^(٥)، ولكن حبسها حابس الفيل، فزجرها فوثبت به. قال: فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية

(١) غدير الأشطاط: قريب من عسفان. وعسفان: منهلة من مناهل الطريق، وهي من مكة على مرحلتين.

(٢) الأحابيش: الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة.

(٣) الغميم: موضع بين مكة والمدينة.

(٤) الثنية: طريق العقبة. والعقبة: المرقى الصعب من الجبال، أو الطريق في أعلى الجبال.

(٥) القصواء: الناقة التي قطع طرف أذنها. وفي نهاية ابن الأثير (٤: ٧٥): «ولم تكن ناقة

النبي ﷺ قصواء، وإنما كان هذا لقباً لها. وقيل: كانت مقطوعة الأذن».

على ثمد^(١) قليل الماء، إنَّما يتبرَّضه^(٢) الناس تبرَّضاً، فشكوا إليه العطش، فانتزع سهماً من كنانته فركزه^(٣) فيه، فوالله ما زال يجيش^(٤) لهم بالريِّ حتَّى صدروا عنه. وبعث قريش حويطب بن عبد العزَّى، وبديل بن ورقاء الخزاعي، وعروة بن مسعود الثقفي، مع جماعة، وابتدر عروة وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلَّما كلَّمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفرة^(٥)، فكلَّما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنعل^(٦) السيف وقال: آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا ترجع إليك. فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة.

فخبرهم رسول الله ﷺ بين المصالحة إلى مدَّة معيَّنة، ورجوعه عن مكَّة إلى أن تنقضي المدَّة، وبين أن يدعوهم وأصحابه أن يدخلوا مكَّة ويطوفوا ويحلَّوا ويرجعوا. ثمَّ قال ﷺ: والذي نفسي بيده لأقاتلنَّهم على أمري هذا حتَّى تنفرد سالفتي^(٧) أو لينفذنَّ الله ﷻ أمره.

فجعل عروة يرمق صحابة النبي ﷺ: إذا أمرهم رسول الله ﷺ ابستدروا أمره، وإذا توضع كادوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدِّون إليه النظر تعظيماً له.

فرجع إلى قريش، فقال لهم: والله لقد وفدت على الملوك، وفدت على قيصر

(١) الثَّمْدُ: الحفرة يجتمع فيها ماء المطر.

(٢) تبرَّض الماء: ترشَّفه، أي: مصَّه بشفتيه.

(٣) رَكَزَ الرمح ونحوه: غرزه في الأرض وأثبتته.

(٤) أي: يفيض. والريِّ والريِّ: أن يشرب الماء حتَّى يشبع.

(٥) المِغْفَرَة: زَرَد - أي: درع - يلبسه المحارب تحت القلنسوة.

(٦) نعل السيف: ما يكون في أسفل غمده من حديد أو فضة.

(٧) السالفَة: صفحة العنق. أراد ﷺ: حتَّى يفرَّق بين رأسي وجسدي.

وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قطَّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمداً، إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضعاً كادوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحذون إليه النظر تعظيماً له. وإنّه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته.

فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال رسول الله ﷺ لأصحابه: هذا فلان، وهو من قوم يعظّمون البدن^(١)، فابعثوها. فبعث له. واستقبله القوم يلّبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت.

فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته.

فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: هذا مكرز، وهو رجل فاجر. فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال ﷺ: قد سهل عليكم أمركم.

فقال: اكتب بيننا وبينك كتاباً.

فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام فقال له:

اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو. فهمّ المسلمون أن يأبوا ذلك ويبطشوا عليهم، فأنزل الله سكينة عليهم فحلّموا.

فقال النبي ﷺ: من محمد رسول الله.

فقال سهيل: لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك.

ولكن اكتب: محمد بن عبد الله.

فقال النبي ﷺ: إني لرسول الله وإن كذبتهموني.

(١) البُدن جمع البَدنة: الناقة أو البقرة المستنة.

ثُمَّ قَالَ لِعَلِيِّ عليه السلام : امح : رسول الله .

فقال له : يا رسول الله إِنْ يَدِي لَا تَنْطَلِقُ بِمَحْوِ اسْمِكَ مِنَ النَّبُوءَةِ .

فأخذه رسول الله فمحا . ثم قال : اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهنّ الناس ، ويكفّ بعضهم عن بعض . وعلى أنّه من قدم مكّة من أصحاب محمد حاجّاً أو معتمراً ، أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

فتواثبت بنو خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم .

فقال عليه السلام : على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فتطوف .

فقال سهيل : ذلك من العام المقبل .

ثُمَّ قَالَ سهيل : على أنّه لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلّا رددته إلينا ، ومن جاءنا منّ معك لم نردّه عليك .

فقال المسلمون : سبحان الله كيف يردّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟!

فقال عليه السلام : من جاءهم منّا فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم رددناه إليهم ، فلو علم الله الاسلام من قلبه جعل له مخرجاً .

فقال سهيل : وعلى أنّك ترجع عنّا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكّة . فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً . ولا تدخلها بالسلاح ، إلّا السيوف في القرباب^(١) وسلاح الراكب . وعلى أنّ هذا الهدى حيث ما حبسناه محلّه ، لا تقدّمه علينا .

(١) القرباب : الفِئْد ، أي : جفن السيف .

فَقَالَ ﷺ: نحن نسوق، وأنتم تردّون.

قال عمر بن الخطّاب: ما شككت مذ أسلمت إلّا يومئذٍ، فأتيت النبي ﷺ

فقلت: ألسنت نبيّ الله؟

قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحقّ، وعدّونا على الباطل؟

قال: بلى.

قلت: فلم نعطي الدنيّة في ديننا إذا؟

قال: إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري.

قلت: أولست كنت تحدّثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟

قال: بلى. أفأخبرت أنّك تأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنّك تأتيه وتطوف به. فنحر رسول الله بدنة، ودعا بحالقه، فحلّق

شعره، ثمّ رجع مع أصحابه.

وأخبر سبحانه مجملاً عمّا ذكرنا مفصّلاً، فقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ

إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ شجرة السمرّة ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص

وصدق الضمائر فيما بايعوا ﴿فَأَنْزَلَ السُّكِينَةَ﴾ الطمأنينة وسكون النفس بالتشجيع

أو الصلح ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على قلوبهم. والمراد بإنزالها اللطف المقوي لها. ﴿وَأَشَابَهُمْ

فَتْحاً قَرِيباً﴾ فتح خيبر غبّ انصرافهم من مكّة. وقيل: مكّة. وعن الحسن: فتح

حجر. وهو أجلّ فتح اتسعوا بثمرها زماناً. والأوّل أصحّ وأشهر.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني: مغانم خيبر وكانت أرضاً ذات عقار

وأموال، فقسمها رسول الله عليهم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالباً قاهراً ﴿حَكِيمًا﴾ مراعيّاً

مقتضى الحكمة.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: مغنم خيبر ﴿وَعَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم، فقذف في قلوبهم الرعب فنكصوا. أو أيدي قريش بالصلح.

﴿وَلِتَكُونَنَّ﴾ هذه الكفّة، أو الغنيمة ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمانة يعرفون بها أنهم من الله بمكان، وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم. أو صدق الرسول في وعدهم بفتح خيبر في حين رجوعه من الحديبية، أو وعد المغنم.

قيل: رأى رسول الله ﷺ فتح مكة في منامه - ورؤيا الأنبياء وحي - فتأخّر ذلك إلى السنة القابلة، فجعل فتح خيبر علامة وعنواناً لفتح مكة.

وهو علّة الكفّ، أو «عجل»، معطوف على محذوف، مثل: لتسلموا، أو لتأخذوا، أو العلّة لمحذوف تقديره: ويكون آية للمؤمنين فعل ذلك.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة و يقيناً وثقة بفضل الله والتوكل عليه، من عده الله في القرآن بالفتح والغنيمة.

﴿وَأُخْرَى﴾ ومغنم أخرى. معطوفة على «هذه». أو منصوبة بفعل يفسره «قد أحاط الله بها» مثل: قضى. ويحتمل رفعها بالابتداء، لأنها موصوفة. وجزّها بإضمار «رب» أي: ربّ مغنم أخرى. ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ لما كان فيها من الشدّة العظيمة والصعوبة التامة ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قد علم بها وقدر عليها واستولى، فأظفركم بها وغنمكموها. وهو مغنم هوازن في غزوة حنين، ومغنم فارس. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لأنّ قدرته ذاتية لا تختص بشيء دون شيء.

وبيان قصّة وقعة خيبر على ما روى كبار المفسرين وعظماء المؤرّخين: أنّ النبي ﷺ لما قدم المدينة من الحديبية مكث بها عشرين ليلة، ثم خرج منها قاصداً إلى خيبر.

وروا عن ابن إسحاق بإسناده، عن أبي مروان الأسلمي، عن أبيه، عن جده قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، حتى إذا أشرفنا عليها قال رسول الله ﷺ: قفوا. فوقف الناس. فقال: اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها. أقدموا بسم الله.

وعن سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فلما جدَّ الحرب وتصافَّ القوم خرج يهودي وهو يقول:

قد علمت خيبر أنني مرحب
شاكلي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه عامر بن الأكوع وهو يقول:

قد علمت خيبر أنني عامر
شاكلي السلاح بطل مغامر
فاختلفا ضربتين، فوقع سيف اليهودي في ترس عامر، وكان سيف عامر فيه قصر، فتناول به ساق اليهودي ليضربه، فرجع ذباب^(١) سيفه فأصاب عين ركة عامر، فمات منه.

قال سلمة: فإذا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: بطل عمل عامر قتل نفسه.

قال: فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي، فقلت: قالوا: إن عامراً بطل عمله.

فقال: من قال ذلك؟

قلت: نفر من أصحابك.

فقال: كذب أولئك، بل أوتي من الأجر مرتين.

(١) ذباب السيف: طرفه الذي يضرب به.

قال: فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة. ثم إن الله فتحها علينا. وذلك أن النبي ﷺ أعطى اللواء عمر بن الخطاب، ونهض من نهض معه من الناس، فلقوا أهل خيبر، فانكشف عمر وأصحابه، فرجعوا إلى رسول الله، يحبته أصحابه ويحبّتهم. وكان رسول الله ﷺ أخذته الشقيقة، فلم يخرج إلى الناس، فقال حين أفاق من وجعه: ما فعل الناس بخيبر؟ فأخبر. فقال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، كزّاراً غير فزار، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه.

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما، عن قتيبة بن سعيد قال: حدّثنا يعقوب بن عبد الرحمن الاسكندراني، عن أبي حازم، قال: أخبرني سهل بن سعد: «أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله.

قال: فبات الناس يدوكون^(١) بجملتهم أيهم يعطاها. فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها. فقال: أين عليّ بن أبي طالب؟ فقالوا: يا رسول الله يشتكي عينيه.

قال: فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له، فبرىء حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية.

فقال عليّ عليه السلام: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: أنفذ على رسلك^(٢) حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الاسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون حمر النعم.

(١) داك القوم؛ خاضوا واضطربوا وماجوا.

(٢) الرّسالة: التمهّل والتؤدة والرفق. يقال: على رسلك، أي: على مهلك وتأنّ.

قال سلمة: فبرز مرحب وهو يقول: قد علمت خبير أنني مرحب...^(١)
الآيات. فبرز له عليٌّ عليه السلام وهو يقول:

أنا الذي سمّيتي أمي حيدرة كليث غابات كرية المنظرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة^(٢) أكيلكم بالسيف كيل السندرة
فضرب مرحباً ففلق رأسه فقتله، وكان الفتح على يده».

وروى أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال:
خرجنا مع عليٍّ عليه السلام حين بعثه رسول الله ﷺ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله،
فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده، فتناول عليٌّ باب الحصن
فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من
يده. فلقد رأيتني في نفر مع سبعة - أنا ثامنهم - نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما
استطعنا أن نقلبه.

وبإسناده عن ليث بن أبي سليم، عن أبي جعفر محمد بن عليٍّ عليه السلام قال:
«حدّثني جابر بن عبد الله أن علياً عليه السلام حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون
عليه فافتحوها، وأنه حرّك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً».

قال: وروى من وجه آخر عن جابر: ثم اجتمع عليه سبعون رجلاً فكان
جهدهم أن أعادوا الباب.

وبإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان عليٌّ عليه السلام يلبس في الحرّ
والشتاء القباء المحشوّ الثخين، وما يبالي الحرّ. فأتاني أصحابي فقالوا: إنّنا رأينا من

(١) ورد صدر الحديث في صحيح البخاري ٥: ١٧١، وذيله من قوله: «قال سلمة...» في
صحيح مسلم ٣: ١٤٤١.

(٢) السّندرة: ضرب من الكيل ضخّم. يقال: أكيلكم بالسيف كيل السّندرة، يعني: أقتلكم قتلاً
واسعاً ذريعاً.

أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً، فهل رأيته؟

فقلت: وما هو؟

قالوا: رأيناه يخرج علينا في الحر الشديد في القباء المحشو الشخين، وما يبالي الحر، ويخرج علينا في البرد الشديد في الثوبين الخفيفين، وما يبالي البرد. فهل سمعت في ذلك شيئاً؟

فقلت: لا.

فقالوا: فسل لنا أباك عن ذلك.

فسألته. فقال: ما سمعت في ذلك شيئاً. فدخل على علي عليه السلام، فسمر معه، ثم سأله عن ذلك. فقال: أو ما شهدت معنا خير؟ فقلت: بلى.

قال: أو ما رأيته رسول الله حين دعا أبا بكر، فعقد له وبعثه إلى القوم، فانطلق فلقي القوم، ثم جاء بالناس وقد هزموا؟ فقال: بلى.

قال: ثم بعث إلى عمر فعقد له، ثم بعثه إلى القوم، فانطلق فلقي القوم فقاتلهم، ثم رجع وقد هزم. فقال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية اليوم رجلاً يحب الله ورسوله، - ويحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، كزاراً غير فرار. فدعاني فأعطاني الراية، ثم قال: اللهم اكفه الحر والبرد. فما وجدت بعد ذلك برداً ولا حرّاً. وهذا كله أيضاً منقول من كتاب دلائل^(١) النبوة للامام أبي بكر البهقي.

ثم لم يزل رسول الله ﷺ يفتح الحصون حصناً حصناً، ويحوز الأموال، حتى انتهوا إلى حصن الوطيط والسالام، وكان آخر حصون خيبر، افتتح، وحاصرهم رسول الله بضع عشرة ليلة.

قال ابن إسحاق: ولَمَّا افْتَتَحَ القَمُوصَ حصن ابن أبي الحقيق، أتى رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب وبأخرى معها. فمرَّ بهما بلال - وهو الذي جاء بهما - على قتلى من قتلى يهود، فلَمَّا رَأَتْهُمُ الَّتِي مَعَهَا صَفِيَّةٌ صَاحَتْ وَصَكَتْ وَجْهَهَا، وَحُثَّتِ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا. فَلَمَّا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: اغْرُبُوا^(١) عَنِّي هَذِهِ الشَّيْطَانَةَ. وَأَمَرَ بِصَفِيَّةٍ فَحِيزَتْ خَلْفَهُ، وَأُلْقِيَ عَلَيْهَا رِداءه. فَعَرَفَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ قَدْ اصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ.

وقال ﷺ لبلال لَمَّا رَأَى مِنْ تِلْكَ الْيَهُودِيَّةِ مَا رَأَى: أَنْزَعْتَ مِنْكَ الرَّحْمَةَ يَا بلال، حَيْثُ تَمَرَّ بِأَمْرَاتَيْنِ عَلَى قَتْلَى رَجَالِهِمَا؟

وكانت صفية قد رأت في المنام، وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، أَنَّ قَمْرًا وَقَعَ فِي حَجَرِهَا، فَعَرَضَتْ رُؤْيَاهَا عَلَى زَوْجِهَا. فَقَالَ: مَا هَذَا إِلَّا أَنَّكَ تَتَمَنَّينَ مَلِكَ الْحِجَازِ مُحَمَّدًا، وَلَطَمَ وَجْهَهَا لَطْمَةً اخْضَرَّتَ عَيْنُهَا مِنْهَا. فَأَتَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبِهَا أَثَرُ مِنْهَا. فَسَأَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا هُوَ؟ فَأَخْبَرَتْهُ.

وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ: انْزِلْ فَأَكَلِمَكَ. قَالَ: نَعَمْ. فَنَزَلَ وَصَالِحُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَقْنِ دِمَاءٍ مِنْ فِي حِصُونِهِمْ مِنَ الْمَقَاتِلَةِ، وَتَرَكَ الذَّرِيَّةَ لَهُمْ، وَيَخْرِجُونَ مِنْ خَيْبَرٍ وَأَرْضَهَا بِذُرَارِيهِمْ، وَيَخْلُونُ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ مَالٍ وَأَرْضٍ، وَعَلَى الصَّفْرَاءِ وَالْبَيْضَاءِ، وَالْكَرَاعِ^(٢) وَالْحَلَقَةِ، وَعَلَى الْبَرْزِ^(٣) إِلَّا تَوْبًا عَلَى ظَهْرِ إِنْسَانٍ.

وقال رسول الله ﷺ: فَبَرِثْتُ مِنْكُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ إِنْ كَتَمْتُمُونِي شَيْئًا. فَصَالِحُوهُ عَلَى ذَلِكَ.

(١) اغْرُبْتُ عَنِّي، أَي: تَبَاعَدْتُ.

(٢) الْكَرَاعُ: اسْمٌ يُطْلَقُ عَلَى الْخَيْلِ وَالْبَغَالِ وَالْحَمِيرِ. وَالْحَلَقَةُ: الدِّرْعُ.

(٣) الْبَرْزُ: الْغِيَابُ.

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ماصنعوا، بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم، ويحقن دماءهم، ويخلّون بينه وبين الأموال. ففعل. وكان ممن مشى بين رسول الله ﷺ وبينهم في ذلك محبصة بن مسعود، أحد بني حارثة. فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم الأموال على النصف. وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأمر لها. فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على أننا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم. وصالحه أهل فدك على مثل ذلك. فكانت أموال خيبر فينا بين المسلمين. وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ، لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب.

ولما اطمان رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم - وهي ابنة أخي مرحب - شاة مصلية^(١)، وقد سألت: أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟ ف قيل لها: الذراع. فأكثر فيها السم، وسمت سائر الشاة، ثم جاءت بها. فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع، فأخذها فلاك منها مضغة، وانتهش منها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، فتناول عظماً، فانتهش منه. فقال رسول الله ﷺ: ارفعوا أيديكم، فإن كثف هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة. ثم دعاها فاعترفت.

فقال: ما حملك على ذلك؟

فقالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان نبياً فسيخبر، وإن كان ملكاً استرحمت منه.

فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل.

قال: ودخلت أم بشر بن البراء على رسول الله ﷺ تعودته في مرضه الذي توفي فيه، فقال ﷺ: يا أم بشر ما زالت أكلة خيبر التي أكلت بخير مع ابنك

(١) صَلَّى اللحم: شواه، فاللحم مَضْلِيّ.

تعاودني، فهذا أوان قطعت أبهري^(١). وكان المسلمون يرون أنّ رسول الله ﷺ مات شهيداً، مع ما أكرمه الله به من النبوة.

وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾
وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ
عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

ثم ذكر نصرة أهل الإيمان على المشركين، فقال: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة يوم الحديبية، ولم يصالحوا. وقيل: من حلفاء أهل خيبر. ﴿لَوَلَّوْا الْأَذْبَارَ﴾ لانهزموا وغلبوا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحرسهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم. وفي الآية دلالة على أنّه يعلم ما لم يكن أن لو كان كيف يكون، وإشارة إلى أنّ المعدوم معلوم عنده.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: سنّ غلبة أنبيائه سنّة قديمة فيمن مضى من الأمم، كما قال: ﴿لَا غَلِبُنَا أَنَا وَرُسُلِي﴾^(٢) ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ تَبْدِيلًا﴾ في نصرة الله تغييراً.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أيدي كفّار مكة بالعرب ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾

(١) الأَبْهَرُ: ورید العُتُق، إذا انقطع لم يبق صاحبه. يقال: ما زال يراجعه الألم حتّى قطع أبهره، أي: أهلكه.

(٢) المجادلة: ٢١.

بالنهي ﴿يَبْطُنْ مَكَّةَ﴾ يوم الحديبية، فإن بعضها من الحرم. وروي أَنَّ مضارب^(١) رسول الله ﷺ كانت في الحلّ، ومصلّاه في الحرم. ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أظهركم عليهم. وذلك أَنَّ عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند، فهزمهم حتّى أدخلهم حيطان مكة ثمّ عاد.

وعن ابن عباس: أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتّى أدخلوهم البيوت.

وعن عبد الله بن المغفل: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظلّ شجرة، وبين يديه عليّ ﷺ يكتب كتاب الصلح، فخرج ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله تعالى بأبصارهم، فقمنا فأخذناهم، فخلّى ﷺ سبيلهم. وقيل: كان ذلك يوم الفتح.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مقاتلتهم أولاً طاعةً لرسوله، وكفّهم ثانياً لتعظيم بيته. وقرأ أبو عمرو بالياء. ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيهم عليه.

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَلُّوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ

الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ
وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

ثم ذكر سبحانه سبب منعه رسول الله ﷺ ذلك العام دخول مكة، فقال :
﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أن تطوفوا وتحلوا من
عمرتكم ﴿وَالْهَذِي﴾ ما يهدي إلى مكة. وهي البدن التي ساقها رسول الله ﷺ معه،
وكانت سبعين بدنة. عطف على الضمير المنصوب في «صَدُّوكُمْ» أي: صدوا الهدي.
﴿مَفْكُوفًا﴾ محبوساً ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَجَلَّةً﴾ أي: مكانه الذي يحل فيه نحره - أي:
يجب - يعني: مكة، لأن هدي العمرة لا يذبح إلا بمكة، كما أن هدي الحج لا يذبح
إلا بعنى.

﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ﴾ يعني: المستضعفين الذين كانوا بمكة
بين الكفار من أهل الإيمان، غير مستطيعين للمهاجرة عنهم ﴿لَمْ تَغْلَبُوهُمْ﴾ صفة
للرجال والنساء جميعاً، والتذكير للتغليب، أي: لم تعرفوا المؤمنين والمؤمنات
بأعيانهم، لاختلاطهم بالمشركين. ﴿أَنْ تَطْلُوهُمْ﴾ أن توقعوا بهم وتبيدوهم، فإن
الوطء والدوس عبارة عن الإيقاع والإيادة. وهو بدل اشتغال من «رجال ونساء».
أو من ضمير «هم» في «تعلموهم».

﴿فَتَصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَفْرَّةٌ﴾ من جهتهم مكروه، كوجوب الدية والكفارة بقتلهم،
والتأسف عليهم، وتعبير الكفار بأنهم فعلوا بأهل دينهم ما فعلوا بنا، والإثم بالتقصير
في البحث عنهم. مفعلة من: عزّه إذا أغراه، أي: أصابه ما يكرهه.
﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بـ«أَنْ تَطْلُوهُمْ» أي: تطوهم غير عالمين بهم.

اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة.

فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ويبطشوا عليهم كما مرّ، فأنزل الله السكينة عليهم، فتوقروا وتحلّموا.

ولمّا ذمّ الكفّار بالحميّة، ومدح المؤمنين بلزوم الكلمة والسكينة، بيّن علمه ببواطن سرائرهم وما ينطوي عليه عقد ضمائرهم، فقال:

﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ بالتوفيق وإعطاء اللطف. وهي كلمة: بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله، فاختارها لهم. أو كلمة الشهادة. وعن الحسن: هي الوفاء بالعهد، والثبات عليه. وإضافة الكلمة إلى التقوى، لأنها سببها وأساسها. أو كلمة أهلها. ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرها، وأولى بالهداية من غيرهم ﴿وَأَهْلُهَا﴾ ومستأهلها ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم أهل كل شيء ويسره له.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَدْخُلْنَا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فِجْعَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ

وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزِعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

روي: أن رسول الله ﷺ رأى قبل خروجه إلى الحديبية، كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه، وفرحوا واستبشروا، وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم. وقالوا: إن رؤيا رسول الله حق. فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحارث: والله ما حلقنا، ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام. فنزلت:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ أي: صدقه في رؤياه، ولم يكذبه. فحذف الجاز وأوصل الفعل، كقوله تعالى: ﴿مَا غَاوُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(١) ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً به، فإن ما رآه كائن لا محالة في وقته المقدر، وهو العام القابل. وهو إما متعلق بـ«صدق» أي: صدقه فيما رأى، وفي كونه وحصوله صدقاً ملتبساً بالحق، أي: بالفرض الصحيح والحكمة البالغة. وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمنين المخلصين، وبين من في قلبه مرض نفاق.

ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالاً منها، أي: صدقه الرؤيا ملتبسة بالحق، على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام. ويجوز أن يكون «بالحق» قسماً. إما بالحق الذي هو نقيض الباطل. أو بالحق الذي هو من أسمائه تعالى.

﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ يعني: العام المقبل. وهو جواب القسم. وعلى الأول جواب قسم محذوف. ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة، تعليماً للعباد أن يقولوا في عداوتهم مثل ذلك، متأذين بأدب الله، ومقتدين بسنته. أو إشعاراً بأن بعضهم لا يدخل، لموت أو غيبة. والمعنى: لتدخلن جميعاً إن شاء الله، ولم يمت منكم أحداً. أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا أو النبي ﷺ لأصحابه.

﴿آمِنِينَ﴾ حال من الواو، والشرط معترض ﴿مُخْلِطِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: محلقاً بعضكم، ومقصراً آخرون ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة، أو استئناف، أي: لا تخافون بعد ذلك.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ من دون دخولكم المسجد الحرام، أو فتح مكة ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ وهو فتح خيبر، ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الموعود.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ ملتبساً بالدليل الواضح والحجة الساطعة. وقيل: بالقرآن، أو بسببه، أو لأجله. ﴿وَيَدِينُ الْحَقَّ﴾ ويدين الاسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليغلبه على جنس الدين كله. يريد الأديان المختلفة، من المشركين والجاحدين وأهل الكتاب. وذلك بنسخ ما كان حقاً، وإظهار فساد ما كان باطلاً. أو بتسليط المؤمنين على أهله، إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون. وفيه تأكيد لما وعده من الفتح. قيل: إن تمام ذلك عند خروج المهدي ﷺ، فلا يبقى في الأرض دين سوى دين الاسلام. ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ على أن ما وعده كائن لا محالة. أو على نبوته بإظهار المعجزات.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ جملة مبيّنة للمشهود به. ويجوز أن يكون «رسول الله» صفة و«محمد» خبر محذوف. أو مبتدأ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ معطوف عليه، وخبرهما ﴿أَشِدَّاءُ﴾ جمع شديد ﴿عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ﴾ جمع رحيم ﴿يَبَيِّنُهُمْ﴾. والمعنى: أنهم

يغلظون على من خالف دينهم، ويتراحمون فيما بينهم، كقوله: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١).

وعن الحسن: بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثياب المشركين أن تلتزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم. وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه. ومن حق المؤمنين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدد وهذا التعطف، فيتشددوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه، ويعاشروا إخوانهم في الإيمان، متعطفين بالبر والصلة، وكف الأذى، والمعونة، والأخلاق الكريمة.

﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ لأنهم مشغولون بالصلاة في أكثر أوقاتهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ يلتمسون بذلك زيادة نعمة من الله، ويطلبون مرضاته ﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ يريد السمة التي تحدث في جهة السجود من كثرة السجود. فغلى، من: سامه إذا أعلمه. و«من أثر السجود» بيانها. أو حال من المستكن في الجار. وكان علي بن الحسين يقال له: ذو الثفنيات، لأن كثرة سجوده أحدثت في مواقعه منه أشباه ثفنيات^(٢) البعير.

وقيل: السيماء هو صفرة الوجه من خشية الله.

وعن الحسن: إذا رأيتهم حسبته مرضى وماهم بمرضى.

وعن سعيد بن المسيب: ندى الطهور، وتراب الأرض.

وعن عكرمة وسعيد بن جبير وأبي العالية: هو التراب على الجباه، لأنهم

يسجدون على التراب لا على الأثواب.

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) ثَفْنَات جمع ثَفْنَة. وهي من البعير: ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ وغلظ، كالركبتين.

وعن عطاء: استنارت وجوههم من طول ما صلّوا بالليل، كقوله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار».

روي عن ابن عباس وعطية معناه: علامتهم يوم القيامة أن تكون مواضع سجودهم أشدّ بياضاً.

وقال شهر بن حوشب: يكون مواضع سجودهم كالقمر ليلة البدر.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الوصف المذكور، أو إشارة مبهمة يفسرها «كزرع» ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ صفتهم العجيبة الشأن المذكورة فيها ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ عطف عليه، أي: ذلك مثلهم في الكتابين. وقوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ تمثيل مستأنف، أو تفسير ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ فراخه. يقال: أشطأ الزرع إذا فرّخ^(١). وقرأ ابن كثير وابن عامر برواية ابن ذكوان: شَطْأَهُ بفتحات. وهو لغة. ﴿فَأَرْزَهُ﴾ فقواه. من المؤازرة، وهي المعاونة. أو من الإيزار، وهي الإعانة. وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان: فَأَرْزَهُ، كَأَجَرَ في: أجر.

﴿فَاسْتَفْلَظَ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظة ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ فاستقام على قصبه. جمع ساق. وعن ابن كثير: سُوْقِهِ بالهمزة. وقيل: مكتوب في الإنجيل: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

﴿يُغْجِبُ الزُّرْعَ﴾ بغلظه وكثافته وقوّته وحسن منظره. وهو مثل ضربه الله لبدء أمر الاسلام، وترقيته في الزيادة يوماً فيوماً إلى أن قوي واستحكم، لأنّ النبي ﷺ قام وحده، ثمّ قواه الله بمن آمن معه، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتفّ بها ممّا يتولّد منها. فكثرت المؤمنون، واستحكم دين الاسلام، فترقى أمرهم بحيث أعجب الناس.

(١) الشَطْءُ والشَطْءُ: ورق الزرع. وفرّخ الشجر: نبتت فراخه. والفراخ جمع الفَرْخ: ما يخرج في أصول الشجر من صفار الورق.

قال الواحدي: «الزرع محمد ﷺ، والشطء أصحابه، والمؤمنون حوله. وكانوا في ضعف وقلة، كما يكون أول الزرع دقيقاً ثم غلظ وقوي وتلاحق، كذلك المؤمنون في بدء الاسلام قليلون، ثم بعضهم عاون بعضاً في نصرته دين الله، حتى استغلظوا واستووا على أمرهم»^(١).

﴿لِيَغِيْظَ بِهِمُ﴾ بتوافرهم وتظاهروهم واتفاقهم على إطاعة الله ﴿الْكُفَّارُ﴾ وهذا علة لتشبيهم بالزرع في نعمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة. أو لقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً﴾ فَإِنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا سَمِعُوا بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، مِنْ مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ وَالثَّوَابِ الْعَظِيمِ وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ، مَعَ مَا يَعْرِضُهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا، غَاظَهُمْ ذَلِكَ. و«مِنْهُمْ» للبيان، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرُّجُسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾^(٢).

(١) تفسير الوسيط ٤: ١٤٧.

(٢) الحج: ٣٠.

سورة الحجرات

مدنيّة. وعن ابن عباس: إلّا آية قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾^(١). وهي ثمانى عشرة آية بالاجماع. أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الحجرات، أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع الله ومن عصاه». الحسين بن أبي العلاء، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ سورة الحجرات في كل ليلة أو في كل يوم، كان من زوار محمد ﷺ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

ولما ختم الله سبحانه سورة الفتح بذكر نبيه ﷺ، افتتح هذه السورة أيضاً بذكره، وما يختص به من الإجلال والإعظام، فقال:
﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا﴾ أي: لا تقدّموا أمراً.

فحذف المفعول ليذهب الوهم إلى كل ما يمكن. أو ترك ليقصد توجه النهي إلى نفس التقدم، فيكون المقصود نفي التقدم رأساً، كأنه قيل: لا تقدّموا على التلبّس بهذا التقدم، ولا تجعلوه منكم بسبيل. ويجوز أن يكون من: قدّم بمعنى: تقدّم، كوجه ويّن بمعنى: توجه وتبين، كأنه قيل: لا تتقدّموا. ومنه: مقدّمة الجيش لمتقدّميه. ويؤيده قراءة يعقوب: لا تقدّموا.

﴿يَبَيِّنُ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أمامهما. مستعار لما بين الجهتين المسامتين ليمين الانسان وشماله قريباً منه. فسوّيت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعاً، كما يسمّى الشيء باسم غيره إذا جاوره ودناه. فهو من باب تسمية الشيء باسم ما يجاوره. وفي ضمن هذه الاستعارة فائدة جليّة ليست في الكلام الحقيقي. وهي: تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء^(١) على أمثلة الكتاب والسنة. والمعنى: لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكما به ويأذنا فيه.

وقيل: المراد بين يدي رسول الله ﷺ. وذكر الله تعظيم له، وإشعار بأنّه من الله بمكان ومزيد تقرب يوجب إجلاله. فهذا يجري مجرى قولك: سرّني زيد وحسن حاله، وأعجبني عمره وكرمه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في التقديم، أو مخالفة الحكم ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم، وحقّ مثله أن يتّقى عمّا نهاه.

عن ابن عباس: نهوا بهذه الآية أن يتكلّموا قبل كلامه. أي: إذا كنتم جالسين في مجلس رسول الله ﷺ فسئل عن مسألة، فلا تسبقوه بالجواب حتّى يجيب النبي ﷺ أولاً.

وعن السديّ معناه: لا تسبقوه بقول ولا فعل حتّى يأمركم به.

(١) احتذى مثال فلان وعلى مثاله: اقتدى وتشبّه به.

وقال الحسن: نزل في قوم ذبحوا الأضحية قبل صلاة العيد، فأمرهم رسول الله ﷺ بالإعادة.

وقيل: معناه: لا تقدّموا أعمال الطاعة قبل الوقت الذي أمر الله ورسوله به، حتى إنه قيل: لا يجوز تقديم الزكاة قبل وقتها.

وقيل: معناه: لا تمكّنوا أحداً يمشي أمام رسول الله، بل كونوا تبعاً له، وأخروا أقوالكم وأفعالكم عن قوله وفعله.

والأولى حمل الآية على الجميع، فإن كل شيء كان خلافاً لله ورسوله إذا فعل فهو تقديم بين يدي الله ورسوله، وذلك ممنوع منه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ
بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

ولما كان رسول الله ﷺ عند الله من المكان الذي لا يخفى، ومن أحظاه الله
بهذه الأثرة، واختصّه بهذا الاختصاص القوي، كان أدنى ما يجب له من التهيب
والاجلال أن يخفض بين يديه الصوت، ويخافت له بالكلام، نهى عباده أن يرفعوا

أصواتهم فوق صوت نبيّه المكرّم لديه نهاية القصوى، ورسوله المقرب بين يديه غاية الزلفى، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي: إذا كلّمتموه وكلّمكم فلا تجاوزوا أصواتكم عن صوته عند المكالمة، لأنّ فيه أحد شيئين: إمّا نوع استخفاف به، فهو الكفر، وإمّا سوء الأدب، فهو خلاف التعظيم المأمور به. وتكرير النداء لاستدعاء مزيد الاستبصار، أو تجديده عند كلّ خطاب وارد. والمبالغة في الاعتاظ، لئلا يفترّوا ويغفلوا عن تأمّلهم. والدلالة على استقلال المنادى له، وهو النهي عن رفع الصوت، وزيادة الاهتمام به.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ﴾ أي: جهراً مثل جهر بعضكم ﴿لِيُبْغِضَ﴾ أي: إذا كلّمتموه وهو صامت فلا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، بل اجعلوا أصواتكم أخفض، بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهره باهراً لجهركم، حتّى تكون ميزته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، محاماة على التعظيم، ومراعاة للأدب. فالصوت الذي لا يستلزم سوء الأدب وتأذي النبي لا يكون منهياً عنه، كرفعه منهم في حرب، أو مجادلة معاند، أو إرهاب عدوّ، وما أشبه ذلك. ففي الحديث أنّه ﷺ قال للعبّاس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: «اصرخ بالناس». وكان العبّاس أجهر الناس صوتاً. يروى أنّ غارة أتتهم يوماً فصاح العبّاس: يا صباحاه، فأسقطت الحوامل لشدة صوته.

وقيل: معناه: ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً، وخاطبوه بالنبي والرسول، لما روي عن أبي حمزة الثمالي، عن عكرمة، عن ابن عبّاس: أنّ الآية نزلت في نفر من بني العنبر كان النبي ﷺ أصاب من ذراريهم، فأقبلوا في فدائهم، فقدموا المدينة ودخلوا المسجد، وعجلوا أن يخرج إليهم النبي ﷺ، فجعلوا يقولون: يا محمّد اخرج إلينا.

وقال محمد بن إسحاق: نزلت في وفد تميم. وهم: عطاردة بن حاجب بن زرارعة، في أشراف من بني تميم، منهم: الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعمر بن الأهتم، وقيس بن عاصم، في وفد عظيم. فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله من وراء العنكبوت: أن اخرج إلينا يا محمد. فأذى ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم. فقالوا: جئناك لنفاخر بك، فائذن لشاعرنا وخطيبنا. فقال: قد أذنت.

فقام عطاردة بن حاجب فقال: الحمد لله الذي جعلنا ملوكاً، الذي له الفضل علينا، والذي وهب لنا أموالاً عظيماً نفعل بها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثر عدداً وعدة. فمن مثلنا في الناس؟ فمن فاخرنا فليعد مثل ما عددنا. ولو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكننا نستحي من الإكثار. ثم جلس. فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: قم فأجبه.

فقام فقال: الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله. ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمهم نسباً، وأصدقهم حديثاً، وأفضلهم حسباً. فأنزل عليه كتاباً، واتممه على خلقه، فكان خيرة الله على العالمين. ثم دعا الناس إلى الإيمان بالله، فأمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أحساباً، وأحسنهم وجوهاً. فكان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله نحن. فنحن أنصار رسول الله وردوه^(١)، نقاتل الناس حتى يؤمنوا. فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن نكث جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً. أقول هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم. ثم قام الزبرقان بن بدر ينشد. وأجابه حسان بن ثابت.

فلما فرغ حسان من قوله قال الأقرع: إِنَّ هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا.
فلما فرغوا أجازهم رسول الله ﷺ، فأحسن جوائزهم، وأسلموا. فنهاهم الله سبحانه عن أن ينادوا النبي ﷺ باسمه.

﴿أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ كراهة أن تحبط. فيكون علة للنهي. أو لأن تحبط، على أَنَّ النهي عن الفعل المعلل باعتبار التأدية والعاقبة، لأنه لما كان بصدد الأداء إلى الحبوط كأنه فعل لأجله، وكأنه العلة والسبب في إيجاده على سبيل التمثيل، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾^(١). فإن في الجهر ورفع الصوت عنده أو ندائه باسمه استخفافاً، وقد يؤدي إلى الكفر المحبط، وذلك إذا انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أنها محبطة.

والحبوط من: حبطت الإبل إذا أكلت الخضر، فنفخ بطونها، وربما هلكت. والمفعول له - أعني: «أن تحبط» - متعلق بالفعل الثاني عند البصريين، مقدّر إضماره عند الفعل الأول، كقوله تعالى: ﴿أَتُونِي أَفَرِّغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾^(٢). وعند الكوفيين بالعكس. وأيهما كان؛ فمرجع المعنى إلى أَنَّ الرفع والجهر كلاهما منصوص أدأؤه إلى حبوط العمل.

واعلم أَنَّ المراد بحبوط العمل حبوط ثواب ذلك العمل، لا للأعمال الصالحة السابقة على هذا العمل، إذا لم يستلزم الكفر لقصد الاستخفاف والإهانة. والمعنى: أنهم لو أوقعوا العمل على وجه تعظيم النبي وتوقيره لاستحقوا الثواب، فلما فعلوه على خلاف ذلك الوجه استحقوا العقاب.

(١) القصص: ٨.

(٢) الكهف: ٩٦.

روي عن أنس: أَنَّ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ كَانَ فِي أُذُنِهِ وَقر^(١)، وَكَانَ جَهْرِيًّا، فَلَمَّا نَزَلَتْ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَفَقَّدَهُ وَدَعَاهُ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ أَنْزَلْتَ إِلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَإِنِّي رَجُلٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ، فَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ عَمَلِي قَدْ حَبَطَ. فَقَالَ ﷺ: «لَسْتُ هُنَاكَ، إِنَّكَ تَعِيشُ بِخَيْرٍ وَتَمُوتُ بِخَيْرٍ، وَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

ثُمَّ مَدَحَ سَبْحَانَهُ مِنْ يَعْظُمُ رَسُولُهُ وَيُوقِّرُهُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْضَوْنَ﴾ يَخْضَوْنَ ﴿أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ مِرَاعَاةً لِلْأَدَبِ إِجْلَالًا لَهُ، أَوْ مَخَافَةً عَنْ مَخَالَفَةِ النَّهْيِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ جَزَبَهَا ﴿لِلتَّقْوَى﴾ وَمَرَّنَهَا عَلَيْهَا. مِنْ قَوْلِكَ: امْتَحَنَ فَلَانَ لِأَمْرٍ كَذَا، وَجَزَبَ لَهُ، وَدَرَّبَ لِلنَّهْوِ بِهِ، فَهُوَ مُضْطَلَعٌ بِهِ، غَيْرُ وَاوٍ^(٢) عَنْهُ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ صَابِرُونَ عَلَى التَّقْوَى، أَقْوِيَاءُ عَلَى احْتِمَالِ مَشَاقَّهَا. وَقِيلَ: وَضَعَ الْامْتِحَانُ مَوْضِعَ الْمَعْرِفَةِ، لِأَنَّ تَحَقُّقَ الشَّيْءِ بِاخْتِبَارِهِ، كَمَا يَوْضَعُ الْخَبَرَ مَوْضِعَهَا. وَحِينَئِذٍ تَكُونُ اللَّامُ مُتَعَلِّقَةً بِمَحْذُوفٍ. فَكَأَنَّهُ قِيلَ: عَرَفَهَا كَائِنَةً لِلتَّقْوَى، خَالِصَةً لَهَا. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقَةً بِالْفِعْلِ بِاعْتِبَارِ الْأَصْلِ، إِذِ الْمَعْنَى: ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَحْنِ وَالتَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ لِأَجْلِ التَّقْوَى، لِأَنَّ حَقِيقَةَ التَّقْوَى لَا تَعْلَمُ إِلَّا عِنْدَ الْمَحْنِ وَالشَّدَائِدِ، وَالْإِصْطِبَارِ عَلَى التَّقْوَى. أَوْ أَخْلَصَهَا لِلتَّقْوَى، مِنْ قَوْلِهِمْ: امْتَحَنَ الذَّهَبَ، إِذَا أَذَابَهُ وَمَيَّزَ إِبْرِيْزَهُ^(٣) مِنْ خَبْثِهِ وَنَقَّاهُ.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لَذُنُوبِهِمْ ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لِعَفْوِهِمْ وَسَائِرِ طَاعَاتِهِمْ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ بَنَظْمُهَا الَّذِي رَتَّبَتْ عَلَيْهِ، مِنْ إِيقَاعِ الْغَاضِيْنَ أَصْوَاتَهُمْ اسْمًا لِـ«إِنْ» الْمُؤَكَّدَةِ، وَتَصْيِيرَ خَبَرِهَا جُمْلَةً مِنْ مَبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ مَعْرِفَتَيْنِ مَعًا، وَالْمَبْتَدَأُ اسْمُ الْإِشَارَةِ، ثُمَّ اسْتِثْنَاءُ الْجُمْلَةِ الْمُسْتَوْدَعَةِ مَا هُوَ جَزَاؤُهُمْ عَلَى عَمَلِهِمْ، وَإِيرَادُ

(١) وَفَرَّتْ أُذُنُهُ وَقَرَأَ: ثَقُلَتْ أَوْ ذَهَبَ سَمْعُهُ.

(٢) وَتَى بَيْنِي: فَتَرَ وَضَعَفَ وَكَلَّ وَأَعْيَا، فَهُوَ: وَاوٍ.

(٣) الْإِبْرِيْزُ: الذَّهَبُ الْخَالِصُ. وَهِيَ كَلِمَةٌ يُونَانِيَّةٌ.

الجزء نكرة مبهماً أمره، ناظرة^(١) في الدلالة على غاية الإحماد والاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقرأوا رسول الله من خفض أصواتهم، وفي الإعلام بمبلغ عزّة رسول الله وقدر شرف منزلته. وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم، واستيجابهم ضدّ ما استوجب هؤلاء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ وهم الجفّة من بني تميم وأجلافهم ﴿مِنْ وَرَاءِ الْخُجُرَاتِ﴾ من خارجها، خلفها أو قدامها، فَإِنَّ الْوَرَاءَ الْجِهَةُ الَّتِي يَوَارِيهَا عَنْكَ الشَّخْصُ بظُلْمِهِ من خلف أو قدام. و«من» ابتدائية، فَإِنَّ الْمُنَادَاةَ مِنْ جِهَةِ الْوَرَاءِ. وفائدتها الدلالة على أَنَّ الْمُنَادَى داخل الحجرة، إذ لا بدّ وأن يختلف المبتدأ والمنتهى.

والحجرات جمع حجرة. وهي القطعة من الأرض المحجورة بحائط يحوِّط عليها. ولذلك يقال لحظيرة الإبل: حجرة. وهي فعلة بمعنى مفعول، كالغرفة والقبضة. والمراد حجرات نساء النبي ﷺ وكانت لكلّ منهنّ حجرة. ومناداتهم من ورائها بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها. أو بأنهم تفرّقوا على الحجرات متطلّبين له، فأسند فعل الأبعاض إلى الكلّ.

وقيل: إِنَّ الَّذِي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، وفدا على رسول الله ﷺ. في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد، فقالا: يا محمد اخرج إلينا. وإنا أسند إلى جميعهم، لأنهم رضوا بذلك، أو أمروا به، أو لأنّه وجد فيما بينهم.

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة، سيّما لمن كان بهذا المنصب. والإخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون يحتمل أن يكون فيهم

(١) خبر «أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ...» في بداية الفقرة.

من قصد المحاشاة^(١) المفهومة من قوله: «وأكثرهم». وأن يكون الحكم بقلّة العقلاء فيهم قصداً إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل، فإنّ القلّة تقع موقع النفي في كلامهم. وورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر، من بينات إكبار محلّ رسول الله ﷺ وإجلاله.

منها: مجيئها على النظم المسجّل على الصائحين به بالسفه والجهل لما أقدموا عليه.

ومنها: لفظ الحجرات، وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله^(٢) مع بعض نسائه.

ومنها: المرور على لفظها بالاختصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم. يعني: لم يصف الحجرات بأنّها موضع خلوة ومقيل، بل اقتصر على الحجرات.

ومنها: التعريف باللام دون الإضافة.

ومنها: أن شفع ذمهم في خاتمة الآية باستجفائهم، واستركاك عقولهم، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات، تهويناً للخطب على رسول الله ﷺ، وتسلية له، وإمالة لما تداخله من إحاش سوء أدبهم.

وهلمّ جرأً من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية. فتأمل كيف ابتدأ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدّمة على الأمور كلّها، من غير حصر ولا تقييد. ثمّ أردف ذلك النهي عمّا هو من جنس التقديم، من رفع الصوت والجهر، كأنّ الأوّل بساط للثاني ووطاء لذكره. ثمّ ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك ففضّوا أصواتهم، دلالة على عظيم موقعه عند الله. ثمّ جيء على عقب ذلك بما هو

(١) أي: التنزّه والابتعاد عن سوء الأدب.

(٢) المقيل: موضع القيلولة، أو النوم والاستراحة في الظهيرة.

أَظَمَ^(١) وهجنته أتمّ، من الصياح برسول الله في حال خلوته ببعض حرمانه من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدراً، لينبّه على فظاعة ما أجروا إليه وجسروا عليه، لأنّ من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول، حتّى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخي السرار، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً. ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب، وتقتبس محاسن الآداب.

ثمّ أذهبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ في محلّ الرفع على الفاعليّة، لأنّ المعنى: ولو ثبت صبرهم، فإنّ «أنّ» وإن دلّت بما في حيّزها على المصدر، دلّت بنفسها على الثبوت، ولذلك وجب إضمار الفعل. والصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾^(٢). وهاهنا المفعول محذوف. والتقدير: ولو ثبت حبسهم أنفسهم عمّا تنازع إلى هواها من المناداة وراء الحجرات ﴿حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: الصبر معيّاً بخروجه.

والمعنى: أنّ خروج رسول الله ﷺ غاية قد ضربت لصبرهم، فما كان لهم أن يقطعوا أمرهم دون الانتهاء إليها، فإنّ «حتّى» مختصّة بغاية الشيء في نفسه، ولذلك تقول: أكلت السمكة حتّى رأسها، ولا تقول: حتّى نصفها، بخلاف «إلى» فإنّها عامّة. وفي «إليهم» إشعار بأنّه لو خرج لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتّى يفاتحهم بالكلام، أو يتوجّه إليهم.

﴿لَكَانَ﴾ الصبر ﴿خَفِيراً لَهُمْ﴾ من الاستعجال، لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب، والإسعاف بالمسؤول، إذ روي أنّهم وفدوا شافعين في أسارى بني العنبر كما مرّ، فأطلق النصف وفادى النصف، فلو أنّهم صبروا لأطلق كلّهم بغير فداء.

(١) أي: أعظم. والهجنة: العيب والقبح.

(٢) الكهف: ٢٨.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بليغ الغفران والرحمة، حيث اقتصر على النصيح والتفريع لهؤلاء المسيئين للأدب، التاركين تعظيم الرسول ﷺ، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَبَيِّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّاهُم مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

روي: أن رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عتبة بن أبي معيط أخا عثمان لأُمِّه - وهو الذي ولّاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، فصلّى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً، ثم قال: هل أزيدكم؟ فزله عثمان - مصداقاً - أي: آخذاً للصدقة - إلى بني المصطلق، وكانت بينه وبينهم في الجاهلية إحنة^(١)، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين له فرحين بقدومه، فحبسهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة. فغضب رسول الله ﷺ وهم أن يغزوهم. فوردوا وقالوا: نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فأتهمهم رسول الله ﷺ اعتماداً على قول الوليد، فقال: «لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلاً هو عندي كنفي، يقاتل

مقاتلتكم، ويسبي ذراريكم». ثم ضرب بيده على كتف عليّ عليه السلام. وقيل: بعثه إليهم بعد رجوع الوليد، فوجدهم منادين بالصلوات متهجدين، فسلموا إليه الصدقات، فرجع. فنزلت:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ بخر. وتنكير الفاسق والنبا للتعميم، كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأيّ نبأ. ﴿فَتَّبِعُونَا﴾ فتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق، لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه. والفسوق: الخروج من الشيء والانسلاخ منه. يقال: فسقت الرطبة عن قشرها. ومن مقلوبه: قفست البيضة، إذا كسرتها وأخرجت ما فيها. ومن مقلوبه أيضاً: قفست الشيء، إذا أخرجته عن يد ماله مغتصباً له عليه. ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق.

وقرأ حمزة والكسائي: فتتّبوا، أي: فتوقفوا إلى أن يتبين لكم الحال. والتثبت والتبين متقاربان. وهما: طلب الثبات والبيان والتعرف.

ولما كان رسول الله والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب، وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة، قيل: إن جاءكم، بحرف الشك. وفيه أن على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة، لئلا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور.

واستدل بعضهم بالآية على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان عدلاً، من حيث إن الله أوجب التوقف في خبر الفاسق، فدل على أن خبر العدل لا يجب التوقف فيه.

وهذا لا يصح، لأن دليل الخطاب لا يعول عليه عندنا وعند أكثر المحققين. ﴿أَن تُصِيبُوا﴾ كراهة إصابتكم ﴿قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ جاهلين بحالهم ﴿فَتَضِلُّوا﴾ فتصيروا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ من إصابتهم بالخطأ ﴿نَادِمِينَ﴾ مغتمين

غماً لازماً، متمنين أنه لم يقع، ولا يمكنكم تداركه. وتركيب الحروف الثلاثة في «ندم» دائر مع اللزوم والدوام. فإنه عبارة عن غم يصحب الانسان صحبة لها دوام ولزام، لأنه كلما تذكر المتندّم عليه راجعه الغمّ. من الندام^(١)، وهو لزام الشريب ودوام صحبته. ومن مقلوباته: أدمن الأمر، أدامه. ومدن بالمكان، أقام به. ومنه: المدينة.

﴿وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ «أن» بما في حيّزه سادّ مسدّ مفعولي «اعلموا». وفائدة تقديم خبر «أن» على اسمها القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين، على ما استهجن الله منهم من استتباع رأي رسول الله ﷺ لآرائهم، فوجب تقديمه، لانصباب الغرض إليه.

وقوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ لا يكون كلاماً مستأنفاً، لأنه حينئذٍ لم يظهر للأمر فائدة. فلا بدّ أن يكون متصلاً بما قبله، حالاً من أحد ضميري «فيكم». وهو المستر المرفوع، أو البارز المجرور. وكلاهما مذهب سديد. والمعنى: أن فيكم رسول الله على حالة يجب عليكم تغييرها. أو أنتم على حالة يجب عليكم تغييرها. وهي: أنكم تريدون أن يتبع رأيكم في الحوادث، ولو فعل ذلك لعنتم، أي: لوقعتم في الجهد والهلاك. من العنت. يقال: فلان يتعنّت فلاناً، أي: يطلب ما يؤدّيه إلى الهلاك.

وفائدة إيثار «يطيعكم» على: أطاعكم، الدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه، وأنه كلما عنّ لهم رأي في أمر كان معمولاً عليه، بدليل قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾، كقوله: فلان يقري الضيف ويحيي الحريم، تريد: أنه ممّا اعتاده ووجد منه مستمراً.

وفيه إشعار بأن بعضهم أشار إليه بالإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول

(١) نادم ندماً فلاناً على الشراب: جالسه عليه.

الوليد. وأن بعضهم كانوا يتصونون، ويزعمهم^(١) جدّهم في التقوى عن الجسارة على ذلك. وهم الذين استثناهم بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ﴾ جعل الإيمان محبوباً إليكم، بأن أقام الأدلة على صحّته، وبما وعد عليه من الثواب ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ بالألطف الداعية إليه ﴿وَكَزَّرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ بوجوه الألطف الصارفة عنه.

والحاصل: أن هذا استدراك بصفة من لم يفعل ذلك منهم، إحكاماً لفعلهم، وتعريضاً بذم من فعل.

وقيل: استدراك ببيان عذرهم في استصواب الإيقاع ببني المصطلق. يعني: أنهم من فرط حبّهم للإيمان وكرهتهم للكفر حملهم على ذلك لمّا سمعوا قول الوليد.

ويؤيد الأوّل ﴿أَوَلَيْكَ هُمُ الزَّاشِدُونَ﴾ أي: أولئك المستثنون هم الذين أصابوا الطريق السويّ من الرشد. وهو الاستقامة على طريق الحقّ مع تصلّب فيه. من الرشادة، وهي الصخرة.

وشريطة حرف الاستدراك - وهي: مخالفة ما بعدها لما قبلها نفياً وإثباتاً - وإن كانت منتفية لفظاً، لكن حاصلة معنى، لأنّ الذين حبّب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المقدّم ذكرهم، فوقعت «لكن» في حاقّ موقعها من الاستدراك.

ومعنى تحبيب الله وتكريهه: اللطف والإمداد بالتوفيق كما مرّ. فسبيله الكناية. وكلّ ذي لبّ وصاحب بصيرة لا يغني^(٢) عليه أنّ الرجل لا يمدح بغير فعله. وحمل الآية على ظاهرها يؤدّي إلى أن يثنى عليهم بفعل الله، وقد نفى الله هذا

(١) أي: يمنعهم ويكفهم.

(٢) أي: لا يخفى عليه ولا يجهل. من: غبا الشيء عليه: لم يظن له أو جهله.

على الَّذِينَ أُنْزِلَ فِيهِمْ ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُخْفَتُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾^(١). وَالَّذِي سَوْغَ أَنْ
العرب تمدح بالجمال وحسن الوجوه - مع أَنَّ ذلك من فعل الله تعالى - أَنَّهُمْ رَأَوْا
حسن الرواء^(٢) ووسامة المنظر في الغالب مشعراً بأخلاق محمودة وخصال رضية.
ومن ثَمَّ قالوا: أَحْسَنَ مَا فِي الدِّمِيمِ^(٣) وجهه. فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته،
ولكن لدلالته على غيره. على أَنَّ من المحققين من علماء المعاني من دفع صحّة
ذلك، وخطأ المادح به، وقصّر المدح على النعت بأَمْهَاتِ الْخَيْرِ، وهي: الفصاحة،
والشجاعة، والعدل، والعفة، وما يتشعّب منها ويرجع إليها. وجعل الوصف بالجمال
والثروة وكثرة الحفدة والأعضاء، وغير ذلك ممّا ليس للانسان فيه عمل، غلطاً
ومخالفة عن المعقول.

و«كره» يتعدّى بنفسه إلى مفعول واحد، فإذا شَدَّدَ زاد له آخر. لكنّه لَمَّا
تضمّن معنى التبغيض نَزَلَ منزلة: بَقُضَ، فعُدِّي إلى آخر: «إلى». والكفر: تغطية نعم
الله بالجهود. والفسوق: الخروج عن القصد بحقيقة الايمان ومحجّته بركوب
الكبائر. وعن ابن عباس: هو الكذب. وهذا مروى عن أبي جعفر عليه السلام. والعصيان:
الامتناع عن الانقياد.

﴿فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ تحليل للرشد، فإنّه وإن كان فعل القوم والفضل فعل
الله، لكن لَمَّا كان الرشد لا يكون إلا عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه، مسندة
إلى اسمه تعالى، صار الرشد كأنّه فعله، فاتّحد الفاعل، كما هو شرط نصب المفعول
له، فجاز أن ينتصب عنه. أو تحليل ل«كره» و«حبّ»، وما بينهما اعتراض، أو تحليل
للفعل المقدّر، كأنّه قيل: جرى ذلك، أو كان ذلك فضلاً من الله. ويجوز أن يكون

(١) آل عمران: ١٨٨.

(٢) الرواء: حسن المنظر. والوسامة: الحسن والجمال.

(٣) الدميم: القبيح المنظر.

منصوباً على المصدر من غير فعله، فيوضع موضع: رشداً، لأنَّ رشدهم فضل من الله، لكونهم موقَّنين فيه. والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل والتمايز ﴿حَكِيمٌ﴾

حين يفضل وينعم بالتوفيق عليهم.

وفي هذه الآية دلالة على بطلان مذهب أهل الجبر، لأنَّه إذا حَبَّب في قلوبهم الإيمان وكَرَّه الكفر، فمن المعلوم أنَّه لا يَحَبِّب ما لا يَحِبُّه ولا يَكْرَه ما لا يَكْرَهه. ولأنَّه إذا أَلْطَف في تحبيب الإيمان بِأَلْطَافِهِ دَلَّ ذلك على ما نقوله.

روي عن ابن عباس أَنَّهُ قال: وقف رسول الله ﷺ يوماً على مجلس بعض الأنصار وهو على حمار، فبال الحمار، فأمسك عبدالله بن أبيّ بأَنفه وقال: خَلَّ سبيل حمارك فقد آذانا نتنه^(١). فقال عبد الله بن رواحة الخزرجي: والله إنَّ بول حماره لأَطيب من مسكك. وبرواية أخرى: حماره أَفْضَل منك، وبول حماره أَطيب من مسكك. ومضى رسول الله ﷺ، وطال الخوض بينهما حتَّى استَبَّا وتجالدا، وجاء قوماهما - وهما: الأوس والخزرج - فتجالدوا بالمصي، وقيل: بالأيدي والنعال والسَّعَف. فرجع إليهم رسول الله ﷺ، وأصلح بينهم. ونزلت:

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ تقاتلوا. والجمع باعتبار المعنى، فإن كل طائفة جمع. ﴿فَاضْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ تعدت ﴿عَلَى الْأُخْرَى﴾ أي: فمالت على الأخرى، ظالمة لها، متعديّة عليها ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ لأنها هي الظالمة المتعدية دون الأخرى ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَيْنَا أَمْرُ اللَّهِ﴾ ترجع إلى حكم الله، أو ما أمر به. من الفياء بمعنى الرجوع. وقد سمي به الظل والغنمة، لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنمة ما يرجع من أموال المشركين إلى المسلمين.

﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ رجعت إلى طاعة الله ﴿فَاضْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ بالفصل بينهما على حكم الله حتى يكونوا سواء، لا يكون من إحداها على الأخرى جور فيما يتعلق بالضمانات والأروش. وتقييد الإصلاح بالعدل هاهنا لأنه مظنة الحيف، من حيث إنه بعد المقاتلة.

ثم أمر باستعمال القسط على طريق العموم، بعدما أمر به في إصلاح ذات البين، فقال:

﴿وَأَقْسِطُوا﴾ واعدلوا في كل الأمور. من القسط بالفتح بمعنى الجور. ومنه: الْقَسْطُ، وهو اعوجاج في الرجلين، ف«أقسط» همزته للسلب، أي: أزال القسط. وأما القسط بالكسر بمعنى العدل. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يحمد فعلهم بحسن الجزاء.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يا بن آدم عبد هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيئها».

والآية تدل على أن الباغي مؤمن. وأنه إذا قبض عن الحرب ترك، كما جاء في الحديث، لأنه فاء إلى أمر الله. وأنه يجب معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح

والسعي في المصالحة.

ثم علل الأمر بالصلاح وقَرَّره بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ من حيث إنهم منتسبون إلى أصل واحد، وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية. ولذلك كرر الأمر بالصلاح مرتباً عليه بالفاء، فقال: ﴿فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ووضع الظاهر موضع الضمير مضافاً إلى المأمورين، للمبالغة في التقرير والتخصيص. وخص الاثنين بالذكر، لأنهما أقل من يقع بينهما الشقاق، وللإشعار على أنه إذا لزمَت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم، لأنَّ الفساد في شقاق الجميع أكثر من الفساد في شقاق الاثنين. وقيل: المراد بالأخوين الأوس والخزرج.

ومعنى الآية: ليس المؤمنون إلا إخوة، وأنهم خلَّص لذلك متمحضون، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية، وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتوَلَّد منه التقاطع.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة حكمه في العدل والإصلاح والإهمال فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُزَكُّونَ﴾ على تقواكم. أي: عند التواصل والائتلاف وترك الخلاف، فإنَّ وصول رحمة الله واشتمال رأفته عليكم حقيق بأن تعتقدوا به رجاءكم.

أورد البخاري ومسلم في صحيحهما عن الزهري، عن سالم، عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يعيبه، ولا يتناول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه. ولا يؤذيه بقتار^(١) قِذره». ثم قال: «احفظوا، ولا يحفظه منكم إلا قليل».

وعنه ﷺ: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر عن مسلم يستره الله يوم القيامة».

(١) القُتار: الدخان من المطبوخ، ورائحة اللحم والشواء.

وفي وصية النبي ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام: «يا علي سر ميلاً عد مريضاً، سر ميلين شيع جنازة، سر ثلاثه أميال أجب دعوة، سر أربعة أميال زر أخاً في الله، سر خمسة أميال أجب دعوة الملهوف، سر ستة أميال انصر المظلوم، وعليك بالاستغفار».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

ولمّا أمر سبحانه بإصلاح ذات البين، ونهى عن التفرّق، عقّب ذلك بالنهي عن أسباب الفرقة، من السخرية والازدراء بأهل الفقر والمسكنة ونحو ذلك، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ أي: بعض المؤمنين من بعض. والقوم مختصّ بالرجال، لأنهم القوام بأمور النساء، كما قال الله تعالى:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^(١). وكقول زهير: أقوم آل حصنٍ أم نساء^(٢). وأمّا قولهم: قوم عاد وقوم فرعون، فإنّما على التغليب، أو الاكتفاء بذكر الرجال عن

(١) النساء: ٣٤.

(٢) صدره: وما أدري وسوف إخال أدري.

ذكرهن، لأنهنّ توايع. وهو في الأصل جمع قائم، كصوم وزور في جمع صائم وزائر. أو مصدر نعت به، فشاع في الجمع. واختيار الجمع لأنّ السخرية تغلب في المجامع.

ثم استأنف بالعلّة الموجبة للنهي، فقال: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ ترك خبر «عسى» لإغناء الاسم عنه. وهذا كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهي عنه، وإلا فقد كان حقّه أن يوصل بما قبله بالفاء. والمعنى: وجوب أن يعتقد كلّ أحد أنّ المسخور منه ربّما يكون عند الله خيراً من الساخر، لأنّ الناس لا يطلّعون إلّا على ظواهر الأحوال، ولا علم لهم بالخفيات. وإنّما الذي يزن عند الله خلوص الضمائر وتقوى القلوب، وعلمهم من ذلك بمعزل. فينبغي أن لا يجترىء أحد على الاستهزاء بمن تردّيه عينه، إذا رآه رت^(١) الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبيب^(٢) في محادثته، فلعلّه أخلص ضميراً وأتقى قلباً ممّن هو على ضدّ صفته. فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله، والاستهانة بمن عظمه الله.

وقيل: نزلت هذه الآية في بني تميم استهزؤا ببلال وخباب وعمار وصهيب وأبي ذرّ وسالم مولى حذيفة.

وعن ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، فإنّه كان في أذنيه وقر^(٣)، وكان إذا دخل تفسّحوا له حتّى يقعد عند النبي ﷺ، فيسمع ما يقول. فدخل المسجد يوماً والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا مكانهم، فجعل يتخطّى رقاب الناس ويقول: تفسّحوا تفسّحوا، حتّى انتهى إلى رجل فقال له: أصبت مجلساً فاجلس، فجلس خلفه مغضباً. فلما اتجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال

(١) أي: ضعيف الحال.

(٢) أي: حاذق.

(٣) أي: ثقل.

الرجل: أنا فلان. فقال ثابت: بل أنت ابن فلانة. ذكر أمّا له كان يعيّر بها في الجاهليّة. فنكس الرجل رأسه حيّا.

وعن أنس: نساء النبي ﷺ سخرن من أمّ سلمة. وذلك أنّها ربطت حقويها بسبيبة - وهي: ثوب أبيض من الكتّان - وسدلت طرفيها خلفها، فكانت تجرّه. فقالت عائشة لحفصة: انظري ماذا تجرّ خلفها، كأنه لسان كلب. فهذا كانت سخرتّهما.

وقيل: إنّها عيّرت زينب بنت خزيمة الهلاليّة.

وعن أنس: عيّرت نساء رسول الله أمّ سلمة بالقصر، وأشرن بأيديهنّ أنّها قصيرة. فنزل فيهنّ قوله:

﴿وَلَا نِسَاءَ مِنْ نِسَاءٍ﴾ ولا تسخر بعض المؤمنات من بعض ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ كلام مستأنف كما مرّ آنفاً. وتنكير القوم والنساء يحتمل معنيين: أن يراد: لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض، كما فسّرنا به. وأن يقصد إفادة الشياخ، وأن تصير كلّ جماعة منهم ومنهنّ منهيّة عن السخرية.

وإنّما لم يقل: رجل من رجل، ولا امرأة من امرأة، على التوحيد، إعلالاً بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسايتهم على السخرية، واستفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه. ولأنّ مشهد الساخر لا يكاد يخلو من يتلّهى ويستضحك على قوله، ولا يأتي ما عليه من النهي والإنكار، فيكون شريك الساخر في تحمّل الوزر. وكذلك كلّ من يطرق سمعه فيستطيعه ويضحك به، فيؤدّي ذلك - وإن أوجده واحد - إلى تكثّر السخرة.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ولا يغتب بعضهم بعضاً، فإنّ المؤمنين كنفس واحدة. والمعنى: خصّوا أيّها المؤمنون أنفسكم بالانتهاز عن عيبها والطعن فيها، ولا عليكم أن تعيبوا غيركم منّ لا يدين بدينكم ولا يسير بسيركم. ففي الحديث: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس».

وقيل: معناه: ولا تفعلوا ما تلمزون به، فإنّ من فعل ما استحقّ به اللزم فقد

لمز نفسه حقيقة. واللمز: الطعن باللسان. وقرأ يعقوب بالضم^(١).

وعن ابن عباس: أَنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حَيٍّ أَمَتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ النِّسَاءَ يَعْزِرُنِي وَيَقْلَنَ لِي: يَا يَهُودِيَّةَ بِنْتَ يَهُودِيِّينَ. فَقَالَ لَهَا: «هَلَّا قُلْتَ: إِنَّ أَبِي هَارُونَ. وَعَمِّي مُوسَى، وَزَوْجِي مُحَمَّدٌ».

وكان من شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهودي، يا فاسق، فنهوا عنه بقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ لا يدع بعضكم بعضاً بقلب السوء، فَإِنَّ النِّبْزَ مَخْتَصٌّ بِلِقَابِ السُّوءِ عَرَفَاءُ ﴿يَفْتَسِ الْإِنْسِمُ الْقُفُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ الاسم هاهنا بمعنى الذكر، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم، كما يقال: طار ثناؤه وصيته. وحقيقته: ما سما من ذكره وارتفع بين الناس. فالمعنى: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب السخرية والتنازع، أن يذكروا بالفسق بعد دخولهم في الإيمان واشتغالهم به. والمراد به إمّا تهجين نسبة الكفر والفسق إلى المؤمنين، أو استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان ويحظره، كما تقول: بئس الشأن بعد الكبرية^(٢) الصبوة.

﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ عَمَّا نَهَى عَنْهُ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعرض النفس للعذاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ أي: كونوا على جانب. يقال: جنبه الشر إذا أبعد عنه. وحقيقته: جعله منه في جانب، فيعدى إلى مفعولين. قال الله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَيْنِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^(٣). ثم يقال في مطاوعه: اجتنب الشر. فينقص المطاوعة مفعولاً.

وإيهام الكثير لاحتاط في كل ظنٍّ ويتأمل حتى يعلم أنه من أي القبيل، فإن

(١) أي: وَلَا تَلْمِزُوا.

(٢) الكِبَرَةُ: الكبر في السن. والصبوة: الميل إلى جهلة الصبيان.

(٣) إبراهيم: ٣٥.

من الظنّ ما يجب اتّباعه، كالظنّ حيث لا قاطع فيه، من العمليّات وحسن الظنّ بالله. وما يحرم حيث يخالفه قاطع، كظنّ السوء بالمؤمنين. وما يباح، كالظنّ في الأمور المعاشيّة، وفيمن جاهر بين الناس بالخبائث.

﴿إِنَّ بَغْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ تعليل مستأنف للأمر. والإثم: الذنب الذي يستحقّ صاحبه العقوبة عليه. والهمزة فيه بدل من الواو. كأنّه ينمّ^(١) الأعمال، أي: يكسر مرتبتها عند الله.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين. تفقّل من الجسّ، باعتبار ما فيه من معنى الطّلب، كالتلمّس. والمراد: النهي عن تتبّع عورات المسلمين ومعايهم، والاستكشاف عمّا ستروه.

وعن النبيّ ﷺ أنّه خطب فرفع صوته حتّى أسمع العواتق - أي: الشوابّ - في خدورهنّ. قال: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتّبّعوا عورات المسلمين، فإنّ من تتّبّع عوراتهم تتّبّع الله عورته حتّى يفضحه ولو في جوف بيته».

وعنه ﷺ: «إِنَّ الله حَرَّمَ من المسلم دمه وعرضه، وأن يظنّ به ظنّ السوء». وعن الحسن: إنّ الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره هتكه الله، وإذا استتر لم يظهر الله عليه لعلّه أن يتوب.

وقد روي: «من ألقى جلباب^(٢) الحياء فلا غيبة له».

وعن مجاهد: خذوا ما ظهر، ودعوا ما ستره الله.

وعن أبي قلابة: أنّ أبا محجن الثقفي كان يشرب الخمر في بيته هو وأصحابه، فانطلق عمر حتّى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل.

فقال أبو محجن: يا أمير المؤمنين إنّ هذا لا يحلّ لك، قد نهاك الله تعالى عن

(١) من: وَثَمَ يَنُمُّ الشيء: كسره ودقّه.

(٢) الجلباب: القميص أو الثوب الواسع.

التجسس.

فقال عمر: ما يقول هذا؟

قال زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم: صدق يا أمير المؤمنين.

قال: فخرج عمر وتركه.

وروي: أن عمر أيضاً خرج ومعه عبد الرحمن بن عوف يُعْثَان^(١)، فتبينت

لهما نار، فأتيا واستأذنا ففتح الباب فدخلنا، فإذا رجل وامرأة تغني، وعلى يد

الرجل قدح. فقال عمر من هذه منك؟

قال: امرأتي.

قال: وما في القدح؟

قال: ماء.

فقال للمرأة: ما الذي تغنين به؟

قالت: أقول:

تطاول هذا الليل واشوّد جانبه وأزقني ألا حبيب ألاعبه

فوالله لولا خشية الله والتقى لَزَغَزَغَ من هذا السرير جوانبه

ولكنّ عقلي والحياء يكفني وأكرم بعلي أن تنال مراكبه

ثم قال الرجل: ما بهذا أمرنا يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: «ولا

تجسسوا».

فقال عمر: صدقت، وانصرف.

وفي الحديث: «إياكم والظنّ، فإنّ الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا

تقاطعوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

وروي: أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة، ويسويّ لهما طعامهما،

(١) عَمَّ يَعْشُ عَسًا: طاف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة.

فنام عن شأنه يوماً، فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبغي لهما إداماً - وكان أسامة على طعام رسول الله ﷺ فقال: ما عندي شيء. فأخبرهما سلمان بذلك. فقالا: بخل أسامة. وقالوا لسلمان: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟ فقالا: ما تناولنا يومنا هذا طعاماً. فقال: ظللتُم تأكلون لحم سلمان وأسامة. فنزلت:

﴿وَلَا يَغْتَبِ بَغْضُكُم بَغْضًا﴾ ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته. يقال: غابه واغتابه، كغاله واغتاله. والغيبة من الاغتياب، كالغيلة^(١) من الاغتيال. وهي: ذكر السوء في الغيبة. وسئل رسول الله ﷺ عن الغيبة، فقال: «أن تذكر أخاك بما يكرهه، فإن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته».

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «الغيبة أشد من الزنا».

وعن ابن عباس: الغيبة إدام كلاب النار.

﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه، مع مبالغات: الاستفهام المقرّر. وإسناد الفعل إلى «أحد» للتعميم المشعر بأن أحداً من الأحدثين لا يحب ذلك. وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة. وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الانسان. وجعل المأكل أخاً وميتاً. وتعقيب ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك.

وانتصاب «ميتاً» على الحال من اللحم أو الأخ. وشدّده نافع. والفاء هي الفصيحة المظهرة لشرط مقدّر. والمعنى: إن صحّ ذلك أو عرض عليكم هذا فقد كرهتموه، ولا يمكنكم إنكار كراهته.

وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مدوذة أن تأكل منها، كذلك فأكره لحم أخيك وهو حيّ.

(١) الغيلة: الخديعة والاغتيال. يقال: قتله غيلة، أي: خدعه فذهب به إلى موضع فقتله.

ولهذا يقال للمغتتاب: فلان يأكل لحوم الناس، كما قال الشاعر:
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضاً عياناً
وقال آخر:

فإن يأكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن يهدموا مجدي بنيت لهم مجداً
وعن ميمون بن شاة قال: بينا أنا نائم إذا بجيفة زنجي، وقائل يقول لي: كل يا
عبد الله. قلت: ولم آكل؟ قال: بما اغتیب عندك فلان. قلت: والله ما ذكرت فيه خيراً
ولا شراً. قال: لكنك استمعت فرضيت. فكان ميمون بعد ذلك لا يدع أن يغتاب
عنده أحد.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك ما أمرت به باجتنابه، والندم على ما وجد منكم منه ﴿إِنَّ اللَّهَ
تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ لمن أتقى ما نهى عنه، وتاب ممّا فرط منه. والمبالغة في التّوَّاب لأنّه
بليغ في قبول التوبة، إذ يجعل صاحبها كمن لم يذنب، أو لكثرة التّوب عليهم، أو
لكثرة ذنوبهم.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

عن يزيد بن شجرة: مرّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة، فرآى غلاماً أسود
يقول: من اشتراني فعلى شرط، لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول
الله ﷺ. فاشتراه رجل. فكان رسول الله ﷺ يراه عند كلّ صلاة، ففقده يوماً
فسأل عنه صاحبه، فقال: محموم. فعاده، ثمّ سأل عنه بعد ثلاثة أيام، فقال: هو لما
به. فجاءه رسول الله وهو في دُمائه^(١)، فتولّى غسله ودفنه. فدخل على المهاجرين

والأنصار أمر عظيم. فنزلت:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ۖ مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ ۚ أَوْ خَلَقْنَا كُلَّ
وَاحِدٍ مِنْكُمْ مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ ۚ فَالْكُلَّ سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ ۚ فَلَا وَجْهَ لِلتَّفَاخُرِ بِالنَّسَبِ ۚ
وَعَنْ مَقَاتِلٍ ۚ لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلَالٍ حَتَّىٰ عَلَا
ظَهْرَ الْكَعْبَةِ وَأَذَّنَ ۚ فَقَالَ عَتَابُ بْنُ أَسِيدٍ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَبِضَ أَبِي حَتَّىٰ لَمْ يَرِ
هَذَا الْيَوْمَ ۚ وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ: أَمَا وَجَدَ مُحَمَّدٌ غَيْرَ هَذَا الْغُرَابِ الْأَسْوَدِ
مَوْذُنًا؟ وَقَالَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو: إِنْ يَرِدُ اللَّهُ شَيْئًا يَغْيِرُهُ لَغْيَرِهِ ۚ وَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: إِنِّي
لَا أَقُولُ شَيْئًا ۚ أَخَافُ أَنْ يَخْبِرَهُ بِهِ رَبُّ السَّمَاءِ ۚ فَأَتَىٰ جَبْرِئِيلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالُوا ۚ فَدَعَاهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَأَلَهُمْ عَمَّا قَالُوا ۚ فَأَقْرَأُوا بِهِ ۚ فَنَزَلَتْ هَذِهِ
الْآيَةُ ۚ وَزَجَرَهُمْ عَنِ التَّفَاخُرِ بِالْأَنْسَابِ وَالْأَحْسَابِ ۚ وَالْإِزْدِرَاءِ بِالْفُقَرَاءِ ۚ وَالتَّكَاثُرِ
بِالْأَمْوَالِ ۚ

وعن ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس لما قال للرجل الذي لم
يتفصح له: ابن فلانة. فقال ﷺ: من الذاكر فلانة؟ فقام ثابت فقال: أنا يا رسول
الله. فقال: انظر في وجوه القوم. فنظر إليهم. فقال: ما رأيته يا ثابت؟ قال: رأيته
أبيض وأحمر وأسود. قال: فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى. وهو الذي نزل فيه قوله:
«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ»^(١) الآية.
وعلى التقادير؛ يجوز أن تكون هذه الآية تقريراً للأخوة.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشعب: الطبقة الأولى من الطبقات الست التي
عليها العرب. وهي: الشعب، والقبيلة تجمع العماثر، والعمارة تجمع البطون، والبطن
تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل. فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش
عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، وعباس فصيلة. وقيل: الشعوب بطون العجم،

والقبائل بطون العرب .

﴿يَتَعَارَفُوا﴾ أي: الحكمة التي من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل، هي أن يعرف بعضكم نسب بعض، فلا يعتري^(١) إلى غير آبائه، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد، وتدعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب والقبائل.

ثم بين الخصلة التي بها يفضل الانسان غيره، ويكتسب الشرف والكرم عند الله، فقال:

﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ﴾ فَإِنَّ التقوى بها تكمل النفوس، وتتفاضل بها الأشخاص. فمن أراد شرفاً فليلتصمها، كما قال ﷺ: «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله». وقال: «أيتها الناس إنما الناس رجلان: مؤمن تقى كريم على الله، وفاجر شقى هين على الله».

روي: أَنَّ رجلاً سأل عيسى بن مريم: أيّ الناس أفضل؟ فأخذ قبضتين من تراب ثم قال: أيّ هاتين أفضل؟ الناس خلقوا من تراب، فأكرمهم ألقاهم.

عن أبي بكر البهقي بالإسناد عن عباية بن ربيعي، عن ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: إِنَّ اللَّهَ ﷻ جعل الخلق قسمين، فجعلني في خيرهم قسماً. وذلك قوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ وَأَصْحَابُ الشُّعَالِ﴾^(٢). فأنا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين. ثم جعل القسمين أثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلثاً. وذلك قوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْأَمْثَالِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾^(٣). فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين. ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلني في خيرها قبيلة. وذلك قوله: «وجعلناكم شعوباً وقبائل» الآية. فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله، ولا فخر. ثم جعل القبائل بيوتاً، فجعلني في خيرها بيتاً. وذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ

(١) أي: ينتسب. من: عَزَى يَعَزِي فلاناً إلى فلان: نسبته إليه. واعتزى إليه: انتسب.

(٢) و (٣) إشارة إلى الآيات ٢٧ و ٤١ و ٨ - ١٠ من سورة الواقعة.

غَنَکُمْ الرَّجُسَ أَهْلَ النَّيْبِ وَيُطَهِّرْکُمْ تَطْهِیرًا^(١). فأنَا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب».

وعنه عليه السلام قال: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أمرتكم فضيعة ما عهدت إليكم فيه، ورفعتم أنسابكم، فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم. أين المتقون؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم ﴿خَيْرٌ﴾ ببواطنكم.

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ
الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ
أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمْتَنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْتَنُوا عَلَيَّ إِسْلَامُكُمْ بَلِ
اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

روي عن ابن عباس: أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي أَسَدٍ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ فِي سَنَةِ جَدْبَةٍ، فَأَظْهَرُوا الشَّهَادَتَيْنِ، وَأَفْسَدُوا طَرِيقَ الْمَدِينَةِ بِالْعِذْرَاتِ، وَأَغْلَوْا أَسْعَارَهُمْ، وَهُمْ يَغْدُونَ وَيُرَوِّحُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَقُولُونَ: أَتَتَكَ الْعَرَبُ بِأَنْفُسِهَا عَلَى ظُهُورِ رَوَاحِلِهَا، وَجُنَّتْكَ بِالْأَثْقَالِ وَالذَّرَارِي، وَلَمْ تَقَاتِلْ كَمَا قَاتَلَكَ بَنُو فُلَانٍ، يَرِيدُونَ الصَّدَقَةَ وَيَمْتَنُونَ عَلَيْهِ، فَتَزَلْتَ:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قَلَّ لَمَّا تَوُفَّيْنَا﴾ إِذَ الْإِيمَانُ تَصْدِيقٌ مَعَ ثِقَةٍ وَطَمَآنِينَةٍ قَلْبٍ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَكُمْ وَإِلَّا لَمَّا مَنَّتُمْ عَلَى الرَّسُولِ بِالْإِسْلَامِ وَتَرَكَ الْمَقَاتِلَةَ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ آخِرُ السُّورَةِ ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ - الَّذِي هُوَ انْقِيَادٌ - دُخُولٌ فِي السَّلَامِ وَإِظْهَارُ الشَّهَادَةِ. وَتَرَكَ الْحَارِبَةَ يَشْعُرُ بِهِ.

وَكَانَ نَظْمُ الْكَلَامِ أَنَّ يَقُولُ: لَا تَقُولُوا آمَنَّا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا، أَوَّلُ مَا تَوُفَّيْنَا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُمْ. فَعَدَلَ مِنْهُ إِلَى هَذَا النِّظْمِ احْتِرَازًا مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْقَوْلِ بِالْإِيمَانِ وَالْجَزْمِ بِإِسْلَامِهِمْ. فَإِنَّهُ لَوْ قِيلَ: وَلَكِنْ أَسْلَمْتُمْ لَكَانَ خُرُوجُهُ فِي مَعْرِضِ التَّسْلِيمِ لَهُمْ وَالْإِعْتِدَادِ بِقَوْلِهِمْ، وَهُوَ غَيْرُ مَعْتَدٍّ بِهِ، لَفَقَدَ شَرْطَ اعْتِبَارِهِ شَرْعًا، وَهُوَ التَّصْدِيقُ الْقَلْبِيُّ. فَأَفَادَ هَذَا النِّظْمُ تَكْذِيبَ دَعْوَاهُمْ أَوَّلًا، وَدَفَعَ مَا انْتَحَلُوهُ، فَقِيلَ: «قُلْ لَمْ تَوُفَّيْنَا». وَرَوَّعِي فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّكْذِيبِ أَدَبٌ حَسَنٌ حِينَ لَمْ يَصْرَحْ بِلَفْظِهِ، فَلَمْ يَقُلْ: كَذَبْتُمْ، وَوَضَعَ «لَمْ تَوُفَّيْنَا» الَّذِي هُوَ نَفْيٌ مَا ادَّعَوْا إِثْبَاتَهُ مَوْضِعَهُ. ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى مَا فَعَلَ مِنْ وَضْعِهِ مَوْضِعَ: كَذَبْتُمْ، فِي قَوْلِهِ بَعْدَ فِي صِفَةِ الْمَخْلَصِينَ: ﴿أَوَلَيْكَ هُمُ الضَّالِّينَ﴾^(١) تَعْرِيزًا بِأَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الْكَاذِبُونَ.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ تَوَقَّيْتُ لـ «قُولُوا»، فَإِنَّهُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِهِ، أَي: وَلَكِنْ قُولُوا: أَسْلَمْنَا، وَلَمْ تَوَاطَىءْ قُلُوبُكُمْ أَلَسْتُمْ بَعْدَ. وَلَمَّا كَانَ فَائِدَةُ قَوْلِهِ: «قُلْ لَمْ تَوُفَّيْنَا» تَكْذِيبَ دَعْوَاهُمْ، وَقَوْلِهِ: «وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ» تَوَقَّيْتُ

لما أمروا به أن يقولوه، فلا يكون تكريراً من غير فائدة متجددة.

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالإخلاص القلبي وترك النفاق ﴿لَا يَلْتَكُمُ مِنْ أَغْمَالِكُمْ﴾ لا ينقصكم من أجورها ﴿شَيْئاً﴾ من: لات لبتاً إذا نقص. وقرأ البصريان: لا يأتكم، من الألت. وهو لغة غطفان. وفي الصحاح: «الَّتْ حَقَّ يَأْلَتْهُ أَلْتاً، أي: نقصه. وآلَتْه أيضاً: حبسه عن وجهه وصرفه. مثل: لآلَتْه يَلِيَّتْه. وهما لغتان، حكاها اليزيدي عن أبي عمرو بن العلاء»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿رَجِيمٌ﴾ بالفضل عليهم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ لم يشكوا - يعني: لم يقع في نفوسهم شك - فيما آمنوا به. من: ارتاب مطاوع: رابه، إذا أوقعه في الشك مع التهمة. وفيه إشارة إلى ما أوجب نفي الإيمان عنهم. و«ثم» للإشعار بأن اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس حال الإيمان فقط، بل فيه وفيما يستقبل إلى آخر العمر. ذ«ثم» هاهنا كما في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَفْتَاؤُا﴾^(٢).

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعته. والمجاهدة بالأموال والأنفس تصلح للعبادات المأليّة والبدنيّة بأسرها. فتشمل مجاهدة العدو والمحارب، أو الشيطان، أو الهوى، وفي تحمّل أنواع الطاعات ومشاقّ صنوف العبادات.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين صدقوا في قولهم: آمنا، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد.

روي: أنّه لما نزلت الآيتان أتوا رسول الله ﷺ فحلفوا أنّهم مؤمنون صادقون في دعواهم الإيمان، فأنزل الله سبحانه:

(١) الصحاح ١: ٢٤١.

(٢) فضلت: ٣٠.

﴿قُلْ اتَّعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أتخبرون بقولكم: «آمنّا»؟ والهزرة للإنكار والتوبيخ، أي: كيف تعلمون الله بدينكم؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية. وفيه تجهيل لهم، لأنّه العالم بالذات، فيعلم المعلومات كلّها بنفسه، فلا يحتاج إلى معلّم يعلمه، كما أنّه كان قديماً موجوداً في الأزل بالذات، واستغنى عن موجد أو جده.

وكانوا يقولون: آمنّا بك من غير قتال، وقاتلك بنو فلان. فأجابهم الله سبحانه بقوله:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يعدّون إسلامهم عليك منّة. وهي: النعمة التي لا يستثيب مسديها^(١) ممّن يزلّها إليه. من المنّ بمعنى القطع، لأنّه إنّما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير، من غير أن يعمد لطلب مثوبة. ثم يقال: منّ عليه صنعه، إذا اعتدّه عليه منّة وإنعاماً.

﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي: بإسلامكم. فنصب بنزع الخافض، أو تضمين الفعل معنى الاعتداد. ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ بل الله يعتدّ عليكم أن أمّدكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم، وادّعيتم أنّكم أرشدتم إليه ووفّقتم له ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادّعاء الإيمان، إلّا أنّكم تزعمون وتدّعون ما الله عليم بخلافه. وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه ما قبله، أي: فللّه المنّة عليكم.

وفي سياق الآية لطف، وهو أنّهم لما سمّوا ما صدر عنهم إيماناً ومّنوا به، فنفى أنّه إيمان، وسمّاه إسلاماً، فقال: يمتّون عليك بما هو في الحقيقة إسلام، وليس بجدير أن يمتنّ به عليك، بل لو صحّ ادّعاؤهم للإيمان فللّه المنّة عليهم بالهداية له. لا لهم.

(١) من: أُنذِي إليه: أحسن. وأزّل إليه نعمة: أعطاه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا

تَعْمَلُونَ﴾ في سرّكم وعلايتكم، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم؟

وفي هذه الآية بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم. وتوضيح المعنى:

أنه ﷻ يعلم كلّ مستتر في العالم، ويبصر كلّ عمل تعملونه في سرّكم وعلايتكم، لا

يخفى عليه منه شيء، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم، ولا يظهر على صدقكم

وكذبكم؟ وذلك أنّ حاله مع كلّ معلوم واحدة لا تختلف.

وقرأ ابن كثير بالياء، لما في الآية من الغيبة.



سورة ق

مَكِّيَّة. وهي خمس وأربعون آية.

أَبِي بن كعب عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة ق هَوَّنَ اللهُ عليه تارات الموت وسكراته».

أبو حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من أَدَمَنَ في فرائضه ونوافله سورة ق وسَّعَ اللهُ في رزقه، وأعطاه كتابه يمينه، وحاسبه حساباً يسيراً».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَئِنَّا مِثْلُهُ وَكُنَّا تَرَائِبًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِیْجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَشْبَاْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَیْجٍ ﴿٧﴾ ثَبْرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ

عَبْدٌ مُنِيبٌ ﴿٨﴾ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ
 الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا
 بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾

واعلم أنه سبحانه لما ختم سورة الحجرات بذكر الإيمان وشرائطه للعبيد،
 افتتح هذه السورة بذكر ما يجب الإيمان به، من القرآن المجيد وأدلة التوحيد،
 فقال:

﴿يَسْمِ اللَّهَ الرُّخْفَنَ الرَّحِيمَ قَ وَالْقُرْآنَ الْعَجِيدَ﴾ الكلام فيه وفي تركيبه كما مرَّ
 في «ص القرآن ذي الذكر». وعن ابن عباس: أنه اسم من أسماء الله تعالى. وعن
 الضحاك: هو اسم الجبل المحيط بالأرض، من زمردة خضراء، خضرة السماء منها.
 وقيل: معناه: قضي الأمر، أو قضي ما هو كائن. والمجيد: ذو المجد والشرف على
 سائر الكتب. وقيل: وصف به، لأنه كلام المجيد، فجاز اتصافه بصفته. أو لأن من
 علم معانيه وامتلأ أحكامه مجد عند الله وعند الناس.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب. وهو أن
 ينذرهم أحد من جنسهم، قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته. ومن كان بصفته
 لم يكن إلا ناصحاً لقومه، مترفعاً عليهم، خائفاً أن ينالهم سوء، ويحل بهم مكروه.
 وإذا علم أن مخوفاً أظلمهم لزمه أن ينذرهم ويحذّرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف
 ونهاية المحاذير؟!

ثم حكى عن تعجبهم بقوله: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا﴾ أي: اختيار الله محمداً
 للرسالة ﴿شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وإضمار ذكرهم ثم إظهاره للإشعار بتعنتهم بهذا المقال، ثم
 التسجيل على كفرهم بذلك. ويجوز أن يكون هذا إشارة إلى إنكار تعجبهم مما

أنذرهم به من البعث والرجع، مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السماوات والأرض وما بينهما، وعلى اختراع كل شيء وإيداعه، وإقرارهم بالنشأة الأولى، ومع شهادة العقل بأنه لا بدّ من الجزاء. وللمبالغة في إنكارهم البعث وضع الظاهر موضع ضميرهم، للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم، إذ الأوّل استبعاد لأن يفضل عليهم مثلهم، والثاني استقصار لقدرة الله عما هو أهون ممّا يشاهدون من صنعه. فالتعجّب هنا أدخل في الإنكار.

﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ منصوب بمضمر معناه: أحين نموت وصرنا تراباً ونبلى نرجع؟ ويدلّ على المحذوف قوله: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: بعيد عن الوهم، أو العادة، أو الإمكان. وقيل: ذلك جواب من الله استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث. والرجع بمعنى المرجوع. والمعنى: ذلك الإنكار مرجوع، أي: مردود بعيد عن العقل. وحينئذٍ ناصب الظرف ما دلّ عليه المنذر من المنذر به، وهو البعث. وعلى هذا: الوقف قبله حسن.

ثم ردّ استبعادهم الرجع بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ما تأكل من أجساد موتاهم. فمن لطف علمه حتّى تغفل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم، كان قادراً على رجوعهم أحياء كما كانوا. وقيل: إنّه جواب القسم. واللام محذوف، لطول الكلام.

﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ حافظ لتفاصيل الأشياء كلّها. أو محفوظ عن التغير، أو عن الشياطين، أو عن البلى والدروس. والمراد اللوح المحفوظ، وهذا الكتاب الذي كتب فيه جميع ما وقع ويقع إلى يوم القيامة. أو المراد صحائف أعمال العباد يكتبها الحفظة. ويجوز أن يكون المراد تمثيل علمه بتفاصيل الأشياء بعلم من عنده كتاب محفوظ يطالعه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ إضراب أتبع الإضراب الأوّل، للدلالة على أنهم جاءوا

بما هو أفضح من تعجبهم، وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات، أو النبي، أو القرآن، أو الإخبار بالغيب ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ مضطرب. من: مرج الخاتم في إصبه. ومنه الهرج والمرج. وذلك قولهم تارة أنه شاعر، وتارة أنه ساحر، وتارة أنه كاهن، لا يشبتون على شيء واحد.

ثم أقام سبحانه الدليل على كونه قادراً على البعث، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى آثار قدرة الله في خلق العالم العلوي، وحسن ترتيبه وانتظامه ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ رفعناها بلا عمد ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالكواكب ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ فتوق وشقوق، بأن خلقها لمساء سليمة من العيوب، لافتق فيها ولا صدع ولا خلل، كقوله: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾^(١).

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ دحوناها وبسطناها ﴿وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبلاً ثوابت، ولولا هي لتقلبت ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ من كل صنف يستهيج ويسر به، لحسنه ونضارته. عن ابن زيد: البهجة الحسن الذي له روعة عند الرؤية، كالزهرة والأشجار النضرة والرياض الخضرة.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾ هما علتان للأفعال السابقة. والمعنى: فعلنا ما فعلنا من الأفعال المذكورة لنبصر بها ونذكر. ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ كل عبد راجع إلى ربه، متفكر في بدائع صنعه.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ مطراً كثيراً المنافع ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ بهذا الماء بساتين فيها أشجار تشتمل على أنواع الثمار المستلذة والفواكه الطيبة ﴿وَحَبِّ النَّخْلِ﴾ وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد. وهو ما يقتات به، من نحو البر والشعير وغيرهما. والإضافة كإضافة حق اليقين ومسجد الجامع. ﴿وَالنَّخْلَ يَاسِقَاتٍ﴾ طوالاً. وقيل: حوامل، من: أبسقت الشاة إذا حملت.

وإفرادها بالذكر لفرط ارتفاعها وكثرة منافعها. ﴿لَهَا﴾ لهذه النخل الموصوفة بالعلو والارتفاع ﴿طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ منضود بعضه فوق بعض. والمراد: تراكم الطلع، أو كثرة ما فيه من الثمر.

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ علة لـ «أنبتنا» أي: أنبتناها لترزقهم. أو مصدر، فإن الإنبات في معنى الرزق. ﴿وَأَخْيَيْنَاهُ﴾ بذلك الماء ﴿بَلَدَةً مَّيْتًا﴾ أرضاً جديبة لا نماء فيها، فنمت به وأنبتت كل نبات ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ الكاف في محلّ الرفع على الابتداء، أي: مثل إحياء هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم، فإن من قدر على أحدهما قدر على الآخر. وإنما دخلت الشبهة على هؤلاء من حيث إنهم رأوا العادة مستمرة في إحياء الموات من الأرض بنزول المطر، ولم تجر العادة بإحياء الموتي من البشر، ولو أعملوا الفكر وأمعنوا في النظر لعلموا أنّ من قدر على أحد الأمرين قدر على الآخر.

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ
وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ ثَبَعٍ كُلٌّ كَذَبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ
وَعِيدُ ﴿١٤﴾

ثم ذكر سبحانه الأمم المكذبة تسلياً للنبي ﷺ، وتهديداً للكفار، فقال:
﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ من الأمم الماضية ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ فأغرقهم الله ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾
وهم أصحاب البئر التي رسوا^(١) نبيهم فيها بعد أن قتلوه. وبيان ذلك واختلاف
الأقوال فيه قد مرّ سابقاً.^(٢)

(١) أي: دفنوا.

(٢) راجع ج ٤ ص ٥٦٩، ذيل الآية ٣٥ من سورة الفرقان.

﴿وَنُفُوءٌ﴾ وهم قوم صالح عليه السلام. ﴿وَعَادٌ﴾ وهم قوم هود ﴿وَفِرْعَوْنٌ﴾ أراد إياه وقومه، ليلاتم ما قبله وما بعده، فإنَّ المعطوف عليه قوم نوح، والمعطوفات جماعات ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ فإنَّهم كانوا أصحابه ومن نسبه.

﴿وَأَضْحَابُ الْآيَةِ﴾ وهم قوم شعيب. وقد مرَّ في الحجر^(١). ﴿وَقَوْمُ ثُبَيْعٍ﴾ تبع الحميري. وقد مرَّ في^(٢) الدخان. ﴿كُلٌّ﴾ كل واحد منهم، أو قوم منهم، أو جميعهم. وحينئذٍ إفراد الضمير في قوله: ﴿كَذَّبَ الرَّسُلَ﴾ لإفراد لفظة الكلِّ ﴿فَحَقُّ وَعِيدٍ﴾ فوجب وحلَّ عليه وعيدي، وهو كلمة العذاب. فإذا كان مآل الأمم الخالية إذا كذبوا الرسل الهلاك، وإنكم معاشر الكفار قد سلكتم مسالكهم في التكذيب والإنكار، فحالككم كحالهم في التباب^(٣) والخسار.

أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾

وبعد تهديدهم بعواقب المكذِّبين المنكرين، ذكر الأدلَّة على إمكان البعث،

فقال:

﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أفعجزنا عن الإبداء حتَّى نعجز عن الإعادة؟ من: عبي بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله. والهمزة فيه للإنكار. يعني: أنا لم نعجز - كما

(١) الحجر: ٧٨.

(٢) الدخان: ٣٧.

(٣) التَّابُ: الهلاك.

علموا - عن الخلق الأول حتى نعجز عن الثاني . ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول، واعترافهم بذلك في طيِّه الاعتراف بالقدرة على الإعادة، بل هم في خلط وشبهة قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم . وأصل اللبس المنع من إدراك الشيء بما هو كالستر له . والجديد: القريب الإنشاء . ومنه قول عليّ عليه السلام: «يا حار إنّه لملبوس عليك، اعرف الحقّ تعرف أهله» . ولبس الشيطان عليهم: تسويله إليهم أنّ إحياء الموتى أمر خارج عن العادة . فتركوا لذلك القياس الصحيح المنصوص العلّة، وهو أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر . والجديد بمعنى القريب .

وتكثير الخلق والجديد ليدلّ على أنّ له شأنًا عظيمًا وحالًا شديدة، حقّ من سمع به أن يهتمّ به ويخاف، ويبحث عنه، ولا يقعد على لبس في مثله . وللإشعار بأنّه على وجه غير متعارف ولا معتاد .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ جنس البشر ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ ما تحدّثه به نفسه وما يخطر بالبال، فإنّ وسوسة النفس ما يخطر ببال الانسان، ويهيجس^(١) في ضميره من حديث النفس . وأصل الوسوسة: الصوت الخفيّ . ومنها: وسواس الحليّ . والضمير إلى «ما» إن جعلت موصولة . والباء مثلها في قولك: صوّت بكذا وهمس^(٢) به . وإن جعلت مصدرية فالضمير إلى «الانسان» . والباء للتعدية .

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ إسناد القرب إلى الله مجاز . والمراد قرب علمه منه، كما يقال: الله في كلّ مكان، وقد جلّ عن الأمكنة . والمعنى: ونحن أعلم بحاله ممّن كان أقرب إليه ﴿مِنْ خَبَلٍ الْوَرِيدِ﴾ فتجاوز بقرب الذات لقرب العلم، لأنّ الذات موجهة . وحبل الوريد مثل في فرط القرب، كقولهم: هو منّي مقعد القابلة ومعقد الإزار . قال

(١) أي: يخطر .

(٢) همس الصوت: أخفاه .

ذو الرمة: والموت أدنى لي من الوريد. والحبل: العرق، شبه بواحد الحبال. وإضافته للبيان، كقولهم: بعير سانية^(١). والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتي العنق في مقدمها، متصلان بالوتين، يردان من الرأس إليه. وقيل: سمي وريداً لأن الروح تروده.

ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يحفظان عليه عمله إلزاماً للحجة، فقال:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مقدر بـ«أذكر» أو متعلق بـ«أقرب» أي: نحن أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به. والتلقي: التلقن بالحفظ والكتابة. وفيه إيدان بأنه غني عن استحفاظ الملكين، فإنه أعلم منهما، ومطلع على ما يخفى عليهما، وكيف لا يستغني عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات؟ لكنه لحكمة اقتضته، وهي ما في كتبة الملكين وحفظهما، وعرض صحائف الأعمال يوم يقوم الأشهاد، وعلم العبد بذلك، مع علمه بإحاطة الله بعمله، من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد من المتلقين، أي: مقاعد، كالجليس بمعنى المجالس. فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، كقوله: فأني وقيار بها لغريب. وقد يطلق الفعيل للواحد والمتعدد، كقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾^(٢). والمراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح، لا القاعد الذي هو ضد القائم. وعن الحسن: الحفظة أربعة: ملكان بالنهار، وملكان بالليل.

﴿مَا يَنْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ما يرمي به من فيه ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ ملك يرقب عمله ﴿عَقِيدٌ﴾ معد حاضر. واختلف فيما يكتب الملكان، فقيل: يكتبان كل شيء حتى

(١) السانية: الناقة يستقى عليها من البئر.

(٢) التحريم: ٤.

أنيته في مرضه. وقيل: لا يكتبان عليه إلا ما فيه ثواب وعقاب. ويؤيده ما روي عن النبي ﷺ: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها لملك اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر».

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطيء أو المسيء، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كتب واحدة».

وعن أنس بن مالك قال: «قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى وكل بعبد ملكين يكتبان عليه، فإذا مات قالا: يا رب قد قبضت عبدك فلاناً فإلى أين؟ قال: سمائي مملوءة بملائكتي يعبدونني، وأرضي مملوءة من خلقي يطيعونني، إذهباً إلى قبر عبدي فسبحاني وكبراني وهللاني، فاكتبنا ذلك في حسنات عبدي إلى يوم القيامة».

وعنه ﷺ: «إن مقعد ملكيك على ثنييتك^(١)، ولسانك قلمهما، وريقك مدادهما، وأنت تجري فيما لا يعينك، لا تستحي من الله ولا منهما».

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾

ولما ذكر إنكارهم البعث، واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه، أعلمهم أن ما أنكروه وجحدوه هم لا قوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبّر عنه بلفظ الماضي، فقال:

(١) الثَّيِّبَةُ وجمعها ثنايا: وهي أسنان مقدّم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ غمرته وشدته الزاهية بالعقل. والباء للتعدي، كقولك: جاء زيد بعمره. والمعنى: وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الموعود الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله. أو حقيقة الأمر وجليته الحال، من سعادة المرء وشقاوته. أو الحق الذي خلق له الانسان من أن كل نفس ذائقة الموت. أو الجزاء، فإن الانسان خلق له. أو مثل الباء في ﴿تَنَبَّأْتُ بِالْذُّهْنِ﴾^(١)، أي: وجاءت ملتبسة بحقيقة الأمر. أو بالحكمة والغرض الصحيح، كقوله: ﴿خُلِقَ السَّفَوَاتِ وَالْأَرْضُ بِالْحَقِّ﴾^(٢).

﴿ذَلِكَ﴾ أي: الموت ﴿مَا كُنْتُ مِنْهُ تَجِيْدٌ﴾ تميل وتنفر عنه. والخطاب للإنسان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾^(٣) على طريق الالتفات. أو الإشارة إلى الحق، والخطاب للفاجر.

وُنْفَخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَاقٍ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

ثم أخبر سبحانه عن حال الناس بعد البعث، فقال: ﴿وَنُفَخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني: نفخة البعث ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر «نفخ» بحذف المضاف، أي: وقت ذلك النفخ ﴿يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ يوم تحقق الوعيد ووقوع المجازاة.

(١) المؤمنون: ٢٠.

(٢) الأنعام: ٧٣.

(٣) ق: ١٦.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ملكان أحدهما يسوقه، والآخر يشهد بعمله. أو ملك جامع للوصفين، كأنه قيل: معها ملك يسوقها ويشهد عليها. وقيل: السائق نفسه أو قرينه، والشهيد جوارحه أو أعماله. فلا يجد إلى الهرب ولا إلى الجحود سبيلاً. ومحل «معها» النصب على الحال من «كل»، لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة، للاستغراق الذي يفيد التخصيص.

﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ على إضمار القول. والخطاب لكل نفس، إذ ما من أحد إلا وله اشتغال ما عن الآخرة. ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ حاجبك لأمر المعاد وخاسئك^(١) عنها. وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات، والألف بها، وقصور النظر عليها. فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه هذه الغفلة وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحق، ويرجع بصره الكليل عن الإبصار - لغفلته - حديداً لتيقظه، كما قال: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ حاد نافذ لا يدخل عليه شبهة، لزوال المانع للإبصار. ولا شبهة أن الأمور العقلية والسمعية لا تكون كالمشاهد المحسوس، فشبه الله تعالى الغفلة الموصوفة بغطاء غطى الإنسان جسده كله، أو بغشاوة غطى بها عينيه، فهو لا يبصر شيئاً.

وقيل: الخطاب للنبي ﷺ. والمعنى: كنت في غفلة من أمر الديانة، فكشفنا عنك غطاء الغفلة بالوحي وتعليم القرآن، فبصرك اليوم حديد، ترى ما لا يرون، وتعلم ما لا يعلمون.

وعن ابن عباس: هو خاص بالكافر، أي: فأنت اليوم عالم بما كنت تنكره في الدنيا.

ويؤيد الأول سوق الكلام السابق، وقراءة من كسر التاء والكافات على خطاب النفس.

(١) خَسِيَ: بَعُدَ. وَخَسَا الْبَصَرُ: كُلَّ وَأَعْيَا.

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلَقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ
 ﴿٢٤﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُغْتَدٍ مَرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ
 فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ
 بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا
 يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ
 وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ وقال الملك الموكل عليه ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ هذا ما هو
 مكتوب عندي حاضر لدي. أو قال الشيطان الذي قَبِضَ له - في قوله: ﴿نَقِيطُ لَهُ
 شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(١) -: إِنَّ هَذَا شَيْءٌ لَدَيَّ وَفِي مِلْكِي^(٢) عَتِيدٌ لْجَهَنَّمَ. وتلخيص
 المعنى على هذا التقدير: أَنَّ ملكاً يسوقه، وآخر شهيد عليه، وشيطاناً مقروناً به
 يقول: قد أعتدته لجهنم، وهياتة لها بإغوائتي وإضلالي. والقول الأول مروى عن أبي
 جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، منقول عن جمع كثير من المفسرين.

ثم خاطب الله سبحانه السائق والشهيد، أو ملكين من خزنة النار، بقوله:
 ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ ويجوز أن يكون الخطاب لواحد على وجهين:
 الأول: قول المبرّد: إِنَّ تَثْنِيَهُ الْفَاعِلُ بِمَنْزِلَةِ تَثْنِيَةِ الْفِعْلِ وتكريره، كأنه قيل:

(١) الزخرف: ٣٦.

(٢) المَلَكَةُ: الْمَلِكُ.

القي، كقوله: فَإِنْ تَزِجْرَانِي يَابْنَ عَقَّانِ أَنْزِجِرْ^(١).

والثاني: الألف بدل من نون التأكيد، على إجراء الوصل مجرى الوقف. ويؤيده أنه قرئ في الشواذ: أَلْقَيْنَ بالنون الخفيفة. والأول أظهر.

وروى أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن الأعمش أنه قال: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُتَوَكَّلِ النَّاجِي، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِي وَلِعَلِّي: أَلْقَا فِي النَّارِ مِنْ أَبْغَضِكُمَا، وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ مَنْ أَحَبَّكُمَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: أَلْقَا فِي جَهَنَّمَ ﴿كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيدٌ﴾»^(٢) معاند، بجانب للحق، معادٍ لأهله.

﴿مَنْعًا لِلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة. وجعل ذلك عادة له، فلا يبذل منه شيئاً قط. وقيل: المراد بالخير الاسلام، لما روي أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ لَمَّا مَنَعَ بَنِي أَخِيهِ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ يَقُولُ: مَنْ دَخَلَ مِنْكُمْ فِيهِ لَمْ أَنْفَعِهِ بِخَيْرٍ مَا عَشْتُ. ﴿مُعْتَدٌ﴾ متعدي، ظالم، متخطئ عن الحق ﴿مُرِيبٌ﴾ شاك في الله وفي دينه.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ مبتدأ متضمن معنى الشرط، وخبره ﴿فَالْقِيَاءُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ أو بدل «كُلُّ كَفَّارٍ». فيكون «فَالْقِيَاءُ» تكريراً للتوكيد، أو مفعولاً لمضمر يفسره: فَالْقِيَاءُ.

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي: الشيطان المقيض له. وإنما أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على الأولى، لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول، كما رأيت في حكاية المقاوله بين موسى وفرعون.

وبيان التقاول هنا: أَنَّهُ لَمَّا قَالَ قَرِينُهُ: «هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ». وتبعه قوله: «قَالَ

(١) وعجزه: وإن تدعاني أحم عرضاً ممنعاً.

(٢) شواهد التنزيل ٢: ٢٦١ - ٢٦٢ ح ٨٩٥.

قرينه ربنا ما أطغيته». وتلاه «لا تختصموا لدي» علم أن ثم مقابلة بين الكافر والشیطان، لكنها طرحت لما يدل عليها ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾. كأن الكافر قال: رب هو أطغاني. فقال قرينه: ربنا ما أطغيته. بخلاف الجملة الأولى، فإنها واجبة العطف على ما قبلها، للدلالة على الجمع بين معناها وبين معنى ما قبلها. والمعنى: ما جعلته طاغياً، وما أوقعته في الطغيان ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ولكن طغى واختار الضلالة على الهدى، فأعنته عليه، فإن إغواء الشيطان إنما يؤثر فيمن كان مائلاً إلى الفجور، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾^(١).

﴿قَالَ﴾ أي: الله تعالى ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ استئناف مثل قوله: «قال قرينه». كأن قائلًا قال: فماذا قال الله؟ ف قيل: قال لا تختصموا لدي، أي: في موقف الحساب، فإنه لا فائدة في اختصاصكم ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ على الطغيان في كتبي وعلى السنة رسلي، فما تركت لكم حجة علي. والجملة حالية، فيها تعليل للنهي، أي: لا تختصموا عالمين بأنني أوعدتكم. والباء مزيدة، مثلها في: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٢). أو معدية على أن «قدم» بمعنى: تقدم. ولما كان قوله: «لا تختصموا... الخ» معناه: لا تختصموا عندي وقد صرح عندكم أنني قدّمت إليكم بالوعيد، وصحة ذلك عندهم يكون في الآخرة. فلا يقال: إن قوله: «وقد قدّمت» واقع موقع الحال من «لا تختصموا». والتقديم بالوعيد في الدنيا، والخصومة في الآخرة، واجتماعهما في زمان واحد واجب.

﴿مَا يُبَدِّلُ النُّقُولَ لَدَيَّ﴾ أي: بوقوع الخلف في أنني أعاقب من جحدني وكذب رسلي. فلا تطمعوا أن أبدل وعيدي، فأعفيكم عما أوعدتكم به. ويجوز أن يقع

(١) إبراهيم: ٢٢.

(٢) البقرة: ١٩٥.

قوله: «وقد قَدِّمْتُ إليكم» على قوله: «ما يبدِّل القول لديّ... الخ». ويكون «بالوعيد» حالاً من المفعول أو الفاعل، أي: قَدِّمْتُ إليكم هذا القول ونشبت لكم مضمونه ملتبساً بالوعيد. أو قَدِّمْتُهُ إليكم موعداً لكم به.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فأعذَّب من ليس بمستوجب للعذاب. وفي إيراد نفي الظلم في صورة بناء المبالغة وجهان: أن يكون مثل قولك: هو ظالم لعبده، وظلام لعبيده. وأن يراد: لو عذَّبْتُ من لا يستحق العقاب لكنت ظلاماً مفرط الظلم، فنفي ذلك.

وقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ﴾ منصوب بـ«ظلام» أو بمضمر نحو: اذكر وأنذر حين نقول لجهنَّمَ هل امتلأت؟ من كثرة ما ألقى فيك من العصاة ﴿وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾. ويجوز أن ينتصب بـ«نفخ» كأنه قيل: ونفخ في الصور يوم نقول لجهنَّمَ. وعلى هذا «ذلك يوم الوعيد» إشارة إلى «يوم نقول» فلا يفتقر إلى تقدير مضاف.

وسؤال جهنَّمَ وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتشبيته. والمعنى: أنها مع اتساعها تطرح فيها الجنّ والإنس فوجاً فوجاً حتّى تمتلئ، لقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾^(١). أو أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيما بعد فراغ وموضع للمزيد. أو أنها من شدّة زفيرها وحدّتها وتشبّهها بالعصاة وغيضاها عليهم، كالمستكثرة لهم، والطالبة لزيادتهم.

وقيل: الجواب والسؤال على الحقيقة، لأنّ الله سبحانه يخلق لجهنَّمَ آلة الكلام فتكلّم. وهذا غير منكر، لأنّ من أنطق الأيدي والجوارح والجلود قادر على أن ينطق جهنَّمَ.

وعن الحسن: هذا خطاب لخزنة جهنَّمَ على وجه التقرير لهم. والمعنى: هل

امتلاً جهنم؟ فيقولون: بلى لم يبق موضع لمزيد، ليعلم الخلق صدق وعده. ومعنى «هل من مزيد» على هذا: ما من مزيد، أي: لا مزيد، كقوله: ﴿هَذَا مِنْ خَالِقِ غَيْرِ اللَّهِ﴾^(١).

وقرأ نافع وأبو بكر: يَوْمَ يَقُولُ بِالْيَاءِ. والمزيد إما مصدر كالمحيد، أو مفعول كالمبيع.

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تَوَعَّدُونَ لِكُلِّ
أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ
﴿٣٣﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا
مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

ولما أخبر سبحانه عما أعدّه للكافرين والعصاة، عقبه بذكر ما أعدّه للمتقين، فقال:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أدنيت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ حتى يروها قريبة لهم ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾
نصب على الظرف، أي: مكاناً غير بعيد. ويجوز أن يكون حالاً. وتذكيره لأنه صفة
محذوف، أي: شيئاً غير بعيد. أو على أنه مصدر، كالزئير والصليل، والمصادر
يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث. وقيل: معناه: ليس ببعيد مجيء ذلك، لأنَّ
كُلِّ آتٍ قريب. أو لأنَّ الجنة بمعنى البستان الذي يجمع كلَّ لذة، من الأنهار
والأشجار وطيب الثمار، ومن الأزواج الكرام والهور الحسان والخدم من الولدان،

ومن الأنبياء الفاخرة المزيّنة بالدّرّ واليواقيت والزمرد والعقّيان^(١). وذكر «غير بعيد» بعد الإزلاف للتأكيد، كما تقول: هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل.

﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ﴾ على إضمار القول. والإشارة إلى الثواب، أو مصدر «أزلفت». وقرأ ابن كثير بالياء. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجّاع إلى ذكر الله. بدل من «المتّقين» بإعادة الجارّ، كقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾^(٢). ﴿حَفِيفٌ﴾ حافظ لحدود الله، متحفّظ من الخروج إلى ما لا يجوز، من سيّئة تدنّسه أو خطيئة تشينه. ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ بدل بعد بدل. أو بدل من موصوف «أَوَّاب» أي: شخص أَوَّاب. ولا يجوز أن يكون في حكم «أَوَّاب»، لأنّ «من» لا يوصف به، فإنّه لا يوصف من بين الموصولات إلّا بـ«الَّذِي» وحده. أو مبتدأ خبره ﴿انْخَلَوْهَا﴾ على تأويل: يقال لهم: ادخلوها، فإنّ «من» بمعنى الجمع. ويجوز أن يكون منادى، كقولهم: من لا يزال محسناً أحسن إليّ. وحذف حرف النداء للتقريب.

و«بالغيب» حال من المفعول، أي: خشيته وهو غائب لم يعرفه وكونه معاقباً لإبطريق الاستدلال. أو من الفاعل، أي: خشيته حال كونه لم يره. أو صفة لمصدر، أي: خشيته خشية ملتبسة بالغيب، حيث خشي عقابه وهو غائب. أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد.

وتخصيص «الرحمن» للثناء البليغ على الخاشي، وهو خشيته مع علمه أنّه الواسع الرحمة، كما أتى عليه بأنّه خاشٍ مع أنّ المخشّي منه غائب. ونحوه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾^(٣). فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات.

(١) العقّيان: الذهب الخالص.

(٢) الأعراف: ٧٥.

(٣) المؤمنون: ٦٠.

ووصف القلب بالإنابة، إذ الاعتبار بما ثبت منها في القلب، من رجوعه إلى الله.

﴿يَسْلَامٌ﴾ سالمين من العذاب وزوال النعم. أو مسلماً عليكم من الله وملائكته. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ يوم تقدير الخلود، كقوله: ﴿فَانْخُلُوا خَالِدِينَ﴾^(١) أي: مقدرين الخلود.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ وهو: ما لا يخطر ببالهم ممّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقيل: إنّ السحاب تمرّ بأهل الجنة فتمطرهم الحور، فتقول الحور: نحن المزيّد الذي قال الله ﷻ: «ولدينا مزيد».

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ

تَشَقُّقُ الْأَرْضِ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا
يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرِ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

ثم خوف سبحانه كفار مكة فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك ﴿مِنْ قَبْلِ
هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ قوة، كعادٍ وفرعون ﴿فَنَقَّبُوا﴾ فخرقوا^(١) ﴿فِي الْبِلَادِ﴾
وتصرّفوا فيها. والفاء للتسبيب، أي: شدة بطشهم أبطرتهم وأقدرتهم على التنقيب.
وقيل: معناه: جالوا في الأرض كل مجال حذر الموت. ﴿هَلْ مِنْ مَّجِيسٍ﴾ أي: هل
لهم من الله أو من الموت مهرب حتى يتوقعوا مثله لأنفسهم؟

وقيل: الضمير لأهل مكة. ومعناه: فنقب أهل مكة في أسفارهم ومسائرهم
في البلاد والقرى، وحين نزول آجالهم أو عقوباتهم، فهل رأوا لهم مهرباً منها؟
والدليل على صحته قراءة من قرأ: فَنَقَّبُوا على الأمر، كقوله: ﴿فَسِيحُوا فِي
الْأَرْضِ﴾^(٢). وعلى الثاني والثالث: الفاء للتعقيب.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكر في هذه السورة ﴿لَذِكْرٌ﴾ لتذكرة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ
قَلْبٌ﴾ أي: قلب واعٍ يتفكر في حقائقه، لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له ﴿أَوْ
أَنْفَى السَّمْعِ﴾ أي: أصغى لاستماعه ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر بذهنه ليفهم معانيه، لأن
من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب. أو شاهد يصدقه بأنه وحي، فيستعظ بظواهره،
وينزجر بزواجره. وفي تنكير القلب وإيهامه تفخيم وإشعار بأن كل قلب لا يتفكر
ولا يتدبر كلا قلب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مرّ تفسيره^(٣) مراراً

(١) خَرَقَ الْأَرْضَ: جابها وقطعها حتى بلغ أقصاها.

(٢) التوبة: ٢.

(٣) راجع تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف، يونس: ٣، هود: ٧، الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ من تعب وإعياء. وهو ردّ لما زعمت اليهود من أنّه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش.

﴿فَاضْبِذْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ ما يقول اليهود ويأتون به من الكفر والتشبيه. أو ما يقول المشركون من إنكارهم البعث، فإنّ من قدر على خلق العالم بلا إعياء، قدر على بعثهم والانتقام منهم. وقيل: هي منسوخة بآية السيف^(١). وقيل: الصبر مأمور به في كلّ حال.

﴿وَسَبِّحْ بِخَفْءٍ رَّبَّكَ﴾ ونزّهه عن العجز عمّا يمكن، والوصف بما يوجب التشبيه، حامداً له على ما أنعم عليك من إصابة الحقّ وغيرها ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه سئل عن هذا فقال: «تقول حين تصبح وحين تمسي عشر مرّات: لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كلّ شيء قدير».

والأكثر على أنّ المراد بالتسبيح قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل الغروب صلاة الظهر والعصر. فيعبّر عن الصلاة بالتسبيح، كما يعبّر بالركوع والسجود عنها، تسمية للشيء باسم معظم أركانه.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ فسبّحه بعض الليل، يعني: العشاءين. وقيل: التهجّد. ﴿وَأَذْبِازَ السُّجُودِ﴾ يعني: التسبيح في أعقاب الصلوات. جمع دبر. وقيل: النوافل بعد المكتوبات.

وعن علي عليه السلام: «الركعتان بعد المغرب». وروي عن النبي صلى الله عليه وآله: «من صلّى بعد المغرب قبل أن يتكلّم كتبّت صلاته في عليّين».

وعن ابن عباس: الوتر بعد العشاء. وقيل: الوتر بعد التهجد. وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام.

وقرأ الحجازيان بكسر الهمزة، من: أدبرت الصلاة إذا انقضت. يعني: وقت انقضاء السجود.

وقال في كنز العرفان بعد نقل الأقوال المذكورة: «وعندي أن حمله على العموم أولى»^(١).

﴿وَاسْتَفِغْ﴾ لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة. وفيه تهويل وتعظيم لشأن المخبر به. ﴿يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ﴾ نصب بما دلّ عليه «ذلك يوم الخروج» أي: يوم ينادى المنادي يخرجون من القبور. والمنادي هو إسرافيل. فيقول: أَيُّهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ، وَالْأَوْصَالُ الْمَنْقُطَةُ، وَاللِّحُومُ الْمَتَرِّقَةُ، وَالشُّعُورُ الْمَتَرِّقَةُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْتَمَعَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ. وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبرئيل ينادي بالحشر. ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكلّ على سواء. قيل: هو صخرة بيت المقدس. وهي أقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلاً. وهي وسط الأرض. وقيل: من تحت أقدامهم. وقيل: من منابت شعورهم. ولعلّ هذا في الإعادة نظير لفظة «كن» في الإبداء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ بدل من «يوم ينادى». والصيحة: النفخة الثانية. ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلّق بالصيحة. والمراد به البعث للجزاء. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من القبور إلى أرض الموقف. وهو من أسماء يوم القيامة. وقد يقال للعبد.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا ﴿وَالنَّيْنَا الْفَصِيرُ﴾ للجزاء في الآخرة. ﴿يَوْمَ تَشْهَقُ﴾ تشهق. وقرأ الكوفيون وأبو عمرو بالتخفيف^(٢). ﴿الْأَرْضُ

(١) كنز العرفان ١: ٧٨.

(٢) أي: بتخفيف الشين.

عَنْهُمْ سِزَاعًا ﴿ حال من المجرور، أي: مسرعين إلى الداعي بلا تأخير ﴾ ذَلِكَ حَشْرٌ ﴿ بعث وجمع بالسوق من كل جهة ﴾ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿ هَيْنَ غير متعذر، مع تباعد ديارهم وقبورهم. وتقديم الظرف للاختصاص، فإن ذلك الأمر العظيم لا يتيسر إلا على العالم القادر لذاته، الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما قال تعالى: ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَغْنُكُمْ إِلَّا كَنَفٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ^(١).

ثُمَّ سَلَىٰ نَبِيَّهُ ﷺ، وهدد قومه بقوله: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ متسلط قادر على قلوبهم، فتقسرهم على الإيمان، أو تفعل بهم ما تريد، وإنما أنت داعٍ. وقيل: أريد التحلّم عنهم، وترك الغلظة عليهم. ويجوز أن يكون من: جبره على الأمر بمعنى: أجبره، أي: ما أنت بوالٍ عليهم تجبرهم على الإيمان. و«على» بمنزلة قولك: هو عليهم، إذا كان واليهم ومالك أمرهم.

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِبِيدِ ﴾ فإنه لا ينتفع به غيره. وهذا كقوله: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا ﴾ ^(٢).

(١) لقمان: ٢٨.

(٢) النازعات: ٤٥.

سورة الذاريات

مَكِّيَّة. وهي ستون آية بالإجماع.
 أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الذاريات أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا».
 وروى داود بن فرقد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من قرأ سورة والذاريات في يومه أو ليلته أصلح الله له معيشته، وأتاه برزق واسع، ونور له في قبره بسراج يزهر إلى يوم القيامة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَتَنَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

ولمّا ختم الله سبحانه سورة ق بالوعيد، افتتح هذه السورة بتحقيق الوعيد، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ يعني: الرياح، لأنها تذرّوا التراب وغيره. قال الله تعالى: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ﴾^(١). أو النساء الولود، فإنهن يذرين الأولاد. أو الأسباب التي تذري الخلاق، من الملائكة وغيرهم. وقرأ أبو عمرو وحمزة بإدغام التاء في الذال.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ فالسحب الحاملة للأمطار، أو الرياح الحاملة للسحاب، أو النساء الحوامل، أو أسباب ذلك. والوقر: ثقل الحمل على ظهر أو في بطن. ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ فالسفن الجارية في البحر سهلاً. أو الرياح الجارية في مهايقها. أو الكواكب السبعة التي تجري في منازلها. وهي: الشمس، والقمر، وزحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد. و«يسراً» صفة مصدر محذوف تقديره: جرياً ذا يسر، أي: ذا سهولة.

﴿فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها، أو ما يعتمهم وغيرهم من أسباب القسمة.

وعن مجاهد: تتولى الملائكة تقسيم أمر العباد: جبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة، وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ. وقيل: الرياح يقسم الأمطار بتصرف السحاب.

وعن علي عليه السلام أنه قال وهو على المنبر: «سلوني قبل أن لا تسألوني، ولن تسألوا بعدي مثلي. فقام ابن الكواء فقال: ما الذاريات ذرواً؟ قال: الرياح. قال: فالحاملات وقرأ؟ قال: السحاب. قال: فالجاريات يسراً؟ قال: الفلك. قال: فالقسّمات أمراً؟ قال: الملائكة». وكذا عن ابن عباس.

واعلم أنّ هذه الصفات إن حملت على ذوات مختلفة، فالفاء لترتيب الأقسام

بها، باعتبار ما بينها من التفاوت في الدلالة على كمال القدرة، وإلا فالفاء لترتيب الأفعال، إذ الريح مثلاً تذرو الأبخرة إلى الجوّ حتّى تتعقد سحاباً، فتحمله فتجري به باسطة له إلى حيث أمرت به، فتقسّم المطر.

وعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنّه «لا يجوز لأحد أن يقسم إلا بالله، والله سبحانه يقسم بما شاء من خلقه».

ثمّ ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أي: الذي توعدون به ذو صدق، كقوله: ﴿عِشْيَةِ رَاضِيَةٍ﴾^(١). أو فاعل وضع موضع المصدر. ويجوز أن يكون «ما» مصدرية، أي: إنّ وعد الله لكم لذو صدق.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَاقِعٌ﴾ وإنّ الجزاء حاصل البتّة. كأنه استدلال باقتداره على هذه الأشياء العجيبة المخالفة لمقتضى الطبيعة، على اقتداره على البعث للجزاء الموعود. ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْخُبُكِ﴾ ذات الطرائق، مثل حبك الرمل والماء إذا ضربته الريح. ويقال: الدرع محبوكة، لأنّها مطرقة بطرائق مدوّرة. ويقال: إنّ خلقة السماء كذلك، أو المراد الطرائق المحسوسة التي هي مسير الكواكب، أو المعقولة التي يسلكها النظّار، ويتوصّل بها إلى المعارف. أو النجوم، فإنّ لها طرائق، أو أنّها تزينها كما تزين الموشى^(٢) طرائق الوشي. وقيل: حبكها صفاقها^(٣) وإحكامها، من قولهم: فرس محبوك المعاقم^(٤)، أي: محكمها. وإذا أجاد الحائك الحياكة قالوا: ما أحسن حبكه. وهو جمع حبيكة، كطريقة وطرق، أو حباك، كمثال ومثل.

وروى عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن

(١) الحاقّة: ٢١، القارعة: ٧.

(٢) وشى الثوب: حسّنه بالألوان ونمنمه ونقشه، فهو موشى. والوشى: نقش الثوب.

(٣) أي: كثافتها. من: صَفَّقَ الثوبَ صَفَاقَةً: كَتَفَ نسجه.

(٤) المعاقم: المفاصل وملتقى أطراف العظام. والواحد: مَعْقِم.

الرضا عليه السلام قال: «قلت له: أخبرني عن قول الله ﷻ: «وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحَبْكَ».

فقال: محبوبكة إلى الأرض. وشبك بين أصابعه.

فقلت: كيف تكون محبوبكة إلى الأرض والله يقول: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ

عَمَدٍ﴾^(١)؟

فقال: سبحان الله أليس يقول: «بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا»؟

قلت: بلى.

قال: فثم عمد ولكن لا ترى؟

قلت: فكيف ذلك جعلني الله فداك؟

قال: فبسط كفّه اليسرى، ثم وضع اليمنى عليها، فقال: هذه أرض الدنيا،

والسما الدنيا فوقها قبة. والأرض الثانية فوق السماء الدنيا، والسماء الثانية فوقها

قبة. والأرض الثالثة فوق السماء الثانية، والسماء الثالثة فوقها قبة. ثم هكذا إلى

الأرض السابعة فوق السماء السادسة، والسماء السابعة فوقها قبة. وعرش الرحمن

فوق السماء السابعة. وهو قوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ

بَيْنَهُنَّ﴾^(٢). فصاحب الأمر هو النبي ﷺ، والوصي من بعده قائم على وجه

الأرض، وإنما يتنزل الأمر إليه من فوق، من بين السماوات والأرضين.

قلت: فما تحتنا إلا أرض واحدة؟

قال: ما تحتنا إلا أرض واحدة، وإنَّ السَّتَّ لفوقنا.

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ في الرسول ﷺ. وهو قولهم تارة إنه شاعر، وتارة

إنه ساحر، وتارة إنه مجنون. أو في القرآن، إنه شعر وسحر وأساطير الأولين. أو

في القيامة، أو أمر الديانة. ولعلَّ النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها

(١) الرعد: ٢.

(٢) الطلاق: ١٢.

وتتأفي أغراضها، بطرائق السماوات في تباعدها واختلاف غاياتها.

﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ﴾ يصرف عن الرسول، أو القرآن، أو الإيمان ﴿مَنْ أْفِكَ﴾ من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه وأعظم، فكأنه لا صرف بالنسبة إليه، كقوله: لا يهلك على الله إلا هالك.

وقيل: يصرف عنه من صرف في سابق علم الله، أي: علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق لا يرعوي.

ويجوز أن يكون الضمير للقول، على معنى: يصدر إفك من أفك عن القول المختلف وبسببه، كقوله: ينهون عن أكل وعن شرب^(١)، أي: يتناهون في السمن بسبب الأكل والشرب. وحقيقته: يصدر تناهيهم في السمن عنهما. أو «ما توعدون». أو للذين، بأن أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شاك ومنهم جاحد، ثم قال: يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك.

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذّابون المقدرّون ما لا يصحّ، من أصحاب القول المختلف. واللام إشارة إليهم، كأنه قيل: قتل هؤلاء الخراصون. وأصله الدعاء عليهم بالقتل والهلاك، أجري مجرى اللعن، كقوله: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾^(٢).

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ في جهل يغرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به. قيل: إن أول مراتب الجهل السهو، ثم الغفلة، ثم الغمرة. فتكون الغمرة عبارة عن

(١) وعجزه: مثل المها يرتعن في خصب.

والمها جمع مهاة، وهي البقرة الوحشية. وخَصَبَ المكانُ خِصْباً: كثر فيه العشب والخير. يصف الشاعر أضيافاً بتناهي سمنهم بسبب الأكل والشرب. وشبههم بالمها اللاتي يرتعن في الكلأ والمكان الخصب.

(٢) عبس: ١٧.

المبالغة في الجهل، أي: إنهم في غاية الجهل ساهون عن الحق.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: يقولون: متى يوم الجزاء؟ أي: وقوعه.

فوق «أَيَّانَ» ظرفاً للوقوع لا اليوم، لأن الأحيان ظروف للحدث.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يحرقون. ومنه: الفتن. وهي: الحرّة^(١)، لأن

حجارتها كأنها محرقة. وهذا جواب سؤالهم. والمعنى: يقع يوم هم على النار

يفتنون، أو هو يوم هم على النار يفتنون.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ في محلّ الحال. والفتنة العذاب الشديد، أي: مقولاً لهم

هذا القول ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَفْجِلُونَ﴾، أي: هذا العذاب هو الذي كنتم به

تستعجلون في الدنيا تكذيباً به. ويجوز أن يكون «هذا» بدلاً من «فتنتكم» و«الذي»

صفته، أي: ذوقوا هذا العذاب.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا

قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ

﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ

﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾

(١) الحرّة: أرض ذات حجارة سود، كأنها أحرقت بالنار.

ثم ذكر سبحانه ما أعدّه لأهل الجنة فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ وَهُمْ قَابِلِينَ لِمَا أُعْطَاهُمْ. راضين به. يعني: أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلقًى بالقبول، مرضي غير مسخوط، لأن جميعه حسن طيب. ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾^(١) أي: يقبلها ويرضاها.

ثم علّل استحقاقهم بالجملة المستأنفة، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِبِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم.

ثم فسر إحسانهم بقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ «ما» مزيدة، أي: يهجعون في طائفة من الليل هجوعاً قليلاً، أو مصدرية، أي: في قليل من الليل هجوعهم، أو موصولة، أي: ما يهجعون فيه. مرفوع المحلّ بأنه فاعل «قليلاً». ولا يجوز أن تكون نافية، والمعنى: أنهم لا يهجعون من الليل قليلاً ويحيونه كله، لأن ما بعدها لا يعمل فيما قبلها. تقول: زيداً لم أضرب. ولا تقول: زيداً ما ضربت. والمعنى: في أكثر الليل يصلّون ذاكرون.

وفيه مبالغات لتقليل نومهم واستراحتهم، من ذكر القليل، والليل الذي هو وقت السبات^(٢) والراحة، والهجوع الذي هو الفرار من النوم، وزيادة «ما» المؤكدة لذلك.

﴿وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: إنهم مع قلّة هجوعهم وكثرة تهجدهم إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. وقال أبو عبد الله عليه السلام: «كانوا يستغفرون الله في الوتر سبعين مرّة في السحر». وفي بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم أحقاء بالاستغفار، لو فور علمهم بالله، وخشيتهم منه.

وبعد ذكر عباداتهم البدنية بين عباداتهم المالية بقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾

(١) التوبة: ١٠٤.

(٢) السّبات: النوم، أو أوّله.

نصيب يستوجبونه على أنفسهم، تقريباً إلى الله، وإشفافاً على الناس ﴿بِلِسَانٍ لِّ
وَالْمُخْرُومِ﴾ للمستجدي والمتعفف الذي يظنّ غنيّاً، فيحرم الصدقة. وعن
النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي تردّه الأكلة والأكلتان والتمرّة والتمرّتان. قالوا:
فما هو؟ قال: الذي لا يجد ولا يتصدّق عليه». وقيل: المحروم الذي لا ينمى له
مال. وقيل: المحارف الذي لا يكاد يكسب.

ثمّ بيّن وحدانيّته وكمال علمه وقدرته، ومزيد إفضاله، وفيضان إحسانه على
العباد، ترغيباً في الطاعات، وحثّاً على العبادات، فقال:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ دلائل بيّنة وحجج نيرات على كمال علمه وقدرته
وحكمته، وبديع صنعه، وعجيب تدبيره، فإنّها مدحوة كالسباط والمهاد لما فوقها،
كما قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾^(١). وفيها مسالك فجاجة للمتقلّبين فيها،
والماشين في مناكبها. مجزأة بالأجزاء المختلفة، من سهل وجبل وبرّ وبحر. وقطع
متجاورات، من صلبة ورخوة، وطيبة وسبخة. ثابتة فيها ألوان النباتات، وأنواع
الأشجار المثمرة بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح، مع أنّها تسقى بماء
واحد. كلّها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم، في صحتهم واعتلالهم.
وما فيها من العيون المتفجرة، والمعادن المفتتة^(٢)، والدوابّ المنبئة في برّها
وبحرها، المختلفة الصور والأشكال والأفعال، من الوحشيّ والإنسيّ والهوامّ،
وغيرها من المنافع العجيبة والمصالح الغريبة.

﴿لِلْفُوقَيْنِ﴾ الموحّدين الذين سلكوا الطريق السويّ البرهانيّ الموصل إلى
المعرفة، نظّارين بعيون باصرة وأفهام نافذة، كلّما رأوا آية تأملوا فيها، فازدادوا
إيماناً مع إيمانهم، وإيقاناً إلى إيقانهم.

(١) طه: ٥٣.

(٢) أي: المحرقة. يقال للحرة: فتين، كأنّ حجارته محرقة.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: وفي أنفسكم آيات في حال ابتدائها وتقلها من حال إلى حال، وفي بواطنها وظواهرها، من عجائب الفطر وبدائع الخلق، ما تتحير فيه الأذهان. وحسبك بالقلوب وماركز فيها من العقول، وخصت به من أصناف المعاني، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف، وبالأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح. وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني، فإنه إذا جسا^(١) شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذل. وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الهيئات النافعة، والمناظر البهية، والتركيبات العجيبة، والتسكن من الأفعال الغريبة، واستنباط الصنائع المختلفة، واستجماع الكمالات المتنوعة. ومع ذلك ما في العالم شيء إلا وفي الإنسان له نظير، من الآيات الساطعة، والبيئات الجمة القاطعة على حكمة المدبر الحكيم، وصنعة القدير العليم، فتبارك الله أحسن الخالقين. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون نظر من يعتبر.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ المراد بالسما السحاب، وبالرزق المطر، فإنه سبب الأقوات. وعن الحسن: أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه والله رزقكم، ولكنكم تحرمونه لخطاياكم. ﴿وَمَا تَوْعُدُونَ﴾ من الثواب، لأن الجنة فوق السماء السابعة تحت العرش. أو أراد: أن ما ترزقونه في الدنيا، وما توعدون به في العقبى، كله مقدّر مكتوب في أم الكتاب، أعني: اللوح المحفوظ، وهو في السماء.

وقيل: إن قوله: «ما توعدون» مستأنف، خبره ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ وعلى هذا فالضمير لـ«ما». وعلى الأول يحتمل أن يكون له، ولما ذكر من أمر الآيات والرزق والوعد. ﴿مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾ أي: مثل نطقكم. يعني: كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون، ينبغي أن لا تشكوا في تحقق ذلك. ونصبه على الحال من المستكن في «لحق»، أو الوصف لمصدر محذوف، أي: إنه لحق حقاً مثل

نطقكم. وقيل: إنه مبني على الفتح، لإضافته إلى غير متمكن، وهو لفظة «ما» إن كانت بمعنى: شيء، و«أن» بما في حيزها إن جعلت زائدة، كما نصّ الخليل عليه. وهذا كقولك: إن هذا لحقّ كما أنك ترى وتسمع. ومحلّه الرفع على أنّه صفة «لحقّ». ويؤيده قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر بالرفع.

وعن الأصمعي: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود^(١) له، فقال:

من الرجل؟

قلت: من بني أصمع.

قال: من أين أقبلت؟

قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن.

قال: أتلى عليّ.

فتلوت «والذاريات». فلما بلغت قوله: «وفي السماء رزقكم» قال: حسبك. فقام إلى ناقته فحرها، ووَزَعَهَا على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولّى. فلما حجبت مع الرشيد طفقت أطوف، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفرّ، فسلم عليّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً.

ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت «فوربّ السماء والأرض إنه لحقّ».

فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتّى حلف، لم يصدّقوه بقوله حتّى ألجأوه إلى اليمين. قالها ثلاثاً، وخرجت معها نفسه.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ
فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ

(١) القُعود: البكر من الإبل إلى أن يُثني.

سَمِين ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا
 لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنِعْلَامٍ عَلَيْكُمْ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
 وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ
 الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى
 قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ
 رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا
 وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ
 الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

ولما قَدَّم الوعد والوعيد، عَقَّب ذلك بذكر بشارة إبراهيم ومهلك قوم لوط،
 تبشيراً لِنَبِيِّهِ ﷺ، وتخويفاً للكفار أن ينزل بهم مثل ما أنزل بأولئك، فقال:
 ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ هذا اللفظ يستعمل إذا أخبر الإنسان بخبر
 ماضٍ فيه شأن، فيقال: هل أتاك خبر كذا؟ وإن علم أنه لم يأت. ففيه تفخيم لشأن
 الحديث، وتنبية على أنه ليس من علم رسول الله، وإنما عرفه بالوحي.
 والضيف في الأصل مصدر: ضافه، ولذلك يطلق على الواحد والمتعدد.

كالزور والصوم^(١). وكانوا اثني عشر ملكاً. وقيل: تسعة. وعاشرهم جبرئيل. وقيل: ثلاثة: جبرئيل، وميكائيل، وملك آخر قيل: هو إسرافيل. وستاهم ضيفاً، لأنهم كانوا في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم، أو لأنهم كانوا في حسابانه كذلك. ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ عند الله، أو عند إبراهيم، إذ خدمهم بنفسه وأخدمهم امرأته. أو لأنهم في أنفسهم مكرمون. ونظيره قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾^(٢).

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ نصب بالحديث، أو بما في «ضيف» من معنى الفعل، أو بالمكرمين، أو بإضمار: اذكر ﴿فَقَالُوا سَلَاماً﴾ أي: نسلم عليك سلاماً ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: عليكم سلام. عدل به إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات، حتى تكون تحيته أحسن من تحيتهم. وهذا أيضاً من إكرامه لهم. وقرأ حمزة والكسائي: قال سلم. ﴿قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾ أي: أنتم قوم. وإنما أنكرهم لأنه ظن أنهم بنو آدم ولم يعرفهم. أو لأن السلام لم يكن تحيتهم، فإنه علم الاسلام. أو لأنه رأى لهم حالاً وشكلاً خلاف حال الناس وشكلهم. وهو كالتعريف عنهم، أي: أنتم قوم منكرون، فعرفوني من أنتم؟

﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيفه، فإن من أدب المضيف أن يبادر بالقرى، حذراً من أن يكفه الضيف أو يعذره أو يصير منتظراً ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ لأنه كان عامّة ماله البقر.

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ بأن وضعه بين أيديهم ﴿قَالَ أَتَأْكُلُونَ﴾ أي: منه. وهو مشعر بكونه حنيذاً^(٣). والهمزة فيه للعرض والحث على الأكل على طريقة الأدب، إن قاله المضيف أول ما وضعه عند الضيف، وللإنكار إن قاله حينما رأى إعراضهم.

(١) الزُّور: الزائر للمفرد والمثنى والجمع. والصوم: الصائم للمفرد والجمع.

(٢) الأنبياء: ٢٦.

(٣) أي: مشويّاً. من: حنّ اللحم: شواه وأنضجه.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فأضمر منهم خوفاً لما رأى إعراضهم عن طعامه، وظنّ أنهم يريدون به سوءاً. وعن ابن عباس: وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب. ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله. قيل: مسح جبرئيل العجل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه، فعرفهم وأمن منهم ﴿وَبَشِّرُوهُ بِنِعْلَامٍ عَلَيْكُمْ﴾ يكمل علمه إذا بلغ. والمبشّر به هو إسحاق. وهو أكثر الأقاويل وأصحّها، لأنّه من سارة، والصفة صفتها في هذه القصّة، لا هاجر. وعن مجاهد: هو إسماعيل.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ سارة إلى بيتها، وكانت في زاوية تنظر إليهم ﴿فِي صُرَّةٍ﴾ في صيحة. من: صرّ القلم والباب. ومنه: الصرير. وقيل: صرّتها قولها: أوّه. وعن عكرمة: رتّتها^(١). والمعنى: أخذت تصيح وتولول، كما قال: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى﴾^(٢). ومحله النصب على الحال، أي: فجاءت صارة، أو المفعول إن أوّل «أقبلت» به: أخذت. ﴿فَضَعَتْ وَجْهَهَا﴾ فلطمت بأطراف الأصابع بعد بسط يديها جبهتها، فعل المتعجّب. وأصل الصكّ ضرب الشيء بالشيء العريض. وقيل: وجدت حرارة دم الطمث فلطمت وجهها من الحياء. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنا عجوز عاقر فكيف ألد؟

﴿قَالُوا كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الذي بشرنا به ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ أي: إنّما نخبرك به عنه، والله قادر على ما تستبعدين ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ فيكون قوله حقاً، وفعله محكماً. وروي: أنّ جبرئيل قال لها في حال استبعادها: انظري إلى سقف بيتك. فنظرت فإذا جذوعه موزّقة مثمرة.

ولما علم إبراهيم ﷺ أنهم ملائكة، وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلّا لأمر عظيم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ فما شأنكم وما طلبكم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

(١) الرنّة: الصوت عموماً، أو الصوت الحزين.

(٢) هود: ٧٢.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ عاصين الله، كافرين لنعمه، استحقوا العذاب والهلاك. وأصل الجرم القطع. فالمجرم القاطع للواجب بالباطل. فهو لاء أجرموا، بأن قطعوا الإيمان بالكفر. يعنون قوم لوط.

﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ يريد السجيل، فإنه طين طبخ كما يطبخ الآجر حتى صار في صلابه الحجارة ﴿مُسَوَّمَةً﴾ مرسله. من: أسيمت الماشية إذا أرسلت للرعي. أو معلمة، من السومة. وهي العلامة، على كل واحد منها اسم من يهلك به. وقيل: أعلمت بأنها من حجارة العذاب. وقيل: بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا. ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المجاوزين الحد في الفجور. قيل: أرسلت الحجارة على الغائبين، وقلبت القرية بالحاضرين.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ في قرى قوم لوط. وإضمارها، ولم يجر ذكرها، لكونها معلومة. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن آمن بلوط. وذلك قوله: ﴿فَأَنشِرْ بِأَهْلِكَ﴾^(١) الآية. وذلك أن الله تعالى أمر لوطاً بأن يخرج هو ومن معه من المؤمنين لتلاصيحهم العذاب.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَنَاتٍ﴾ غير أهل بيت ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هم لوط وابنتاه. وقيل: أهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر. واستدل به على اتحاد الاسلام والإيمان. وهو ضعيف، لأن ذلك لا يقتضي إلا صدق المؤمن والمسلم على من اتبعه، وذلك لا يقتضي اتحاد مفهوميهما، لجواز صدق المفهومات المختلفة على ذات واحدة.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ وأبقينا في قرى قوم لوط ﴿آيَةً﴾ علامة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: علامة تدل على أن الله أهلكهم، فيخافون مثل عذابهم، فإنهم المعتبرون بها دون القاسية قلوبهم. وهي تلك الأحجار، أو صخرة منضودة فيها، أو ماء أسود متتن.

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ
وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجَنُّودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ
مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ
شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيَمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَمَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ
﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمِ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾

ثم بين ما نزل بالأمم الأخرى، فقال مبتدأً بقصة موسى وفرعون التي هي
أشهر القصص وأكثرها عبرة، فقال عطفًا على ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾^(١)؛
﴿وَفِي مُوسَى﴾ أي: وفي موسى أيضاً آية. أو على «وتركنا فيها» أي:
وجعلنا في موسى، كقوله: علفتها تبناً وماءً بارداً ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ
مُّبِينٍ﴾ بحجة ظاهرة. وهي: معجزاته، كاليد والعصا.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ أي: فأعرض عن الإيمان بما كان يتقوى به من جنوده
وملكه، فإن الركن اسم لما يركن إليه الشيء ويتقوى به. أو تولى عن الإيمان،
كقوله: ﴿وَنَا بِجَانِبِهِ﴾^(٢). فالباء للتعدية. ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ﴾ أي: هو ساحر ﴿أو

(١) الذاريات: ٢٠.

(٢) الإسراء: ٨٣.

مَجْنُونٌ ﴿ كَأَنَّهُ جَعَلَ مَا ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَوَارِقِ مَنْسُوباً إِلَى الْجِنِّ ، وَتَرَدَّدَ فِي أَنَّهُ حَصَلَ ذَلِكَ بِاخْتِيَارِهِ وَسَعْيِهِ أَوْ بغيرهما .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْبَحْرِ ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ آتٍ بِمَا يَلَامُ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ . وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي « فَأَخَذْنَاهُ » .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ أَيُ: الرِّيحُ الَّتِي لَا خَيْرَ فِيهَا ، وَعَقِمَتْ عَنْ أَنْ تَأْتِيَ بِخَيْرٍ ، مِنْ تَنْشِئَةِ سَحَابٍ ، أَوْ تَلْقِيحِ شَجَرٍ ، أَوْ تَذْرِئَةِ طَعَامٍ ، أَوْ نَفْعِ حَيَوَانَ ، فَهِيَ كَالْمَرْأَةِ الْمَنْعُوعَةِ عَنِ الْوِلَادَةِ . أَوْ هِيَ رِيحُ الْهَلَاكِ . وَسَمَّاها عَقِيماً إِثْمًا لِأَنَّهَا قَطَعَتْ دَابِرَهُمْ ، أَوْ لِأَنَّهَا لَمْ تَتَضَمَّنْ مَنْفَعَةً .

وعن ابن عباس: هي الدبور . وعن ابن المسيّب: هي الجنوب . وعن أمير المؤمنين عليه السلام: هي النكباء ^(١) .

﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ مَا تَرَكَ هَذِهِ الرِّيحُ شَيْئاً مَرَّتْ عَلَيْهِ ﴿ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْأُمِيمِ ﴾ كَالشَّيْءِ الْهَالِكِ الْبَالِي . وَهُوَ نَبَاتُ الْأَرْضِ إِذَا بَيَسَ وَدَيْسَ . مِنْ: رَمَ إِذَا بَلَى وَتَفَتَّتْ .

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ تَفْسِيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ ^(٢) .

﴿ فَعَتَّقُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ فَاسْتَكْبَرُوا عَنْ امْتِثَالِهِ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ أَيُ: الْعَذَابُ بَعْدَ الثَّلَاثِ . وَقَرَأَ الْكَسَائِيُّ: الصَّعْقَةُ . وَهِيَ الْمَرَّةُ ، مِنْ مَصْدَرٍ: صَعَقْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ . وَالصَّاعِقَةُ: النَّازِلَةُ نَفْسُهَا ، ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ إِلَيْهَا ، فَإِنَّهَا جَاءَتْهُمْ مَعَايِنَةً بِالنَّهَارِ . رَوَى: أَنَّ الْعَمَالِقَةَ كَانُوا مَعَهُمْ فِي الْوَادِي يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ وَمَا ضَرَّتْهُمْ .

(١) رِيحُ نَكَبَاءُ: انْحَرَفَتْ عَنْ مِهَابِ الرِّيحِ وَوَقَعَتْ بَيْنَ رِيحَيْنِ ، مِثْلًا بَيْنَ الصَّبَا وَالشَّمَالِ .

(٢) هُودُ: ٦٥ .

﴿فَمَا اسْتَسْقَاوْا مِنْ قِيَامٍ﴾ كقوله: ﴿فَاصْبِرُوا فِي نَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾^(١). وقيل: هو من قولهم: ما يقوم به، إذا عجز عن دفعه. ﴿وَمَا كَانُوا مُنْقَصِرِينَ﴾ ممتنعين من العذاب. وقيل: ما كانوا طالبيين ناصراً يمنعهم من عذاب الله.

﴿وَقَوْمٌ نُوحٌ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح، لأن ما قبله يدل عليه. أو اذكر. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالجر، عطفاً على محلّ «في عاد». والمعنى: وفي قوم نوح. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الاستقامة بالكفر والمصيان، فاستحقوا لذلك الإهلاك.

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾

ولما قال: «وفي الأرض آيات للموقنين» «وفي السماء رزقكم»، بين بعد ذلك أن السماء والأرض من مصنوعنا، فهما وما وقع بينهما الدلائل الملجئة إلى الاعتراف بأن لهما صانعاً عالماً قادراً، فقال:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي: بقوة، فإن الأيد والآد القوة. يقال: قد آد يثيد، وهو أيد. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون. من الوسع بمعنى الطاقة. وعن الحسن: الموسعون الرزق بالمطر. وقيل: معناه: جعلنا بينها وبين الأرض سعة.

﴿وَالْأَرْضَ قَرَشْنَاهَا﴾ مهّناها لتستقرّوا عليها ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي: نحن.
 ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى. أو ومن كلّ شيء من الأجناس خلقنا نوعين. ويؤيده ما روي عن الحسن: السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبرّ والبحر، والموت والحياة. فعّدّد أشياء أخر وقال: كلّ اثنين منها زوج، والله تعالى فرد لا مثل له. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فعلنا ذلك كلّهُ، من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج، إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه، وتعلموا أنّ التعدّد من خواصّ الممكنات، وأنّ الواجب بالذات لا يقبل التعدّد والانقسام.

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: قل يا محمد: ففروا من معصيته وعقابه إلى رحمته وثوابه، بوسيلة الإيمان والتوحيد وإخلاص الطاعة وملازمة العبادة. وقيل: ففروا إلى الله بترك جميع ما يشغلكم عن طاعته، ويقطعكم عمّا أمركم به. وعن الصادق عليه السلام معناه: حجّوا. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ من عذابه المعدّ لمن أشرك أو عصى ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بيّن كونه منذراً من الله بالمعجزات. أو مبين ما يجب أن يحذر عنه. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إفراد لأعظم ما يجب أن يفرّ به ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ تكرير للتأكيد. أو الأوّل مرتّب على ترك الإيمان والطاعة، والثاني على الإشراك.

كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُونٌ ﴿٥٢﴾ اتَّوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ

إِلَّا لِيُعْبُدُونَ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾
 إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ
 ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي
 يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

﴿عَذَابُكَ﴾ أي: الأمر مثل ذلك، والإشارة إلى تكذيبهم الرسول، وتسميتهم إياه
 ساحراً أو مجنوناً. ثم فسر ما أجمل بقوله: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
 قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ ولا يصح أن تكون الكاف منصوبة بـ«أتى» لأن «ما» النافية
 لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. ولو عملت لكان المعنى: مثل ذلك الإتيان لم يأت من
 قبلهم رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون.

﴿أَتَوَاصُوا بِهِ﴾ أي: كأن الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضاً بهذا
 القول، حتى قالوه جميعاً متفقين عليه. والهمزة للتوبيخ. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾
 إضراب عن أن التواصي جامعهم - لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد، لتباعد أيامهم -
 إلى أن الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه. والمعنى:
 أنهم لم يتواصوا به، بل جمعتهم العلة الواحدة، وهي الطغيان.

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن مجادلتهم بعد ما كررت عليهم الدعوة فلم
 يجيبوا، وعرفت منهم العناد واللجاج ﴿فَمَا أَنْتَ بِمُلُومٌ﴾ على الإعراض بعد ما بذلت
 جهدك في البلاغ، بل اللائمة والذم عليهم من حيث لا يقبلون ما تدعوهم إليه.
 روي: أنه لما نزلت «فتولّ عنهم» حزن رسول الله ﷺ، واشتد ذلك على
 أصحابه، ورأوا أن الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حضر، فأنزل الله تعالى:

﴿وَذَكَّرْ﴾ ولا تدع التذكير والموعظة ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تؤثر في الذين عرف الله منهم أنهم يدخلون في الإيمان. أو يزيد الداخلين فيه إيماناً.

وعن مجاهد قال: خرج علي بن أبي طالب عليه السلام مفتتاً مشتملاً في قميصه، فقال: لما نزلت «فتول عنهم فما أنت بملوم» لم يبق أحد منا إلا أيقن بالهلكة، حين قيل للنبي صلى الله عليه وسلم «فتول عنهم». فلما نزل «وذکر فإن الذکرى تنفع المؤمنین» طابت نفوسنا.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلا لأجل العبادة، أي: لم أرد من جميعهم إلا إياها، مختارين لها لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريداً لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم.

وخلاصة المعنى: أن الغرض في خلقهم تعريضهم للثواب، وذلك لا يحصل إلا بأداء العبادات، فصاروا كأنهم خلقهم الله للعبادة. فإن لم يعبدوه قوم لم يبطل الغرض، ويكون كمن هياً طعاماً لقوم ودعاهم لياكلوه، فحضرُوا ولم يأكله بعضهم، فإنه لا ينسب إلى السفه، ويصح غرضه، فإن الأكل موقوف على اختيار الغير. فكذاك هاهنا، فإن الله إذا أزاح علل المكلفين، من القدرة والآلة وإعطاء الألطاف، وأمرهم بالعبادة، فمن خالف فقد أتى من قبل نفسه لا من قبله سبحانه.

وشأن الله تعالى مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم، فإن ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم وأرزاقهم، فإن العبد إما مجهز في تجارة ليفي ربحاً، أو مرتب في فلاحه ليقتل^(١) أرضاً، أو مسلم في حرفة ليستفيع

(١) اغتَلَ الأرض: أخذ غلتها.

بالأجرة، أو محتطب، أو محتش^(١)، أو مستقي، أو طابخ، أو خابز، وما اشبه ذلك من الأعمال والمهن التي هي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق. فأما مالك ملك العبيد وقال لهم: اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ولا رزقكم، وأنا غني عنكم وعن مرافقكم، ومفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي، فما هو إلا أنا وحدي، حيث قال عز اسمه: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزق كل ما يفتقر إلى الرزق. وفيه إيماء باستغناؤه عنه. ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ شديد القوة، أي: البليغ الاقتدار على كل شيء.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أي: للذين ظلموا رسول الله بالكذب نصيباً من العذاب ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة الذين أهلكوا، مثل قوم نوح وعاد وثمود. وهو مأخوذ من مقاسمة السقاء الماء بالدلاء، فإن الذنوب هو الدلو العظيم المملوء. ﴿فَلَا يَسْتَفْجِلُونَ﴾ جواب لقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ من يوم القيامة، أو يوم بدر. والويل كلمة يقولها العرب لكل من وقع في الهلكة.

(١) احتش الحشيش: سعى في طلبه وجمعه.

(٢) يس: ٤٨.

سورة الطور

مَكِّيَّةٌ . وهي تسع وأربعون آية .

أَبِي بن كعب، عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورَةَ الطُّورِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُؤْمِنَهُ مِنْ عَذَابِهِ، وَأَنْ يَنْقِمَهُ فِي جَنَّتِهِ» .

وعن جبير بن مطعم قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ فِي الْمَغْرِبِ» . وروى محمد بن هشام، عن أَبِي جَعْفَرٍ ع قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الطُّورِ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورُ ﴿١﴾ وَكِتَابٌ مُنْطَوِّرٌ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّيِّدِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ

بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

ولما ختم الله سبحانه سورة الذاريات بالوعيد، افتتح هذه السورة بوقوع الوعيد، فقال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالطُّورِ﴾ يريد طور سينين. وهو جبل بمدين، سمع فيه موسى ﷺ كلام الله تعالى. أو مطلق الجبل، أقسم به لما أودع الله فيه من أنواع نعمه. وهو لغة سريانية. أو مأخوذ من: طار من أوج الایجاد إلى حضيض المواد، أو من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

﴿وَجِبْتَابٍ مِّنْطُورٍ﴾ مكتوب. والسطر ترتيب الحروف المكتوبة. والمراد به القرآن. أو ما كتبه الله في اللوح المحفوظ، أو في ألواح موسى ﷺ، أو في قلوب أوليائه من المعارف والحكم. أو ما تكتبه الحفظة.

﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾ الرق: الجلد الذي يكتب فيه حقيقة، أو مستعار لما كتب فيه الكتاب. والمنشور: المبسوط. والمعنى: مكتوب في ورق نشر لقراءة ما فيه. وتنكيرهما للتعظيم، والإشعار بأنهما ليسا من المتعارف فيما بين الناس.

﴿وَالنَّبِيِّ الْمَغْشُورِ﴾ الضراح^(١). وهو في السماء الرابعة بحيال الكعبة، لو سقط لسقط عليها. وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة.

وروي عن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: «ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه أبداً».

وعن الزهري، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

(١) الضراح: بيت في السماء، وهو البيت المعمور.

«البيت المعمور في السماء الدنيا، وفي السماء الرابعة نهر يقال له الحيوان، يدخله جبرئيل كل يوم طلعت فيه الشمس، وإذا خرج انتفض انتفاضة جرت عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكاً، يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور فيصلون فيه، فيفعلون ثم لا يعودون إليه أبداً».

أو المراد الكعبة، وعمارتها بالعمار والحجّاج والمجاورين. أو قلب المؤمن، وعمارته بالمعرفة والإخلاص.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعني: السماء. فإنها كالسقف للأرض رفعها الله ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أي: المملوء. وهو المحيط. أو الموقد، من قوله: ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾^(١).

قيل: إنه تحمي البحار يوم القيامة فتجعل نيراناً، ثم تفجر بعضها في بعض، ثم تفجر إلى النار. وبرواية أخرى: أن الله يجعل يوم القيامة البحار ناراً يسجر بها نار جهنم. أو المختلط، من السجير، وهو الخليط.

وروي عن علي عليه السلام أنه سأل يهودياً: أين موضع النار في كتابكم؟ قال: في البحر. فقال علي عليه السلام: ما أراه إلا صادقاً، لقوله تعالى: «وَالْبَحْرِ الْمَسْجُور».

وجواب القسم ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ لنازل على المشركين لا محالة ﴿مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ يدفعه.

قال جبير بن مطعم: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلّمه في الأسارى، فألقيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور، فلما بلغ «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ» أسلمت خوفاً من أن ينزل العذاب.

ووجه دلالة هذه الأمور المقسم بها على ذلك أنها أمور تدلّ على كمال قدرة الله وحكمته، وصدق أخباره، وضبطه أعمال العباد للمجازاة.

ثُمَّ يَبَيِّنُ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ مَتَى يَقَعُ ، فَقَالَ : ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ تضطرب . من المور بمعنى التردد في المجيء والذهاب . وقيل : هو تحرك في تموج . والمائر : الشيء الذي يتردد في العرض ، كالداغصة . وهي لحمة تكون فوق ركبة البعير . وقيل : العظم المدور يتحرك على رأس الركبة . والمعنى : يتموج بالدوران . و«يوم» ظرف لـ«واقع» . ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي : تسير عن وجه الأرض ، فتصير هباءً حتى تستوي الأرض .

﴿فَوَيْلٌ لِلْيَوْمَنِذِرِ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ذكر الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة ، والتقدير : إذا وقع ذلك فويل لهم ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ﴾ أي : الخوض في الباطل ، فإنه غلب استعماله في الاندفاع في الباطل والكذب . ومنه قوله : ﴿وَكُنَّا نَخْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾^(١) يُلْعَبُونَ يلهون بذكره . وهو إنكار البعث وتكذيب النبي ﷺ . ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ إِنِّي نَارُ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ يدفعون إليها بعنف . وذلك أَنَّ الخزنة يغلون أيديهم إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، فيدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم ، وزحاً^(٢) في أقيمتهم .

و«يوم» بدل من «يوم تمور» ، أو ظرف لقول مقدر مقوله : ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي : حين يدفعون إلى النار قال لهم خزنتها هذا القول . وفي حديث أبي موسى : من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة ، ومن يتبعه القرآن يزح في قفاه حتى يقذف به في نار جهنم .

ثُمَّ وَيُخَوِّمُهُمْ لَمَّا عَانُوا الْعَذَابَ فَقَالُوا لَهُمْ : ﴿أَفَسِخَرُ هَذَا﴾ أي : كنتم تقولون للوحي : هذا سحر ، أفهذا المصداق أيضاً سحر ؟ ودخول الفاء لإفادة هذا المعنى . وتقديم الخبر لأنه المقصود بالإنكار والتوبيخ . ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تَنْصُرُونَ﴾ هذا أيضاً ،

(١) المذثر : ٤٥ .

(٢) زحّه : دفعه .

كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ما يدلّ عليه؟ أم سدّت أبصاركم، كما سدّت في الدنيا على زعمكم حين قلتم: إنّما سكّرت أبصارنا؟

﴿اضْلَوْهَا فَاضْلَبُوا أَوْ لَا تَضْلِبُوا﴾ أي: ادخلوها على أي وجه شئتم من الصبر وعدمه، فإنّه لا محيص لكم عنها ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ مبتدأ محذوف خبره، أي: سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه.

ثم علّل استواء الأمرين بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: لما كان الجزاء واجب الوقوع كان الصبر وعدمه سيّئ في عدم النفع. وتحقيق المعنى: أنّ الصبر إنّما يكون له مزيّة على الجزع لنفعه في العاقبة، بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء - ولا عاقبة له ولا منفعة - فلا مزيّة له على الجزع.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْنُوفَةٍ وَزَوَاجَتَهُمْ يَحُورِينَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأُمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا

إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ
﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

ولمّا أوعِد سبحانه الكافرين وعد المؤمنين عقبيه، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ في آية جَنّات وأيّ نعيم، بمعنى الكمال في الصفة. أو في جَنّات ونعيم مخصوصة.

﴿فَأَكْبِهِينَ﴾ ناعمين متلذذين ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بما أعطاهم من أنواع النعيم ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ عطف على «في جَنّات» أو «آتاهم» إن جعل «ما» مصدرية. والمعنى: فأكبهن بتأنيتهن ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم. أو حال بإضمار «قد» من المستكن في الظرف أو الحال، أو من فاعل «أتى» أو مفعوله أو منهما.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي: يقال لهم: كلوا واشربوا أكلاً وشرباً هنيئاً، أو طعاماً وشراباً هنيئاً، وهو الذي لا تنغيص فيه ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسببه أو بدله. وقيل: الباء زائدة، كما في ﴿كُفِيَ بِاللَّهِ﴾^(١)، و«ما» فاعل «هنيئاً». والمعنى: هنيئاً لكم ما كنتم تعملون، أي: جزاؤه.

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُورٍ مُّضْفُوفَةٍ﴾ مصطفة، أي: موصول بعضها ببعض ﴿وَزُوجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ بنساء بيض نقيات في حسن وكمال، واسعات الأعين في صفاء وبهاء. والباء للسببية، إذ المعنى: صيّرناهم أزواجاً بسببهنّ. أو لما في التزويج من معنى الوصلة والإصاق والقرن. ولذلك عطف قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ على «حور» أي: قرناهم بأزواج حور وبالرفقاء والجلساء من المؤمنين، كقوله:

﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(١). فيتمتعون تارة بملاعبة الحور، وتارة بمؤانسة الإخوان من المؤمنين.

وعن زيد بن أرقم: جاء رجل من أهل الكتاب إلى رسول الله فقال: يا أبا القاسم إن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ فقال: والذي نفسي بيده إن الرجل منهم ليؤتى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع. قال: فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة. فقال: عرق يفيض مثل ريح المسك، فإذا كان ذلك ضر بطنه. وقيل: الموصول مبتدأ خبره: «ألحقنا بهم».

وقوله: ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ دُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ اعتراض للتعليل. وقرأ ابن عامر ويعقوب: دُرِّيَّتُهُمْ بالجمع وضمّ التاء، للمبالغة في كثرتهم والتصريح، فإن الذرية تقع على الواحد والكثير. وقرأ أبو عمرو: وَأَتَّبَعْنَاهُمْ دُرِّيَّتَاهُمْ، أي: جعلناهم تابعين لهم في الإيمان. وقيل: «بإيمان» حال من الضمير، أو من الذرية، أو منهما. وتنكيره للتعظيم، أي: بسبب إيمان عظيم رفيع الشأن، وهو إيمان الآباء. ويجوز أن يراد إيمان الذرية الداني المحل. كأنه قال: بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم. أو الاشعار بأنه يكفي للإلحاق المتابعة في أصل الإيمان.

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ دُرِّيَّتَهُمْ﴾ الصغار والكبار في دخول الجنة أو الدرجة. أما الكبار فيتبعون الآباء بإيمانٍ منهم. وأما الصغار فيتبعونهم بإيمان من الآباء، فإن الولد يحكم له بالاسلام تبعاً لوالده، لما روي مرفوعاً أنه ﷺ قال: «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه، لتقرّ بهم عينه، ثم تلا هذه الآية».

وعن الصادق عليه السلام أنه قال: «أطفال المؤمنين يهدون إلى آباءهم يوم القيامة».

وروي زاذان عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، ثم قرأ هذه الآية».

فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعاداتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم، وإن كانوا لا يستأهلونها، تفضلاً عليهم وعلى آبائهم، ليتّم سرورهم ويكمل نعيمهم.
وقرأ نافع وابن عامر والبصريان: ذَرَيَاتِهِمْ.

﴿وَمَا أَلْقَيْنَاهُمْ﴾ ومانقصناهم ﴿مِنْ عَقْلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ بهذا الإلحاق، أي: ما نقصنا من ثواب عملهم شيئاً نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم، بل إنّما ألحقناهم بهم على سبيل التفضّل. وقرأ ابن كثير بكسر اللام، من: أَلَيْتَ يَأْلَت. والمعنى واحد. ﴿كُلُّ أَمْرٍ إِذَا مَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ بعمله، مرهون عند الله. كأنّ نفس العبد رهن عند الله بالعمل الذي هو مطالب به، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه، فإن عمل صالحاً فكّها وخلّصها، وإلا أوبقها.

﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ﴾ وزدناهم ﴿بِفَاقِهَةٍ﴾ بجنس الفاكهة، فإنّ الإمداد الإتيان بالشيء بعد الشيء ﴿وَلَحْمٍ﴾ وجنس اللحوم ﴿مِثْلًا يَشْتَهُونَ﴾ من أنواع النعم الشهية اللذيذة.

﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا﴾ يتعاطون هم وجلساؤهم - من ذَرَيَاتِهِمْ وإخوانهم - بتجاذب ﴿خَاسِئًا﴾ خمرأ. سَمَّاهَا باسم محلّها. ﴿لَا تَنفَوُ فِيهَا﴾ لا يتكلّمون بلفو الحديث وما لا طائل تحته في أثناء شربها ﴿وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ ولا يفعلون ما يؤثّم به فاعله، أي: ينسب إلى الاتم، كما هو عادة الشاربين في الدنيا ذلك، من الكذب والشتّم والفواحش، مثل قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾^(١). وإنّما يتكلّمون بالحكم والكلام الحسن متلذّذين بذلك، لأنّ عقولهم ثابتة غير زائلة، وهم حكماء علماء. وقرأ ابن كثير والبصريان بالفتح.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالكأس ﴿غِلَقَانٌ لَهُمْ﴾ ممالك مخصوصون بهم.

وقيل: هم أولادهم الذين سبقوهم. ﴿كَأَنَّهُمْ لَوْلُو مَكْنُونٌ﴾ مصون في الصدف، من بياضهم وصفائهم، لأنه رطباً أحسن وأصفى وأصبح. أو مخزون، لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة. وعنه عليه السلام: «والذي نفسي بيده إن فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

وعنه عليه السلام: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه، فيجيبه ألف بابه: ليك لييك».

وقيل: إنه ليس على الغلمان مشقة في خدمة أهل الجنة، بل لهم في ذلك اللذة والسرور، إذ ليس تلك الدار دار محنة.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتحادثون، ويسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله وما استوجب به نيل ما عند الله.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أرقاء القلوب من خشية الله، خائفين من عصيان الله، معتنين بطاعته. أو وجلين من العاقبة.

﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالرحمة والتوفيق ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم. وهو الريح الحارة التي تدخل المسام. فسميت بها نار جهنم، لأنها بهذه الصفة.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل ذلك في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبد، أو نسأله الوقاية ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن. وقرأ نافع والكسائي: أنه بالفتح. ﴿الرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة، الذي إذا عبد أثاب، وإذا سئل أجاب.

فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ
شَاعَرَ تَرَبَّصْ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَبِصِينَ

﴿ ٣١ ﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿ ٣٢ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ
بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ ٣٣ ﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿ ٣٤ ﴾ أَمْ خُلِقُوا
مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿ ٣٥ ﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا
يُوقِنُونَ ﴿ ٣٦ ﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمَصْطَرُونَ ﴿ ٣٧ ﴾ أَمْ لَهُمْ
سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿ ٣٨ ﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ
الْبَنُونَ ﴿ ٣٩ ﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿ ٤٠ ﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ
الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿ ٤١ ﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ
﴿ ٤٢ ﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ ٤٣ ﴾

﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم، ولا تكثر بقولهم ﴿فَمَا أَنْتَ
بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ بحمد الله وإنعامه ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما يقولون: ولا تبال به، فإنه
قول باطل متناقض، لأن الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر، والمجنون
مغطى على عقله. وما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بصدق النبوة ورجاحة العقل
أحد هذين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبُّصُ بِهِ رَبِّبُ الْمُتَنُونِ﴾ ما يعلق النفوس من حوادث
الدهر. وقيل: المنون الموت. فقول من: متة إذا قطعه. يعني: فيهلك كما هلك من
قبله من الشعراء، كزهير والنابعة وغيرهما.

﴿قُلْ تَرَبُّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أترَبِّصُ هلاككم كما تترَبِّصون هلاكي. والمراد بالأمر التهديد، نحو: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾^(١).

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ﴾ عقولهم ﴿بِهَذَا﴾ التناقض في القول، فإن الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى عقله، والشاعر يكون ذا كلام موزون متسق مخيل، ولا يتأتى ذلك من المجنون. وأمر الأَحْلَام به مجاز عن أدائها إليه، كقوله تعالى: ﴿اصْلَوْا تَك تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْجُدُ آبَاؤُنَا﴾^(٢). وفي ذكرها إزراء بعقولهم، حيث لم تشر لهم معرفة الحق من الباطل، مع أنهم معروفون بأهل الأَحْلَام والنهي. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد في العناد مع ظهور الحق لهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ﴾ اختلقه من تلقاء نفسه ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيرمونه بهذه المطاعن لكفرهم وعنادهم، مع علمهم بطلان قولهم وأنه ليس بمتقوّل، لعجز العرب عنه.

﴿قَلْبَانَا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ مثل القرآن وما يقاربه في نظمه وفصاحته، وحسن بيانه وبراعته ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في زعمهم أن محمداً تقوله، إذ فيهم كثير ممن عدوا فصحاء. فهذا ردّ للأقوال المذكورة بالتحدي.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أم أحدثوا وقدروا من غير محدث ومقدّر، فلذلك لا يعبدونه. أو من أجل لا شيء، من عبادة ومجازاة. وقوله: ﴿أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ يؤيد الأول، فإن معناه: أم خلقوا أنفسهم. ولذلك عقبه بقوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ و«أم» في هذه الآيات منقطعة. ومعنى الهمزة فيها الإنكار. ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ إذا سئلوا من خلقكم؟ ومن خلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله، إذ لو أيقنوا ذلك لما أعرضوا عن عبادته.

(١) فضلت: ٤٠.

(٢) هود: ٨٧.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ خزائن رزقه حتّى يرزقوا النبوة من شاؤا. أو خزائن علمه حتّى يختاروا للنبوة من اختارته حكمته. ﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُّونَ﴾ أي: الأرباب المسلطون الغالبون على الأشياء حتّى يدبّروا أمر الربويّة، ويبثّوا الأمور على إرادتهم كيف شاؤا. وقرأ قنبل وحفص بخلاف عنه وهشام بالسين. وحمزة بخلاف عن خلاد بين الصاد والزاء. والباقون بالصاد الخالصة.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مرقي ومصعد إلى السماء ﴿يَسْتَمِيعُونَ فِيهِ﴾ صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب، حتّى يعلموا ما هو كائن، من تقدّم هلاكه على هلاكهم، وظفرهم في العاقبة دونه، كما يزعمون ﴿فَلَيَاتِ مُسْمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بحجّة واضحة تصدّق استماعه.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ فيه تسفيه لأحلامهم، إذ أضافوا إلى الله سبحانه ما أنفوا منه. وهذا غاية في جهلهم، إذ جوّزوا عليه سبحانه الولد، ثم ادّعوا أنّه اختار الأدون على الأعلى. وإشعار بأنّ من هذا رأيه لا يعدّ من العقلاء، فضلاً أن يترقى بروحه إلى عالم الملكوت فيتطلّع على الغيوب.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُمْ مِنْ مَفْرَمٍ﴾ من التزام غرم ﴿مُتَّقُونَ﴾ محمّلون الثقل، فزهدهم ذلك في اتّباعك.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ اللوح المحفوظ المثبتة فيه المغيّبات ﴿فَهُمْ يَخْفَبُونَ﴾ حتّى يقولوا لا نبعث، وإن بعثنا لا نعدّب.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ مكرأ بك. وتدبير سوء في بابك سرّاً، كما دبّروه في دار الندوة برسول الله ﷺ وبالمؤمنين ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتمل العموم والخصوص. فيكرن وضعه موضع الضمير للتسجيل على كفرهم، والدلالة على أنّه الموجب للحكم المذكور ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ المجزّيون بكيدهم، فإنّ ضرر ذلك يحقّق بهم ويعود عليهم. وهو قتلهم يوم بدر. أو المغلوبون في الكيد، من: كايده فكدته.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم، أو شركة ما يشركون به.

وَأَن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾
فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَأَن لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ
وَلَكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

ثم ذكر سبحانه عنادهم وقسوة قلوبهم، فقال: ﴿وَأَن يَرَوْا كِسْفًا﴾ قطعة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ هذا سحاب تراكم بعضه على بعض يطرنا، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب. وهو جواب قولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾^(١).

﴿فَذَرَهُمْ﴾ أتركهم يا محمد ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ يهلكون بوقوع الصاعقة عليهم. وهذا عند النفخة الأولى التي تسمى نفخة الصعق، يهلك جميع الناس عندها. وقرأ ابن عامر وعاصم: يُصْعَقُونَ على المبني للمفعول، من: صعقه أو أصعقه.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ﴾ حيلتهم ﴿شَيْئًا﴾ أي: شيئاً من الإغناء في ردِّ

العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لا يمنعون من عذاب الله .

﴿وَأَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يحتمل العموم والخصوص ﴿عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ﴾ دون عذاب الآخرة . وهو عذاب القبر ، أو المؤاخظة في الدنيا ، كقتلهم بيدر ، والقحط سبع سنين . ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما هو نازل بهم .

﴿وَأُصْـِـبَ بِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم وإيقائك في عنائهم وأذاهم حتى يرد أمر الله بتخليصك ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ في حفظنا بحيث نراك ونكلوك ، فلا يصلون إلى شيء مما أرادوا عليك . وجمع العين لجمع الضمير ، والمبالغة بكثرة أسباب الحفاظ . ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكان تقوم ، أو من مكان قومك . أو حين تقوم إلى الصلاة ، فقل : سبحانك اللهم ويحمدك . أو من مجلسك فقل : سبحانك اللهم ويحمدك ، لا إله إلا أنت ، اغفر لي وتب علي . وهو المروي عن عطاء وسعيد بن جبير . وقد روي مرفوعاً : أَنَّهُ كَفَّارَةُ الْمَجْلِسِ .

وعن علي عليه السلام : «من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى ، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾»^(١) إلى آخر السورة»^(٢) .
﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ فَإِنَّ الْعِبَادَةَ فِيهِ أَشَقُّ عَلَى النَّفْسِ وَأَبْعَدُ مِنَ الرِّيَاءِ ، ولذلك أفرده بالذكر ، وقَدَّمَهُ عَلَى الْفِعْلِ .

وروى زرارة وحرمان ومحمد بن مسلم ، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام في هذه الآية ، قالوا : «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَيَنْظُرُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ ، وَيَقْرَأُ الْخَمْسَ مِنْ آلِ عِمْرَانَ الَّتِي آخَرُهَا ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلَفُ الْعِصَادَ﴾»^(٣) . ثم يفتتح صلاة الليل .

(١) الصافات : ١٨٠ .

(٢) هذه الرواية في فضائل سورة الصافات : ولعل المؤلف نقلها لمناسبتها للمقام .

(٣) آل عمران : ١٩٤ .

وقيل: معناه: قبل المغرب والعشاء الآخرة.

﴿وَإِذْ بَارَئُ النُّجُومِ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل، أي: تغيب بضوء

الصبح. والمراد: الأمر بقول: سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات.

وقيل: المراد بالتسبيح: الصلاة إذا قام من نومه، ومن الليل: صلاة العشاءين،

وإدبار النجوم: صلاة الفجر المفروضة.

وهذا منقول عن ابن عباس وقتادة، ومروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

وقيل: المراد بإدبار النجوم الركعتان قبل صلاة الفجر.

وقيل: المعنى: لا تغفل عن ذكر ربك صباحاً ومساءً، ونزّهه في جميع

أحوالك ليلاً ونهاراً، فإنه لا يغفل عنك وعن حفظك.

وفي هذه الآية دلالة على أنه سبحانه قد ضمن حفظه وكلاءه حتى يبلغ

رسالته.

سورة النجم

مَكِّيَّة. وهي اثنتان وستون آية.

أبي بن كعب قال: «قال رسول الله ﷺ: من قرأ سورة النجم أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدّق بمحمد ومن جحد به».
يزيد بن خليفة عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «من كان يدا من قراءة والنجم في كل يوم أوفي كل ليلة، عاش محموداً بين الناس، وكان مغفوراً له، وكان محبوباً بين الناس». »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطُوقُ
عَنِ الْهَوَى ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو
مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ
قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾

ولما اختتم سورة الطور بذكر النبي ﷺ، افتتح هذه السورة بذكره أيضاً،

حتى اتصلت بها اتصال النظر بالنظر، وتوافقت الخاتمة بالفاتحة بذكر النجم، فقال:

﴿يَسْمِ اللّٰهُ الرُّخْصَنَ الرُّجِيمَ وَالنَّجْمَ﴾ أقسم بجنس النجوم أو الثريا، فإنه غلب فيها، أو النجم الذي يرمم به. ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ غرب، أو انشرو يوم القيامة. أو انقض. أو طلع، فإنه يقال: هوى هويًا بالفتح إذا سقط وغرب، وهويًا بالضم إذا علا وصعد. أو المراد بالنجم نجوم القرآن، إذ نزل منجمًا في ثلاثة وعشرين سنة. وسمي القرآن نجمًا لتفريقه في النزول. والعرب تسمي التفريق تنجيماً، والمفرق منجماً. أو النبات، إذا سقط على الأرض، أو إذا نما وارتفع.

وروت العامة عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: محمد عليه السلام نزل من السماء السابعة ليلة المعراج، ولما نزلت السورة أخبر بذلك عتبة بن أبي لهب، وكانت تحته بنت رسول الله عليه السلام، فقال: لا تين محمداً فلاؤذيتنه. فأتاه فقال: يا محمد؛ هو كافر بالنجم إذا هوى، وبألذي دنا فتدلى، ثم تفل في وجه رسول الله عليه السلام، وردّ عليه ابنته وطلقها. فقال رسول الله عليه السلام: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك. وكان أبو طالب حاضراً، فوجم^(١) لها، وقال: ما كان أغناك يابن أخي عن هذه الدعوة.

فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره، ثم خرج مع نفر من قريش إلى الشام فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم: إنّ هذه أرض مسبعة. فقال أبو لهب لأصحابه: أغثونا يا معشر قريش هذه الليلة، فإنّي أخاف على ابني دعوة محمد. فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم، وأحدقوا بعتبة. فجاء الأسد يتشمّم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله. فقال حسان شعراً:

من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع
وجواب هذا القسم قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ماعدل محمد عليه السلام عن

الطريق المستقيم، وما فارق الهدى إلى الضلال. والخطاب لقريش. ﴿وَمَا غَوَى﴾ وما اعتقد باطلاً، فَإِنَّ الضلال نقيض الهوى، والغى نقيض الرشد. والمراد: نفي ما ينسبون إليه من الضلال والغى.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ وما يصدر نطقه بالقرآن عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما القرآن، أو الذي ينطق به ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ أي: يوحيه الله إليه. واحتج به من لم ير الاجتهاد للرسول ﷺ. وأجيب عنه بأنه إذا أوحى إليه بأن يجتهد كان اجتهاده وما يسند إليه وحياً. قلنا: إِنَّ ذلك حينئذٍ يكون بالوحي لا الوحي.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ملك شديد قواه. والإضافة غير حقيقيّة، لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، وهو جبرئيل، فَإِنَّه الواسطة في إبداء الخوارق. ومن قوّته أنّه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء ثم قلبها، وصاح صيحة بتمود فأصبحوا جائعين. وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده في أسرع من رجعة الطرف. ورأى إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب الأرض المقدّسة، فنفخه بجناحه نفخة فألقاه في أقصى جبل بالهند.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ حصافة في عقله ورأيه، ومثانة في دينه ﴿فَاسْتَوَى﴾ فاستقام على صورته الحقيقيّة التي خلقه الله عليها، دون الصورة التي كان يتمثل بها كلّما هبط بالوحي. وكان ينزل في صورة دحية الكلبي. وذلك أَنَّ رسول الله ﷺ أحبّ أن يراه في صورته التي جبل عليها، فاستوى له ﷺ في الأفق الأعلى، وهو أفق الشمس، فعلاً الأفق.

وقيل: ما رآه أحد من الأنبياء في صورته الحقيقيّة غير محمد ﷺ مرّتين: مرّة في الأرض، ومرّة في السماء.

وأورد البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود: «أَنَّ رسول

الله ﷻ رأى جبرئيل وله ستمائة جناح^(١).

وقيل: استوى بمعنى: استولى بقوته على ما جعل له من الأمر.

﴿وَهُوَ﴾ جبرئيل ﴿بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ أفق السماء من جانب المشرق، فإنّه

فوق جانب المغرب في صعيد الأرض.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من النبي ﷺ ﴿فَتَدَلَّى﴾ فتعلق عليه في الهواء. وقيل: تدلّى من

الأفق الأعلى، فدنا من الرسول من غير أن ينفصل من محله. وفيه تقرير لشدة قواه،

فإنّ التدلّي استرسال مع تعلق، كتدلّي الثمرة. ويقال: دلى رجله من السرير، وأدلى

دلوّه. والدوالي: الثمر المعلق.

﴿فَكَانَ﴾ جبرئيل ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدارهما، فإنّ القاب والقيب والقاد والقيد

والقيس: المقدار. وقد جاء التقدير بالقوس، والرمح، والسوط، والذراع، والباع،

والخطوة، والشبر، والفتّر، والإصبع. وفي الحديث: «لقاب قوس أحدكم من الجنة

وموضع قدّه خير من الدنيا وما فيها». والقَدّ: السوط. وفي الكلام حذف، تقديره:

فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين، فحذفت هذه المضافات. ﴿أَوْ أُنْزِيَ﴾

على تقدير كم، كقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(٢). والمقصود تمثيل شدة الاتّصال وتحقيق

استماعه لما أوحى إليه بنفي البعد الملبس.

﴿فَأَوْحَى﴾ جبرئيل ﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾ عبدالله. وإضماره قبل الذكر لكونه معلوماً

لا لبس فيه، كقوله: ﴿عَلَى ظَهْرِهَا﴾^(٣). ﴿مَا أَوْحَى﴾ جبرئيل. وفيه تفخيم للموحى

به. وقيل: ضمير «ما أوحى» لله تعالى. والمعنى: فأوحى جبرئيل إلى عبدالله محمّد

ما أوحى الله تعالى إليه.

(١) صحيح البخاري ٦: ١٧٦، صحيح مسلم ١: ١٥٨ ح ٢٨٠.

(٢) الصافات: ١٤٧.

(٣) فاطر: ٤٥.

وعن سعيد بن جبير: أوحى إليه: ﴿أَنْتُمْ يَجْزِكُمْ يَتِيمًا فَاَوْىٰ﴾^(١) إلى قوله: ﴿وَرَفَعْنَا ذِكْرَكَ﴾^(٢).

وقيل: أوحى إليه أَنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أَنْتَ، وَعَلَى الْأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ.

وقيل: الضمائر كُلُّهَا لله تعالى. وهو المعنى بـ«شديد القوى» كما في قوله: ﴿هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(٣). ودنوه منه برفع مكانته، وتدليله جذبه بشراشره إلى جناب القدس.

وقيل: أوحى إليه سرّاً بسرّ. وفي ذلك يقول القائل:

بين المحبين سرّ ليس يفشيه قول ولا قلم للخلق يحكيه

مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾

ثم بين سبحانه ما رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء، وحقّق ما رأى فيها بقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ فؤاد محدّد ﴿مَا رَأَىٰ﴾ ما يبصره من صورة جبرئيل. والمعنى: ما قال فؤاده لما رآه: لم أعرفك. ولو قال ذلك لكان كاذباً، لأنّه عرفه بقلبه كما رآه

(١) الضحى: ٦.

(٢) الانشراح: ٤.

(٣) الذاريات: ٥٨.

ببصره، ولم يشك في أن ما رآه حق.

وقيل: ما كذب ما رآه بقلبه. والمعنى: أنه لم يكن تخيلاً كاذباً. ويدل عليه: «أنه ﷺ سئل: هل رأيت ربك؟ فقال: رأيته بفؤادي». وعن ابن عباس أيضاً: أن محمداً ﷺ رأى ربه بفؤاده. وروي ذلك عن محمد بن الحنفية، عن أبيه عليّ عليه السلام. وهذا يكون بمعنى العلم، أي: علمه علماً يقيناً بما رآه من الآيات الباهرات، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾^(١). وإن كان عالماً قبل ذلك.

وقيل: إن الذي رآه هو ما رأى من ملكوت الله تعالى وأجناس مقدوراته. وعن أبي العالية قال: سئل رسول الله ﷺ: «هل رأيت ربك ليلة المعراج؟ قال: رأيت نهراً، ورأيت وراء النهر حجاباً، ورأيت وراء الحجاب نوراً، لم أر غير ذلك».

وروي عن أبي ذر وأبي سعيد الخدري: «أن النبي ﷺ سئل عن قوله: «ما كذب الفؤاد ما رأى» قال: «رأيت نوراً». وروي ذلك عن مجاهد. وذكر الشعبي عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس أنه قال: إن محمداً رأى ربه.

قال الشعبي: وأخبرني مسروق قال: سألت عائشة عن ذلك. فقالت: إنك لتقول قولاً إنه ليقف شعري منه.

قلت: رويداً يا أم المؤمنين، وقرأت عليها «والنجم إذا هوى» حتى انتهت إلى قوله: «قاب قوسين أو أدنى».

فقالت: رويداً أني يذهب بك، إنما رأى جبرئيل في صورته. من حديثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب، والله تعالى يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ

الْأَنْبِصَارُ^(١)». ومن حَدَّثَكَ أَنْ مُحَمَّدًا ﷺ يَعْلَمُ الْحَسَّ مِنَ الْغَيْبِ فَقَدْ كَذَبَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ^(٢)﴾. ومن حَدَّثَكَ أَنْ مُحَمَّدًا ﷺ كَتَمَ شَيْئاً مِنَ الْوَحْيِ فَقَدْ كَذَبَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ^(٣)﴾. ولقد بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ بَيَّاناً شَافِئاً، فَقَالَ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى^(٤)﴾.

وقرأ هشام: مَا كَذَّبَ، أَي: صَدَّقَهُ وَلَمْ يَشْكُ أَنَّهُ جَبْرَيْلُ بِصُورَتِهِ.

﴿افْتِمَارُوتُهُ﴾ افْتَجَادُلُونَهُ ﴿عَلَى مَا يَرَى﴾ مِنَ الْمِرَاءِ، وَهُوَ الْمَجَادَلَةُ.

واشتقاقه من: مَرَى^(٥) الناقَة، فَإِنَّ كَلًّا مِنَ الْمُتَجَادِلِينَ يَمْرِي مَا عِنْدَ صَاحِبِهِ.

وقرأ الكوفيون غير عاصم ويعقوب: أَفْتَمَرُونَهُ، أَي: أَفْتَقَلِبُونَهُ فِي الْمِرَاءِ.

من: مَارِيْتَهُ فَمَرِيْتَهُ. أَوْ من: مَرَاهُ حَقَّهُ إِذَا جَحَدَهُ. و«على» لتضمين الفعل معنى الغلبة، فَإِنَّ الْمَمَارِي وَالْجَاهِدَ يَقْصِدَانِ بِفَعْلِهِمَا غَلْبَةَ الْخَصْمِ.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ مَرَّةً أُخْرَى. فَعَلَتْهُ مِنَ النَّزُولِ، أَقِيَمَتْ مَقَامَ الْمَرَّةِ،

وَنَصَبَتْ نَصْبَهَا، إِشْعَاراً بِأَنَّ الرُّؤْيَا فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَانَتْ أَيْضاً بِنَزُولٍ وَدَنُوٍّ. وَالْكَلَامُ فِي الْمَرْتِيِّ وَالْدَنُوٍّ مَا سَبَقَ. وَالْمَعْنَى: نَزَلَ جَبْرَيْلُ عَلَيْهِ نَزْلَةٌ أُخْرَى فِي صُورَةِ نَفْسِهِ، فَرَأَاهُ عَلَيْهَا لَيْلَةَ الْمَعْرَاجِ. وَقِيلَ: تَقْدِيرُهُ: وَلَقَدْ رَأَاهُ نَازِلاً نَزْلَةً أُخْرَى. وَنَصَبَهَا عَلَى الْمَصْدَرِ. وَالْمُرَادُ بِهِ نَفْيُ الرِّبَاةِ عَنِ الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ.

﴿عِنْدَ سِيَرَةِ الْمُنتَهَى﴾ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا عِلْمُ الْخَلَائِقِ وَأَعْمَالِهِمْ، وَلَا يَعْلَمُ

أَحَدٌ مِنَ خَلْقِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مَا وَرَاءَهَا. أَوْ مَا يَنْزِلُ مِنْ فَوْقَهَا، وَيَصْعَدُ مِنْ

(١) الأنعام: ١٠٣.

(٢) لقمان: ٣٤.

(٣) المائدة: ٦٧.

(٤) النجم: ١٨.

(٥) مَرَى الناقَة: مَسَحَ ضَرْعَهَا لِتُدْرَأَ.

تحتها. أو التي منتهى الجنة وآخرها، ولم يجاوزها أحد. ولعلها شُبِّهت بالسدره، وهي شجرة النبق، لأنهم يجتمعون في ظلها. وروي مرفوعاً: أنها شجرة عن يمين العرش فوق السماء السابعة، انتهى إليها علم كل ملك. وقيل: هي شجرة طوبى.

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ الجنة التي يأوي إليها المتقون، أو أرواح الشهداء ﴿إِذْ يَفْشَى السُّدْرَةُ مَا يَفْشَى﴾ تعظيم وتكثير لما يغشاها، بحيث لا يكتننها نعت، ولا يحصيها عدّ. وقيل: يغشاها الجَمُّ الغفير من الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجر. وعن رسول الله ﷺ: «رَأَيْتَ عَلَى كُلِّ وَرْقَةٍ مِنْ أَوْراقِهَا مَلَكاً قائماً يَسْتَبِحُ الله». وعنه ﷺ: «يَغْشاها رُفْرَفٌ مِنْ طَيْرِ خَضِرٍ». وعن ابن مسعود: يغشاها فراش من ذهب.

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه، أو لم يمل يميناً ولا شمالاً ﴿وَمَا طَفَنُ﴾ وما تجاوزه، بل أثبتته إثباتاً صحيحاً مستيقناً، من غير أن يزيغ بصره أو يتجاوزه. أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها وما جاوزها. أو ما جاوز الحد الذي حدّ له. وهذا وصف أدبه ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يلتفت جانباً، ولم يمل بصره، ولم يمدّه أمامه إلى حيث ينتهي.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ أي: والله لقد رأى الكبرى من آياته وعجائبه الملكيّة والملكوتيّة ليلة المعراج. يعني: حين رقي به إلى السماء، فأري عجائب الملكوت، من صورة جبرئيل، ورؤيته وله ستمائة جناح، قد سدّ الأفق بأجنحته. قيل: إنه رأى رُفْرَفاً أخضر من رفارف الجنة قد سدّ الأفق.

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ

سَمِعْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴿٢٣﴾

ولما قصَّ الله سبحانه هذه الأقاصيص، عقَّبها بمخاطبة المشركين، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ هي أصنام كانت لهم. وهي مؤنثات. فاللات كانت لثقيف بالطائف، أو لقريش بنخلة تعبدها. وهي فعلة من: لوى، لأنَّهم كانوا يلون عليها ويعكفون للعبادة، أو يلتوون عليها، أي: يطوفون. وقرأ رويس عن يعقوب بتشديد التاء، على أنَّها على صورة رجل كان يَلْتُ^(١) السويق بالسمن ويطعمه الحاج. وعن مجاهد: كان رجل يَلْتُ السويق بالطائف، وكانوا يعكفون على قبره، فجعلوه وثناً.

والعزَّى: سمرة^(٢) لطفان كانوا يعبدونها. وأصلها تأنيث الأعز. فبعث إليها رسول الله خالد بن الوليد فقطعها، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها، داعية ويلها، واضعة يدها على رأسها، فجعل يضربها بالسيف حتَّى قتلها، وهو يقول: يا عزَّ كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك ورجع فأخبر رسول الله ﷺ، فقال، تلك العزَّى ولن تعبد أبداً.

ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة. وعن ابن عباس: لثقيف. وهي فعلة من: مناه إذا قطعه، فإنَّهم كانوا يذبحون عندها القرابين. وكانها سميت مناة لأنَّ دماء النسائك كانت تمنى عندها، أي: تراق. ومنه: منى. وقرأ ابن كثير: مناة بالمد والهمزة. وهي مفعلة من النوء، كأنَّهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها.

(١) لَتَّ السويق: بلَّه بشيء من الماء أو خلطه بالسمن.

(٢) السَّمرة: شجرة من العضاء، وليس في العضاء أجود خشباً منه.

وقوله: «الثالثة الأخرى» صفتان للتأكيد، كقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾^(١). أو «الأخرى» من التأخر في الرتبة، أي: الوضعية المقدار، كقوله: ﴿قَالَتْ أَخْزَاهُمْ لَأُولَاهُمْ﴾^(٢) أي: وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرفهم. ويجوز أن تكون الأوليّة والتقدم عندهم لللات والعزى.

روي: أَنَّهُمْ كانوا يقولون: إِنَّ الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم، ويزعمون أَنَّهُمْ شفعاءهم عند الله، مع وأدهم البنات. فقال الله سبحانه إنكاراً عليهم: إِنَّ اللات والعزى ومناة إناث، وقد جعلتموهنَّ لله شركاء، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث، وتستنكفوا من أن يولدن لكم وينسبن إليكم، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله وتستؤمننَّ آلهة؟!

﴿الْعَمُّ الذَّكَرُ وَلَهُ الْإِنْتَى﴾ أي: كيف يكون ذلك كذلك وأنتم لو خيرتم لاخترتم الذكر على الأنثى؟! فكيف أضفتم إليه سبحانه ما لا ترضونه لأنفسكم؟!
﴿تِلْكَ إِذًا قِسْفَةٌ ضِيزَى﴾ جائرة، حيث جعلتم له ما تستنكفون منه. وهي فعلى بالكسر، من: ضاز يضيض ضيزاً، إذا ضامه^(٣) وجاره. والأصل: ضوزى بالضم، ففعل بها ما فعل ببيض لتسلم الياء، فإنَّ فعلى بالكسر لم تأت وصفاً. وقرأ ابن كثير بالهمزة، من: ضأزه إذا ظلمه، على أنه مصدر نعت به.

﴿إِنْ هِيَ﴾ ما الأصنام باعتبار الألوهية ﴿إِلَّا أَسْمَاءُ﴾ تطلقونها عليها، لأنكم تقولون إنها آلهة، وليس فيها شيء من معنى الألوهية. ويجوز أن يكون الضمير للصفة، أي: ما الصفة إلا الأسماء خالية عن معنى الصفة المذكورة. أو للأسماء، وهي قولهم: اللات والعزى ومناة، فإنهم يقصدون بها أنه الإله. والحاصل: أنهم كانوا

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) الأعراف: ٣٨.

(٣) ضامه: ظلمه. من: ضام يضيض ضيماً.

يطلقون اللات عليها باعتبار استحقاقها للعكوف على عبادتها، والعزى لعزتها، ومناة لاعتقادهم أنها تستحق أن يتقرب إليها بالقرابين.

فقال سبحانه: ما هذه الأسماء إلا أسماء ﴿سَمَّيْتُهَا أَنْثَى وَأَبَاؤُكُمْ﴾ بهواكم وشهواتكم خالية عن معنى الألوهية ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ برهان، أي: ليس لكم من الله على صحة تسميتها دليل باهر تتعلقون به. ومعنى «سَمَّيْتُهَا»: سَمَّيْتُهَا. يقال: سَمَّيْتَهُ زيداً، وسَمَّيْتَهُ يزيد.

ثم رجع إلى الإخبار عنهم بعد المخاطبة، فقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ إلا توهم أن ما هم عليه حق تقليداً وتوهمًا باطلاً ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ وما تشتهي أنفسهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أي: الرشد والبيان، من الرسول والكتاب فتركوه.

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُنُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنْسَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴿٢٨﴾

ثم أنكر عليهم تمنيتهم شفاعاة الأوتان، فقال لهم: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ «أم» منقطعة. ومعنى الهمزة فيها الإنكار. والمعنى: ليس له كل ما يتمناه. والمراد نفى طمعهم في شفاعاة الآلهة. وقيل: قولهم: ﴿وَلَيْزِنَ رُجْعْتُ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ

لنَحْسُنِي^(١)». وقيل: هو تمّني بعضهم أن يكون هو النبي. وقيل: هو قوله: ﴿تَوَلَّأْ نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ^(٢)». وغيرهما. وقيل: هو قول الوليد بن المغيرة: ﴿لَا وَتَيْنَ مَا لَا وَوَلَدَا^(٣)».

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أي: هو مالهما، يعطي منهما ما يشاء لمن يشاء على وفق الحكمة وطبق المصلحة، وليس لأحد أن يتحكّم عليه في شيء منهما.

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ وكثير من الملائكة ﴿فِي السَّمَوَاتِ لَا تَغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ لا تنفع. يعني: أن أمر الشفاعة ضيق، وذلك أن الملائكة مع قربهم وزلفاهم وكثرتهم واغتصاص السماوات بجموعهم، لو شفّعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً قط، ولم تنفع. ﴿شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ إلا إذا شفّعوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة ﴿لِفَن يَشَاءَ﴾ من الملائكة أن يشفع، أو من الناس أن يشفع له ﴿وَيَرْضَى﴾ ويرضاه، ويراه أهلاً لذلك. فكيف تشفع الأصنام نعبدتهم؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: كلّ واحد منهم ﴿تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾ بأن سمّوه بنتاً.

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ﴾ أي: بما يقولون ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما يستيقنون أنهم إناث، وليسوا عالمين بذلك ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ أي: الحقّ الذي هو حقيقة الشيء لا يدرك إلا بالعلم واليقين، والظن لا اعتبار له في المعارف الحقيقيّة، وإنّما العبرة به في العمليّات وما يكون وصلة إليها.

(١) فصلت: ٥٠.

(٢) الزخرف: ٣٦.

(٣) مريم: ٧٧.

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾
 ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ
 اهْتَدَى ﴿٣٠﴾

ثم خاطب نبيه، فقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ عن دعوة من
 رأيته معرضاً عن ذكرنا، ولم يقرّ بتوحيدنا ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ولم يتأمل
 في الآخرة أصلاً، لانهماك في متاع الدنيا وزينتها، فإن من غفل عن الله، وأعرض
 عن ذكره، وانهلك في الدنيا، بحيث كانت تنتهى همته ومبلغ علمه، لا تزيده الدعوة
 إلا عناداً وإصراراً على الباطل.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: أمر الدنيا، أو كونها شهية ﴿مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ لا يتجاوزه
 علمهم. وهذا مبلغ خسيس لا يرضى به لنفسه عاقل، لأنه من طباع البهائم أن يأكل
 في الحال ولا ينتظر العواقب. وفي الدعاء: اللَّهُمَّ لا تجعل الدنيا أكبر همّاً، ولا مبلغ
 علمنا. والجملة اعتراض مقرر لقصور همهم بالدنيا. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ
 ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ تعليل للأمر بالإعراض، أي: إنما يعلم الله من
 يجيب من لا يجيب، وأنت لا تعلم، فلا تعب نفسك في دعوتهم، إذ ما عليك إلا
 البلاغ وقد بلغت، وهو أعلم بالضالّ والمهتدي، وهو مجازيها ما يستحقان من
 الجزاء.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا
 عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ

وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾

ثم قال: ﴿وَبِهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ بعقاب ما عملوا من سوء، أو بمثله، أو بسبب ما عملوا من سوء. وهو علة لما دلّ عليه ما قبله، أي: خلق العالم وسواه ليجزي الذين أساءوا السّوأى، وهي النار. ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ بالثوبة الحسنی، وهي الجنة. أو بأحسن من أعمالهم، أو بسبب الأعمال الحسنی.

ثم وصف الذين أحسنوا بقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ محله إما النصب على الصفة أو المدح، أو الرفع على أنه خبر محذوف. وكبائر الإثم ما يكبر عقابه من الذنوب. وهو ما رتب عليه الوعيد، ولا يسقط عقابه إلا بالتوبة. وقرأ حمزة والكسائي: كبير الإثم، على إرادة الجنس أو الشرك. ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ ما فحش من الكبائر خصوصاً، كأنه قال: خصوصاً والفواحش منها ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ إلا ما قلّ وصغر، فإنه مغفور من مجتنبی الكبائر.

قال الحسن والسدي: اللمم هو أن يلمّ بالذنب مرة ثم يتوب منه ولا يعود. وهو اختيار الزجاج. لأنه قال: اللمم: هو أن يكون الإنسان قد أثم بالمعصية ولم يقم على ذلك. ومنه: أثم بالمكان إذا قلّ فيه لثمه، وأثم بالطعام قلّ منه أكله.

وعن أبي سعيد الخدري: اللمم هي: النظرة، والغمرة، والقبلة. وعن الكلبي: كلّ ذنب لم يذكر الله عليه حداً ولا عذاباً. والاستثناء منقطع، أو صفة كقوله: ﴿لَوْ

كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ^(١) . كَأَنَّهُ قَالَ : كِبَائِرُ الْإِثْمِ غَيْرُ اللَّمَمِ .

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يكفر الصغائر باجتتاب الكبائر، والكبائر بالتوبة. أوله أن يغفر ما شاء من الذنوب صغيرها وكبيرها. ولعله عقَّب به وعيد المسيئين ووعد المحسنين، لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته، ولا يتوهم وجوب العقاب على الله.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أعلم بأحوالكم منكم ﴿إِذَا أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ خلقكم منها عند تناول الأغذية المخصوصة التي خلقها من الأرض، فكأنه سبحانه أنشأهم منها ﴿وَإِذَا أَنْتُمْ أَجْنَةُ قَيْطُونٍ أَمْهَاتِكُمْ﴾ أي : علم أحوالكم ومصارف أموركم حين ابتداء خلقكم من التراب بخلق آدم، وحينما صوّركم في الأرحام.

﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فلا تسبوا إلى زكاء العمل وزيادة الخير والطاعات، أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي والردائل، ولا تتنوا عليها بزكاها ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ فإنه يعلم التقى وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب آدم، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم.

قيل : كان الناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون : صلاتنا وصيامنا وحبنا، فنزلت هذه الآية. وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء. وأما من اعتقد أن ماعمله من العمل الصالح بتوفيق الله وتأيده، ولم يقصد به التمدح، لم يكن من المزكّين أنفسهم، لأن المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ

الَّذِي وَفَى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَرُرَ وَارِرَةً وَزُرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْهَى ﴿٤٢﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنْهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴿٤٩﴾ وَأَنْهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَنُوحًا فَمَا أَبْقَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَاهَا مَا غَشَى ﴿٥٤﴾

روي عن ابن عباس والسدي والكلبي وجماعة من المفسرين: أن عثمان بن عفان كان يتصدق وينفق ماله، فقال له أخوه من الرضاة عبدالله بن سعد بن أبي سرح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك أن لا يبقى لك شيء. فقال له عثمان: إن لي ذنوباً، وإني أطلب بما أصنع رضا الله، وأرجو عفوه. فقال له عبدالله: أعطني ناصتك برحلها، وأنا أحتل عنك ذنوبك كلها. فأعطاه، وأشهد عليه، وأمسك عن الصدقة. فنزلت:

﴿أَفْزَأَيْتَ الَّذِي قَوْلُنِي﴾ عن اتباع الحق والثبات عليه ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَخَذَنِ﴾

وقطع العطاء وأمسك. من قولهم: أكدى الحافر إذا بلغ الكدية. وهي الصخرة

الصلبة، فترك الحفر.

﴿اعِزَّنْهُ عَنِ الْغَيْبِ﴾ علم ما غاب عنه من أمر العذاب ﴿فَهُوَ يَرَى﴾ يعلم أن صاحبه يتحمل عنه العذاب. أو يعلم أن ما قال له أخوه من احتمال أوزاره حق. وعن مجاهد: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد أتبع رسول الله ﷺ على دينه، فعبّره بعض المشركين، وقال له: تركت دين الأشياخ وضألتهم، وزعمت أنهم في النار. قال: إني خشيت عذاب الله. فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله. فارتدّ وأعطى بعض المشروط، ثم بخل بالباقي.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ ألم يخبر بما في أسفار التوراة ﴿وَأَنْبِإِهِمْ﴾ وفي صحف إبراهيم ﴿الَّذِي وَفَّى﴾ وفّر وأتمّ ما التزم به أو أمر به. أو بالغ في الوفاء بما عاهد الله. وإطلاقه ليتناول كلّ وفاء وتوفية. وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره. ومن ذلك: تبليغه الرسالة، واستقلاله بأعباء النبوة، والصبر على ذبح ولده، وعلى نار نمرود، وقيامه بأضيافه، وخدمته إيتاهم بنفسه، وأنه كان يخرج كلّ يوم فيمشي فرسحاً يرتاد ضيفاً، فإن وافقه أكرمه، وإلاّ نوى الصوم.

وعن الحسن: ما أمره الله بشيء إلاّ وفى به.

وعن الهذيل بن شرحبيل: كان بين نوح وبين إبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة غيره، ويقتل بأبيه وابنه وعمّه وخاله، والزوج بامرأته، والعبد بسيّده، فأول من خالفهم إبراهيم.

وعن عطاء بن السائب: عهد إبراهيم أن لا يسأل مخلوقاً، فلمّا قذف في النار قال له جبرئيل وميكائيل: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليكما فلا.

وروي عن الرسول ﷺ: «ألا أخبركم لم سمّى الله خليله ﴿الَّذِي وَفَّى﴾؟

كان يقول إذا أصبح وأمسي: فسبحان الله حين تمسون وحين تظهرون». وقيل: وفى سهام الاسلام. وهي ثلاثون: عشرة في التوبة: ﴿التَّائِبُونَ...﴾^(١). وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ...﴾^(٢). وعشرة في المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...﴾^(٣).

وقدّم موسى لأنّ صفه - وهي: التوراة - كانت أشهر وأكبر عندهم. ﴿الْأَتَزِرْ وَازِرَةٌ وَزِرَ أَخْرَى﴾ «أن» هي المخففة من الثقيلة. والضمير للشأن. وهي بما بعدها في محلّ الجرّ بدلاً من «ما في صف موسى». والتقدير: أم لم يتبأ بأنه لا تزر، أي: لا تحمل نفس حاملة حمل أخرى. أو الرفع على: هو أن لا تزر. كأنه قيل: ما في صفهما؟ فأجاب: أن لا تزر. والمعنى: أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره. ولا يخالف ذلك قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٤). وقوله ﷺ: «من سنّ سنة سيئة، فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». فإن ذلك للدلالة والتسبب الذي هو وزره.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ إلا سعيه، أي: كما لا يؤاخذ أحد بذنب الغير لا يثاب بفعله. والوجه فيما صحّ من الأخبار من أنّ الصدقة عن الميت والحج عنه ينفعان الميت: أنّ سعي غيره لا ينفعه إذا عمل لنفسه، ولكن إذا نواه فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه. وأنّ سعي غيره لمّا لم ينفعه إلا مبتئياً على سعي نفسه - وهو أن يكون مؤمناً صالحاً - كان سعي غيره كأنه سعي نفسه، لكونه

(١) التوبة: ١١٢.

(٢) الأحزاب: ٣٥.

(٣) المؤمنون: ١ - ١٠.

(٤) المائدة: ٣٢.

تابعاً له وقائماً مقامه.

﴿وَأَنْ سَغِيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ أي: يجزي العبد سعيه بالجزاء الأوفى، فنصب بنزع الخافض. يقال: جزاه الله عمله، وجزاه على عمله، يحذف الجار وإيصال الفعل. ويجوز أن يكون مصدراً، أو تكون الهاء للجزاء المدلول عليه بـ«يجزي»، و«الجزاء» بدله، كقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(١).

﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ مصدر بمعنى الانتهاء، أي: انتهاء الخلائق ورجوعهم إلى ثواب ربك وعقابه، كقوله: ﴿وَالَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ خلق قوتي الضحك والبكاء. أو فعل سبب الضحك والبكاء، من السرور والحزن، كما يقال: أضحكني فلان وأبكاني.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ لا يقدر على الإماتة والإحياء غيره، فإن القاتل ينقض البنية، والموت يحصل عنده بفعل الله على سبيل العادة.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ من كل حيوان ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ تدفق في الرحم. يقال: منى وأمنى. وعن الأخفش: تخلق من منى الماني، أي: قدر المقدّر.

﴿وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَى﴾ الإحياء بعد الموت وفاءً بوعده، ولأنها واجبة عليه في الحكمة، ليجازي على الإحسان والإساءة. ولفظة «على» دالة عليه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: النشاء بالمد. وهو أيضاً مصدر: نشأ.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ وأعطى القنية. وهي المال الذي تأكلته^(٣) وعزمت

(١) الأنبياء: ٣.

(٢) آل عمران: ٢٨.

(٣) تأكل المال: اكتسبه وثمره، وزكاه، وأنما.

أن لا تخرجه من يدك، بل تدخره بعد الكفاية. وإفرادها لأنها أشف^(١) الأموال. أو أرضى. وتحقيقه: جعل الرضا له قنية.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْوَى﴾ خالقها ومخترعها. وهي العبور، كوكب أشد ضياءً من الفميصاء، تطلع وراء الجوزاء، وتسمى كلب الجبار، لأنه يتبع الجوزاء كما يتبع الكلب الصائد والصيد. والجبار اسم الجوزاء. وكانت خزاعة تعبدها، سن لهم أبو كبشة رجل من أشrafهم. وقيل: إنه أحد أجداد الرسول ﷺ من قبل أمه. وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ: أبو كبشة، تشبيهاً له به، لمخالفته إياهم في دينهم. ولعل تخصيصها للإشعار بأنه ﷺ وإن وافق أبا كبشة في مخالفتهم، خالفه أيضاً في عبادتها. فيريد الله أنه ربّ معبودهم هذا، فلا تتخذوا المربوب المملوك إلهاً.

﴿وَأَنَّهُ أَفْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ القدماء، لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح عليه السلام. وقيل: عاد الأولى قوم هود، وعاد الأخرى إرم. وقرأ نافع وأبو عمرو: عاداً لولى، بإدغام التنوين في اللام، وطرح همزة «أولى»، ونقل ضمتها إلى لام التعريف. وقالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو.

﴿وَقَمُودًا﴾ عطف على «عاداً» لأن ما بعده لا يعمل فيه، لأنه منفي بـ«ما». فلا يقال: زيداً ما ضربت، لأن لها صدر الكلام. وقرأ عاصم وحزمة بغير تنوين، ويقفان بغير الألف. والباقون بالتنوين، ويقفون بالألف. ﴿فَقَا أَبْقَى﴾ الفريقين.

﴿وَقَوْمٌ نُوحٌ﴾ أيضاً معطوف عليه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى﴾ من الفريقين، لأنهم كانوا يؤذونه وينفرون عنه، حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوها منه، ويضربونه حتى لا يكون به حراك، وما أثر فيهم دعاؤه قريباً من ألف سنة.

(١) أي: أفضلها وأريحها.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ والقرى التي انتفكت بأهلها، أي: انقلبت. وهي قرى قوم لوط. يقال: أفكته فائتفك. ﴿أَهْوَى﴾ بعد أن رفعها إلى السماء على جناح جبرئيل، ثم أهواها مقلبة إلى الأرض، أي: أسقطها.

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ فيه تهويل وتعميم لما أصابهم من العذاب الشديد، إذ أمطر عليها الصخر المنضود.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾
 أَرَأَيْتَ الْآزِفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَنُ هَذَا
 الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تُبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ
 ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

ولما وعد الله سبحانه ما يدل على وحدانيته وكمال قدرته الذاتية، قال:

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَفَارَى﴾ تتشكك. والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد. والمعدودات وإن كانت نعماً وتقماً، لكن سآها كلها آلاء من قبل ما في نعمه من العبر والمواعظ للمعتبرين، والانتقام للأنبياء والمؤمنين.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَى﴾ أي: هذا القرآن إنذار من جنس الإنذارات المتقدمة. أو هذا الرسول منذر من جنس المنذرين الأولين. وقال: الأولى، على تأويل الجماعة.

﴿أَرَأَيْتَ الْآزِفَةَ﴾ قربت الساعة الموصوفة بالقرب في نحو قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ ^(١) فَإِنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ لَا مُحَالَةَ قَرِيب.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ليس لها نفس قادرة على كشفها، مبيّنة متى تقوم؟ أو ليس لها من دون الله كشف، على أنها مصدر كالعافية.

﴿أَقِمْ هَذَا الْخَبِيثَ﴾ يعني: القرآن. أو ما قدّم من الأخبار. وهو المروي عن الصادق عليه السلام. ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكاراً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ تحزناً على ما فرطتم.

﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ لاهون لاعبون. أو مستكبرون، من: سمد البعير في سيره إذا رفع رأسه. أو مفتون لتشتغلوا الناس عن استماعه. من السمود، وهو الغناء.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ ولا تعبدوا الآلهة. وفي الآية دلالة على أن السجود هنا واجب على ما ذهب إليه أصحابنا، لأن الظاهر أن الأمر يقتضي الوجوب، وللروايات المتواترة عن الأئمة الطاهرة صلوات الله عليهم أجمعين.

سورة القمر

مَكِّيَّة. وهي خمس وخمسون آية.

أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة اقتربت الساعة في كل غيب، بعث يوم القيامة ووجهه على صورة القمر ليلة البدر، ومن قرأها كل ليلة كان أفضل، وجاء يوم القيامة ووجهه مسفر على وجوه الخلائق». روى يزيد بن خليفة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ سورة اقتربت الساعة، أخرجه الله من قبره على ناقة من نوق الجنة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

ولما ختم الله سبحانه تلك السورة بذكر أزوف الآزفة، افتتح هذه السورة بمثله، فقال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ قربت الساعة التي يموت فيها جميع الخلائق، يعني: يوم القيامة، فاستعدّوا لها قبل وقوعها ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ انشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ ومعجزاته النيرة، ومن علامات دنو القيامة. روي عن ابن عباس: «اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فلتتين. فقال لهم رسول الله ﷺ: إن فعلت تؤمنون؟ قالوا: نعم. وكانت ليلة بدر، فسأل ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا، فانشق القمر فلتتين ورسول الله ينادي: يا فلان يا فلان اشهدوا».

وقال ابن مسعود: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلتتين، فلقه ذهب، وفلقه بقيت، فقال لنا رسول الله ﷺ: اشهدوا اشهدوا.

وروي أيضاً عن ابن مسعود أنه قال: والذي نفسي بيده لقد رأيت حراء بين فلتتي القمر.

وعن جبير بن مطعم قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فلتتين على هذا الجبل وعلى هذا الجبل، فقال الناس: سحر محمد. فقال رجل: إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم.

وقد روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة، منهم: عبدالله بن مسعود، وأنس بن مالك، وحذيفة بن اليمان، وابن عمر، وابن عباس، وجبير بن مطعم. وعليه جماعة المفسرين، إلا ما روي عن عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: معناه: وسينشق القمر. وروي ذلك عن الحسن. وأنكره أيضاً البلخي. وهذا لا يصح، لأن المسلمين أجمعوا على ذلك، فلا يعتد بخلاف من خالف فيه. ولأن اشتهاره بين الصحابة يمنع من القول بخلافه.

وإنما ذكر سبحانه اقتراب الساعة مع انشقاق القمر، لأن انشقاقه من علامة نبوة نبيِّنا محمد ﷺ، ونبوته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة.

وعن حذيفة: أنه خطب بالمدائن ثم قال: الا إن الساعة قد اقتربت، وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم.

وأيضاً يؤيد هذا القول قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ معجزة ﴿يُغْرِضُوا﴾ عن الإيمان بها عناداً وحسداً ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ دائم مطرد. وكل شيء قد انقادت طريقته ودامت حاله قيل فيه: قد استمر. وهو يدل على أنهم رأوا قبله آيات أخرى مترادفة ومعجزات متتابعة حتى قالوا ذلك. أو محكم من المرة. يقال: أمرته فاستمر، إذا أحكمته فاستحكم. أو مستبشع مر.

﴿وَكَذَّبُوا﴾ بالآية التي شاهدها ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهو ما زين لهم الشيطان من رد الحق بعد ظهوره. وذكرهما بلفظ الماضي للإشعار بأنهما من عاداتهم القديمة. ﴿وَكُلٌّ أُمَمٌ﴾ من أمرهم وأمر محمد ﷺ ﴿مُسْتَفِزٌّ﴾ منته إلى غاية، من خذلان أونصر في الدنيا، وشقاوة أو سعادة في الآخرة، فإن الشيء إذا انتهى إلى غايته ثبت واستقر.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ جاء هؤلاء الكفار في القرآن ﴿مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أنباء القرون الخالية وإهلاكنا إياهم. أو أنباء الآخرة وما وصف من عذاب الكفار. ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ ازدجار، من تعذيب أو وعيد. أو موضع ازدجار. والمعنى: هو في نفسه موضع للازدجار ومظنة له، كقوله: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١) أي: هو أسوة. وتاء الافتعال تقلب دالاً مع الدال والذال والزاء للتناسب.

﴿جَحْمَةٌ بِالْفَعِّ﴾ غايته، أي: بلغت الغاية والنهاية في الوضوح، لا خلل فيها أصلاً. وهي بدل من «ما»، أو خبر لمحذوف. ﴿فَمَا تَغْنِ الْفُتُورُ﴾ نفي أو استفهام

إنكار منصوب المحل، أي: فأَيُّ غناء تغني النذر؟ وهو جمع نذير، بمعنى المنذر أو المنذر منه. أو مصدر بمعنى الإنذار.

﴿فَقَوْلُ غَنَّهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم ولا تقابلهم على سفههم، لعلمك بأن الإنذار لا يغني فيهم. وها هنا وقف تام. ﴿يَوْمَ يَذُغُ الدَّاعِ﴾ إسرافيل أو جبرئيل، كقوله ﴿يَوْمَ يُفَادِ الْمُنَادِ﴾^(١). وإسقاط الياء اكتفاءً بالكسرة للتخفيف. وانتصاب «يوم» بـ«يخرجون» أو بإضمار: اذكر. ﴿إِنِّي شَيْءٌ نُكْرٍ﴾ فطبع تنكره النفوس، لأنها لم تمهد مثله، وهو هول يوم القيامة. وقرأ ابن كثير: نُكْرٍ بالتخفيف.

﴿خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ من قبورهم خاشعاً ذليلاً أبصارهم من الهول. وخشوع الأبصار كناية عن الذلّة والانخزال^(٢)، لأنّ ذلّة الذليل وعزّة العزيز تظهران في عيونهما. وإفراده وتذكيره لأنّ فاعله ظاهر غير حقيقيّ التأنيث. وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع وعاصم: خُشَعًا. وإنّما حسن ذلك، ولا يحسن: مررت برجال قائمين غلمانهم، لأنّه ليس على صيغة تشبه الفعل. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموّج والانتشار في الأمكنة. يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاؤا كالجراد وكالدبى^(٣).

وفيه دلالة على أنّ البعث إنّما يكون لهذه البنية، لأنها الكائنة في الأجداث، خلافاً لمن زعم أنّ البعث يكون للأرواح.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مسرعين مادّي أعناقهم إليه. أو ناظرين قبل الداعي. وهو حال من قوله: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ صعب شديد.

(١) ق: ٤١.

(٢) أي: الانقطاع والانكسار.

(٣) الدبى: أصغر الجراد. والواحدة: دبّاة.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾
 فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ
 ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾
 وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ
 كُفْرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
 وَنَذِيرٌ ﴿١٦﴾

ثم هدد المعاندين المكذبين بذكر قصص الأنبياء ﷺ واستئصالهم، لفراط
 عنادهم وتكذيبهم، فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً. وهو تفصيل بعد
 إجمال. وقيل: معناه: كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب، كلما مضى منهم قرن
 مكذب تبعه قرن مكذب. أو كذبوه بعد ما كذبوا الرسل. ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ هو
 مجنون ﴿وَازْدُجِرَ﴾ زجر عن التبليغ بأنواع الأذية. وقيل: إنه من جملة قيلهم، أي:
 هو مجنون وقد ازدجرته الجن، أي: ذهبت بلبه وتخبطته وطارت بقلبه.

﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ غلبني قومي، فلم يسمعوا مني، واستحكم اليأس
 من إجابتهم لي ﴿فَانْتَصِرْ﴾ فانتقم لي منهم بعذاب تبعته عليهم. وذلك بعد يأسه
 منهم. وقد روي: أن الواحد منهم كان يلقيه فيخنقه حتى يخر مغيثاً عليه، فيفيق
 وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

ثم بين سبحانه إجابته لدعاء نوح ﷺ، فقال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ هاهنا

حذف معناه: فاستجبنا لنوح دعاءه، ففتحنا أبواب السماء ﴿يَفْقَهُ مُنْهَمِرٌ﴾ أي: أجريننا من السماء ماءً منصّباً في فرط كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوماً، كجريانه بدفع شديد إذا فتح عنه باب كان مانعاً له. وقرأ ابن عامر ويعقوب: ففتحنا بالتشديد، لكثرة الأبواب.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وجعلنا الأرض كلّها كأنها عيون متفجرة. وأصله: وفجّرنا عيون الأرض، فغيّر للمبالغة. ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ ماء السماء وماء الأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْفِيرٍ﴾ على حال قدرها الله في الأزل من غير تفاوت. أو على حال قدّرت وسوّيت، وهو أن قدّر ما أنزل من السماء على قدر ما أخرج من الأرض سواء بسواء. أو على أمر قد قدر في اللوح أنّه يكون، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

﴿وَحَفَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ﴾ ذات أخشاب عريضة ﴿وُدُسِرَ﴾ ومسامير. جمع دسار، وهو فعال من: دسره إذا دفعه، فإنّه يدسر به منفذه. ومصدره الدسر، وهو الدفع الشديد. وهي صفة للسفينة أقيمت مقامها، من حيث إنّها كالشرح لها تؤدّي مؤدّاها.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ برأى منا، أي: محفوظة بحفظنا. ومنه قولهم: عين الله عليك. وقيل: معناه: بأعين أوليائنا ومن وكلّناهم بها من الملائكة. وقيل: معناه: تجري بأعين الماء التي انبعناها. ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا﴾ أي: فعلنا ذلك جزاءً لنوح. وحعله مكفوراً لأنّه نعمة كفرها، فإنّ كلّ نبيّ نعمة من الله ورحمة على أمّته. ويجوز أن يكون على حذف الجارّ وإيصال الفعل إلى الضمير، تقديره: لمن كان كفر به.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ أي: السفينة، أو الفعلة ﴿آيَةً﴾ يعتبر بها، إذ شاع خبرها واشتهر. وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة - وقيل: على الجودي - دهرًا طويلاً حتّى نظر إليها أوائل هذه الأمة. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ معتبر.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ استفهام تعظيم ووعيد. والنذر يحتمل المصدر، وجمع نذير، وهو الإنذار.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ
مُتَسَمِّرٍ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعَرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ سهّلناه للذكّار والانتعاض، بأن صرفنا فيه أنواع
المواعظ والعبر، بأن وشحناه بالمواعظ الشافية والإنذارات الوافية. أو للحفظ.
وقيل: معناه: ولقد هيّأناه للذكر. من: يسّر ناقته للسفر إذا رحّلها، ويسّر فرسه للفرّو
إذا أسرجه وألجمه. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ متعظ.
﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ بالرسول الذي بعث إليهم، وهو هود، فاستحقوا الهلاك.
﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي: إنذارني لهم بالعذاب قبل نزوله، أو لمن بعدهم في
تعذيبه.

ثم بيّن كيفية إهلاكهم، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ بارداً، من
الصرّ، وهو البرد. أو شديد الصوت، من الصرّ. ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم ﴿مُتَسَمِّرٍ﴾
استمرّ شؤمه. أو استمرّ عليهم بنحوسته سبع ليالٍ وثمانية أيام حتّى أهلكهم. أو
على جميعهم، كبيرهم وصغيرهم، فلم يبق منهم أحداً. أو اشتدّ مرارته. وكان يوم
الأربعاء في آخر الشهر.

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ تقلعهم عن أماكنهم. روي: أنّهم دخلوا في الشعاب والحفر،
وأخذ بعضهم بأيدي بعض ملاصقين، فزعتهم الريح منها، وأكبتهم ودقّت رقابهم

وصرعتهم، فصاروا أمواتاً على الأرض جثاً طوالاً عظاماً. ﴿عَاجَزُ نَخْلٍ مَّنْقَعٍ﴾ أصول نخل بلا فروع، منقلع عن مغارسه، ساقط على الأرض. وقيل: شبّهوا بالأعجاز، لأنّ الريح طيّرت رؤوسهم وطرحت أجسادهم بلا رؤوس. وتذكير منقعر للحمل على اللفظ. والتأنيث في قوله: ﴿عَاجَزُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾^(١) للمعنى.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ كثره للتحويل. وقيل: الأول لما حاق بهم في الدنيا، والثاني لما يحقّ بهم في الآخرة. كما قال أيضاً في قصّتهم: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾^(٢).

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿٢٢﴾ كَذَبَتْ ثُمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّنَّا أَحَدًا تَبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾ أَوَّلَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسَلُونَ النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَبَيِّنْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَظَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾

(١) الحاقة: ٧.

(٢) فصلت: ١٦.

﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذَّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ بالإشارات والمواعظ التي جاءهم بها صالح. أو بالرسل المنذرين بسبب تكذيبهم صالحاً، لأنّ تكذيب واحد من الرسل كتكذيب الجميع، لأنّهم متفقون في الدعاء إلى التوحيد وإن اختلفوا في الشرائع.

﴿فَقَالُوا ابْشِرْنَا مَنَّا﴾ من جنسنا، أو من جملتنا، لافضل له علينا. وانتصابه بفعل يفسره ما بعده. ﴿وَاجِدًا﴾ منفرداً لاتباع له. أو من آحادهم دون أشرفهم. ﴿نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ جمع سكير. كأنّهم عكسوا عليه، فرتّبوا على اتّباعهم إيّاه ما رتّبته على ترك اتّباعهم له. وقيل: السعر الجنون. ومنه: ناقة مسعورة. ﴿أَعْلَيْنَا الذُّكْرُ﴾ الكتاب، أو الوحي ﴿عَلَيْهِ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾ هذا استفهام إنكار وجحود، أي: كيف ألقى الوحي عليه وخصّ بالنبوة وفيينا من هو أحقّ منه بالاختيار للنبوة؟! ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِيرٌ﴾ بطر متكبر، حمله بطره على الترفع والتعظيم علينا بادعاء ذلك.

ثمّ قال سبحانه وعيداً لهم: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ أي: عند نزول العذاب بهم، أو يوم القيامة. وإمّا قال: «غداً» على وجه التقريب، على عادة الناس في ذكرهم الغد وإرادتهم العاقبة، فقالوا: إنّ مع اليوم غداً. ﴿مَنْ الْكَذَّابُ الْأَشِيرُ﴾ الذي حمله أشيره على الاستكبار عن الحقّ وطلب الباطل، أصالح ﷺ أم من كذّبه؟! وقرأ ابن عامر وحزمة ورويس: سَتَعْلَمُونَ، على الالتفات، أو حكاية ما أجابهم به صالح.

﴿إِنَّا مُزِيلُوا النَّاقَةَ﴾ مخرجوها وباعثوها معجزة لصالح. وهاهنا حذف، وهو أنّهم تعتّوا على صالح ﷺ، فسألوه أن يخرج لهم من صخرة ناقة حمراء عُسْرَاء^(١)، تضع ثم ترد ماءهم فتشربه ثمّ تعود عليهم بمثله لبناً. فقال سبحانه: إِنَّا

(١) العُسْرَاء: الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر، وهي كالنساء من النساء.

مرسلوا الناقة كما سألوها ﴿فَتَنَّةٌ لَهُمْ﴾ امتحاناً لهم ﴿فَأَزَيَّجْنَاهُمْ﴾ فانتظر أمر الله فيهم، وتبصر ما هم صانعون ﴿وَاضْطَبَّيْنَاهُمْ﴾ على أذاهم حتى يأتيك أمري.

﴿وَنَبِّئْنَاهُمْ﴾ وأخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم لها شرب يوم، ولهم شرب يوم. وإنما قال: «بينهم» لتغليب العقلاء. ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ نصيب من الماء ﴿مُخْتَصَرٌ﴾ محصور لهم، أو للناقة. ففي يوم الناقة تحضره الناقة، وفي يومهم يحضرونه. وقيل: يحضرون الماء في نوبتهم، واللبن في نوبتها.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ أي: دبروا في أمر الناقة بالقتل، فدعوا واحداً من أشرارهم، وهو: قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿فَتَعَاطَى﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم غير مكرث له ﴿فَعَقَزَ﴾ فأحدث العقر بالناقة فقتلها. وقيل: فتعاطى السيف فقتلها. والتعاطى تناول الشيء بتكلف.

﴿فَتَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي: فانظر كيف كان عذابي لهم وإنذاري إيّاهم. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني: صيحة جبرئيل ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ﴾ كالحشيش أو الشجر اليابس المتهشم المتكسر، الذي يجمعه صاحب الحظيرة لما شيته في الشتاء. والحظيرة: هي التي يتخذها المحتظر - أي: صاحبها - لغنمه تمنعها من برد الريح. والمعنى: أنهم بادوا وهلكوا، فصاروا كيبس الشجر المتفتت إذا تحطم.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٢٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا

عَذَابِي وَنُذِرٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنُذِرٍ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿٤٠﴾

﴿وَلَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ عَذَّبَتْ قَوْمَ لُوطٍ بِالنُّذْرِ﴾ بالإنذار، أو
بالرسل ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تحصبهم بالحجارة، أي: ترميهم ﴿إِلَّا آلَ
لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ في سحر، وهو آخر الليل. أو مسحرين. ﴿نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا﴾
إنعاماً منا. وهو علة لـ«نَجَّيْنَا». ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة.

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ لوط ﴿بَطُشَّتِنَا﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ﴾
فكذبوا بالنذر متشاكين. من المرية. أو فتدافعوا بالإنذار على وجه الجدال بالباطل.
﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ليقصدوا الفجور
بهم ﴿فَطَفَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ فمسحناها وسويناها بسائر الوجه، لا يرى لها أثر عين.
روي: أنهم لما عالجوا باب لوط ليدخلوا قالت الملائكة: خلّهم يدخلوا إِنَّا رسل
ربك، لن يصلوا إليك. فصفقهم فأعماهم، فتركهم يترددون لا يهتدون إلى الباب
حتى أخرجهم لوط. ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٍ﴾ فقلنا لهم: ذوقوا، على السنة
الملائكة.

﴿وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ﴾ أتاهم في الصباح ﴿بُكْرَةً﴾ أَوَّلَ النهار وباكره، كقوله:
مشرقين ومصبحين ﴿عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ ثابت قد استقرّ عليهم إلى أن يفضي بهم إلى
عذاب الآخرة.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٍ وَلَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ كرّر ذلك في
كلّ قصّة إشعاراً بأن تكذيب كلّ رسول مقتضى لنزول العذاب، واستماع كلّ قصّة
مستدعٍ للادّكار والاتّعاظ. واستئنافاً للتنبيه والاتّعاظ، لئلا يغلبهم السهو، ولا
تستولي عليهم الغفلة، لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب في كلّ زمان، مصوِّرة

للأذهان، المذكورة من غير نسيان في كل أوان. وهكذا تكرير قوله: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ زَبَعُنَا تُكْذِبَانِ﴾ عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن. و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عند كل آية أوردها في سورة المرسلات، ونحو ذلك.

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾ الإنذارات، أو المنذرون. وهم: موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء، لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون. واكتفى بذكر آل فرعون عن ذكره، للعلم بأنه أولى بذلك منهم.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يعني: الآيات التسع ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب ﴿مُقْتَدِرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمَرٌ ﴿٤٦﴾

ثم خوف سبحانه كفار مكة، فقال: ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ يا معشر العرب ﴿خَيْرٌ﴾ أشد وأقوى في أسباب الدنيا ﴿مِنْ أُولَئِكَ﴾ الكفار، المعدودين من قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون، أي: أهم خير قوة وعدة، أو مكانة في الدنيا، أو أقل كفراً وعناداً؟ والاستفهام للإتيكار. والمعنى: لستم مثل أولئك، لا في القوة، ولا في الثروة، ولا في كثرة العدد والعدة. فإذا هلك أولئك الكفار فما الذي يؤمنكم أن ينزل

بكم ما نزل بهم؟ ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أم أنزلت عليكم يا أهل مكة براءة في الكتب السماوية، أن من كفر منكم وكذب الرسل فهو في أمان من العذاب، فأمتتم بتلك البراءة؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ فَخُنْ جَمِيعٌ﴾ جماعة، أمرنا مجتمع ﴿مُنْقَصِرٌ﴾ ممتنع، لانرام ولا نظام. أو منتصر من الأعداء لا تغلب. أو متناصر ينصر بعضنا بعضاً. والتوحيد على لفظ الجميع. وروي: أن أبا جهل ضرب فرسه يوم بدر، فتقدم في الصف وقال: نحن نتنصر اليوم من محمد وأصحابه.

﴿سَيُهْزَمُ الْجَنْعُ﴾ أي: جميع كفار مكة ﴿وَيُلَوْنُ الدُّبُرُ﴾ أي: الأدبار. وإفراده لإرادة الجنس، أو لأن كل واحد يولي دبره. وقد وقع ذلك يوم بدر، وهو من دلائل النبوة.

وعن عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال عمر: لم أعلم ما هو، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يلبس الدرع ويقول: «سيهزم الجمع» فعلته.

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ موعد عذابهم الأصلي، وما يحق بهم في الدنيا فمن طلائعه ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْنَى﴾ أشد وأفظع. والداهية أمر فظيع لا يهتدى لدوائه. ﴿وَأَمْرٌ﴾ مذاقاً من الهزيمة والقتل والأسر، وغير ذلك من عذاب الدنيا.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ

﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ
مُّقَدَّرٍ ﴿٥٥﴾

ثم بين سبحانه حال القيامة، فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق في الدنيا ﴿وَسُعْرٍ﴾ ونيران في الآخرة.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ يجرون عليها، يقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ حر النار وألمها، فإن مسها سبب التألم بها، كقولك: وجد مس الحمى، وذاق طعم الضرب، إذا تأذى وتألم منهما. وسقر: علم لجهنم. وعدم صرفها للعلمية والتأنيث. وأصل السقر: التلويح، من: سقرته النار وصقرته إذا لوّحته.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ خلقنا كل شيء مقدراً بمقدار على مقتضى الحكمة. أو مقدراً مكتوباً في اللوح قبل وقوعه.

وعن الحسن: على قدر معلوم. فخلقنا اللسان للكلام، واليد للبطش، والرجل للمشي، والعين للنظر، والأذن للسمع، والمعدة للطعام. ولو زاد أو نقص عما قدرناه لما تم الغرض.

وقيل: معناه: جعلنا لكل شيء شكلاً يوافقه ويصلح له، كالمرأة للرجل، والأنثى للحمار، وثياب الرجال للرجال، وثياب النساء للنساء.

و«كل شيء» منصوب بفعل يفتره ما بعده. واختيار النصب هاهنا مع الإضمار، لما فيه من النصوصية على المقصود.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ إلا كلمة واحدة سريعة التكوين. وهو قوله: «كن» عند إرادة إيجاد شيء بلا تأخير. ﴿كَلَفَجَ بِالْبَصْرِ﴾ في اليسر والسرعة. والمعنى: إذا أراد تكوين شيء لم يلبث كونه إلا فعلة واحدة. وهو الإيجاد بلا معالجة

ومعاناة. وقيل: معناه معنى قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَفْحِ النَّبْصِرِ﴾^(١).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ﴾ أشباهكم في الكفر ممن قبلكم. وسأهم أشياعهم لما وافقوهم في الكفر وتكذيب الأنبياء. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ متعظ.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ مكتوب في كتب الحفظة ودواوينهم.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال والأرزاق والآجال والموت والحياة وغيرها مما هو كائن ﴿مُسْتَظَرٍّ﴾ مسطور في اللوح.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أنهار الجنة، من الماء والخمر واللبن والعسل. واكتفى باسم الجنس. وقيل: هو السعة والضياء، من النهار.

﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضي. وسمي صدقاً، لأن الله صدق وعد أوليائه فيه. ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ مقررين عند من تعالى أمره في الملك والاقتدار، فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته. فأَيُّ منزلة أكرم من تلك المنزلة، وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها؟ وليس المراد قرب المكان، لتعالیه سبحانه عن ذلك، بل المراد أنهم في كنفه وجوار رحمته وكفايته، حيث تنالهم غواشي رحمته وفضله.



سورة الرحمن

مَكِّيَّة. وهي ثمان وسبعون آية.

أَبِي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ سورة الرحمن رحم الله ضعفه، وأدَّى شكر ما أنعم الله عليه».

وروي عن موسى بن جعفر، عن آبائه عليهم السلام، عن النبي ﷺ قال: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن جلّ ذكره».

أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا تدعوا قراءة الرحمن والقيام بها، فإنّها لا تقرّ في قلوب المنافقين. وتأتي ربّها يوم القيامة في صورة آدمي في أحسن صورة وأطيب ريح، حتّى تقف من الله موقفاً لا يكون أحد أقرب إلى الله منها. فيقول لها: من الذي كان يقوم بك في الحياة الدنيا ويدمن قراءتك؟ فتقول: يا ربّ فلان وفلان. فتبيضّ وجوههم. فيقول لهم: اشفعوا فيمن أحببتهم. فيشفعون حتّى لا يبقى لهم غاية ولا أحد يشفعون له. فيقول لهم: ادخلوا الجنّة واسكنوا فيها حيث شئتم».

حمّاد بن عثمان قال: «قال الصادق عليه السلام: يجب أن يقرأ الرجل سورة الرحمن يوم الجمعة، فكلّمَا قرأ «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» قال: لا بشيء من آلائك يا ربّ أكذب».

وعنه عليه السلام قال: «ومن قرأ سورة الرحمن ليلاً، يقول عند كلّ «فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»: لا بشيء من آلائك يا رب أكذب. وكل الله به ملكاً إن قرأها في أول الليل يحفظه حتى يصبح، وإن قرأها حين يصبح وكل الله به ملكاً يحفظه حتى يمسي».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ

﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا

الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾

فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ

﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

ولما ختم الله سبحانه سورة القمر باسمه، افتتح هذه السورة أيضاً باسمه،

فقال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ لما كانت هذه السورة

مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية، صدرها بالرحمن. ثم أراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق قدماً من ضروب آلائه وأصناف نعمائه، وهي نعمة الدين، فقدم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها وأقصى رواتبها، وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، لأنه أعظم وحي الله رتبة، وأعلاه منزلة، وأحسنه في أبواب الدين

أثراً، وأعزّ الكتب السماوية حكماً، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها مصدق لنفسه ومصدق لها.

ثم أتبعه قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ إيماءً بأن الغرض من خلق البشر، وما يميّز به عن سائر الحيوان من البيان، وهو المنطق الفصيح المعرب عمّا في الضمير، هو معرفة الله سبحانه، والعلم بالشرعيّات، والعمل بمقتضاها، وإفهام الغير بها، كما تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزّك بعد ذلّ، كثرّك بعد قلّة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد، فما تنكر من إحسانه؟

وعن ابن عباس: المراد بالإنسان آدم. وتعليم البيان تعليم أسماء كلّ شيء واللغات كلّها.

وعن ابن كيسان: الإنسان محمّد ﷺ، علّمه القرآن والبيان.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ يجريان بحساب معلوم مقدّر في بروجهما ومنازلهما، وتَسْقِي بذلك أمور الكائنات السفليّة، وتختلف الفصول والأوقات، ويعلم السنون والحساب، وغير ذلك من المنافع العظيمة للناس، من الضياء والنور، ومعرفة الليل والنهار، ونضج الثمار، ونظائرها. ولكثرة منافعهما خصّهما بالذكر.

﴿وَالنَّجْمُ﴾ والنبات الذي ينجم، أي: يطلع من الأرض ولا ساق له، كالبقول ﴿وَالشَّجَرُ﴾ والذي له ساق ﴿يَسْجُدَانِ﴾ ينقادان لله فيما خلقا له طبعاً، انقياد الساجد من المكلفين طوعاً.

وكان حقّ النظم في الجملتين أن يقال: وأجرى الشمس والقمر، وأسجد النجم والشجر، أو الشمس والقمر بحسابانه، والنجم والشجر يسجدان له، ليطابقا ما قبلهما وما بعدهما في اتّصالهما بالرحمن، لكنّهما جرّدتا عمّا يدلّ على الاتّصال إشعاراً بأنّ وضوحه يغنيه عن البيان.

وإدخال العاطف بينهما للتناسب بينهما، وهو أنّ الشمس والقمر سماويّان،

والنجم والشجر أرضيان، فبين القبلين تناسب من حيث التقابل. وأن السماء والأرض لا تزالان تذكران قريتين. وأن جري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله، فهو مناسب لسجود النجم والشجر، لاشتراكهما في الدلالة على أن ما يحس به من تغيرات أحوال الأجرام العلوية والسفلية بتقديره وتديره.

وعن مجاهد: أراد: أن نجم السماء - وهو موحد، والمراد به جميع النجوم - والشجر يسجدان لله بكرة وأصيلاً، كما قال: ﴿وَالشَّجَرُ وَالذَّوَابُّ﴾^(١).

وقيل: سجودهما سجود ظلالهما، كقوله: ﴿يَتَقَفَّيُوا ظِلَّاهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾^(٢). والمعنى: أن كل جسم له ظلّ فهو يقتضي الخضوع، بما فيه من دليل الحدوث وإثبات المحدث المدبّر.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ خلقها مرفوعة محللاً ومرتبة، حيث جعلها منشأ أقضيته، ومنزل أحكامه، ومحلّ ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه. ونبه بذلك على كبرياء شأنه، وتعالى ملكه، وعظمة سلطانه.

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ العدل، وهو الانصاف والانتصاف، بأن وفرّ على كلّ مستعدّ مستحقّه، ووفّى كلّ ذي حقّ حقّه، حتّى انتظم أمر العالم واستقام، كما قال ﷺ: «بالعدل قامت السماوات والأرض». أو ما يعرف به مقادير الأشياء، من ميزان ومكيال ومقياس ونحوها، فعلى به أحكام عبادته وقضاياهم وما تعبدّهم به، من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم. كأنه لنا وصف السماء بالرفعة من حيث إنّها مصدر القضايا والأقدار، أراد وصف الأرض بما فيها، ممّا يظهر به التفاوت، ويعرف به المقدار، ويستوي به الحقوق والمواجب.

﴿أَلَا تَطْفَؤُا فِي الْمِيزَانِ﴾ لئلا تطفؤا فيه، أي: لا تعتدوا، ولا تجاوزوا

(١) الحج: ١٨.

(٢) النحل: ٤٨.

الإنصاف.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ وقوموا وزنكم بالعدل ﴿وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوه، فإن من حقه أن يسوى، لأنه المقصود من وضعه. وتكريره مبالغة في التوصية به، وزيادة حث على استعماله.

ثم قابل قوله: «والسماء رفعها» بقوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ خفضها مدحوة على الماء ﴿يَلْدُنَّامِ﴾ للخلق. وهو كل ما على ظهر الأرض من دابة. وعن الحسن: الجن والإنس. وقيل: الأنام كل ذي روح. فهي كالمهاد لهم يتصرفون فوقها.

﴿فِيهَا فَاجِهَةٌ﴾ ضروب مما يتفكه به ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أوعية التمر. جمع كم بكسر الكاف. أو كل ما يكتم - أي: يغطى - من ليف وسعف وكفري^(١)، أول ما يبدأ من التمر، فإنه يتفجع به كما يتفجع بالمكموم من ثمره وجماره^(٢) وجذوعه.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ كالحنطة والشعير وسائر ما يتغذى به. والعصف ورق النبات اليابس، كالتبن. ﴿وَالزَّيْتَانُ﴾ يعني: المشموم. أو الرزق، من قولهم: خرجت أطلب زيتان الله، أي: رزق الله. أراد: أن فيها ما يتلذذ به من الفواكه، والجامع بين التلذذ والتغذي وهو ثمر النخل، وما يتغذى به وهو الحب.

وقرأ ابن عامر: والحب ذا العصف والريحان، أي: وخلق الحب وخلق الريحان، أو وأخص الحب والريحان. ويجوز أن يراد: وذا الريحان، فحذف المضاف.

وقرأ حمزة والكسائي: وَالزَّيْتَانِ بِالْخَفْضِ، وما عدا ذلك بالرفع. وهو فيعلان من الروح، فقلبت الواو وأدغم ثم حذف. وقيل: روحان، فقلبت واوه ياءً للتخفيف. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لأنها كلها منعم عليكم بها. والخطاب للثقلين

(١) الكَفْرَى: وعاء طلع النخل.

(٢) الجُمَار: شحم النخلة.

المدلول عليهما بقوله: «للأنام» وبقوله: ﴿سَنَقْرَعُ لَكُمْ أَثُهَا الثَّقَلَانِ﴾^(١). والمعنى: أنه لا يمكن جحد شيء من هذه النعم. ووجه تكرار هذه الآية قد مر في سورة القمر.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ
مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ
الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ يعني: آدم، أو جميع البشر، لأن أصلهم آدم ﷺ ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ من طين يابس له صلصلة، أي: صوت إذا ضربت يدك عليه ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ كالخزف والآجر. وقد خلق الله آدم من تراب، بأن جعله طيناً، ثم حمأ مسنوناً، ثم صلصالاً. فلا يخالف قوله: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ﴾^(٣) ﴿حَمَإً مَّسْنُونٍ﴾^(٤) ﴿مِنْ طِينٍ لَّزِيزٍ﴾^(٥).

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ أبا الجن. وقيل: هو إبليس، أو جنس الجن. ﴿مِنْ مَّارِجٍ﴾ من لهب صافٍ من الدخان. وقيل: مختلط أحمر وأسود وأبيض. ﴿مِنْ نَّارٍ﴾ بيان «مارج» فإنه في الأصل للمضطرب، من: مرج إذا اضطرب. كأنه قيل: من صافٍ من نار.

(١) الرحمن: ٣١.

(٢) راجع ص ٥٣٣، ذيل الآية ٣٢.

(٣) آل عمران: ٥٩.

(٤) الحجر: ٢٦.

(٥) الصافات: ١١.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مِمَّا أَفَاضَ عَلَيْكُمَا فِي أَطْوَارِ خَلْقَتِكُمَا، حَتَّى صَيَّرَكُمَا أَفْضَلَ الْمَرْكَبَاتِ وَخِلَاصَةَ الْكَائِنَاتِ.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ مَشْرِقِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ وَمَغْرِبِيهِمَا. وَقِيلَ: مَشْرِقِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَمَغْرِبِيهِمَا.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مِمَّا فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَوَائِدِ الَّتِي لَا تَحْصَى، كَاعْتِدَالِ الْهَوَاءِ، وَاخْتِلَافِ الْفُصُولِ، وَحُدُوثِ مَا يَنْسَبُ كُلِّ فَصْلٍ فِيهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

مَرْجُ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

﴿مَرْجُ الْبَحْرَيْنِ﴾ أَرْسَلَهُمَا. مِنْ: مَرَجَتِ الدَّابَّةُ إِذَا أَرْسَلَتْهَا. وَالْمَعْنَى: أَرْسَلَ الْبَحْرَ الْمِلْحَ وَالْبَحْرَ الْعَذْبَ. ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ مُتَلَاقِيَيْنِ، لَا فَصْلَ بَيْنَ الْمَاءَيْنِ فِي مَرَأَى الْعَيْنِ.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حَاجِزٌ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ لَا يَبْغِي أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ بِالْمَازَجَةِ وَإِبْطَالِ الْخَاصِيَّةِ. أَوْ لَا يَتَجَاوِزَانِ حَدَّيْهِمَا بِإِغْرَاقِ مَا بَيْنَهُمَا. قِيلَ: إِنَّهُمَا بَحْرُ فَارِسَ وَبَحْرُ الرُّومِ.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حَيْثُ خَلَقَ الْبَحْرَيْنِ الْعَذْبَ وَالْمِلْحَ يَلْتَقِيَانِ بَحِثْ لَا يَخْتَلِطَانِ.

﴿يُخْرِجُ﴾ وَقَرَأَ نَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ: ﴿مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾

كبار الدرّ وصفاره. وقيل: المرجان الخرز الأحمر، وهو البسّند^(١). وإن صحَّ أنَّ الدرّ يخرج من الملح، فإنّما قال: «منهما» لأنّه لمّا التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال: يخرجان منهما، كما يقال: يخرجان من البحر، ولا يخرجان من جميع البحر، ولكن من بعضه. وتقول: خرجت من البلد. وإنّما خرجت من محلّة من محالّه، بل من دار واحدة من دوره.

وقيل: لا يخرجان إلّا من ملتقى الملح والعذب. فيكون العذب كاللقاح للملح، ولا يخرج اللؤلؤ إلّا من الموضع الذي يلتقي فيه الملح والعذب، وذلك معروف عند الفواصين.

ومثله قوله: ﴿وَجَعَلَ الْفَقْرَ فِيهِمْ نُورًا﴾^(٢) وإنّما هو في واحدة منهنّ. وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّمَا يُاتِيكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ﴾^(٣). والرسل من الإنس دون الجنّ. وعن ابن عباس: يخرج من ماء السماء وماء البحر، فإنّ القطر إذا جاء من السماء تفتّحت الأصداف، فكان من ذلك القطر اللؤلؤ.

وروي عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وسفيان الثوري: أنّ «البحرين» عليّ وفاطمة. «بينهما برزخ» محمّد ﷺ. «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» الحسن والحسين ﷺ.

ولا غرو أن يكونا ﷺ بحرين، لسعة فضلهما، وكثرة خيرهما، فإنّ البحر إنّما يسمّى بحرًا لسعته، وقد قال النبي ﷺ لفرس ركبه وأجرأه فأحمده: «وجدته بحرًا» أي: كثير المعاني الحميدة.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ممّا أعطاكم من ألبسة الجواهر الحسننة

(١) البسّند كسُكّر: المرجان. معرّب. الصحاح: ١: ٣٥١.

(٢) نوح: ١٦.

(٣) الأنعام: ١٣٠.

لتنزّلوا بها.

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾ السفن الجارية في الماء بأمر الله ﴿الْمُنْشَقَاتُ﴾ المرفوعات الشرع، أو المصنوعات. وقرأ حمزة وأبو بكر بكسر الشين، أي: الرافعات الشرع، أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهنّ، أو ينشئن السير. ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ﴾ كالجبال. جمع علم، وهو الجبل الطويل.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من خلق موادّ السفن، والإرشاد إلى أخذها، وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر، بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره.

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ على الأرض من الحيوانات أو المركبات. و«من» للتغليب. ولم يذكر مرجع الضمير لكونه معلوماً، كقولهم: ما بين لابتها، أي: لابتي المدينة. ﴿فَانٍ﴾ يفنون ويخرجون من الوجود. والتوحيد باعتبار لفظة «كُلُّ».

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ذاته. والوجه يعبر به عن الجملة والذات، باعتبار أنّ ذات الشيء يعرف بوجهه. ومساكين مكّة يقولون: أين وجه عربيّ كريم ينقذني من الهوان؟ ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ ذو العظمة والكبرياء بحيث لا يحيط بكنهه ما سواه. أو ذو الاستغناء المطلق. أو الذي يجعله الموحّدون عن التشبيه بخلقه، وعن أفعالهم. أو الذي يقال له: ما أجلك. ﴿وَإِكْرَامٍ﴾ ذو الفضل العامّ. أو الذي يقال له: ما أكرمك. وقيل: معنى جلاله وإكرامه: من عنده الجلال والإكرام للمخلصين من أنبيائه

وأوليائه بألطافه وإفضاله، مع كمال جلاله وعظمته. وهذه الصفة من أعظم صفات الله. ولقد قال رسول الله ﷺ: «الظُّلُومُ - يعني: الزُّمُومُ - يا ذا الجلال والإكرام». وعنه ﷺ «أنه مرَّ برجلٍ وهو يصلي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام. فقال: قد استجيب لك».

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: من بقاء الربِّ، وإبقاء ما لا يحصى ممَّا هو على صدد الفناء رحمةً وفضلاً. أو ممَّا يترتَّب على فناء الكلِّ، من الإعادة والحياة الدائمة والنعيم المقيم.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فَإِنَّهُمْ مُفْتَقِرُونَ إليه في ذواتهم وصفاتهم وسائر ما يهتمهم ويعنُّ لهم. فيسأله أهل السماوات ما يتعلَّق بدينهم، وأهل الأرض ما يتعلَّق بدينهم ودنياهم. والمراد بالسؤال ما يدلُّ على الحاجة إلى تحصيل الشيء، نطقاً كان أو غيره. ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ كلُّ وقت وحين يحدث أشخاصاً ويجدد أحوالاً، على ما سبق به قضاؤه، كما روي عن أبي الدرداء: «أنَّ رسول الله ﷺ تلاها، فقليل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرِّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين».

وعن ابن عباس قال: إنَّ ممَّا خلق الله تعالى لوحاً من دَرَّةٍ بيضاء، دواته ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، ينظر الله فيه كلَّ يوم ثلاثمائة وستين نظرة، يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعزِّ ويذلُّ، ويفعل ما يشاء، فذلك قوله: «كلُّ يومٍ هو في شأن».

وقيل: شأنه جلَّ ذكره أن يخرج في كلِّ يوم وليلة ثلاثة عساكر: عسكراً من أصلاب الآباء إلى الأرحام، وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا، وعسكراً من الدنيا إلى القبر، ثمَّ يرتحلون جميعاً إلى الله.

وقيل: شأنه إيصال المنافع إليك، ودفع المضارِّ عنك، فلا تغفل عن طاعة من

لا يغفل عن برك.

وعن ابن عيينة: الدهر عند الله يومان، أحدهما: اليوم الذي هو مدة عمر الدنيا، فشأنه فيه الأمر والنهي، والإماتة والإحياء، والإعطاء والمنع. والآخر: يوم القيامة، فشأنه فيه الجزاء والحساب.

وعن مقاتل: نزل في ردّ اليهود حين قالوا: إنّ الله لا يقضي يوم السبت شيئاً. وسأل بعض الملوك وزيره عن هذه الآية، فاستمعه إلى الغد، وذهب كئيباً يفكر فيها. فقال غلام له أسود: يا مولاي أخبرني ما أصابك، لعلّ الله يسهّل لك على يدي. فأخبره، فقال له: أنا أفسرها للملك فأعلمه.

فقال: أيّها الملك شأن الله أن يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحيّ من الميت، ويخرج الميت من الحيّ، ويشفي سقيماً، ويسقم سليماً، ويبتلي معافى، ويعافي مبتلى، ويعزّ ذليلاً، ويذلّ عزيزاً، ويفقر غنياً، ويغني فقيراً. فقال الأمير: أحسنت، وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة. فقال: يا مولاي هذا من شأن الله.

وعن عبدالله بن طاهر: أنّه دعا الحسين بن الفضل فقال له: أشكلت عليّ ثلاث آيات، دعوتك لتكشفها لي. قوله تعالى: ﴿فَأَضْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾^(١). وقد صحّ أنّ الندم توبة. وقوله: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(٢). وصحّ أنّ القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٣). فما بال الأضعاف؟

فقال الحسين: يجوز أن لا يكون الندم توبة في تلك الأمة، ويكون توبة في

(١) المائدة: ٣١.

(٢) الرحمن: ٢٩.

(٣) النجم: ٣٩.

هذه الأمة، لأن الله تعالى خصّ هذه الأمة بخصائص لم يشاركهم فيها الأمم. أو ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل، ولكن على حمله. وأما قوله: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» فمعناه: ليس له إلا ما سعى عدلاً، ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً. وأما قوله: «كلّ يوم هو في شأن» فإنها شؤون يديها، لا شؤون يبتدئها.

فقام عبدالله وقبّل رأسه، وسوّج خراجه.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ممّا يسعف به سؤلكما، وما يخرج لكما من مكنم العدم حيناً فحيناً.

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظُ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

ولمّا ذكر سبحانه الفناء والإعادة، عقّب ذلك بذكر الوعيد والتهديد، فقال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ ستتجرّد لحسابكم وجزائكم. وذلك يوم القيامة، فإنّها تعالى لا يفعل فيه غيره.

وتتقيح المعنى: ستنتهي الدنيا وتبلغ آخرها، وتنتهي عند ذلك شؤون الخلق التي أرادها بقوله: «كلّ يوم هو في شأن»، فلا يبقى إلا شأن واحد، وهو جزاؤكم، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل.

وقيل : تهديد مستعار من قولك لمن تهدده : سأفرغ لك . تريد : سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنك حتى لا يكون لي شغل سواه . والمراد : التوفّر على النكاية فيه والانتقام منه ، فإن المتجرد للشيء كان أقوى عليه وأجدّ فيه .
وقرأ حمزة والكسائي بالياء . والثقلان : الإنس والجنّ . ستميًا بذلك لشغلها على الأرض ، أو لرزاقتهما وأمرهما ، أو لأنهما مثقلان بالتكليف .

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من جملتها إعلامكم الحساب والجزاء ، لتستهيؤا في أعمال الخير ، وتجتنبوا عن أفعال الشرّ .

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ كالترجمة لقوله : «أيتها الثقلان» ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هارين من الموت ، أو فارّين من قضائه وقدره . يقال : نفذ الشيء من الشيء إذا خلاص منه ، كالسهم ينفذ من الرمية . ﴿فَانْفُذُوا﴾ فاخرجوا . ثم قال : ﴿لَا تَنْفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ إلا بقوة وقهر وغلبة ، وأنتى لكم ذلك ؟ فإنكم حيث توجهتم فثم ملكي وسلطاني .

بين سبحانه بذلك أنهم في حبسه ، وأنه مقتدر عليهم لا يفوتونه . وجعل ذلك دلالة على توحيده وقدرته ، وزجرًا لهم عن معصيته ومخالفته . ونحوه : ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(١) .

روي : أن الملائكة تنزل فتحيط بجميع الخلائق ، فإذا رآهم الجنّ والإنس هربوا ، فلا يأتون وجهًا إلا وجدوا الملائكة أحاطت به .

وقيل : المعنى : إن قدرتم أن تنفذوا لتعلموا ما في السماوات والأرض فانفذوا لتعلموا ، لكن لا تنفذون ولا تعلمون إلا ببيّنة نصبها الله ، فتخرجون عليها بأفكاركم .
﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي : من التنبيه والتحذير ، والمساهلة والعفو مع

كمال القدرة، لترغبوا بالطاعة، وتجنبوا عن المعصية. أو ممّا نصب من المصاعد العقلية والمعارج الثقليّة، فتفتذون بها إلى فوق السماوات العلى.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاْظٌ﴾ لهب أخضر منقطع ﴿مِنْ نَّارٍ وَنُحَاسٍ﴾ ودخان. أو صفر مذاب يصبّ على رؤوسهم. وعن ابن عباس: إذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ إلى المحشر.

وقرأ ابن كثير: شِواظٌ بكسر الشين. وهو لغة. ونُحاسٍ بالجرّ، عطفاً على «نارٍ». ووافقه أبو عمرو ويعقوب في رواية.

﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ فلا تقدران على دفع ذلك عنكما وعن غيركما. وجاء في الحديث: «يحاط على الخلق بالملائكة بلسان من نار، ثمّ ينادون: «يا معشر الجنّ والإنس» إلى قوله: «شواظ من نار ونحاس»».

وروى مسعدة بن صدقة عن كليب قال: «كنا عند أبي عبد الله عليه السلام فأنشأ يحدثنا، فقال: إذا كان يوم القيامة جمع الله العباد في صعيد واحد، وذلك أنّه يوحى إلى السماء الدنيا أن اهبطي بمن فيك، فيهبط أهل السماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجنّ والإنس والملائكة، فلا يزالون كذلك حتّى يهبط أهل سبع سماوات، فيصير الجنّ والإنس في سبع سرادقات من سبعة أطواق من الملائكة، فينظرون فإذا قد أحاط بهم سبعة أطواق من الملائكة، ثمّ ينادي منادٍ: «يا معشر الجنّ والإنس» إلى قوله: «فلا تنتصران».

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإنّ التهديد لطف. والتميز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفّار في عداد الآلاء.

فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي
وَالْأُقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ
بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يعني: يوم القيامة تصدعت السماء، وانفك بعضها من
بعض ﴿فَكَانَتْ وُزْدَةً﴾ فصارت وردة في الاحمرار. وهي جمع الورد. ﴿كَالْدُهَانِ﴾
أي: مذابة كالدهن. وهو اسم لما يدهن به، كالحزام. أو جمع دهن. وقيل: هو
الأديم^(١) الأحمر.

وقال الفراء: شبه تلون السماء بتلون الورد^(٢) من الخيل، وشبه الورد في
اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه.

وقيل: هو دهن الزيت، كما قال: ﴿كَالْمُهْلِ﴾^(٣). وهو: دردي^(٤) الزيت.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وجه النعمة في انشقاق السماء واحمرارها
وذوبانها، فإن في الإخبار به زجراً وتخويفاً في دار الدنيا يوجب الانقياد لأوامر الله،
فيكون فيه لطف.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: فيوم تتشق السماء ﴿لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ﴾ بعض من

(١) أي: الجلد.

(٢) الوزد من الخيل: ما كان أحمر اللون إلى صفرة. والورد: لون الورد.

(٣) المعارج: ٨.

(٤) الدردي من الزيت: الكدر الراسب في أسفله.

الإنس ﴿وَلَا جَنَ﴾ أريد به: ولا جنّ، أي: ولا بعض من الجنّ، فوضع الجنّ الذي هو أبو الجنّ موضع الجنّ، كما يقال: هاشم ويراد به ولده.

والمعنى: لا يسأل عصاة الإنس والجنّ، لأنّهم يعرفون بسيماهم، وذلك حينما يخرجون من قبورهم ويحشرون إلى الموقف ذوداً ذوداً^(١) على اختلاف مراتبهم.

وأما قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ﴾^(٢) ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُؤُلُونَ﴾^(٣) فحين يحاسبون في المجمع. قال قتادة: قد كانت مسألة ثمّ ختم على أفواه القوم، وتكلّمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

وقيل: معناه: لا يسأل عن ذنبه ليعلم من جهته، ولكن يسأل سؤال توبيخ. وروي عن الرضا عليه السلام أنّه قال: «فيومئذٍ لا يسأل منكم عن ذنبه إنس ولا جان».

والمعنى: أنّ من اعتقد الحقّ ثمّ أذنب ولم يتب في الدنيا عذب عليه في البرزخ، ثمّ يخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه. والضمير للإنس باعتبار اللفظ، فإنّه وإن تأخّر لفظاً تقدّم رتبة. وتوحيد ضمير الإنس لكونه في معنى البعض.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: ممّا أنعم الله على عباده المؤمنين في هذا اليوم.

﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلامتهم من سواد الوجه وزرقة العيون، ومن الكآبة والحزن ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ مجموعاً بينهما، أي: فتأخذهم

(١) ذَادَهُ ذَوْدًا: دفعه وطرده.

(٢) الحجر: ٩٢.

(٣) الصافات: ٢٤.

الزبانية فتجمع بين نواصيهم وأقدامهم بالغل، ثم يسحبون ويقذفون في النار.

وعن الضحّاك: يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره.

وقيل: تسحبهم الملائكة، تارة تأخذ بالنواصي، وتارة بالأقدام.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ممّا أعلمكم من تعذيب العاصين، لتجتنبوا

المعصية وترغبوا في الطاعة.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: يقال لهم: هذه جهنّم ﴿الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾

الكافرون ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ بين النار يحرقون بها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حارّ ﴿ءَانِ﴾

بلغ النهاية في الحرارة. يصبّ عليهم، أو يسقون منه.

وقيل: إذا استغاثوا من النار أغاثوا بالحميم.

وقيل: إنّ وادياً من أودية جهنّم يجتمع فيه صديد أهل النار، فينطلق بهم في

الأغلال، فيغمسون فيه حتّى تنخلع أوصالهم، ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم

خلقاً جديداً، وذلك قوله: ﴿كُلَّمَا فُضِّجَتْ جُلُودُهُمْ﴾^(١). الآية.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ولا شبهة أنّ التذكير بفعل العقاب والإنذار به من

أكبر النعم، لما فيه من الزجر عمّا يستحقّ به العقاب، والبعث والحثّ على فعل ما

يستحقّ به الثواب، وهذا نهاية اللطف.

وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْتَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ

تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ

زُوجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُكِنِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاشَتْهَا
 مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾
 فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّ الْيَابِقُوتَ وَالْمَرْجَانَ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

﴿وَلَيْمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب. أو مقام
 الخائف عند ربه للحساب، كقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١). أو قيامه
 على أحواله، من: قام عليه إذا راقبه. وعلى التقادير: أضاف المقام إلى الرب تفخيماً
 وتهويلاً. أو المراد: خاف ربه، و«مقام» مقم. ﴿جَنَّاتٍ﴾ جنة للخائف الإنسي،
 وجنة للخائف الجنّي، فإن الخطاب للفريقين.

والمعنى: لكلّ خائفين منكما أو لكل واحد جنة لعقيدته، وأخرى لعمله. أو
 جنة لفعل الطاعات، وأخرى لترك المعاصي، لأنّ التكليف دائر عليهما. أو جنة
 يثاب بها، وأخرى يتفصل بها عليه، كقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا النُّصْرَى وَزِيَادَةٌ﴾^(٢). أو
 جنة داخل القصر، والأخرى خارج القصر، كما يشتهي الإنسان في الدنيا. وقيل:

(١) المطففين: ٦.

(٢) يونس: ٢٦.

إحدى الجنتين منزله، والأخرى منزل أزواجه وخدمه. وقيل: جنة من ذهب، وجنة من فضة. أو روحانية وجسمانية. وكذا ما جاء مثني بعد.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما أعطاكم من نعم الجنة.

ثم وصف الجنتين بقوله: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أنواع من الأشجار والثمار، جمع فن. أو أغصان، جمع فن، وهي الفصنة التي تتشعب من فروع الشجر. وتخصيصها بالذكر لأنها التي تورق وتثمر، ومنها يمتد الظل. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيث شأوا في الأعالي والأسافل. وقيل: تجريان من جبل من مسك. وعن الحسن: تجريان بالماء الزلال، إحداهما: التسنيم، والأخرى: السلسيل. وقيل: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفان: غريب ومعروف، أو رطب ويابس. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ نصبه على المدح للخائفين، أو حال منهم، لأن «من خاف» في معنى الجمع، أي: قاعدين اتكاء كالملوك ﴿عَلَى فُؤُوسٍ بَاطِنَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ من ديباج ثخين. وإذا كانت البطائن كذلك فما ظنك بالظواهر؟! وقيل: ظواهرها من سندس. وقيل: من نور. وقيل لسعيد بن جبیر: البطائن من استبرق فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(١).

﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ قريب يناله القائم والقاعد، والمضطجع والمستلقي. و«جنى» اسم بمعنى: مجنى. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ﴾ في الجنان، فإن الجنتين تدل على الجنان. وهي للخائفين أو في الأماكن والقصور. أو في هذه الآلاء المعدودة، من الجنتين والعينين

والفاكهة والفرش. ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ نساء حور عين قصرن أبصارهن على أزواجهن. لا ينظرن إلى غيرهم. وقال أبو ذر: إنها تقول لزوجها: وعزة ربّي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلني زوجتك، وجعلك زوجي. ﴿لَمْ يَطْمِئْنُوهُمْ﴾ لم يفتضّهم. والافتضاض النكاح بالتدمية. ﴿إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ أي: لم يمَسَّ الإنسيّات إنس، ولا الجنّيّات جنّ، فهنّ خلقن أبكاراً في الجنة.

وقيل: هنّ من نساء الدنيا لم يمسهنّ منذ أنشئن خلق، أي: لم يجامعهنّ في هذا الخلق الذي أنشئن فيه إنس ولا جانّ.

وفيه دليل على أنّ الجنّ يطمئون كما يطمئ الإنسان. وقرأ الكسائي بضمّ الميم. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي: في حمرة الوجنة وبياض البشرة وصفائهما. والمرجان: صغار الدرّ، وهو أنصع بياضاً. وفي الحديث: «إنّ الحوراء تلبس سبعين حلّة، فيرى منّ ساقها من ورائها، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجاة البيضاء». وعن ابن مسعود: كما يرى السلك من وراء الياقوت. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ﴾ في العمل ﴿إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ في الثواب، أي: ليس جزاء من أحسن في الدنيا إلّا أن يحسن إليه في الآخرة.

وعن ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلّا الله، وعمل بما جاء به محمّد ﷺ، إلّا الجنة؟

وقيل: معناه: هل جزاء من أحسن إليكم بهذه النعم إلّا أن تحسنوا في شكره

وعبادته؟

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾
 مُدْهَمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ
 ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكِّينَ عَلَى رَقُوفٍ خُضِرَ وَعْبَقَرِي حِسَانٌ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾ ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للخائفين المقرّين
 ﴿جَنَّتَانِ﴾ لمن دونهم من أصحاب اليمين ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .
 ﴿مُدْهَمَّتَانِ﴾ خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة. وفيه إشعار
 بأنّ الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض،
 وعلى الأوليين الأشجار والفواكه، دلالة على ما بينهما من التفاوت.
 وعن أبي عبد الله عليه السلام: «لا تقولن: الجنة واحدة، إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمِنْ
 دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ولا تقولن: درجة واحدة، إنّ الله يقول: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ

بَغْضِ دَرَجَاتٍ»^(١). إِنَّمَا تَفَاضِلُ الْقَوْمَ بِالْأَعْمَالِ.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَصَاحَتَانِ﴾ فَوَارَتَانِ بِالْمَاءِ، ثُمَّ تَجْرِيَانِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:

تَنْضَخُ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ بِالمَسْكِ والعَنْبَرِ والكافور. وَقِيلَ: تَنْضَخَانِ بِأَنْوَاعِ الْخَيْرَاتِ. وَالنَّضْخُ أَكْثَرُ مِنَ النَّضْحِ غَيْرِ الْمَعْجَمَةِ، لِأَنَّ النَّضْحَ غَيْرِ الْمَعْجَمَةِ مِثْلُ الرِّشِّ. وَهُوَ أَيْضاً أَقَلُّ مِمَّا وَصَفَ بِهِ الْأَوَّلِينَ. وَكَذَا مَا بَعْدَهُ. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ﴾ أَلْوَانُ الْفَاكِهَةِ ﴿وَتَخْلُ وَرْمَانٌ﴾ عَطْفُهُمَا عَلَى الْفَاكِهَةِ بَيَاناً

لِفَضْلِهِمَا. كَأَنَّهُمَا لَمَّا لَهْمَا مِنَ الْمَزِيَّةِ جَنْسَانِ آخِرَانِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾^(٢).

وَقِيلَ: لِأَنَّ ثَمَرَةَ النَّخْلِ فَاكِهَةٌ وَغِذَاءٌ، وَثَمَرَةُ الرِّمَّانِ فَاكِهَةٌ وَدَوَاءٌ، فَلَمْ يَخْلَصَا

لِلتَّفَكُّهِ.

قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: «مَاعِلِمْتُ أَحَدًا مِنَ الْعَرَبِ قَالَ فِي النَّخِيلِ وَالْكَرْمِ وَثْمَارَهَا

إِنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْفَاكِهَةِ. وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ مَنْ قَالَ لِقَلَّةِ عِلْمِهِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ. وَالْعَرَبُ تَذَكُرُ الْأَشْيَاءَ جَمْلَةً، ثُمَّ تَخْصُّ مِنْهَا شَيْئاً بِالتَّسْمِيَةِ، تَنْبِيهاً عَلَى فَضْلِ فِيهِ»^(٣).

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾ أَيُّ: خَيْرَاتٍ، فَخَفَّفَتْ، لِأَنَّ خَيْرًا الَّذِي بِمَعْنَى الْأَخِيرِ لَا

يَجْمَعُ، فَلَا يُقَالُ فِيهِ: خَيْرُونَ وَلَا خَيْرَاتٍ. وَالْمَعْنَى: فَاضِلَاتُ الْأَخْلَاقِ ﴿حِسَانٌ﴾ حَسَانُ الْخَلْقِ. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿خُورٌ﴾ بَيَضُ حَسَانِ الْبَيَاضِ. يُقَالُ: الْعَيْنُ الْحُورَاءُ إِذَا كَانَتْ شَدِيدَةً بَيَاضَ

(١) الزخرف: ٣٢.

(٢) البقرة: ٩٨.

(٣) تهذيب اللغة ٦: ٢٥.

البياض، شديدة سواد السواد، وبذلك يتم حسن العين. ﴿مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾
 قصرن في خدورهن. يقال: امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة، أي: مخدرة. أو
 مقصورات الطرف على أزواجهن. قيل: إن كل خيمة من خيامهن درة مجوفة.
 وعن ابن عباس قال: الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ، فيها أربعة آلاف
 مصراع من ذهب.

وعن أنس، عن النبي ﷺ قال: «مررت ليلة أسري بي بنهر حافتاه قباب
 المرجان، فنوديت منه: السلام عليك يا رسول الله. فقلت: يا جبرئيل من هؤلاء؟
 قال: هؤلاء جوارٍ من الحور العين، استأذنن ربهن ﷺ أن يسلمن عليك، فأذن لهن.
 فقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نياس، أزواج رجال كرام. ثم
 قرأ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾.

وروي عنه ﷺ: «الخيمة درة واحدة طولها في السماء ستون ميلاً، في كل
 زاوية منها أهل للمؤمن لا يراه الآخرون».

وروي: أن نساء أهل الجنة يأخذ بعضهم بأيدي بعضهم، ويتغني بأصوات
 لم يسمع الخلائق مثلها: نحن الراضيات فلا نسخط، ونحن المقيمات فلا نظعن،
 ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام. وإذا قلن هذه المقالة أجابتهن
 المؤمنات من نساء الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما
 صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن. فغلبتهن
 والله.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿لَمْ يَطْمِئْنُوهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ كحور الأولين. وهم أصحاب الجنين،
 فإنهما يدلان عليهما. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ نصب على الاختصاص ﴿عَلَى زَرْقٍ﴾ فرش مرتفعة، أو

وسائد، أو نمارق. جمع رفرقة. وقيل: الررفرف ضرب من البسط، أو ذيل الخيمة. وقد يقال لكل ثوب عريض. ﴿حُضِرَ وَعَبَقْرِي حِسَانٍ﴾ العبقري منسوب إلى عبقر، تزعم العرب أنه اسم بلد للجن، فينسبون إليه كل شيء عجيب. وقيل: هو ثوب الديباج. وقيل: كل ثوب موسى^(١). والمراد به الجنس، ولذلك جمع حسان حملاً على المعنى. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ تعالى اسمه من حيث إنه مطلق على ذاته، فما ظنك بذاته؟ وقيل: الاسم بمعنى الصفة، أو مقحم. ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾. وقرأ ابن عامر بالرفع صفة للاسم.

(١) وَشَى الثوبَ وَوَشَاهُ: حَسَنَهُ بِالْأَلْوَانِ وَنَعْمَهُ وَنَقَشَهُ.

سورة الواقعة

مَكِّيَّة. وهي ست وتسعون آية.

أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة كتب: ليس من الغافلين».

وعن مسروق قال: من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ الدنيا، ونبأ الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة.
وروي: أن عثمان بن عفان دخل على عبدالله بن مسعود يعود في مرضه الذي مات فيه، فقال له: ماتت كي؟

قال: ذنوبي.

قال: ما تشتهي؟

قال: رحمة ربي.

قال: أفلا ندعو الطبيب؟

قال: الطبيب أمرضني.

قال: أفلا نأمر بعطائك؟

قال: منعته وأنا محتاج إليه، وتعطينيه وأنا مستغني عنه.

قال: يكون لبناتك.

قال: لا حاجة لهنّ فيه، فقد أمرتهنّ أن يقرأن سورة الواقعة، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كلّ يوم وليلة لم تصبه فاقة أبداً».

وروى العياشي بالاسناد عن زيد الشحام، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ سورة الواقعة قبل أن ينام لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر». وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ في كل ليلة جمعة الواقعة أحبه الله، وحببه إلى الناس أجمعين، ولم ير في الدنيا يؤساً أبداً، ولا فقراً ولا آفة من آفات الدنيا، وكان من رفقاء أمير المؤمنين».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ
﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ
هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾

واعلم أنه سبحانه لما ختم سورة الرحمن بصفة الجنة، افتح سورة الواقعة أيضاً بصفة القيامة والجنة، فاتصلت إحداهما بالأخرى اتصال النظير بالنظير، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ أي: إذا حدثت القيامة، كقولك: إذا حدثت الحادثة، وكانت الكائنة. وسأها واقعة لتحقق وقوعها، فكانت قيل: إذا وقعت الساعة التي لا بد من وقوعها. وفيه حث على الاستعداد لها. وانتصاب «إذا» بمحذوف، مثل: اذكر، أو كان كيت وكيت. أو بقوله: ﴿لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: لا تكون حين وقوع الواقعة نفس تكذب على الله، أو تكذب فيها كما تكذب الآن، لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات، كقولك: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَذَهُ﴾^(١). وقوله:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(١). وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِزَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْثَةً﴾^(٢). واللام مثلها في قوله: ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾^(٣) أي: ليس لأجل وقعتها نفس تكذبها، فإن من أخبر عنها صدق.

أوليس لها حينئذٍ نفس تحدث صاحبها بإطاقة شدتها واحتمالها، وتغريه عليها. من قولهم: كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم، إذا شجعتته على مباشرة وقالت له: إنك تطيقه وما فوقه، فتعرض له ولا تبال به. على معنى: أنها وقعة لا تطاق شدة وفظاعة، وأن لا نفس حينئذٍ تحدث صاحبها بما تحدثه به عند عظام الأمور، وتزيّن له احتمالها وإطاقها، لأنهم يومئذٍ أضعف من ذلك وأذلّ. ألا ترى إلى قوله: ﴿كَالْفَرَّاشِ الْمُبْتُوثِ﴾^(٤)، والفراش مثل في الضعف. وقيل: كاذبة مصدر - كالعاقبة - بمعنى التكذيب.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي: هي تخفض قوماً، وترفع قوماً آخرين. وهو تقرير لعظمتها، ووصف لها بالشدّة، فإنّ الوقائع العظام يرتفع فيها ناس ويُنْضَع ناس. أو بيان لما يكون حينئذٍ من خفض أعداء الله إلى الدرجات، ورفع أوليائه إلى الدرجات. والمعنى: أنّها تخفض رجالاً كانوا في الدنيا مرتفعين، وتجعلهم أدلّة بإدخالهم النار، وترفع رجالاً كانوا في الدنيا أدلّة، وتجعلهم أعزّة بإدخالهم الجنّة. أو إزالة الأجرام عن مقارّها، بنثر الكواكب وتسيير الجبال في الجوّ.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ حرّكت تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل. والظرف متعلّق بـ«خافضة» أي: تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبسّ الجبال، لأنّ عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض. أو

(١) الشعراء: ٢٠١.

(٢) الحجّ: ٥٥.

(٣) الفجر: ٢٤.

(٤) القارعة: ٤.

بدل من «إذا وقعت».

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ وفُتَّتْ^(١) حتى صارت كالسويق الملتوت. من: بَسَّ السويق إذا لته. أو سبقت وسيرت. من: بَسَّ الغنم إذا ساقها. كقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾^(٢). ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً﴾ غباراً ﴿مُنْفِثًا﴾ منتشرًا.

وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُكْنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ ﴿١٩﴾ وَقَافِكَةٍ مِمَّا يَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا أَقِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾

(١) فَتَّ الشيء: كسره بالأصابع كسرًا صغيرة.

(٢) النبأ: ٢٠.

ثم وصف سبحانه أحوال الناس، بأن قال: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً ﴿ثَلَاثَةً﴾ فإنه يقال للأصناف التي بعضها مع بعض أو يذكر بعضها مع بعض: أزواج. ثم فسرها بقوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْغَيْثَةِ﴾ فأصحاب المنزل السنّة. من قولك: فلان منّي باليمين، إذا وصفته بالرفعة عندك، لتيمّنتهم باليمان، وتقال لهم بالسائح^(١)، ولذلك اشتقوا لليمين الاسم من اليمن. أو الذين يعطون صحائفهم بأيمانهم. أو الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة. أو أصحاب اليمن والبركة، فإنّ السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم. ﴿مَا أَصْحَابُ الْغَيْثَةِ﴾ أي: أي شيء هم. وفي إقامة الظاهر مقام الضمير تفخيم لشأنهم العظيم، وتعجيب لرسولهم من حالهم الفخيمة في الجنة، كما يقال: هم ما هم.

﴿وَأَصْحَابُ النَّفْثَةِ﴾ وأصحاب المنزل الدنيّة. من قولهم: فلان منّي بالشمال، إذا صفوه بالضعّة عندهم، لتشاؤمهم بالشمال، وتطيّرهم بالبارح^(٢). ولذلك سمّوا الشمال: لشؤمى. أو الذين يعطون صحائفهم بشمائلهم. أو الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار. أو أصحاب الشؤم، لأنّ الأشقياء مشائم عليها بمعصيتهم. ﴿مَا أَصْحَابُ النَّفْثَةِ﴾ أي شيء هم. تفخيم لخطبهم في العقوبات الشديدة، وتعجيب لرسوله من حالهم الوضيعة.

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ والذين سبقوا إلى ما دعاهم الله إليه من الإيمان والطاعة بعد ظهور الحقّ، وشقّوا الغبار في طلب مرضاته من غير تلثم وتوانٍ، أو سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات. أو الأنبياء، فإنهم مقدّموا أهل الأديان. ﴿السَّابِقُونَ﴾ هم الذين عرفت حالهم ومآلهم، كقول أبي النجم: أنا أبو النجم وشعري شعري. كأنه قال: وشعري ما انتهى إليك، وسمعت بفصاحته وبراعته.

(١) السائح: الذي يأتي من جانب اليمين، أو ما مرّ من يسارك إلى يمينك من ظبي أو طائر.

(٢) البارح: الذي يأتي من جانب اليسار.

﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي: السابقون إلى أنواع الطاعات هم الذين يقربون إلى رحمة الله في أعلى مراتب الجنة، وإلى جزيل ثواب الله في أعظم الكرامة.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «السابقون أربعة: ابن آدم المقتول، وسابق في أمة موسى، وهو مؤمن آل فرعون، وسابق في أمة عيسى، وهو حبيب النجار، والسابق في أمة محمد صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام».

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هم كثير من الأولين. يعني: الأمم السابقة من لدن آدم إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وآله. ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ يعني: أمة محمد صلى الله عليه وآله. ولا يخالف ذلك قوله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ أُمَّتِي يَكْثُرُونَ سَائِرَ الْأُمَمِ». لجواز أن يكون سابقوا سائر الأمم أكثر من سابقي هذه الأمة، وتابعوا هذه أكثر من تابعيهم. ولا يردّه قوله في أصحاب اليمين: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^(١)، لأن كثرة الفريقين لا تنافي أكثرية أحدهما.

وقيل: إن الأولين من متقدمي هذه الأمة، والآخرين من متأخريها، لما روي مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وآله: «الثَلَاثَانِ جَمِيعاً مِنْ أُمَّتِي».

واشتقاقها من الثلّ، وهو القطع والكسر، كما أنّ الأمة من الأمّ، وهو الشجّ، كأنّها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم. فكلّ واحد من الفريقين المذكورين في الآية يقطع من الآخر.

﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ خبر آخر للضمير المحذوف. والموضونة: المنسوجة بالذهب مشبكة بالدرّ والياقوت، قد دخل بعضها في بعض، كما توضن حلق الدرّ. من الوضن، وهو نسج الدرّ. قال المفسرون: منسوجة بقضبان الذهب، مشبكة بالدرّ والجواهر. وقيل: متواصلة أدنى بعضها من بعض.

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ حالان من الضمير في «على سرر». وهو العامل فيها، أي: استقروا عليها متكئين على السرر متقابلين، لا ينظر بعضهم في أقفاء بعض. وصفوا بحسن العشرة، وتهذيب الأخلاق والآداب.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة ﴿وَلَذَانُ مُخَلَّدُونَ﴾ مبقون أبداً على شكل الولدان وطراوتهم، لا يتحولون عنه. قيل: مقرطون. من الخَلْدَة، وهي: القرط^(١). قيل: هم أولاد أهل الدنيا، لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيئات فيعاقبوا عليها. وروى ذلك عن علي عليه السلام. وفي الحديث: «أولاد الكفار خدام أهل الجنة».

﴿بِإِبْرَاقٍ وَأَبْرَاقٍ﴾ حال الشرب وغيره. والكوب: إناء لا عروة ولا خرطوم له. والإبريق: إناء له ذلك. وعن قتادة: هي القداح الواسعة الرؤوس لا خراطيم لها. ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ من خمر ظاهر للعيون جارٍ.

﴿لَا يُصْذَعُونَ عَنْهَا﴾ بالخمار^(٢). وحقيقته: لا يصدر صداعهم عنها. ﴿وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ ولا تنزف عقولهم - أي: لا تذهب - بالسكر. أو لا ينفد شرايبهم. وقرأ الكوفيون بكسر الزاء.

﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يأخذون خيره وأفضله ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يتمنون، فإن أهل الجنة إذا اشتهوا لحم الطير خلق الله تعالى لهم لحم الطير نضيجاً، حتى لا يحتاج إلى ذبح الطير وإيلامه. وقال ابن عباس: يخطر على قلبه الطير، فيصير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى.

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ عطف على «ولدان». أو مبتدأ محذوف الخبر، أي: وفيها، أو ولهم حور. وقرأ حمزة والكسائي بالجرّ عطفاً على «جئات»، أي: هم في جئات وفاكهة ولحم وحور. أو على «أكواب» لأنّ معنى «يطوف عليهم ولدان مخلدون

(١) القُرْطُ: ما يعلّق في شحمة الأذن من درّة ونحوها.

(٢) الخُمَارُ: صُدَاعُ الخمر.

بأكواب: ينعمون بأكواب. ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَخْنُونِ﴾ المصون عما يضر به في الصفاء والنقاء.

﴿جَزَاءً﴾ يجزون جزاءً ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴿كَلَامًا بَاطِلًا﴾ وَلَا تَأْثِيمًا ﴿وَلَا نِسْبَةَ إِلَى الْإِثْمِ﴾ فلا يقال لهم ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ قولاً ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ بدل من «قيلًا». كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾^(١). أو صفته. أو مفعوله. بمعنى: إلا أن يقولوا سلاماً. أو مصدر. والتكرير للدلالة على فشوا السلام بينهم.

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ غُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ في سدر ﴿شجر نبق﴾ ﴿مَخْضُودٍ﴾ منزوع الشوك. أي: لا شوك له. من: خضد الشوك إذا قطعه. فكأنه خضد شوكه. أو مثني أغصانه من كثرة حمله. من: خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب. قال الضحّاك: نظر المسلمون إلى وج. وهو وادٍ مخصب بالطائف. فأعجبهم

سدره. وقالوا: ليت لنا مثل هذا. فنزلت الآية.

﴿وَطَلْحٍ﴾ وشجر موز، أو أمّ غيلان، وله أنوار كثيرة طيبة الرائحة. وعن السدي: شجر يشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل. ﴿مَنْضُودٍ﴾ نضد حملة من أسفله إلى أعلاه، فليست له ساق بارزة.

﴿وِظْلٍ مَفْدُودٍ﴾ دائم منبسط لا يتقلص، كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. وقد ورد في الخبر: «أَنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ لَا يَقْطَعُهَا». وروي أيضاً: «أَنَّ أَوْقَاتَ الْجَنَّةِ كَقَدَوَاتِ الصَّيْفِ، لَا يَكُونُ فِيهِ حَرٌّ وَلَا بَرْدٌ».

﴿وَمَاءٍ مِّنْكَوْبٍ﴾ يسكب لهم أين شاؤوا، وكيف شاؤوا بلا تعب. أو مصبوب سائل، دائم الجرية، لا ينقطع. وقيل: مصبوب يجري على الأرض في غير أخذود^(١). كأنه لما شابه حال السابقين في التنعم بأكمل ما يتصور لأهل المدن، شابه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتمناه أهل البوادي، إشعاراً بالتفاوت بين الحالين.

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ كثيرة الأجناس. والوجه في تكرير ذكر الفاكهة بيان اختلاف صفاتها، فذكرت أولاً بأنها متخيرة، وذكرت هاهنا بأنها كثيرة.

﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ دائمة لا تنقطع في وقت ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ لا تمنع عن تناولها بوجه، كما يحظر على بساتين الدنيا.

﴿وَفُرْشٍ مَّرْقُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر. أو منضدة مرتفعة، أي: نضدت حتى ارتفعت. وقيل: الفرش النساء، لأن المرأة يكتنن عنها بالفراش، ومنه قوله ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر». وارتفاعها أنها على الأرائك. قال الله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ﴾^(٢). أو مرتفعات القدر في عقولهن

(١) الأخدود: الحفرة المستطيلة.

(٢) يتس: ٥٦.

وحسنهنّ وكمالهنّ. ولذلك عبّ به بقوله: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ أي: ابتدأنا خلقهنّ ابتداءً جديداً من غير ولادة، إبداءً أو إعادة.

وعن رسول الله ﷺ: «إِنَّ أُمَّ سَلَمَةَ سَأَلَتْهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ». فَقَالَ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ هُنَّ اللَّوَاتِي قَبَضْنَ فِي دَارِ الدُّنْيَا عَجَائِزَ شُمَطاً رُمَصاً^(١)، جَعَلَهُنَّ اللَّهُ بَعْدَ الْكِبَرِ أَتْرَاباً، عَلَى مِيلَادٍ وَاحِدٍ فِي الْإِسْتَوَاءِ^(٢)، كُلَّمَا أَتَاهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ وَجَدُوهُنَّ أَبْكَاراً. فَلَمَّا سَمِعَتْ عَائِشَةُ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: وَأَوْجَعَاهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَيْسَ هُنَاكَ وَجَعٌ».

وقالت عجوزة لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا الْعَجَائِزُ. فَوَلَّتْ وَهِيَ تَبْكِي. فَقَالَ ﷺ: أَخْبِرْوَهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ يَوْمَئِذٍ بِعَجُوزٍ».

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾ عذارى ﴿عُرُباً﴾ متحبيات إلى أزواجهنّ. جمع عروب. وقيل: العروب اللعوب مع زوجها. وسكن راء حمزة وأبو بكر. ﴿أَتْرَاباً﴾ مستويات في السنّ، فَإِنَّ كُلَّهُنَّ بَنَاتٌ ثَلَاثٌ وَثَلَاثِينَ. وكذا أزواجهنّ. وعن رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جَرِداً، مُردّاً، بِيضاً، جَعَاداً، مَكْحَلِينَ، أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ».

﴿لِأَضْحَافِ النَّيِّمِينَ﴾ متعلّق بـ«أَنْشَأْنَا» أو «جَعَلْنَا». أو صفة لأبْكَاراً. أو خبر لمحذوف، مثل: هنّ، أو لقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾. وهي على الوجوه الأول خبر محذوف. وإنّما نكرّ سبحانه الثلثة ليدلّ على أنّه ليس لجميع الأوّلين والآخرين، وإنّما هو لجماعة منهم، كما يقال: رجل من جملة الرجال.

(١) الشَّمْط جمع الشَّمْطَاء، وهي: الَّتِي خَالَطَ بَيَاضُ رَأْسِهَا سَوَادَ. وَالرَّمَص جمع الرَّمَصَاء، وهي: الَّتِي سَالَ مِنْهَا الرَّمَصُ. وَالرَّمَص: وَسَخٌ أَبْيَضٌ فِي مَجْرَى الدَّمْعِ مِنَ الْعَيْنَيْنِ.

(٢) لعل المراد: أنّهنّ في استواء الخلقة كأنّهنّ ولدن على ميلاد واحد.

روى نقلة الأخبار بالإسناد عن ابن مسعود قال: كنّا نتحدّث عند رسول الله ﷺ حتّى أكثرنا الحديث، ثمّ رجعنا إلى أهلنا، فلمّا أصبحنا غدونا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «عرضت عليّ الأنبياء الليلة بأتباعها من أممها، فكان النبيّ تجيء معه التّلة من أمّته، والنبيّ معه العصاة من أمّته، والنبيّ معه النفر من أمّته، والنبيّ معه الرجل من أمّته، والنبيّ ما معه من أمّته أحد. حتّى إذا أتى أخى موسى في كبكبة من بني إسرائيل، فلمّا رأيتهم أعجبوني، فقلت: أي ربّ من هؤلاء؟

قال: هذا أخوك موسى بن عمران، ومن معه من بني إسرائيل.

فقلت: ربّ فأين أمّتي؟

قال: انظر عن يمينك. فإذا طراب^(١) مكّة قد سدّت بوجوه الرجال.

فقلت: من هؤلاء؟

ف قيل: هؤلاء أمّتك، أَرْضِيَتْ؟

قلت: ربّ رَضِيَتْ.

قيل: انظر عن يسارك. فإذا الأفق قد انسَدَّ بوجوه الرجال.

فقلت: ربّ من هؤلاء؟

قيل: هؤلاء أمّتك، أَرْضِيَتْ؟

قلت: ربّ رَضِيَتْ.

ف قيل: إنّ مع هؤلاء سبعين ألفاً من أمّتك يدخلون الجنّة لا حساب عليهم.

قال: فأنشأ عكاشة بن محصن من بني أسد من خزيمه، فقال: يا نبيّ الله ادع

ربّك أن يجعلني منهم.

فقال: اللَّهُمَّ اجعله منهم.

ثمّ أنشأ رجل آخر فقال: يا نبيّ الله ادع ربّك أن يجعلني منهم.

(١) الطَّرَابُ: الروابي الصغار، أي: ما ارتفع من الأرض، وهي التّلة. وواحد: الطَّرِبُ.

فقال: سبقك بها عكاشة.

فقال نبي الله: فداكم أبي وأمي إن استطعتم أن تكونوا من السبعين فكونوا. وإن عجزتم وقصّرتم فكونوا من أهل الظراب. فإن عجزتم وقصّرتم فكونوا من أهل الأفق. وإني قد رأيت ثم ناساً كثيراً يتهاوشون^(١) كثيراً. فقلت: هؤلاء السبعون ألفاً. فاتفق رأينا على أنهم ناس ولدوا في الإسلام، فلم يزالوا يعملون به حتى ماتوا عليه.

فانتهى حديثهم إلى رسول الله ﷺ فقال: ليس كذلك، ولكنهم الذين لا يسرفون، ولا يتكبرون، ولا يتطيّرون، وعلى ربهم يتوكلون. ثم قال النبي ﷺ: إني لأرجو أن يكون من تبني ربع أهل الجنة. قال: فكبرنا.

ثم قال: إني لأرجو أن يكونوا ثلث أهل الجنة. فكبرنا. ثم قال: إني لأرجو أن يكونوا شطر أهل الجنة. ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾.

وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ
﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحُمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ
ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا
يَقُولُونَ أَنَذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ

(١) تهاوش القوم: اختلطوا واضطربوا، ووقعت بينهم الفتنة.

﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكْلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَعَاثُوا مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَزْلُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾

﴿وَأَضْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَضْحَابُ الشَّمَالِ فِي سَعْمٍ﴾ في حرّ نار ينفذ في المسامع ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وماء حارّ متناهٍ في الحرارة ﴿وَقُلٌّ مِنْ يَخْمُومٍ﴾ من دخان أسود. يفعول من الحممة. ﴿لَا بَارِدٍ﴾ كسائر الظلّ ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ ولا نافع. نفى بذلك ما أوهم الظلّ من الاسترواح.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ منهمكين في الشهوات، مشتغلين بها عن الاعتبار، تاركين الواجبات، طلباً لراحة أبدانهم.

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ الذنب العظيم. يعني: الشرك. ومنه: بلغ الغلام الحنث، أي: الحلم ووقت المؤاخظة بالذنب. ومنه: حنث في يمينه، خلاف: برّ فيها. ويقال: تحنّث إذا تأثّم.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ﴾ إنكاراً للبعث ﴿إِنِّذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَعْنَا لَمَعْبُوثُونَ﴾ كرّرت الهمزة للدلالة على إنكار البعث مطلقاً، وخصوصاً في هذا الوقت. كما دخلت العاطف في قوله: ﴿أَوَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ للدلالة على أن ذلك أشدّ إنكاراً في حقّهم، لتقدم زمانهم، أي: أو يبعث آبائنا الذين ماتوا قبلنا، إن هذا لبعيد جداً. وللفضل بالهمزة حسن العطف على المستكن في «لمبعوثون» من غير

تأكيد ب: نحن ، كما حسن في قوله : ﴿ مَا أَشْرَحْنَا وَلَا آبَأُونَا ﴾ ^(١) للفصل بـ «لا» المؤكدة للنفي . وقرأ نافع وابن عامر : «أو» بالسكون . وقد سبق مثله ^(٢) . والعامل في الظرف ما دلَّ عليه «مبعوثون» ، لاهو ، للفصل بـ «إن» والهمزة .

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ إلى ما وقَّعت به الدنيا - أي : حدَّت - من يوم معيَّن عند الله معلوم له . وهو يوم القيامة . ومنه : مواقيت الإحرام . وهي الحدود التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً . والإضافة بمعنى «من» كخاتم فضة .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَھَا الضَّالُّونَ ﴾ عن طريق الحق ﴿ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ بتوحيد الله ونبوة نبيّه وبالبعث . والخطاب لأهل مكة وأضرابهم . ﴿ لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴾ «من» الأولى للابتداء ، والثانية للبيان ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ من شدة الجوع .

﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ لغاية العطش . وتأنيت الضمير في «منها» وتذكيره في «عليه» على معنى الشجر ولفظه . ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ ﴾ الإبل التي بها الهيام . وهو داء يشبه الاستسقاء ، فلا تزال تشرب الماء حتَّى تموت . والمعنى : كشرب الإبل التي لا تروى بالماء . جمع أهيْم وهياء .

وقيل : الرمال ، على أنّه جمع هيام بالفتح . وهو الرمل الذي لا يتماسك . جمع على هَيْم ، كسحاب وشُحْب ، ثم خَفَّفَ وفعل به ما فعل بجمع أبيض . والمعنى : أنّه يسلِّط عليهم من الجوع ما يضطرُّهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل ، فإذا ملؤا منهم البطون يسلِّط عليهم من العطش ما يضطرُّهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم ، فيشربونه شرب الهيم .

والمعطوف أخصَّ من الآخر ، من حيث إنّ كونهم شاربين للحميم على ما هو

(١) الأنعام : ١٤٨ .

(٢) راجع ج ٥ ص ٥٤٥ ، ذيل الآية ١٧ من سورة الصافات .

عليه من تناهي الحرارة وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما تشرب الهميم الماء أمر عجيب أيضاً، فكانتا صفتين مختلفتين، فلا اتحاد بين المعطوف والمعطوف عليه ليلزم عطف الشيء على نفسه.

وقرأ نافع وعاصم وحزمة: شَرِبَ، بضم الشين.

﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء، فما ظنك بما يكون لهم بعد ما استقرؤا في الجحيم؟ وفيه تهكم، كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١)، لأن النزل ما يعد للنازل تكرمة له.

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

ثم احتج سبحانه عليهم في البعث، فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاً ﴿تُصَدَّقُونَ﴾ تحضيض على التصديق. إما بالخلق، لأنهم وإن كانوا مصدقين به، إلا أنهم لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق، فكانتهم مكذبون

به. وإما بالبعث، لأن من خلق أولاً لم يمتنع عليه أن يخلق ثانياً.

ثم نتهم سبحانه على وجه الاستدلال على صحة ما ذكره، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونُ﴾ أي: ما تقدفونه وتصبونه في الأرحام من النطف.

﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ تقدرونه وتصورونه بشراً سوياً ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ فإذا لم تقدروا أنتم وأمثالكم على ذلك فاعلموا أن الله سبحانه هو الخالق لذلك، وإذا ثبت أنه قادر على خلق الولد من النطفة، وجب أن يكون قادراً على إعادته بعد موته، لأنه ليس بأبعد منه.

ثم بين سبحانه أنه كما هو قادر على إيداء الخلق قادر على إماتهم، فقال: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ قسمناه عليكم، وأقتنا موت كل بوقت معين كما تقتضيه مشيئتنا. وقرأ ابن كثير بتخفيف الدال. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لا يسبقنا أحد، فيهرب من الموت أو يغير وقته. أو لا يغلبنا أحد، من: سبقته على كذا إذا غلبته عليه ولم تمكنه منه.

وقوله: ﴿عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ على الأول حال، أو علة لـ «قدَرنا»، و«على» بمعنى اللام، و«ما نحن بمسبوقين» اعتراض. وعلى الثاني صلة. والمعنى: لا يغلبني أحد على أن يخلق بديلكم أشباهكم. ويجوز أن يكون الأمثال جمع مثل. والمعنى: على أن نغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم.

﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في خلق أو صفات لا تعلمونها. يعني: أننا نقدر على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم؟!.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ حين خلقتكم من نطفة وعلقة ومضغة ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فهلاً تعتبرون وتستدلون بأن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى، فإنها أقل صنعا، لحصول المواد، وتخصيص الأجزاء، وسبق المثال. وهذا قياس منصوص العلة لا مطلقاً.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ تَبْذِرُونَ حَبَّهُ، وَتَعْمَلُونَ فِي أَرْضِهِ ﴿ءَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ﴾ تَنْبِتُونَهُ، بِأَنْ تَرْدُوهُ نَبَاتًا يَنْمُو إِلَى أَنْ يَبْلُغَ الْغَايَةَ ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ الْمُنْبِتُونَ، وَقَدْ اعْتَرَفْتُمْ بِأَنَّا نَحْنُ الزَّارِعُونَ. فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى إنبَاتِ الزَّرْعِ مِنَ الْحَبَّةِ الصَّغِيرَةِ وَيَجْعَلُهَا حُبُوبًا كَثِيرَةً، قَدَّرَ عَلَى إِعَادَةِ الْخَلْقِ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ. وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: زَرَعْتُ، وَلَيْقَلَ: حَرَثْتُ».

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ﴾ جَعَلْنَا ذَلِكَ الزَّرْعَ ﴿حُطَامًا﴾ هَشِيمًا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ. مِنْ: حَطَمَ إِذَا تَفَتَّتَ، كَالْفَتَاتِ وَالْجِذَازِ مِنْ: فَتَّ وَجَذَّ. ﴿فَطَلَلْتُمْ تَفَكَّهُوْنَ﴾ تَعْجِبُونَ. وَعَنْ الْحَسَنِ: تَنْدُمُونَ عَلَى تَعْبِكُمْ وَاجْتِهَادِكُمْ فِيهِ، وَإِنْفَاقِكُمْ عَلَيْهِ. أَوْ عَلَى مَا اقْتَرَفْتُمْ مِنَ الْمَعَاصِي الَّتِي أَصَبْتُمْ بِذَلِكَ مِنْ أَجْلِهَا، فَتَحَدِّثُونَ فِيهِ. وَالتَّفَكُّهُ: التَّنْقُلُ بِصَنُوفِ الْفَاكِهَةِ. وَقَدْ اسْتَعِيرَ لِلتَّنْقُلِ بِالْحَدِيثِ.

﴿إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ أَي: يَقُولُونَ: إِنَّا لَمُلْزَمُونَ غَرَامَةً مَا أَنْفَقْنَا. أَوْ مَهْلِكُونَ، لِهَلَاكِ رِزْقِنَا. مِنَ الْغَرَامِ، وَهُوَ الْهَلَاكُ. وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ: «إِنَّا عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ. ثُمَّ يَسْتَدْرِكُونَ فَيَقُولُونَ: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حَرَمْنَا رِزْقَنَا. أَوْ مَحْدُودُونَ لِحَظٍّ لَنَا وَلَا بَخْتٍ، لَا مَجْدُودُونَ، وَلَوْ كُنَّا مَجْدُودِينَ لَمَا جَرَى عَلَيْنَا هَذَا.

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمُنْزَلِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

ثُمَّ نَبِّهَ سَبْحَانَهُ عَلَى دَلَالَةِ أُخْرَى عَلَى إِمْكَانِ الْبَعْثِ وَوُقُوعِهِ، فَقَالَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ أَي: الْعَذْبَ الصَّالِحَ لِلشَّرْبِ.

﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ مِنَ السَّحَابِ. وَاحِدُهُ مَزْنَةٌ. وَقِيلَ: الْمَزْنُ السَّحَابُ الْأَبْيَضُ خَاصَّةً، وَهُوَ أَعْذَبُ مَاءٍ. ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ بِقُدْرَتِنَا، نِعْمَةٌ مِّنَّا عَلَيْكُمْ. وَالرُّؤْيَا إِن كَانَتْ بِمَعْنَى الْعِلْمِ فَمُتَعَلِّقَةٌ بِالْإِسْتِفْهَامِ.

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ ملحاً شديداً الملوحة لا يقدر أحد على شربه. من الأجيح، فإنه يحرق الفم. أو مرّاً شديداً المرارة. وحذفت اللام في جواب «لو» لعلم السامع بمكانها.

وتحقيقه: أن «لو» لما كانت داخلية على جملتين، معلقة ثانيتها بالأولى تعلق الجزاء بالشرط، ولم تكن مخرجة للشرط ك: إن، ولا عاملة مثلها، وإنما سرى في «لو» معنى الشرط اتفاقاً من حيث إفادتها في مضموني جملتيها أن الثاني امتنع لامتناع الأول، افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علماً على هذا التعلق، فزيدت هذه اللام لتكون علماً على ذلك، فإذا حذفت بعد ما صارت علماً مشهوراً مكانه، فلأن الشيء إذا علم وشهر موقعه وصار مألوفاً ومأنوساً به، لم يبال بإسقاطه عن الألفاظ استغناء بمعرفة السامع. ألا ترى إلى ما يحكى عن رؤية أنه كان يقول: خير، لمن قال له: كيف أصبحت؟ فيحذف الجار لعلم كل أحد بمكانه.

ويجوز أن يقال: إن هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب، للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب، وأن الوعيد يفقده أشد وأصعب، من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم. ألا ترى أنك إنما تسقي ضيفك بعد أن تطعمه. ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أمثال هذه النعم الضرورية التي لا يقدر عليها غير الله.

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكُرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾

ثُمَّ تَبَّه سُبْحَانَهُ عَلَى دَلَالَةِ أُخْرَى، فَقَالَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾^(١) تَقْدَحُونَهَا وَتَسْتَخْرِجُونَهَا مِنَ الزَّادِ. وَالْعَرَبُ تَقْدَحُ بِعُودَيْنِ، تَحْكُ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ، وَيَسْتَمُونَ الْأَعْلَى الزَّادَ، وَالْأَسْفَلَ الزَّادَةَ، شَبَّهُوهُمَا بِالْفَحْلِ وَالطَّرِيقَةِ.

﴿وَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ يَعْنِي: الشَّجَرَةُ الَّتِي مِنْهَا الزَّادُ ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا﴾ جَعَلْنَا نَارَ الزَّادِ ﴿تَذْكِرَةً﴾ يَتَذَكَّرُ بِهَا وَيَتَفَكَّرُ فِيهَا، لِيَعْلَمَ أَنَّ مِنْ قَدَرِ عَلَيْهَا وَعَلَى إِخْرَاجِهَا مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ قَدَرُ عَلَى النِّشْأَةِ الْآخِرَةِ، كَمَا مَرَّ فِي سُورَةِ يَسَّ^(٢). أَوْ تَبْصِرَةً فِي أَمْرِ الْمَعَاشِ، حَيْثُ عَلَّقْنَا بِهَا أَسْبَابَ الْمَعَاشِ كُلِّهَا، وَعَمَّمْنَا بِالْحَاجَةِ إِلَيْهَا الْبَلَوَى. أَوْ فِي الظَّلَامِ. أَوْ تَذْكِرَةً وَأَنْمُودَجًا لِنَارِ جَهَنَّمَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَيَذْكُرُونَ مَا أَوْعَدُوا بِهِ، لِمَا رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ بَنُو آدَمَ جِزءً مِنْ سَبْعِينَ جِزءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ».

﴿وَمَتَاعًا﴾ وَمَنْفَعَةً ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ لِلَّذِينَ يَنْزِلُونَ الْقَوَاءَ، وَهِيَ الْقَفْرُ. أَوْ لِلَّذِينَ خَلَّتْ بَطُونُهُمْ أَوْ مَزَاوِدُهُمْ مِنَ الطَّعَامِ. مِنْ: أَقْوَتِ الدَّارَ إِذَا خَلَّتْ مِنْ سَاكِنِيهَا.

وَقِيلَ: لِلْمُسْتَمْتِعِينَ بِهَا مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، الْمَسَافِرِينَ وَالْحَاضِرِينَ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَسْتَضِيئُونَ بِهَا فِي الظُّلْمَةِ، وَيَصْطَلُونَ مِنَ الْبَرْدِ، وَيَنْتَفِعُونَ بِهَا فِي الطَّبْخِ وَالْخَبْزِ. وَعَلَى هَذَا: يَكُونُ الْمُقْوِي مِنَ الْأَضْدَادِ. فَيَكُونُ الْمُقْوِي هُوَ الَّذِي صَارَ ذَا قُوَّةٍ مِنَ الْمَالِ وَالنِّعْمَةِ، وَالْمُقْوِي أَيْضًا الْذَاهِبُ مَالِهِ، النَّازِلُ بِالْقَوَاءِ مِنَ الْأَرْضِ. فَالْمَعْنَى: وَمَتَاعًا لِلْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ.

(١) راجع ج ٥ ص ٥٣٥، ذيل الآية (٨٠) من سورة يس.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾
وَأَنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ
﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾

ولمّا عدّد بدائع صنعه الدالّة على وحدانيّته وكمال قدرته وإنعامه على عباده،
عقّبه بالتسبيح، فقال :

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فأحدث التسبيح بذكر اسمه. أو بذكره عمّا لا
يليق بعظمة شأنه، فإن إطلاق اسم الشيء ذكره. والعظيم صفة للاسم أو الربّ.
وتفقيح المعنى: قل: سبحان الله، إمّا تنزيهاً له عمّا يقول الظالمون الذين يجحدون
وحدانيّته ويكفرون نعمته. وإمّا تعجباً من أمرهم في غمط^(١) آلائه وأياديه الظاهرة.
وإمّا شكراً لله على النعم التي عدّها ونّبّه عليها. وقد صحّ عن النبي ﷺ لمّا نزلت
قال: «اجعلوها في ركوعكم». يعني: قولوا فيه: سبحان ربّي العظيم.

﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ إذ المقسم عليه أوضح من أن يحتاج إلى قسم. أو فأقسم،
و«لا» مزيدة للتأكيد، كما في قوله: ﴿لَيْتَ لَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾^(٢). أو فلأنا أقسم،
واللام لام الابتداء التي دخلت على المبتدأ والخبر، كقولك: لزيد منطلق، فحذف
المبتدأ، وأشبع فتحة لام الابتداء. أو فلا رد لكلام يخالف المقسم عليه، وهو قول
الكفار: إنّ القرآن سحر وشعر وكهانة.

﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ بمساقطها ومغاريها. وتخصيص المغارب لما في غروبها

(١) غَمَطَ النعمة: لم يشكرها.

(٢) الحديد: ٢٩.

من زوال أثرها، والدلالة على وجود مؤثر لا يزول تأثيره، أو بمنازلها ومجاريها. ولعلّ الله سبحانه في آخر الليل إذا انحطّت النجوم إلى المغرب أفعالاً مخصوصة عظيمة، أو للملائكة عبادات موصوفة، أو لأنّه وقت قيام المتجهّدين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين، ونزول الرحمة والرضوان عليهم.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام: «أَنَّ مَوَاقِعَ النُّجُومِ رَجُومُهَا لِلشَّيَاطِينِ».

وقيل: النجوم نجوم القرآن، ومواقعها أوقات نزولها.

وقرأ حمزة والكسائي: بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ.

ثم استعظم ذلك القسم بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ لما في القسم به من الدلالة على عظم القدرة وكمال الحكمة وفراط الرحمة، ومن مقتضيات رحمته أن لا يترك عباده سدى. وهو اعتراض في اعتراض، فإنّه اعتراض بين المقسم والمقسم عليه، أعني: قوله: «إنّه لقرآن كريم». و«لو تعلمون» اعتراض بين الموصوف والصفة.

﴿إِنَّهُ﴾ إنّ الذي تلوناه عليك ﴿لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ كثير النفع، لاشتماله على أصول العلوم المهمّة في إصلاح المعاد والمعاش. أو حسن مرضي في جنسه من الكتب. أو كريم على الله. ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ أثبت في كتاب مصون محفوظ، وهو اللوح.

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: لا يطلّع على اللوح إلّا المطهّرون من الكدورات الجسمانيّة، وهم الملائكة. هذا إن جعلت الجملة صفة لـ«كتاب مكنون». وإن جعلت صفة للقرآن، فالمعنى: لا ينبغي أن يمسّ القرآن - أي: مكتوبه إلّا المطهّرون من الأحداث الكبرى والصغرى. وهذا مروى عن أبي جعفر عليه السلام، وعطاء، وطاووس، وسالم. وهو مذهب مالك والشافعي أيضاً. فيكون النفي بمعنى النهي. أو لا يطلبه إلّا المطهّرون من الكفر.

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ صفة ثالثة أو رابعة للقرآن. وهو مصدر نعت به، لأنه نزل نجوماً من بين سائر كتب الله تعالى، فكأنه في نفسه تنزيل. ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه، ف قيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل. أو هو تنزيل، على حذف المبتدأ.

أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُمْ مُذْهَبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينِيذٌ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصْرَ لَكُمْ وَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾

ثم خاطب سبحانه أهل مكة فقال: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ الذي حدثناكم به، وأخبرناكم فيه عن حوادث الأمور. وهو القرآن. ﴿أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾ متهاونون به كمن يدهن في الأمر، أي: يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به. ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ على حذف المضاف. والرزق: المطر الذي هو سببه، تسمية للمسبب باسم السبب. والمعنى: وتجعلون شكر ما يرزقكم الله من الغيث ﴿أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بكونه من الله حيث تنسبونه إلى الأنواء. فوضعتم التكذيب موضع الشكر.

عن ابن عباس: أصاب الناس عطش في بعض أسفاره، فدعا ﷺ فسقوا، فسمع رجلاً يقول: مطرنا بنوء كذا، فنزلت هذه الآية.

وقيل: معناه: أتجعلون حظكم من القرآن الذي رزقكم الله التكذيب به.

﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاً ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ﴾ بلغت النفس الخلقوم عند الموت

﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ﴾ ترون تلك الحال. والخطاب لمن حول المحتضر. والواو للحال. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ ونحن أعلم ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى المحتضر ﴿مِنْكُمْ﴾ عبر عن العلم بالقرب الذي هو أقوى سبب الاطلاع ﴿وَلَكِنْ لَا تَنْبَصِرُونَ﴾ لا تدركون كنه ما يجري عليه.

وقيل: معناه: ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم، ولكن لا تبصرون رسلنا القابضين روحه.

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ غير مجزيين يوم القيامة. أو مملوكين مقهورين. من: دانه إذا أذله واستعبده. وأصل التركيب للذل والانقياد.

﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ ترجعون النفس إلى مقرها. وهو عامل الظرف. والمحضض عليه: «لولا» الأولى، والثانية تكرير للتوكيد. وهي بما في حيزها دليل جواب الشرط. والمعنى: إن كنتم غير مملوكين مجزيين، كما دلّ عليه جحدكم أفعال الله وتكذيبكم بآياته ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أباطيلكم. فلولا ترجعون الأرواح إلى الأبدان بعد بلوغها الحلقوم.

وتوضيح المعنى: إنكم في جحدكم أفعال الله وآياته في كل شيء. إن أنزل عليكم كتاباً معجزاً قلتم: سحر وافتراء. وإن ارسل إليكم رسولاً قلتم: ساحر كذاب. وإن رزقكم مطراً يحييكم به قلتم: صدق نوء كذا، على مذهب يؤدي إلى الإهمال والتعطيل. فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم، إن لم يكن ثم قابض، وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحيي المميت المبدئ المعيد؟! وإذا لم تقدروا على ذلك، فاعلموا أنه من تقدير مقدّر حكيم، وتدبير مدبر عليم.

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾
وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ

﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزَّلْ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾
وَتَضْلِيلَةٍ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

ثم ذكر سبحانه حال المخلوقات عند الموت، فقال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْضَرِّينَ﴾ أي: إن كان المحتضر الذي بلغت روحه الحلقوم من السابقين، من الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة ﴿فَرَوْحٌ﴾ فله استراحة ولذة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ ورزق طيب. وقيل: هو الريحان المشعوم من رياحين الجنة. وقيل: الروح النجاة من النار، والريحان دخول دار القرار. وقيل: روح في القبر، وريحان في القيامة والجنة. ﴿وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ ذات تنعم.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ﴾ يا صاحب اليمين ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ الذين من إخوانك، يسلمون عليك، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾^(١).

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث والرسول ﴿الضَّالِّينَ﴾ عن الهدى. يعني: أصحاب الشمال. وإتاما وصفهم بأفعالهم زجرًا عنها، وإشعاراً بما أوجب لهم ما أوعدهم به. ﴿فَنَزَّلْ﴾ فنزلهم الذي أعد لهم، من الطعام والشراب ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ وتضليلَةٍ جَحِيمٍ، وذلك ما يجد في القبر من سموم النار ودخانها.
﴿إِنَّ هَذَا﴾ إِنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، أَوْ فِي شَأْنِ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: الحق الثابت من اليقين الذي لا شبهة معه.
﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فنزه اسم الله تعالى عما لا يليق بعظمته شأنه.

سورة الحديد

مدنية. وهي تسع وعشرون آية.

أبي بن كعب، عن النبي ﷺ، قال: «من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسوله».

وروى العرياض بن سارية، قال: «إن النبي ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، ويقول: إن فيهن آية أفضل من ألف آية».

وروى عمرو بن شمر، عن جابر الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ المسبحات كلها قبل أن ينام لم يمت حتى يدرك القائم عليه السلام، وإن مات كان في جوار رسول الله ﷺ».

الحسين بن أبي العلاء، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ سورة الحديد والمجادلة في صلاة الفريضة وأدمنها، لم يعذبه الله أبداً حتى يموت، ولا يرى في نفسه ولا في أهله سوءاً أبداً، ولا خصاصة في بدنه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي
الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا
كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ
تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُوبِخُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوبِخُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾

ولما ختم الله سبحانه سورة الواقعة بالتسبيح، افتتح هذه السورة أيضاً
بالتسبيح، وعقبه بالدلائل الموجبة للتسبيح، فقال:

﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جاء التسبيح
هاهنا وفي الحشر والصف بلفظ الماضي، وفي الجمعة والتغابن بلفظ المضارع،
إشعاراً بأن من شأن ما أسند إليه التسبيح - من السماوات والأرض - أن يسبحه في
جميع أوقاته، لأنه دلالة جليّة لا تختلف باختلاف الحالات. ومجيء المصدر
مطلقاً في بني إسرائيل أبلغ، من حيث إنه يشعر بإطلاقه على استحقاق التسبيح من
كل شيء وفي كل حال، من الملائكة والتقلين.

وإنما عدّي هاهنا باللام، إشعاراً بأن إيقاع الفعل لأجل الله وخالصاً لوجهه.
ومثله: نصحت له، في: نصحته. فالمعنى: أحدث التسبيح والتنزيه من كل سوء
خالصاً لله. وأصل التسبيح التعدي بنفسه. كما في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾^(١). لأن

معنى: سَبَّحْتَهُ: بَعَّدْتَهُ عَنِ السُّوءِ. منقول من: سَبَّحَ إِذَا ذَهَبَ وَبَعَدَ.

«ما في السموات والأرض» ما يتأتى منه التسبيح ويصح. أو يسبِّح له ذو الروح وغيره. أمّا العقلاء فيسبِّحونه قولاً واعتقاداً ولفظاً ومعنىً. وأمّا غير العقلاء من سائر الحيوانات والجمادات فتسبيحه ما فيه من الأدلة الدالة على وحدانيته، وعلى الصفات التي باين بها جميع خلقه، وما فيه من الحجج على أنه لا يشبه خلقه، وأن خلقه لا يشبهه، فعبر سبحانه عن ذلك بالتسبيح.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حال يشعر بما هو المبدأ للتسبيح. والمعنى: وهو القادر الذي لا يمتنع عليه شيء من الأشياء، المحكم لأفعاله، العليم بوجوه الصواب في التدبير.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنه الموجد لهما، والمتصرف فيهما، وليس لأحد منعه منه ﴿يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ﴾ استئناف، أو خبر لمحذوف، أو حال من المجرور في «له»، والجار عامل فيها. ومعناه: يحيي النطف والبيض والموتى يوم القيامة، ويميت الأحياء. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإحياء والإماتة وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ تام القدرة.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ القديم السابق على سائر الموجودات، من حيث إنه موجدتها ومحدثها ﴿وَالْآخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها، ولو بالنظر إلى ذاتها مع قطع النظر عن غيرها. أو هو الأول الذي تبتدأ منه الأسباب، وتنتهي إليه المسببات. أو الأول خارجاً، والآخر ذهنياً.

﴿وَالظَّاهِرُ﴾ وجوده بالأدلة الدالة عليه. أو الغالب على كل شيء. من: ظهر عليه إذا علاه وغلبه. ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ حقيقة ذاته، فلا تكتننها العقول، ولا تدرك بالحواس. وفي هذا حجة على من جوز إدراكه في الآخرة بالحاسة. أو العالم بباطن كل شيء.

وقيل: الأول بالأزلية، والآخر بالأبدية، والظاهر بالأحدية، والباطن بالصمدية.

والواو الأولى للدلالة على أنه الجامع بين الصفتين: الأولى والآخرة. والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء. وأما الوسطى، فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولين، ومجموع الصفتين الآخرين.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يستوي عنده الظاهر والخفي.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لما في ذلك من اعتبار الملائكة بظهور شيء بعد شيء من جهته. ولما في الإخبار به من المصلحة للمكلفين. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استولى عليه استيلاء الملك على الملك، والمالك على الملك. وقد مر ذلك مراراً.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ ما يدخل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كالبدور ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالزروع ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ كالأمطار والأرزاق ﴿وَمَا يَفْرُجُ فِيهَا﴾ كالأبخرة وأعمال العباد والملائكة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ لا ينفك علمه وقدرته عنكم بحال ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿بَصِيرٌ﴾ عالم، فيجازيكم عليه. ولعلّ تقديم الخلق على العلم لأنه دليل عليه.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما كيف يشاء. ذكره مع الإعادة كما ذكره مع الإبداء، لأنه كالمقدمة لهما. ﴿وَاللَّهُ تَزَجُّعُ الْأُمُورِ﴾ يوم القيامة. يعني: أن جميع من ملكه شيئاً في الدنيا يزول ملكه عنه.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يدخل ما نقص من الليل في النهار، وما نقص من النهار في الليل، حسب ما دبره فيه من مصالح عباده ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بمكنونها، من أسرار خلقه، وما يخفونه من الضمائر والاعتقادات والإرادات والكراهات، لا يخفى عليه شيء منها. وفيه تحذير من المعاصي.

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقِضُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا
 مِنْكُمْ وَأَنْقَضُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ
 لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى
 عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لِرُؤُوفٌ
 رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً
 مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ
 كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
 بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
 الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ
 نُورِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ
 فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا
 بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ

اللَّهُ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

ثم خاطب المكلفين، فقال: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ بوحدايته وإخلاص العبادة له ﴿وَرَسُولِهِ﴾ وصدقوا بنبوته ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ في طاعة الله والوجه التي أمركم بالإِنفاق فيها ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها. فهي في الحقيقة له لا لكم، بسبب خلقه وإنشائه لها. وإِنَّمَا مَوْلَاكُمْ إِتَاهَا، وخولكم الاستمتاع بها، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب.

أوالمعنى: جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما في أيديكم، بتوريثه إِيَّاكُمْ. فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم، وسينتقل منكم إلى من بعدهم، فلا تبخلوا به، وانفقوا بالإِنفاق منها أنفسكم.

وفيه حثٌّ على الإِنفاق، وتهوين له على النفس، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا﴾ منها في حقوق الله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعد فيه مبالغات: جعل الجملة اسمية، وإعادة ذكر الإيمان والإِنفاق، وبناء الحكم على الضمير، وتنكير الأجر، ووصفه بالكبر، أي: لهم ثواب عظيم لا يكتنحه العقل.

ثم ويخهم بترك الإيمان، ويعدو بترك الإِنفاق، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الجملة الفعلية حال من معنى الفعل في «لكم»، كما تقول: مالك قائماً؟ بمعنى: ما تصنع قائماً؟ أي: وما تصنعون غير مؤمنين به؟ وأي شيء يمنعكم من الإيمان به؟ ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ حال من ضمير «لا تؤمنون». فهما حالان متداخلان.

والمعنى: أي عذر لكم في ترك الإيمان، والرسول يدعوكم إليه، ويستبهمكم

عليه، ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالحجج والآيات ؟

وقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ﴾ حال من مفعول «يدعوكم» أي: الرسول يدعوكم بالإيمان حال كونه تعالى قد أخذ ميثاقكم بالإيمان. وقرأ أبو عمرو: أَخَذَ على البناء للمفعول، أي: وقد أخذ الميثاق منكم بالإيمان قبل ذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما، فَإِنَّ هذا موجب لا مزيد عليه، أي: إذا لم يبق لكم علة بعد ارتفاع الشبه، ولزوم الحجج العقلية والنقلية عليكم، فما لكم لا تؤمنون ؟

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ حججاً منيرة وبراهين واضحة ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ أي: الله سبحانه، أو عبده ﷺ ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من ظلمات الكفر ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى نور الإيمان بالتوفيق والألطف الهادية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث تنهكم بالرسول والآيات، ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية. وإنما جمع بين الرأفة والرحمة للتأكيد. وقيل: الرأفة النعمة على المضرور، والرحمة النعمة على المحتاج.

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب أهل الجبر، فإنه سبحانه بين أن الغرض في إنزال القرآن الإيمان به.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾ وأي شيء لكم في أن لا تنفقوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيما يكون قربة إليه ﴿وَلِلَّهِ مِيزَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يرث كل شيء فيهما، فلا يبقى لأحد مال. وإذا كان كذلك فإنفاقه بحيث يستخلف عوضاً يبقى - وهو الثواب - كان أولى. وهذا من أبلغ البعث على الإنفاق في سبيل الله.

ثم بين التفاوت بين المنفقين منهم، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ قبل فتح مكة، إذ بالإنفاق وقع عز الإسلام وقوة أهله، ودخول الناس في

دين الله أفواجاً ﴿وَقَاتِلْ﴾ مع الكفار. وذكر القتال في بيان التفاوت بين المنفقين للاستطراد. وقسيم «من أنفق» محذوف، تقديره: ومن أنفق من بعد الفتح، فحذف لوضوحه، ودلالة ما بعده عليه، أعني: قوله: ﴿أُولَئِكَ أَغْظَمَ ذَرْجَةً﴾ فإنه بيان لتفاوت المنفقين باختلاف أحوالهم، من السبق وقوة اليقين وتحري الحاجات ﴿وَمِنَ الَّذِينَ انْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا﴾ أي: من بعد فتح مكة، فإن الإنفاق والقتال قبل فتح مكة كان أشد، والحاجة إلى النفقة والجهد كان أكثر.

﴿وَكُلًّا﴾ وكل واحد من الفريقين المنفقين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْخُسَنَى﴾ المثوبة الحسنى - وهي: الجنة - وإن تفاوتوا في مراتب الدرجات. وقرأ ابن عامر: وَكُلُّ، بالرفع على الابتداء، أي: وكل وعده الله، لي مطابق ما عطف عليه، وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بظاهره وباطنه، فمجازيكم على حسبه.

ثم بين كيفية الإنفاق ومزية المثوبة، فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ أي: ينفق ماله في سبيله رجاء أن يعوّضه، فإنه كمن يقرض الله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: إنفاق أكرم المال وأطيبه في أفضل الجهات مقرونًا بالإخلاص. فشبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز. ووجه الشبه هو التعويض.

وقال بعض المحققين: القرض الحسن أن يجمع عشرة أوصاف:

أن يكون من الحلال، لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبَ».

وأن يكون من أكرم ما يملكه، دون أن يقصد الرديء بالإنفاق، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْبَ مِنْهُ تَنْفِقُونَ﴾^(١).

وأن يتصدق وهو يحب المال ويرجو الحياة، لقوله ﷺ لما سئل عن الصدقة: «أفضل الصدقة أن تعطيه وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش، وتخشى

الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت النفس التراقي قلت: لفلان كذا ولفلان كذا». وأن يضعه في الأخلّ الأحوج الأولى بأخذه، ولذلك خصّ الله أقواماً بأخذ الصدقات، وهم أهل البلوى.

وأن يكتمه ما أمكن، لقوله: ﴿وَأِنْ تَخَفَوْهَا وَتَوْتَوْهَا الْفَقْرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^(١).

وأن لا يتبعه المنّ والأذى، لقوله: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾^(٢).

وأن يقصد به وجه الله، ولا يرائي بذلك، لأنّ الرياء مذموم.

وأن يستحقر ما يعطي وإن كثر، لأنّ متاع الدنيا قليل.

وأن يكون من أحبّ ماله إليه، لقوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا

تُحِبُّونَ﴾^(٣).

وأن يحتاج إليه، لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

خَصَاصَةٌ﴾^(٤).

فهذه الأوصاف العشرة إذا استكملتها الصدقة كان ذلك قرصاً حسناً.

﴿فَيُضَاعِفُهُ لَهُ﴾ أي: يعطي أجره أضعافاً، من بين سبع إلى سبعين إلى

سبعمائه ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه،

ينبغي أن يتوخّى وإن لم يضاعف، فكيف وقد يضاعف أضعافاً

وقرأ عاصم: ﴿فَيُضَاعِفُهُ بِالنَّصَبِ﴾، على جواب الاستفهام باعتبار المعنى،

فكأنّه قال: أيقرض الله أحد فيضاعفه له؟ وقرأ ابن كثير: ﴿فَيُضَعِّفُهُ مَرْفُوعاً، عَطْفاً

على «يُقْرِضُ اللَّهُ». أو على تقدير: فهو يضاعفه. وابن عامر ويعقوب: ﴿فَيُضَعِّفُهُ

(١) البقرة: ٢٧١.

(٢) البقرة: ٢٦٤.

(٣) آل عمران: ٩٢.

(٤) الحشر: ٩.

منصوباً.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظرف لقوله: «وله أجر كريم» أو «فيضاعفه». أو مقدر بـ: اذكر، تعظيماً لذلك اليوم. ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ ما يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة وهم يمرّون فيه.

قال قتادة: إنّ المؤمن يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعاء ودون ذلك، حتّى إنّ من المؤمن من لا يضيء له نوره إلّا موضع قدميه.

وقال عبدالله بن مسعود: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من نوره مثل الجبل، وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه، يطفأ مرّة ويقد أخرى.

ويخصّص ذلك النور بقوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ لأنّ السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أنّ الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم. فجعل النور في الجهتين شعاراً لهم وعلامة، لأنّهم هم الذين بحسناتهم سعدوا، وبصحافتهم البيض أفلحوا، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون، وسعى بسعيهم ذلك النور جنيباً لهم ومتقدماً.

ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة: ﴿بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ﴾ أي: المبشّر به في هذا اليوم ﴿جَنَّاتٍ﴾ أو بشراكم دخول جنّات ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم من النور والبشرى بالجنّات المخلّدة ﴿هُوَ النَّفْثُ الْعَظِيمُ﴾. ثم ذكر حال المنافقين في ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ بدل من «يوم ترى» ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِرُونَا﴾ انتظرونا، فإنّهم يسرع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف على ركاب ترفّ بهم، وهؤلاء مشاة. أو انظروا إلينا، لأنّهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، فيستضيئون بنور بين أيديهم. وقرأ حمزة: أَنْظِرُونَا، من النظرة، وهي الإمهال. جعل أنشادهم^(١) في الماضي إلى أن

(١) أي: تمهّلهم وتأنّبهم.

يلحقوا بهم إنظاراً لهم.

﴿نَقْفِتْسُ مِنْ نُورِكُمْ﴾ نصب منه. وذلك بأن يلحقوا بهم فيستتروا به. وقيل: إنهم إذا خرجوا من قبورهم اختلطوا، فيسعى المنافقون في نور المؤمنين، فإذا مَيَّرُوا بقوا في الظلمة، فيستغيثون ويقولون هذا القول.

﴿قِيلَ﴾ فيقال للمنافقين ﴿ازْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ إلى الدنيا ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ بتحصيل المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة، فإنه يتولد منها. أو إلى الموقف، فإنه من ثم أعطينا هذا النور، فالتمسوه هنالك. أو ارجعوا خائبين وتتحوا عنا، فاطلبوا نوراً بتحصيل سببه، وهو الإيمان، فإنه لا سبيل لكم إلى هذا النور. وهو تهكم بهم، وتخيب من المؤمنين أو الملائكة.

﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ بحائط يكون بين الجنة والنار ﴿لَهُ بَابٌ﴾ يدخل منه المؤمنون ﴿بِأَبْوَابِهِ﴾ باطن السور، أو الباب ﴿فِيهِ الرُّحْمَةُ﴾ لأنه يلي الجنة ﴿وَوَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ من جهته، لأنه يلي النار.

﴿يُنَادُواوَنَهُمُ﴾ ينادي المنافقون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ يريدون موافقتهم ظاهراً في الصلاة والصوم وغيرهما ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ بلى كنتم معنا ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا﴾ كنتم ﴿فَقَتَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ محتتموها بالنفاق، وأهلكتموها به ﴿وَتَرَبَّصْتُكُمْ﴾ بالمؤمنين دوائر السوء ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وشككتكم في الدين ﴿وَعَزَّزْتُكُمُ الْأَمَانِي﴾ كاستداد العمر وطول الأمل ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت ﴿وَعَزَّزْكُمْ بِإِلَهِ الْغُرُورِ﴾ الشيطان، بأن الله غفور كريم لا يعذبكم. أو الدنيا.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ فداء تقذوا أنفسكم به من العذاب. وقرأ ابن عامر ويعقوب بالتاء. ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظاهراً وباطناً ﴿مَاوَأَكُمُ النَّارُ هِيَ

﴿فَوَلَّاكُمْ﴾ هي أولى بكم. وحقيقته: محراكم^(١)، أي: مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم. أو مكانكم عما قريب، من الولي، وهو القرب، أو ناصركم، على طريقة قولهم: تحية بينهم ضرب وجيع. والمعنى: لا ناصر لكم غيرها على البت. ونحوه قولهم: أصيب فلان بكذا فاستنصر الجزع. ومنه قوله تعالى: ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْفِ نِجْلٍ﴾^(٢). أو تتولاكم النار كما توليتم موجباتها في الدنيا من أعمال أهل النار. ﴿وَيَفْسُ الْفَصِيرُ﴾ النار.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسْقُونَهُمْ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

ثم دعاهم سبحانه إلى الطاعة، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ ألم يأت وقت أن ترق وتلين قلوبهم. من: أنى الأمر يأتي أنياً وإنسى إذا

(١) يقال: هو حري أن يفعل كذا، أي: جدير بذلك وحقيق به. واسم المكان منه: محرى.

(٢) الكهف: ٢٩.

جاء أنه، أي: وقته. ﴿لِيَذْكُرَ اللَّهُ﴾ لما يذكرهم الله به من مواعظه. روي: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا مُجَدِّدِينَ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا هَاجَرُوا أَصَابُوا الرِّزْقَ وَالنَّعْمَةَ، فَفَتَرُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ أَفْعَالِ الْخَيْرِ، فَتَزَلَّتْ. وعن ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين.

﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: القرآن. وهو عطف على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر. ويجوز أن يراد بالذكر أن يذكر الله. وقرأ نافع وحفص ويعقوب: نزل بالتخفيف.

﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ عطف على «تَخَشَعُوا». وقرأ رويس بالتاء. والمراد النهي عن مماثلة أهل الكتاب فيما حكي عنهم بقوله: ﴿فَطَالَ عَنْهُمْ الْأَمَدُ﴾ فطال عليهم الزمان لطول أعمارهم وآمالهم. أو ما بينهم وبين أنبيائهم. وقيل: طالت أعمارهم، وطارأت أعمالهم.

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ غلظت وزال خشوعها، ومرنوا على المعاصي واعتادوها. ومن كلام عيسى عليه السلام: «لا تكثرُوا الكلام بغير ذكر الله». ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم، رافضون لما في كتابهم من فرط القسوة. فلا تكونوا مثلهم، فيحكم الله فيكم بمثل ما حكم فيهم.

ثم مثل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة، فقال: ﴿اغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُخَيِّي الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد اليبس والجذوبة، أي: فكذلك الله يحيي الكافر بالإيمان بعد موته بالضلال والكفر، بأن يلطف له ما يؤمن به، من إرسال الرسل وإنزال الكتب وغيره. أو إِنَّ اللَّهَ يَلَيِّنُ قُلُوبَ عِبِيدِهِ بَعْدَ قَسَوْتِهَا بِالْأَلْطَافِ وَالتَّوْفِيقَاتِ الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا الذِّكْرُ وَالتَّلَاوَةُ. وقيل: هذا تمثيل لإحياء الأموات، ترغيباً في الخشوع، وزجراً عن القساوة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الحجج الواضحات، والدلائل الباهرات ﴿لَعَلَّكُمْ

تَفْعِلُونَ» كي يكمل عقولكم بها، فترجعوا إلى طاعتنا، وتعملوا بما أمرناكم به.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ أي: المتصدقين والمتصدقات. وقرأ ابن كثير وأبو بكر بتخفيف الصاد، أي: الَّذِينَ صدَّقوا الله ورسوله. ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ عطف على معنى الفعل في المحلّى باللام، لأنّ معناه: الَّذِينَ أصدقوا أو صدّقوا. وهو على الأوّل للدلالة على أنّ المعتبر هو التصدّق المقرون بالإخلاص.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ تفسير هذا الكلام وبيان وجوه القراءة في «يضاعف» قد مرّ آنفاً، غير أنّه لم ينجزم، لأنّه خبر «إِنَّ». وهو مسند إلى «لهم»، أو إلى ضمير مصدر «يضاعف».

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ صدّقوا بتوحيد الله، وأقروا بنبوة رسله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ وَالشّٰهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: أولئك عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء. أو هم المبالغون في الصدق، فإنّهم آمنوا وصدّقوا جميع أخبار الله ورسوله، والقائمون بالشهادة لله ولهم. أو على الأعم يوم القيامة.

وقيل: «والشهداء عند ربّهم» مبتدأ وخبر. والمراد بهم الأنبياء، من قوله: ﴿فَكَفِّفَ إِذَا جَنَّتْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾^(١). وهو مروى عن ابن عبّاس، ومسروق، ومقاتل بن حيان. واختاره الفراء والزجاج.

وقيل: الَّذِينَ استشهدوا في سبيل الله.

وروى العياشي بالإسناد عن منهل القصاب قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أدع الله أن يرزقني الشهادة. فقال: إنّ المؤمن شهيد، وقرأ هذه الآية».

وعن الحارث بن المغيرة قال: «كنا عند أبي جعفر عليه السلام فقال: العارف منكم هذا الأمر المنتظر له، المحتسب فيه الخير، كمن جاهد الله مع قائم آل محمد عليه السلام بسيفه. ثم قال: بل والله كمن جاهد مع رسول الله عليه السلام بسيفه. ثم قال الثالثة: بلى

والله كمن استشهد مع رسول الله ﷺ في فسطاطه . وفيكم آية من كتاب الله . قلت :
 وأي آية جعلت فداك . قال : قول الله ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ
 الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ . ثم قال : صرتم والله صادقين شهداء عند ربكم .
 ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم .
 ولكنه من غير تضعيف ، ليحصل التفاوت . أو الأجر والنور الموعودان لهم .
 ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فيه دليل على أن
 الخلود في النار مخصوص بالكفار ، من حيث إن التركيب يشعر بالاختصاص ،
 والصحة تدل على الملازمة عرفاً .

أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي
 الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَبَائِهِ ثُمَّ يَهِيْجُ قَرَارُهُ مُضْفَرًا ثُمَّ
 يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ
 الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿ ٢٠ ﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
 كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
 مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿ ٢١ ﴾

ولما ذكر حال الفريقين في الآخرة حَقَّرَ أمور الدنيا ، تزهيداً للمؤمنين في
 أمور الدنيا وركونهم إلى لذاتها ، فقال :
 ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ﴾ أي : الحياة في هذه الدار الدنية والأمور

المتعلقة بها أمور خيالية قليلة النفع سريعة الزوال، لأنها لعب يستعب الناس فيه أنفسهم جداً، إتياب الصبيان في الملاعب من غير فائدة ﴿وَلَهُمْ﴾ يلهون به أنفسهم عما يهتم من الأمور الأخروية ﴿وَزِينَةٌ﴾ يتزينون بها، كالملابس الحسنة، والمراكب البهية، والمنازل الرفيعة ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ بالأنساب والعدد والعدد ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾.

ثم مثل لها في سرعة تقضيها وقلة جدواها بقوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي: نبات أنبتة المطر فاستوى بحيث أعجب الحراث. أو الكافرون بالله، لأنهم أشد إعجاباً بزيينة الدنيا. ولأن المؤمن إذا رأى معجباً انتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها، والكافر لا يتخطى فكره عما أحس به، فيستغرق فيه إعجاباً ﴿ثُمَّ يَهِيْجُ﴾ يبس بعاهة وآفة ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ يتحطم ويتكسر بعد يبسه. وشرح هذا المثل قد تقدّم في سورة يونس^(١).

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لأعداء الله، تنفيراً عن الانهماك في الدنيا، وحثاً على ما يوجب كرامة العقبى. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لأولياء الله ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي: لمن أقبل عليها، ولم يطلب بها الآخرة.

ثم رغب سبحانه في المسابقة لطلب الجنة، فقال: ﴿سَابِقُوا﴾ وسارعوا مسارعة السابقين في المضمار ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى موجباتها من الأعمال الصالحة ﴿وَجَنَّةٍ﴾ وسابقوا إلى استحقاق ثواب جنّة هذه صفتها ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وإذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول؟! وقيل: طولها لا يعلمه إلا الله.

وقيل: المراد به البسطة، كقوله: ﴿فَذَرْ دُعَاءَ غَرِيضٍ﴾^(٢).

(١) راجع ج ٣ ص ٢٠٢، ذيل الآية ٢٤ من سورة يونس.

(٢) فصلت: ٥١.

وقيل: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: «عرضها كعرض السماء والأرض»، والجنة مخلوقة في السماء السابعة، فلا تنافي بينهما.

﴿أُعِدَّتْ﴾ ادّخرت وهيئت ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فيه دليل على أَنَّ الجنة مخلوقة، وَأَنَّ الإيمان وحده كافٍ في استحقاقها، لآَنَهُ ذَكَرَ أَنَّ الْجَنَّةَ مَعْدَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، ولم يذكر معه شيئاً آخر، وهذا أعظم رجاء لأهل الإيمان.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ذلك الموعود يتفضل به على من يشاء، فإنه يجزي الدائم الباقي على القليل الفاني. ولو اقتصر في الجزاء على قدر ما يستحق بالأعمال، كان عدلاً منه، لكنّه تفضل بالزيادة.

وقيل: معناه: إِنَّ أَحَدًا مَّا لَا يَنَالُ خَيْرًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِفَضْلِ اللَّهِ، فإنه سبحانه لو لم يدعنا إلى الطاعة، ولم يبين لنا الطريق، ولم يوفقنا للعمل الصالح، لما اهتدينا إليه، فذلك كله من فضل الله. وأيضاً فإنه سبحانه تفضل بالأسباب التي يفعل بها الطاعة، من التمكين والألطاف وكمال العقل، وعرض المكلف للثواب، فالتكليف أيضاً تفضل.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلا يبعد منه التفضل بذلك وإن عظم قدره.

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

ولمَّا بَيَّنَّ الثَّوَابَ عَلَى الطَّاعَةِ، عَقَّبَهُ بَيَانُ الْأَعْوَاضِ عَلَى مَقَاسَةِ الْمَصَائِبِ، فَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كالجذب والعاهة ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾

كالمرض، والآفة، وموت الأولاد، وسائر الأقارب والأحباب ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ إلا مكتوبة في اللوح، مثبتة في علم الله ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ والمعنى: أنه تعالى أثبتها في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الأنفس والأرض، ليستدل ملائكته به على أنه عالم لذاته يعلم الأشياء بحقائقها ﴿إِنْ ذَلِكَ﴾ أن يشته في الكتاب على كثرتة ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرُ﴾ لاستغناؤه عن العدة والمدة.

﴿يَكَيْلًا تَأْسَوْا﴾ أي: أثبت وكتب ذلك لئلا تحزنوا ﴿عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من نعم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ بما أعطاكم الله منها، فإن من علم أن الكل مقدر هان عليه الأمر. وأيضاً إذا علم الإنسان أن ما فات منها ضمن الله تعالى العوض عليه في الآخرة، فلا ينبغي أن يحزن لذلك. وإذا علم أن ما ناله منها كلّف الشكر عليه والحقوق الواجبة فيه، فلا ينبغي أن يفرح به. وإذا علم أن شيئاً منها لا يبقى، فلا ينبغي أن يهتم له، بل يجب أن يهتم لأمر الآخرة التي تدوم ولا تبعد.

وقرأ أبو عمرو: «بِمَا آتَاكُمْ» من الإتيان، ليعادل «ما فاتكم». وعلى الأول فيه إشعار بأن فواتها يلحقها إذا خليت وطباعها، وأما حصولها وبقاؤها فلا بدّ لهما من سبب يوجدها ويبقيها.

والمراد به نفي الأسى المانع عن التسليم لأمر الله، والفرح الموجب للبطر والاختيال. ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ إذ قلّ من يشبّه نفسه في حالي الضراء والسرءاء.

وقيل ليرجمهم الحكيم: مالك أيها الحكيم لا تأسف على ما فات، ولا تفرح بما هو آتٍ؟

فقال: لأنّ الفائت لا يتلافى بالعبرة، والآتي لا يستدام بالخبرة.

واعلم أن في هذه الآية إشارة إلى أريحة أشياء:

الأول: حسن الخلق، لأنّ من استوى عنده وجود الدنيا وعدمها، لا يحسد، ولا يعادي، ولا يشاح، فإنّ هذه من أسباب سوء الخلق، وهي من

نتائج حب الدنيا.

وثانيها: استحقاق الدنيا وأهلها، إذا لم يفرح بوجودها، ولم يحزن لعدمها.

وثالثها: تعظيم الآخرة، لما ينال من الثواب الدائم الخالص من الشوائب.

ورابعها: الافتخار بالله دون أسباب الدنيا.

ويروى أَنَّ عليَّ بن الحسين عليه السلام جاءه رجل فقال له: ما الزهد؟ فقال: «الزهد

عشرة أجزاء. فأعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع. وأعلى درجة الورع أدنى

درجة اليقين. وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا. وإنَّ الزهد كلُّه في آية من

كتاب الله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ

مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بدل من «كُلُّ مُخْتَالٍ» فَإِنَّ الْمُخْتَالَ

بِالْمَالِ يَضُنُّ بِهِ غَالِبًا. أو مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله: ﴿وَمَنْ يَقُولُ فَإِنَّ اللَّهَ

هُوَ الْغَنِيُّ الْخَمِيدُ﴾ لَأَنَّ مَعْنَاهُ: ومن يعرض عن الإنفاق، فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْهُ وَعَنْ

إِنْفَاقِهِ، محمود في ذاته، لا يضرُّه الإعراض عن شكره، ولا يستنفع بالتقرب إليه

بشيء من نعمه. وفيه تهديد وإشعار بأنَّ الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق. وقرأ نافع

وابن عامر: «فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ».

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ

وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ

وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا

فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا
 ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ
 وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ
 كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 ﴿٢٨﴾ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ
 الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

ثم يبين سبحانه بعث الأنبياء على عباده إرشاداً لهم إلى الطاعات البدنية،
 المثمرة للخضوع والخشوع، الزاجرين عن البطر والاختيال، وإلى العبادات المالية
 المنتجة للإحسان على المحتاجين، المانعة عن البخل المذموم عند رب العالمين،
 فقال:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي: الملائكة إلى الأنبياء، أو الأنبياء إلى الأمم
 ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج والمعجزات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ المكتوب الذي يتضمن
 الأحكام، وما يحتاج إليه الخلق من الحلال والحرام، كالتوراة والإنجيل والقرآن،
 لبيان الحق، ويميز صواب العمل ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ ذا الكفتين الذي يوزن به لتسوى به
 الحقوق، ويقام به العدل، كما قال: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ﴾ في معاملاتهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾.
 وإنزاله إنزال أسبابه، والأمر بإعداده.

وروي: أَنَّ جبرئيل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال: مر قومك يزنوا به.
ويجوز أن يراد به العدل لتقام به السياسة، ويدفع به الأعداء، كما قال:
﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يمتنع به، ويحارب به في القتال. والمعنى:
أنه يتخذ منه آلتان: آلة للدفع وآلة للضرب، فإن آلات الحروب متخذة منه.
قيل: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من الحديد: السندان، والكلبتان،
والميقعة^(١)، والمطرقة^(٢)، والإبرة. وروي: ومعه المر^(٣) والمسحاة.
وعن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ أَرْبَعَ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ:
أَنْزَلَ الْحَدِيدَ، وَالنَّارَ، وَالْمَاءَ، وَالْمَلْحَ».
وعن الحسن: «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ»: خلقناه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ
الْأَنْعَامِ﴾^(٤). وذلك أَنَّ أوامره تنزل من السماء.
﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ في مصالحهم ومعاشهم وصنائعهم، إذ ما من صنعة إلا
والحديد آلتها، أو ما يعمل بالحديد.
﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ باستعمال الأسلحة في مجاهدة الكفار.
والعطف على محذوف دلّ عليه ما قبله، فإنه حال يتضمّن تعليلاً. كأنه قال: «وَأَنْزَلْنَا
الحديد» ليكون أسلحة للحرب ومنافع للعباد، وليعلم الله نصرة من ينصره ورسله
نصرة موجودة، وجهاد من جاهد مع رسوله موجوداً، أو اللام صلة لمحذوف، أي:
أنزله ليعلم الله من ينصره ورسله. ﴿بِالْفَيْبِ﴾ حال من المستكن في «ينصره». كما
قال ابن عباس معناه: ينصرونه ولا يبصرونه. يعني: ينصرونه بالعلم الواقع

(١) المِيقَعَة: خشبة القصّار - أي: محور الثياب ومبيّضها - يدقّ عليها.

(٢) المِطْرَقَة: آلة من حديد ونحوه يضرب بها الحديد ونحوه.

(٣) المرّ: المسحاة.

(٤) الزمر: ٦.

بالاستدلال والنظر من غير مشاهدة بالبصر.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على إهلاك من أراد إهلاكه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يقتصر إلى نصره أحد. وإنما أمرهم بالجهد لينتفعوا به، ويستوجبوا ثواب الامتثال فيه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ خصهما بالذكر لفضلهما، ولأنهما أبوا الأنبياء ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب. وعن ابن عباس: المراد بالكتاب الخط بالقلم. يقال: كتب كتاباً وكتابة. ﴿فَمِنْهُمْ الذَّرِيَّةَ﴾ أو من المرسل إليهم، وقد دلّ عليهم «أرسلنا». ﴿مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم. والعدول عن سنن المقابلة للمبالغة في الذم، والدلالة على أن الغلبة للضلال.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا﴾ ثم أتبعنا بالإرسال على آثار من ذكرناهم من الأنبياء برسل آخرين إلى قوم آخرين ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى عليه السلام. والضمير لنوح وإبراهيم ومن أرسلنا إليهم، أو من عاصرهما من الرسل، لا للذرية. فإن الرسل المقفَى بهم من الذرية.

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في دينه، يعني: انصارين وأتباعهم، اتبعوا عيسى ﴿رَافِقَةً﴾ هي أشد الرقة والرحمة ﴿وَوَحْمَةً﴾ وإنما أضافهما إلى نفسه، لأنه سبحانه جعلهما في قلوبهم بالأمر بهما، والترغيب فيهما، ووعد الثواب عليهما.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ انتصابها بفعل مضمر يفسره ما بعده، تقديره: وابتدعوا رهبانية ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ وهي المبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس، واتخاذ الصوامع لها في البراري والجبال. منسوبة إلى الرهبان، وهو المبالغ في الخوف، من: رهب، كالخشيان من: خشي. والمعنى: ترهبهم في الجبال فأزين من الجبابة أن يفتنهم في دينهم مخلصين أنفسهم للعبادة، كما سيجيء تفصيله.

﴿ مَا كَتَبْنَاَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ ما فرضناها عليهم ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، وألزموها على أنفسهم، كما أن الإنسان إذا جعل على نفسه صوماً لم يفرض عليه لزمه أن يتمه.

وقيل: متصل، و«رهبانية» معطوفة على ما قبلها، و«ابتدعوها» صفة لها في محلّ النصب، أي: وجعلنا في قلوبهم رافة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم. بمعنى: وقفناهم للتراحم بينهم، ولابتداع الرهبانية واستحداثها، والإتيان بها أولاً، لا أنهم اخترعوها من تلقاء أنفسهم. ما كتبناها عليهم إلا ليبتغوا رضوان الله، ويستحقوا بها الثواب. على أنه كتبها عليهم وألزمها إياهم ليتخلصوا من الفتن، ويبتغوا بذلك رضا الله تعالى وثوابه.

﴿ فَمَا رَعَوْهَا ﴾ فما رعوا جميعاً ﴿ حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ كما يجب على الناظر رعاية نذره، لأنه عهد مع الله لا يحلّ نكثه. وذلك بضمّ التثليث، والقول بالاتحاد، وقصد السمعة، والكفر بمحمد ﷺ ونحوها، إلى الابتداع.

﴿ فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أتوا بالإيمان الصحيح. وهم أهل الرحمة والرأفة الذين أتبعوا عيسى، وحافظوا حقوقه، ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من المتسمين باتباعه ﴿ أَجْرُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ خارجون عن الاتباع، غير حافظين على نذرهم.

وعن ابن مسعود قال: «دخلت على رسول الله ﷺ، فقال: يا بن مسعود اختلف من كان قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة، نجا منها اثنتان، وهلك سائرهن. فرقة قاتلوا الملوك على دين عيسى عليه السلام فقتلوه. وفرقة لم تكن لهم طاقة لموازاة الملوك، ولا أن يقيموا بين ظهرانيهم يدعونهم إلى دين الله تعالى ودين عيسى عليه السلام، فساحوا في البلاد وترهبوا. وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾. ثم قال النبي ﷺ: «من آمن بي وصدقني وأتبعني فقد رعاها حق»

رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون».

وأيضاً عن ابن مسعود قال: «كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار، فقال: يابن أم عبد هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟ فقلت: الله ورسوله أعلم.

قال: ظهرت عليهم الجبابة بعد عيسى عليه السلام، يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات، فلم يبق منهم إلا القليل. فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا، ولم يبق للدين أحد يدعو إليه. فتعالوا تفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا عيسى عليه السلام، يعنون محمداً ﷺ. فتفرقوا في غيران^(١) الجبال، وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسك بدينه، ومنهم من كفر. ثم تلا هذه الآية: ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ إلى آخرها.

ثم قال: يابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمي؟ قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: الهجرة، والجهاد، والصلاة، والصوم، والحج، والعمرة».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله، وصدقوا موسى وعيسى وسائر الرسل المتقدمة ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ حِفْظَيْنِ﴾ نصيبين ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ لايمانكم بمحمد ﷺ وبمن قبله من الأنبياء. ولا يبعد أن يثابوا على دينهم السابق - وإن كان منسوخاً - ببركة الاسلام ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يريد المذكور في قوله: ﴿يَسْغَى نُورُهُمْ﴾^(٢). أو الهدى الذي يسلك به إلى جناب القدس. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) جمع: غار.

(٢) الحديد: ١٢.

روي عن سعيد بن جبير: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بعث جعفرًا في سبعين راكباً إلى النجاشي يدعوه، فقدم عليه ودعاه، فاستجاب له وآمن به. فلما كان عند انصرافه قال ناس ممن آمن به من أهل مملكته، وهم أربعون رجلاً: ائذن لنا في الوفادة على رسول الله، فأذن لهم. فقدموا مع جعفر وقد تهيأ لوقعة أحد، فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة استأذنوا رسول الله، وقالوا: يا نبي الله إن لنا أموالاً، ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة، فإن أذنت لنا انصرفنا فنجئنا بأموالنا، فواسينا المسلمين بها، فأذن لهم. فانصرفوا فأتوا بأموالهم، فواسوا بها المسلمين. فأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(١).

فلما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله: ﴿يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾^(٢) فخروا على المسلمين وقالوا: أمّا من آمن منا بكتابكم وبكتابنا فله أجره مرّتين، وأمّا من لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجركم، فما فضلكم علينا؟ فأنزل الله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله» الآية. فجعل لهم أجرين، وزادهم النور والمغفرة.

ثم قال: ﴿لَيْتَ لَا يَخْلَعُمْ﴾ «لا» مزيدة. وعن الفراء: إنّما تدخل «لا» صلة في كلّ كلام دخل في أواخره أو أوائله جحد، وإن لم يكن مصرحاً به، نحو قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾^(٣). ﴿وَمَا يَشْعُرُكُمْ أَنُّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤). ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(٥).

(١ و ٢) القصص: ٥٢ - ٥٤.

(٣) الأعراف: ١٢.

(٤) الأنعام: ١٠٩.

(٥) الأنبياء: ٩٥.

والمعنى: ليعلم ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾. «أَنْ» هي المخففة. والمعنى: أَنَّ الشَّانَ لَا يَنَالُونَ شَيْئاً مِمَّا ذَكَرَ مِنْ فَضْلِهِ، مِنَ الْكَافِلِينَ وَالنُّورِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ نَيْلِهِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ، وَهُوَ مُشْرُوطٌ بِالْإِيمَانِ بِهِ. أَوْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِهِ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَتَصَرَّفُوا فِي أَعْظَمِهِ، وَهُوَ النَّبُوءَةُ، فَيَخْصُوهَا بِمَنْ أَرَادُوا. وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ فِي مَلِكِهِ وَتَصَرَّفِهِ ﴿يُؤَيِّدُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يَتَفَضَّلُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

وقال الكلبي: كان الوافدون إلى رسول الله ﷺ من اليمن أربعة وعشرين رجلاً، وهو ﷺ بمكة، لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وكانوا على دين الأنبياء، فأسلموا. فقال لهم أبو جهل: بئس القوم أنتم، والوفد لقومكم. فردوا عليه: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾^(١) الآية. فجعل الله لهم ولمؤمني أهل الكتاب - عبدالله بن سلام وأصحابه - أجرين اثنين. فجعلوا يفخرون على أصحاب رسول الله ويقولون: نحن أفضل منكم، لنا أجران، ولكم أجر واحد. فنزلت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ» إلى قوله: «لئلا يعلم» إلى آخرها.

وقيل: «لا» غير مزيدة. والمعنى: لئلا يعتقد أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا، لِأَنَّ مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقْدِرُ.

وقيل: معناه: لئلا يعلم اليهود والنصارى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ والمؤمنين لا يقدرُونَ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ عِلِمُوا أَنَّهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، أَي: إِنْ آمَنْتُمْ كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ آتَاكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَعِلِمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ذَلِكَ، وَلَمْ يَعْلَمُوا خِلَافَهُ. وَعَلَى هَذَا فَالضَّمِيرُ فِي «يَقْدِرُونَ» لَيْسَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ.

وقال أبو سعيد السيرافي: معناه: إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بِكُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لئلا يعلم - أَي: لِيَتَبَيَّنَ - جَهْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى تَغْيِيرِهِ وَإِزَالَتِهِ عَنْكُمْ.

سورة المجادلة

أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «ومن قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ
يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ
مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَأِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ
وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا
قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَابَعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

ولما ختم الله سبحانه سورة الحديد بذكر فضله على من يشاء من عباده، افتتح هذه السورة بذكر بيان فضله في إجابة دعاء خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخي عبادة، رآها زوجها ساجدة في صلاتها، وكانت حسنة الجسم عظيمة الألبتين، فلما سلّمت راودها فأبت، فغضب، وكان به خفة ولم^(١)، فظاهر منها. وهذا أوّل ظهار في الاسلام، وكان طلاق أهل الجاهلية. فأتت رسول الله ﷺ وعائشة تغسل شقّ رأسه، فقالت: إنّ أوساً تزوّجني وأنا شابة، غانية^(٢)، ذات جمال ومال وأهل، حتّى إذا أكل مالي، وأفنى شبابي، وتفرّق أهلي، وخلا سني، ونثرت بطني - أي: كثر ولدي - جعلني عليه كأمّه. وروي أنّها قالت له: إنّ لي صبية صغاراً، إن ضمّتهم إليه ضاعوا، وإن ضمّتهم إليّ جاعوا.

فقال: ما عندي في أمرك شيء.

وروي أنّه ﷺ قال لها: حرمت عليه.

فقالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقاً، وإنّما هو أبو ولدي، وأحبّ الناس إليّ. فقال: حرمت عليه.

فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدني. كلّما قال رسول الله ﷺ: حرمت عليه، هتفت وشكت إلى الله فقالت: اللهمّ فأنزل على لسان نبيّك. فقامت عائشة تغسل شقّ رأسه الآخر. فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداك يا نبيّ الله.

فقالت عائشة: أقصري حديثك ومجادلتك، أما ترين وجه رسول الله ﷺ؟ وكان ﷺ إذا نزل عليه شيء أخذته مثل السبات.

(١) اللّم: جنون خفيف، أو طرف من الجنون يلمّ بالإنسان.

(٢) الغانية: المرأة الغنيّة بحسنها وجمالها عن الزينة.

فلما قضي الوحي قال: ادعي زوجك. فقرأ ﷺ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ تراجعك في شأنه سؤالاً وجواباً ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ وتظهر شكواها وما بها من المكروه، فتقول: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تعلم حالي فارحمني، فَإِنَّ لي صبيبة صفاراً، إن ضمنتهم إليه ضاعوا، وإن ضمنتهم إليّ جاعوا. ومعنى «قد» التوقع، لأنّ رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها، وينزل في ذلك ما يفرج عنها كربها. وأدغم حمزة والكسائي وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر دالها في السين.

﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَخَاوُرُكُمَا﴾ تراجعكما الكلام. وهو على تغليب الخطاب. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ للأقوال والأحوال.

ولما كان الظاهر من عادة الجاهلية، ومن أيمانهم خاصة دون سائر الأمم، وبخهم الله تعالى وهجنهم في ذلك، فقال:

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّنْ نِّسَائِهِمْ﴾ أي: يقولون لهنّ: أنتنّ كظهور أمهاتنا. مشتقّ من الظهر. وأصل «يُظَاهِرُونَ»: يتظهرون. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: يُظَاهِرُونَ، من: اظَّاهِر. وعاصم: يُظَاهِرُونَ، من: ظاهر. ﴿مَا هُنَّ﴾ ما الزوجات اللاتي يظاهرونهنّ ﴿أُمَّهَاتِهِمْ﴾ على الحقيقة، فإنّ إلحاق الزوجة بالأمّ، وجعلها مثلها بقول: أنتِ عليّ كظهر أمّي، تشبيه باطل، لتباين الحالين.

﴿إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ فلا تشبه بهنّ في الحرمة إلّا من ألحقها الله بهنّ كالمرضعات، لأنهنّ لما أرضعن دخلن بالرضاع في حكم الأمّهات شرعاً، لقوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب». وكذلك أزواج الرسول، لأنّ الله تعالى حرّم نكاحهنّ على الأمة، فدخلن بذلك في حكم الأمّهات، بخلاف الزوجات، فإنهنّ أبعد شيء من الأمومة، لأنهنّ لسن بأمّهات حقيقة، ولا بداخلات

في حكم الأمتهات. فكان قول المظاهر منكراً، كما قال عزّ اسمه: ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي: المظاهرين ﴿لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ﴾ إذ الشرع أنكره ﴿وَوُزُورًا﴾ وكذباً منحرفاً عن الحق. وعن عاصم: أمهاتهم بالرفع، على اللغة الحجازية والتميمية. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ لما سلف منه مطلقاً، أو إذا تيب عنه.

وهل يقع الظهار لو شبهها بغير الظهر، كالבطن والفخذ وغير ذلك من الأعضاء؟ الأقوى عندنا عدم الوقوع. وكذا لو شبه عضواً من زوجته بظهر أمه، الأقرب عدم الوقوع أيضاً، اقتصاراً على منطوق النص، وجموداً في التحريم على ما أبلغ عليه. قال الفقهاء: إذا شبهها بجزء يحرم النظر إليه - كالבطن والفخذ - وقع. والآية تدلّ على أن الظهار حرام، لوصفه بالمنكر. نعم، لا عقاب فيه، لتعقيبه بذكر المغفرة والرحمة. وهو ملحق بالصغائر التي تقع مكفرة.

ثم بين حكم الظهار، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ يتداركون ما قالوا، لأنّ المتدارك للأمر عائد إليه. وقال الفراء: يعودون لما قالوا، وإلى ما قالوا، وفيما قالوا. معناه: يرجعون عما قالوا. يقال: عاد لما فعل، أي: نقض ما فعل. ومنه المثل: عاد الغيث على ما أفسد، أي: تداركه بالإصلاح. وذلك عندنا وعند مالك بإرادة الوطء. وإضمار الإرادة في العود كإضمارها في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾^(١). وعند الشافعي بإمساك المظاهر عنها في النكاح زماناً يمكنه مفارقتها فيه. وعند أبي حنيفة باستباحة استمتاعها ولو بنظرة شهوة.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فعلهم، أو فالواجب إعتاق رقبة. والفاء للسببية. ومن فوائدها الدلالة على تكرّر وجوب التحرير بتكرّر الظهار. والرقبة مقيّدة بالإيمان عندنا وعند الشافعي.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْمَأَسَا﴾ أن يجامعها، لشهرة المسيس بمعنى الجماع في الكتاب والسنة. وعند الشافعي: من قبل أن يستمتع كل من المظاهر والمظاهر عنها بالآخر، لعموم اللفظ. وفيه دليل على حرمة ذلك قبل التكفير.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلكم الحكم بالكفارة ﴿تَوْعُظُونَ بِهِ﴾ لأنه يدل على ارتكاب الجناية الموجبة للغرامة الرادعة عنها، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم لتزجروا عن أن تعودوا إلى الظهار ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خافية.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي: الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْمَأَسَا﴾ فإن أفطر لغير عذر لزمه الاستئناف. وإن أفطر، لعذر بنى. وعند أصحابنا أنه إذا صام شهراً، ومن الثاني شيئاً ولو يوماً واحداً، ثم أفطر لغير عذر صح، ولا يلزمه الاستئناف. وإن أفطر قبل ذلك استأنف. ومتى بدأ بالصوم وصام بعض ذلك، ثم وجد الرقبة، لا يلزمه الرجوع إليها. وإن رجع كان أفضل. وعند جماعة يلزمه الرجوع إلى العتق.

﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ أي: الصوم، لهرم أو لعلّة ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ لكل مسكين نصف صاع عند أصحابنا، فإن لم يقدر فمعد. وإنما لم يذكر التماس مع الطعام اكتفاءً بذكره مع الآخرين.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك البيان، أو التعليم للأحكام. ومحله النصب بفعل معلل بقوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: فرض ذلك لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه، ورفض ما كنتم عليه في جاهليّكم.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ لا يجوز تعديها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يقبلونها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو نظير قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

روي: أنه ﷺ بعد نزول آيات الظهار خير الأوس بين الطلاق والإمساك.

فاختار الإمساك . فقال ﷺ له : كفر بعق رقبة .

فقال : مالي غيرها . وأشار إلى رقبتة .

فقال : صم شهرين متتابعين .

فقال : لا طاقة لي بذلك .

فقال : أطعم ستين مسكيناً .

فقال : والله ما بين لابتيتها أشد مسكنة مني . فأمر له النبي ﷺ بشيء من مال الصدقة ، وأمره أن يطعمه عن كفارته . فشكا خصاصة حاله ، وأنه أشد فاقة وضرورة ممن أمر بدفعه إليهم . فضحك النبي ﷺ وأمره بالاستغفار ، وأباح له العود إليها .

وفيها دلالة على أنه مع العجز عن الكفارة يستغفر الله ويعود . ويؤيده رواية إسحاق بن عمار موثقاً عن الصادق عليه السلام : « أَنَّ الظهار إذا عجز صاحبه عن الكفارة فيستغفر ربه » .

وبواقى أحكام الظهار والشرائط المعتمدة فيه مذكورة في كتب الأصحاب ، فليطالع ثمة .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَبِتُوا كَمَا كَبَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ
أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَنْبِئُهُمْ
بِمَا عَمِلُوا أَخَصَّاهُ اللَّهُ وَسُوءَهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعادونهما ، فإنَّ كلاً من المتعادين في حدٍّ غير حدٍّ الآخر . أو يضعون ، أو يختارون حدوداً غير حدودهما . ﴿يُحِبُّوْا﴾ أخزوا وأهلكوا . وأصل الكبت الكب . ﴿كَمَا كَبَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني : كفار الأمم

الماضية. قيل: أريد كبتهم يوم الخندق. ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تدلّ على صدق الرسول وصحة ما جاء به ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يذهب عزهم وتكبرهم.
 ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ منصوب بـ«مهيّن». أو بإضمار: اذكر، تعظيماً لليوم.
 ﴿جَمِيعاً﴾ كلّهم لا يدع أحداً غير مبعوث. أو مجتمعين في حال واحدة.
 ﴿فَيُنَبِّئُهُمُ﴾ الله، أي: يخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ على رؤوس الأشهاد، تشهيراً لحالهم،
 وتقريراً لعذابهم، وتوبيخاً لهم ﴿أَخْصَاهُ اللَّهُ﴾ أحاط به عدداً، لم يغب منه شيء
 ﴿وَنَسُوهُ﴾ لكثرة، أو تهاونهم به ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيء.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ
 نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا
 أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
 شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

ثم بين سبحانه أنه يعلم ما يكون في العالم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب
 للنبي ﷺ، والمراد جميع المكلفين ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
 كلاً وجزءاً ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ من «كان» التامة. وتذكير الفعل على أَنَّ
 النجوى تأنيثها غير حقيقي، و«من» فاصلة. أو على أَنَّ المعنى: ما يقع شيء من
 النجوى. والنجوى: التناجي. فلا تخلو: إما أن تكون مضافة إلى ثلاثة، أي: من
 نجوى ثلاثة نفر، أو موصوفة بها على حذف المضاف، أي: من أهل نجوى ثلاثة،
 أو جعلوا نجوى في أنفسهم مبالغة، كقوله تعالى: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾^(١). واشتقاقها من

النجوة، وهي ما ارتفع من الأرض، فَإِنَّ السِّرَّ أمر مرفوع إلى الذهن، لا يتيسر لكل أحد أن يطلع عليه.

﴿إِلَّا هُوَ ابْعَثْهُمْ﴾ إلا الله يجعلهم أربعة، من حيث إنه يشاركهم في الإطلاع والاستثناء من أعم الأحوال. ﴿وَلَا خَفْسِيَّةٌ﴾ ولا نجوى خمسة ﴿إِلَّا هُوَ سَائِسُهُمْ﴾. وتخصيص هذين العددين إما لخصوص الواقعة، فَإِنَّ الآية نزلت في تناجي قوم من المنافقين مغايظة للمؤمنين على هذين العددين: ثلاثة وخمسة. وروي عن ابن عباس: أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية، كانوا يوماً يتحدثون، فقال أحدهم: أترى أن الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضاً، ولا يعلم بعضاً. وقال الثالث: إن كان يعلم بعضاً فهو يعلم كله.

أو لأن الله وتر يحب الوتر، والثلاثة أول الأوتار. أو لأن التشاور لا بد له من اثنين يكونان كالمتنازعين، وثالث يتوسط بينهما، إلى خمسة إلى ستة، ولا يتجاوزون عن الستة غالباً عرفاً عندهم.

﴿وَلَا اَنْتَنِي مِنْ ذَلِكَ﴾ ولا أقل مما ذكر، كالواحد والاثنين ﴿وَلَا اَحْتَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ ومعنى كونه معهم: أنه يعلم ما يجري بينهم من التناجي، ولا يخفى عليه ما هم فيه، فكأنه مشاهدهم ومحاضرهم، وقد تعالى عن المكان. وقرأ يعقوب: وَلَا أَكْثُرُ بالرفع، عطفاً على محل «من نجوى»، أو محل «ولا أدنى»، بأن جعلت «لا» لنفي الجنس. ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ فَإِنَّ علمه بالأشياء ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تفضيحاً لهم، وتقريراً لما يستحقونه من الجزاء ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للعلم إلى الكل على سواء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ وَيَنَاجُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ

وَيَقُولُونَ فِيْ أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَّخِذُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَتَّخِذُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا التَّجْوِي مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

وعن ابن عباس: إنّ اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما هذا التناجي إلا بأنه بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلما طال ذلك شكوا إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فنزلت:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ عن إسرار الكلام بينهم بما يغتم المسلمون ويحزنهم ﴿فَظَمُّ يَفْعُدُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: يرجعون إلى التناجي بعد النهي ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ بما هو إثم وعدوان للمؤمنين ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ وتواصي بمعصية الرسول ومخالفته. وقرأ رويس عن يعقوب: وَتَتَنَجَّوْنَ. وهو يفتعلون من التجوى.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ خَيْبُكَ بِمَا لَمْ يَحْيِكْ بِهِ اللَّهُ﴾ وذلك أنّ اليهود كانوا يأتون النبي ﷺ فيقولون: السام عليك يا محمد، أو أنعم صباحاً. والله سبحانه يقول:

﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾^(١). و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾^(٢). و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾^(٣).

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فيما بينهم ﴿لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ كانوا يقولون: ماله إن كان نبياً لا يدعو علينا حتى يعذبنا الله بما نقول.
فقال سبحانه: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً، لما فيها من أنواع العذاب والنكال
﴿يُضِلُّونَهَا﴾ يدخلونها ﴿فَيَنْتَسِ الْمَصِيرُ﴾ جهنم.

ثم نهى المؤمنين عن مثل ذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ فلا تتناجوا بالشر كما يفعله المنافقون.
وعن يعقوب: فلا تتجوا. ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ بما يتضمن خير المسلمين،
والإتقاء عن معصية الرسول. وعن النبي ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه». وروي: «دون الثالث». ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيما تأتون وتذرون، فإنه مجازيكم عليه.

ولما كان المؤمنون يتوهمون في نجوى المنافقين واليهود وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا، وأن أقاربهم قتلوا، فقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ﴾ إشارة إلى النجوى بالإثم والعدوان ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ لأنه
الزئ لها والحامل عليها، فكأنها منه ﴿لِيُخْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوهمهم أنها في نكبة
أصابهم ﴿وَلَيْسَ بِضَارٍّ هُمْ﴾ وليس الشيطان أو التناجي أو الحزن بضار المؤمنين
بذلك الموهم ﴿شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته، بأن يقضي الموت على أقاربهم أو
الغلبة على غزاتهم. وقيل: إلا بعلمه أو بأمر الله، لأن سببه بأمره، وهو الجهاد

(١) النمل: ٥٩.

(٢) المائدة: ٤١، وغيرها.

(٣) الأنفال: ٦٤، وغيرها.

وخروجهم إليه. وقيل: بأمر الله، لأنه يلحقهم الآلام والأمراض عقيب ذلك.
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ في جميع أمورهم دون غيره، ولا يبالوا بنجواهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا
يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ آنشُرُوا فَأَنشُرُوا إِنَّ اللَّهَ الَّذِي آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ
أَتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

وروى المقاتلان: كان رسول الله ﷺ في الصفّة وفي المكان ضيق، وذلك
يوم الجمعة، وكان ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار. فجاء أناس من أهل
بدر وفيهم ثابت بن قيس بن شماس، وقد سبقوا في المجلس، فقاموا حيال
النبي ﷺ فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فردّ عليهم النبي. ثم
سلموا على القوم بعد ذلك. فردّوا عليهم. فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسّع
لهم. فلم يفسحوا لهم، تنافساً على القرب منه، وحرصاً على استماع كلامه. فشقّ
ذلك على النبي ﷺ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر:
قم يا فلان قم يا فلان، بقدر النفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر. فشقّ ذلك على
من أقيم من مجلسه، وعرف الكراهية في وجوههم. وقال المنافقون للمسلمين:
ألستم تزعمون أنّ صاحبكم يعدل بين الناس؟ فوالله ما عدل على هؤلاء، إنّ قوماً
أخذوا مجالسهم، وأحبّوا القرب من نبيهم، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم.
فنزلت:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ توسّعوا فيه، بأن
يفسح بعضكم عن بعض، ولا تتضاموا. من قولهم: افسح عني، أي: تتح. والمراد

مجلس رسول الله، أو الجيش، فيشمل مجلس القتال. وهي مراكز الغزاة، كقوله: ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾^(١) وغيرها. ويدلّ عليه قراءة عاصم بالجمع. ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فيما تريدون التفسّح فيه، من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة وغيرها. ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا﴾ ارتفعوا وانهضوا للتوسعة على المقبلين. وقيل: لما أمرتم به، كصلاة أو جهاد. وقيل: وردت في قوم كانوا يطيلون المكث عند رسول الله ﷺ، فيكون كلّ واحد منهم يحبّ أن يكون آخر خارج، فنزلت فيهم: «وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا». ﴿فَانشُرُوا﴾. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بضمّ الشين فيهما.

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ بالنصر وحسن الذكر في الدنيا، وإيوائهم غرف الجنان في الآخرة ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ويرفع العلماء خاصة ﴿دَرَجَاتٍ﴾ عالية ومراتب غالية في الدارين بما جمعوا من العلم والعمل، فإنّ العلم مع علوّ درجته يقتضي العمل المقرون به مزيد رفعة، ولذلك يقتدى بالعالم في أفعاله، ولا يقتدى بغيره. وقيل: درجات في مجلس النبي ﷺ، فأمره الله سبحانه أن يقرب العلماء من نفسه فوق المؤمنين الذين لا يعلمون العلم، ليبين فضل العلماء على غيرهم.

وفي هذه الآية دلالة على فضل العلماء وجلالة قدرهم. وقد ورد في الحديث أنّه قال ﷺ: «فضل العالم على الشهيد درجة، وفضل الشهيد على العابد درجة، وفضل النبيّ على العالم درجة، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، وفضل العالم على سائر الناس كفضلي على أديانهم». وعنه ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

وعنه بين العالم والعابد مائة درجة، بين كلّ درجتين حضر^(٢) الجواد المضر

سبعين سنة».

(١) آل عمران: ١٢١.

(٢) الحضّر: الاسم من: أحضر الفرس: عدا شديداً، أي: ركض.

وعنه: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء». فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوة والشهادة عند رسول الله.

وعن ابن عباس: خير سليمان عليه السلام بين العلم والمال والملك، فاختار العلم، فأعطي المال والملك معه.

وقال عليه السلام: «أوحى الله تعالى إلى إبراهيم: يا إبراهيم إنني عليم أحب كل عليم».

وعن عبدالله بن مسعود: أنه كان إذا قرأها قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية، ولترغبكم في العلم.

وعن بعض الحكماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم.

وعن الأحنف: كاد العلماء يكونون أرباباً، وكل عز لم يوطد^(١) بعلم فإلى ذلّ ما يصير.

وعن الزبيري: العلم ذكر، فلا يحبه إلا ذكور الرجال.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديد لمن لم يتمثل الأمر أو استكرهه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

روي: أَنَّ النَّاسَ أَكْثَرُوا مَنَاجَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا يَرِيدُونَ حَتَّى أَمَلَوْهُ^(١) وأبرموه، فأراد الله سبحانه أن يكفوا عن ذلك، فأمرهم بأن من أراد أن ينجيه قدم قبل مناجاته صدقة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ فتصدّقوا قدامها. مستعار ممن له يدان. وفي هذا الأمر تعظيم لرسول الله ﷺ، وإنفاق الفقراء، والنهي عن الإفراط في السؤال، والتمييز بين المخلص والمنافق، ومحبة الآخرة ومحبة الدنيا. والأمر للوجوب، وخاتمة الآية دالة عليه. ثم نسخ بقوله: «أأشفقتم». وهو وإن اتصل به تلاوة، لم يتصل به نزولاً.

وعن عليّ عليه السلام أنّه قال: «لَمَّا نَزَلَتْ دُعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي دِينَارٍ؟ قُلْتُ: لَا يَطِيقُونَهُ. قَالَ: كَمْ؟ قُلْتُ: حَبَّةٌ أَوْ شَعِيرَةٌ. قَالَ: إِنَّكَ لَزَهِيدٌ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ فَارْتَدَعُوا وَكَفُّوا. أَمَّا الْفَقِيرُ فَلَعَسَرَتْهُ، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَشَحَّهُ.

وقال عليّ عليه السلام: «إِنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ آيَةً مَا عَمِلَ بِهَا أَحَدٌ قَبْلِي، وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَحَدٌ بَعْدِي. كَانَ لِي دِينَارٌ فَبَعَثْتُهُ بِعَشْرَةِ دَرَاهِمٍ، فَكُنْتُ إِذَا نَاجَيْتُهُ تَصَدَّقْتُ بِدَرَاهِمٍ». وقال الكلبي: تَصَدَّقَ بِهِ فِي عَشْرِ كَلِمَاتٍ سَأَلَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وروي عنه عليه السلام أيضاً أنّه قال: «بِئْسَ خُفٌّ لَهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، لَمْ يَنْزِلْ فِي أَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَنْزِلْ فِي أَحَدٍ مِنْ بَعْدِي».

وعن ابن عمر: كَانَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثٌ، لَوْ كَانَتْ لِي وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ حَمْرِ النَّعَمِ: تَرْوِيحُهُ فَاطِمَةَ، وَإِعْطَاؤُهُ الرَايَةَ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَآيَةُ النَّجْوَى.

وعن مجاهد وقتادة: لَمَّا نَهَوْا عَنْ مَنَاجَاةِ حَتَّى يَتَصَدَّقُوا، لَمْ يَنَاجِهِ إِلَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، قَدَّمَ دِينَاراً فَتَصَدَّقْتُ بِهِ، ثُمَّ نَسَخَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ ذَلِكَ الْحُكْمَ بَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذَلِكَ التَّصَدَّقُ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لأنفسكم من الرِّبَا وَحُبِّ الْمَالِ،

لأنّ فيه أداء واجب وتحصيل ثواب ﴿وَأَطَهَّرُ﴾ وأدعى إلى نزاهة الباطن ونظافة الظاهر، الداعية إلى مجانبة المعاصي، كتقدّم الطهارة على الصلاة ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن لم يجد، حيث رخص له في المناجاة بلا تصدق.

﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ أخفتم الفقر يا أهل الميسرة من تقديم الصدقة؟ أو أخفتم تقديم الصدقات لما يعدكم الشيطان عليه من الفقر، حيث قال: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾^(١)؟ والهمزة للتوبيخ لهم على ترك الصدقة إشفاقاً من العيلة. وجمع «صدقات» لجمع المخاطبين، أو لكثرة التناجي.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتم به وشقّ عليكم ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخص لكم أن لا تفعلوه. وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه، لما رأى منهم ممّا قام مقام توبتهم. و«إذ» بمعنى الظرف، أو بمعنى «إن». ﴿فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فلا تفرطوا في أدائهما ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأوامر، فإنّ القيام بها كالجابر للتفريط في ذلك ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهراً وباطناً، من تياتكم وأعمالكم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ
وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكُذْبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ
سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾

روي: أَنَّهُ ﷺ كَانَ فِي حَجْرَةٍ مِنْ حَجَرَاتِهِ، فَقَالَ: «يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ قَلْبُهُ قَلْبُ جَبَّارٍ، وَيَنْظُرُ بَعَيْنَ شَيْطَانٍ». فَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَبْتِلِ الْمَنَافِقِ، وَكَانَ أَزْرَقَ. فَقَالَ ﷺ لَهُ: عَلَامَ تَشْتَمِنِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ؟ فَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا فَعَلَ. فَقَالَ ﷺ: فَعَلْتَ. فَانْطَلَقَ فَجَاءَ بِأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا بِاللَّهِ مَا سَبَّوْهُ. فَتَزَلَّتْ:

﴿أَنْتُمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ وَالْوَا ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ مِنْ مَنَافِقِي الْيَهُودِ ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ مِنَ الْيَهُودِ، لِأَنَّهُمْ لِنِفَاقِهِمْ مَذْبُوبُونَ بَيْنَ ذَلِكَ ﴿وَيَخْلِفُونَ عَلَى﴾ اللَّهِ ﴿الْكُذِبِ﴾ وَهُوَ ادِّعَاءُ الْإِسْلَامِ ﴿وَهُمْ يَخْلَفُونَ﴾ أَنَّ الْمُحْلُوفَ عَلَيْهِ كَذَبٌ، كَمَنْ يَحْلِفُ بِالْعَمُوسِ^(١). وَفِي هَذَا التَّقْيِيدِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْكُذِبَ يَعْمَ مَا يَعْلَمُ الْمَخْبِرُ عَدَمَ مُطَابَقَتِهِ وَمَا لَا يَعْلَمُ.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ نَوْعًا مِنَ الْعَذَابِ مُتَّفَاقًا ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فَتَمَرَّنُوا عَلَى سُوءِ الْعَمَلِ وَأَصْرُوا عَلَيْهِ.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أَيُّ: الَّتِي حَلَفُوا بِهَا ﴿جُنَّةً﴾ سِتْرَةً يَتَسَرَّوْنَ بِهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يَدْفَعُونَ بِهَا عَنْ أَنْفُسِهِمُ التَّهْمَةَ، وَوَقَايَةَ دُونَ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَصَدُّوا النَّاسَ فِي خِلَالِ أَمْنِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ عَنْ دِينِ اللَّهِ، بِتَثْبِيْطٍ مِنْ لِقَاوِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَتَضْعِيفِ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ ﴿قَلْبَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وَعِيدٌ ثَانٍ بِوَصْفِ آخِرِ لِعَذَابِهِمْ. وَقِيلَ: الْأَوَّلُ عَذَابُ الْقَبْرِ، وَهَذَا عَذَابُ الْآخِرَةِ.

لَنْ تَغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ

(١) اليمين العَمُوسُ أَيُّ: الْكَاذِبَةُ الَّتِي يَتَعَمَّدُهَا صَاحِبُهَا.

وَيَخْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ أَسْتَحْذَرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَاَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

روي: أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ قَالَ: لَنَنْصُرَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَأَنفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا. فقال سبحانه رَدًّا عَلَيْهِم:

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ قليلاً من الإغناء ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قد سبق مثله.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخْلِقُونَ لَهُ﴾ أي: الله تعالى على أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ قَائِلُونَ بِالْبَعْثِ ﴿كَمَا يَخْلِقُونَ لَكُمْ﴾ في الدُّنْيَا أَنَّهُمْ لَكُمْ ﴿وَيَخْسَبُونَ أَنََّّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من النِّفَعِ، لِأَنَّ تَمَكُّنَ النِّفَاقِ فِي نَفْسِهِمْ بَحِثٌ يَخِيلُ إِلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ أَنَّ الْإِيمَانَ الْكَاذِبَةَ تَرُوجُ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ، كَمَا تَرُوجُهُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ

الْكَاذِبُونَ﴾ البالغون الغاية في الكذب، حيث يكذبون مع عالم الغيب والشهادة، ويحلفون عليه.

وملخص معنى الآية: أنه ليس العجب من حلفهم لكم، فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر، وأن لهم نفعاً في ذلك دفعاً عن دمائهم، واستجرار فوائد دنيوية. ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة، مع عدم النفع والاضطرار إلى علم ما أنذرتهم الرسل. والمراد: وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومروهم^(١) عليه، وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باقي فيهم لا يضمحل، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾^(٢).

﴿اسْتَخَوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ استولى عليهم. من: حُذِثُ الايل وأخذتها إذا استوليت عليها وجمعتها. وهو مما جاء على الأصل، نحو: استصوب واستنوق. والمعنى: ملكهم الشيطان، لطاعتهم له في كل ما يريده منهم، حتى جعلهم رعيته وحزبه، كما قال: ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أن يذكروا الله أصلاً، لا بقلوبهم ولا بألسنتهم ﴿أُولَئِكَ جِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ جنوده وأتباعه ﴿أَلَا إِنَّ جِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم فوتوا على أنفسهم النعيم المؤبد، وعرضوها للعذاب المخلد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُخَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يخالفونهما في الحدود ويشاققونهما. وهم المنافقون. ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ في جملة من هو أذل خلق الله.

﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ في اللوح ﴿لَاغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ بالحجة والسيف، أو بأحدهما. وقرأ نافع وابن عامر: وَرُسُلِي بفتح الياء. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على نصر أنبيائه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلب عليه في مراده.

يروى أن المسلمين قالوا لما رأوا ما يفتح الله عليهم من القرى: ليفتحن الله

(١) مَرَن على الشيء: اعتاده وداومه.

(٢) الأنعام: ٢٨.

علينا الروم وفارس. فقال المنافقون: أَتَظُنُّونَ أَنَّ فِارِسَ وَالرُّومَ كَبَعَضِ الْقُرَى الَّتِي غَلِبْتُمْ عَلَيْهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

ثم قال سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ هذا من باب التخيل، خيّل أنّ من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين، أي: لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقّه أن يمتنع ولا يوجد بحال. مبالغة في النهي عنه، والزجر عن ملاسته، والتوصية بالتصلّب في مجانبه أعداء الله ومباعدتهم، والاحتراز من مخالطتهم ومعاشرتهم، فلا ينبغي أن يوادّوهم.

ثم زاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ ولو كان المحادّون أقرب الناس إليهم. ولا يكون شيء أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، بل هو الإخلاص بعينه.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين لم يوادّوهم ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أثبتّه فيها بما فعل بهم من اللطاف، فصار كال مكتوب فيها. وهو دليل على خروج العمل من مفهوم الإيمان، فإنّ جزء الثابت في القلب لا يكون إلّا ثابتاً فيه، وأعمال الجوارح لا تثبت فيه.

وعن أبي علي الفارسي: كتب في قلوبهم علامة الإيمان. ومعنى ذلك: أنّها سمة لمن يشاهدهم من الملائكة على أنّهم مؤمنون، كما أنّ قولهم في الكفار: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾^(١) معناه: علامة يعلم من شاهدها من الملائكة أنّه مطبوع على قلبه.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ وقوّاهم بلطف من عنده حيث به قلوبهم. ويجوز أن يكون الضمير للإيمان، أي: بروح من الإيمان، فإنّها سبب حياة القلوب. وقيل: قوّاهم بنور الحجج والبراهين حتّى اهتدوا للحقّ وعملوا به.

وقيل: قوّاهم بالقرآن الذي هو حياة القلوب من الجهل.

وقيل: أيدهم بجبرئيل في كثير من المواطن، ينصرهم ويدفع عنهم.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾

بخلوص طاعتهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما وعدهم من الثواب ﴿أَوَلَيْكَ جِزْبُ اللَّهِ﴾ جنده

وأنصار دينه، ودعاة خلقه ﴿أَلَا إِنَّ جِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بخير الدارين.

وقيل: إِنَّ الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة

ينذرهم بمجيء رسول الله إليهم، وكان ﷺ أخفى ذلك، فلما عوتب على ذلك

قال: أهلي بمكة أحببت أن أحفظهم بيد تكون لي عندهم.

وقال السدي: نزلت في عبد الله بن أبي وابنه عبيد الله بن عبد الله، وكان هذا

الابن عند النبي ﷺ، فشرب النبي ﷺ. فقال: أبق فضلة من شرابك اسقها أبي،

لعل الله يطهر قلبه. فأعطاه، فأتى بها أباه. فقال: ما هذا؟ فقال: بقية شراب رسول

الله ﷺ جئت بها لتشربها، لعل الله يطهر قلبك. فقال: هلاً جئتني ببول أمك؟

فرجع إلى النبي ﷺ فقال: اتذن لي في قتله. فقال: بل ترفق به.

فهرس الموضوعات

سورة ص (٣٨)

الموضوع	الصفحة
الآية: ١ - ٥	٥
الآية: ٦ - ٨	٨
الآية: ٩ - ١٥	١٠
الآية: ١٦ - ٢٠	١٣
الآية: ٢١ - ٢٦	١٨
الآية: ٢٧ - ٢٩	٢٤
الآية: ٣٠ - ٤٠	٢٦
الآية: ٤١ - ٤٤	٣٤
الآية: ٤٥ - ٤٨	٣٧
الآية: ٤٩ - ٦٤	٤٠
الآية: ٦٥ - ٨٥	٤٧
الآية: ٨٦ - ٨٨	٥١

سورة الزمر (٣٩)

الآية: ١ - ٥	٥٣
الآية: ٦	٥٦
الآية: ٧	٥٨
الآية: ٨ - ٩	٦٠
الآية: ١٠ - ١٦	٦٣
الآية: ١٧ - ٢٠	٦٧
الآية: ٢١ - ٢٢	٧٠
الآية: ٢٣ - ٢٤	٧٢
الآية: ٢٥ - ٢٨	٧٥
الآية: ٢٩	٧٦
الآية: ٣٠ - ٣٥	٧٨
الآية: ٣٦ - ٣٧	٨١

٦٣٤ زبدة التفاسير - ج ٦

٨٢	الآية: ٣٨-٤٢
٨٥	الآية: ٤٣-٤٤
٨٦	الآية: ٤٥-٤٦
٨٧	الآية: ٤٧-٤٨
٨٩	الآية: ٤٩-٥٢
٩١	الآية: ٥٣-٥٩
٩٦	الآية: ٦٠
٩٧	الآية: ٦١
٩٨	الآية: ٦٢-٦٣
٩٩	الآية: ٦٤-٦٦
١٠١	الآية: ٦٧
١٠٣	الآية: ٦٨-٧٠
١٠٥	الآية: ٧١-٧٥

سورة المؤمن (٤٠)

١١٢	الآية: ١-٣
١١٤	الآية: ٤-٦
١١٦	الآية: ٧-٩
١٢٠	الآية: ١٠-١٢
١٢٣	الآية: ١٣-١٧
١٢٦	الآية: ١٨-٢٠
١٢٩	الآية: ٢١-٢٢
١٣١	الآية: ٢٣-٢٨
١٣٥	الآية: ٢٩-٣٥
١٣٨	الآية: ٣٦-٤٠
١٤١	الآية: ٤١-٤٦
١٤٤	الآية: ٤٧-٥٢
١٤٦	الآية: ٥٣-٥٥
١٤٨	الآية: ٥٦-٦٠
١٥١	الآية: ٦١-٦٣
١٥٣	الآية: ٦٤-٦٨
١٥٥	الآية: ٦٩-٧٦

فهرس الموضوعات ٦٣٥

١٥٧.....	الآية: ٧٧.....
١٥٨.....	الآية: ٧٨.....
١٥٩.....	الآية: ٧٩ - ٨١.....
١٦١.....	الآية: ٨٢ - ٨٥.....

سورة فصلت (٤١)

١٦٥.....	الآية: ١ - ٧.....
١٦٨.....	الآية: ٨ - ١٠.....
١٧١.....	الآية: ١١ - ١٤.....
١٧٤.....	الآية: ١٥ - ١٨.....
١٧٦.....	الآية: ١٩ - ٢٤.....
١٧٨.....	الآية: ٢٥ - ٢٩.....
١٨٠.....	الآية: ٣٠ - ٣٦.....
١٨٣.....	الآية: ٣٧ - ٤٢.....
١٨٦.....	الآية: ٤٣.....
١٨٧.....	الآية: ٤٤.....
١٨٨.....	الآية: ٤٥ - ٤٦.....
١٨٩.....	الآية: ٤٧ - ٤٨.....
١٩١.....	الآية: ٤٩ - ٥٢.....
١٩٣.....	الآية: ٥٣ - ٥٤.....

سورة الشورى (٤٢)

١٩٨.....	الآية: ١ - ٦.....
٢٠٢.....	الآية: ٧ - ٩.....
٢٠٤.....	الآية: ١٠ - ١٢.....
٢٠٧.....	الآية: ١٣ - ١٥.....
٢١٠.....	الآية: ١٦ - ٢٠.....
٢١٣.....	الآية: ٢١ - ٢٣.....
٢١٩.....	الآية: ٢٤ - ٢٦.....
٢٢٢.....	الآية: ٢٧ - ٢٩.....
٢٢٥.....	الآية: ٣٠ - ٣٥.....
٢٢٧.....	الآية: ٣٦ - ٤٣.....

٦٣٦ زبدة التفسير - ج ٦

٢٣١.....	الآية: ٤٤-٤٨
٢٣٣.....	الآية: ٤٩-٥٠
٢٣٤.....	الآية: ٥١-٥٣

سورة الزخرف (٤٣)

٢٣٧.....	الآية: ١-٥
٢٤٠.....	الآية: ٦-١٤
٢٤٣.....	الآية: ١٥-٢٥
٢٤٨.....	الآية: ٢٦-٣٥
٢٥٢.....	الآية: ٣٦-٣٩
٢٥٣.....	الآية: ٤٠-٤٥
٢٥٧.....	الآية: ٤٦-٥٦
٢٦١.....	الآية: ٥٧-٦٢
٢٦٥.....	الآية: ٦٣-٦٦
٢٦٦.....	الآية: ٦٧-٧٣
٢٦٩.....	الآية: ٧٤-٨٠
٢٧١.....	الآية: ٨١-٨٩

سورة الدخان (٤٤)

٢٧٨.....	الآية: ١-١٦
٢٨٤.....	الآية: ١٧-٢٤
٢٨٦.....	الآية: ٢٥-٢٩
٢٨٨.....	الآية: ٣٠-٤٢
٢٩١.....	الآية: ٤٣-٥٠
٢٩٣.....	الآية: ٥١-٥٩

سورة الجاثية (٤٥)

٢٩٧.....	الآية: ١-٥
٢٩٩.....	الآية: ٦-١١
٣٠٢.....	الآية: ١٢-١٣
٣٠٣.....	الآية: ١٤-١٥
٣٠٤.....	الآية: ١٦-٢٠
٣٠٦.....	الآية: ٢١-٢٣

فهرس الموضوعات ٦٣٧

الآية: ٢٤ - ٢٦ ٣٠٨

الآية: ٢٧ - ٣٧ ٣١١

سورة الأحقاف (٤٦)

الآية: ١ - ٨ ٣١٦

الآية: ٩ ٣١٩

الآية: ١٠ ٣٢٠

الآية: ١١ - ١٢ ٣٢٢

الآية: ١٣ - ١٤ ٣٢٤

الآية: ١٥ - ٢٠ ٣٢٥

الآية: ٢١ - ٢٨ ٣٣٢

الآية: ٢٩ - ٣٢ ٣٣٦

الآية: ٣٣ - ٣٥ ٣٤١

سورة محمد ﷺ (٤٧)

الآية: ١ - ٣ ٣٤٦

الآية: ٤ - ٩ ٣٤٨

الآية: ١٠ - ١١ ٣٥١

الآية: ١٢ - ١٥ ٣٥٢

الآية: ١٦ - ١٩ ٣٥٦

الآية: ٢٠ - ٢٤ ٣٥٨

الآية: ٢٥ - ٣٥ ٣٦١

الآية: ٣٦ - ٣٨ ٣٦٦

سورة الفتح (٤٨)

الآية: ١ - ٧ ٣٧٠

الآية: ٨ - ١٠ ٣٧٦

الآية: ١١ - ١٤ ٣٧٨

الآية: ١٥ - ١٧ ٣٨١

الآية: ١٨ - ٢١ ٣٨٤

الآية: ٢٢ - ٢٤ ٣٩٧

الآية: ٢٥ - ٢٦ ٣٩٩

٦٣٨ زبدة التفاسير - ج ٦

..... الآية: ٢٧ - ٢٩ ٤٠٢

سورة الحجرات (٤٩)

..... الآية: ١ ٤٠٧
..... الآية: ٢ - ٥ ٤٠٩
..... الآية: ٦ - ٨ ٤١٧
..... الآية: ٩ - ١٠ ٤٢٢
..... الآية: ١١ - ١٢ ٤٢٥
..... الآية: ١٣ ٤٣٢
..... الآية: ١٤ - ١٨ ٤٣٥

سورة ق (٥٠)

..... الآية: ١ - ١١ ٤٤٢
..... الآية: ١٢ - ١٤ ٤٤٥
..... الآية: ١٥ - ١٨ ٤٤٦
..... الآية: ١٩ ٤٤٩
..... الآية: ٢٠ - ٢٢ ٤٥٠
..... الآية: ٢٣ - ٣٠ ٤٥٢
..... الآية: ٣١ - ٣٥ ٤٥٦
..... الآية: ٣٦ - ٤٥ ٤٥٩

سورة الذاريات (٥١)

..... الآية: ١ - ١٤ ٤٦٣
..... الآية: ١٥ - ٢٣ ٤٦٨
..... الآية: ٢٤ - ٣٧ ٤٧٣
..... الآية: ٣٨ - ٤٦ ٤٧٧
..... الآية: ٤٧ - ٥١ ٤٧٩
..... الآية: ٥٢ - ٦٠ ٤٨١

سورة الطور (٥٢)

..... الآية: ١ - ١٦ ٤٨٦
..... الآية: ١٧ - ٢٨ ٤٩٠

فهرس الموضوعات ٦٣٩

٤٩٤.....	الآية: ٢٩-٤٣
٤٩٧.....	الآية: ٤٤-٤٩

سورة النجم (٥٣)

٥٠١.....	الآية: ١-١٠
٥٠٥.....	الآية: ١١-١٨
٥٠٩.....	الآية: ١٩-٢٣
٥١١.....	الآية: ٢٤-٢٨
٥١٣.....	الآية: ٢٩-٣٠
٥١٤.....	الآية: ٣١-٣٢
٥١٦.....	الآية: ٣٣-٥٤
٥٢١.....	الآية: ٥٥-٦٢

سورة القمر (٥٤)

٥٢٣.....	الآية: ١-٨
٥٢٧.....	الآية: ٩-١٦
٥٢٩.....	الآية: ١٧-٢١
٥٣٠.....	الآية: ٢٢-٣١
٥٣٣.....	الآية: ٣٢-٤٠
٥٣٤.....	الآية: ٤١-٤٦
٥٣٥.....	الآية: ٤٧-٥٥

سورة الرحمن (٥٥)

٥٤٠.....	الآية: ١-١٣
٥٤٤.....	الآية: ١٤-١٨
٥٤٥.....	الآية: ١٩-٢٥
٥٤٧.....	الآية: ٢٦-٣٠
٥٥٠.....	الآية: ٣١-٣٦
٥٥٣.....	الآية: ٣٧-٤٥
٥٥٦.....	الآية: ٤٦-٦١
٥٥٩.....	الآية: ٦٢-٧٨

سورة الواقعة (٥٦)

٥٦٤.....	الآية: ١ - ٦.....
٥٦٦.....	الآية: ٧ - ٢٦.....
٥٧٠.....	الآية: ٢٧ - ٤٠.....
٥٧٥.....	الآية: ٤١ - ٥٦.....
٥٧٧.....	الآية: ٥٧ - ٦٧.....
٥٧٩.....	الآية: ٦٨ - ٧٠.....
٥٨٠.....	الآية: ٧١ - ٧٣.....
٥٨٢.....	الآية: ٧٤ - ٨٠.....
٥٨٤.....	الآية: ٨١ - ٨٧.....
٥٨٦.....	الآية: ٨٨ - ٩٦.....

سورة الحديد (٥٧)

٥٨٨.....	الآية: ١ - ٦.....
٥٩٢.....	الآية: ٧ - ١٥.....
٥٩٨.....	الآية: ١٦ - ١٩.....
٦٠١.....	الآية: ٢٠ - ٢١.....
٦٠٣.....	الآية: ٢٢ - ٢٤.....
٦٠٦.....	الآية: ٢٥ - ٢٩.....

سورة المجادلة (٥٨)

٦١٣.....	الآية: ١ - ٤.....
٦١٨.....	الآية: ٥ - ٦.....
٦١٩.....	الآية: ٧.....
٦٢١.....	الآية: ٨ - ١٠.....
٦٢٣.....	الآية: ١١.....
٦٢٥.....	الآية: ١٢ - ١٣.....
٦٢٧.....	الآية: ١٤ - ١٦.....
٦٢٩.....	الآية: ١٧ - ٢٢.....